الوجيز

من التحرير و التنوير

للشيخ مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور

(1879م- 1973م / 1296هـ- 1393هـ)

الجزء الخامس

(يونس – هود – يوسف - الرعد)

محمد بن عبد القادر الزغواني

2023م / 1444هـ

بسم الله الرحمان الرحيم

الإهداء

إلى أئمتنا و دعاتنا وطلبة العلوم الشرعيّة

إلى كلّ العاملين في مجال الدعوة،

السالكين سبل الهداية، والمبشّرين بها بين النّاس.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يونس

سمّيت في المصاحف وفي كتب التفسير والسنّة (سورة يونس) لأنّها انفردت بذكر خصوصيّة لقوم يونس، أنّهم آمنوا بعد أن توعّدهم رسولهم بنزول العذاب فعفا الله عنهم لمّا آمنوا. وذلك في قوله تعالى { فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [98]. وتلك الخصوصيّة كرامة ليونس- عليه السلام - وليس فيها ذكر ليونس غير ذلك. وقد ذكر يونس في سورة الصافات بأوسع ممّا في هذه السورة ولكن وجه التسمية لا يوجبها.

والأظهر عندي أنّها أضيفت إلى يونس تمييزا لها عن أخواتها الأربع المفتتحة ب {**ألر**}. ولذلك أضيفت كلّ واحدة منها إلى نبيء أو قوم نبيء عوضا عن أن يقال: آلر الأولى وألر الثانية. وهكذا فإن اشتهار السور بأسمائها أول ما يشيع بين المسلمين بأولى الكلمات التي تقع فيها وخاصة إذا كانت فواتحها حروفا مقطّعة فكانوا يدعون تلك السور بآل حم، وآل ألر ونحو ذلك.

وهي **مكيّة في قول الجمهور**. وهو المروي عن ابن عباس في الأصح عنه. وفي (الإتقان) عن عطاء عنه أنّها مدنيّة. وفي (القرطبي) عن ابن عباس أنّ ثلاث آيات منها مدنية وهي قوله تعالى { فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ - إلى قوله - حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ }[95 - 96]. وفي ابن عطيّة عن مقاتل: إلّا آيتين مدنيتين. وفيه عن الكلبي أن آية واحدة نزلت بالمدينة.

وأحسب أنّ هذه الأقوال ناشئة عن ظنّ أنّ ما في القرآن من مجادلة مع أهل الكتاب لم ينزل إلّا بالمدينة، فإنّ كان كذلك فظنّ هؤلاء مخطئ. وسيأتي التنبيه عليه.

عدد آيها مائة وتسع آيات (109) في عدّ أكثر الأمصار، ومائة وعشر (110) في عدّ أهل الشام.

وهي السورة الحادية والخمسون (51) في ترتيب نزول السور. نزلت بعد سورة بني إسرائيل وقبل سورة هود. وأحسب أنّها نزلت سنة إحدى عشرة بعد البعثة لما سيأتي عند قوله تعالى { وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا } [21].

أغراض هذه السورة

ابتدئت بمقصد إثبات رسالة محمد ﷺ بدلالة عجز المشركين عن معارضة القرآن، دلالة نبّه عليها بأسلوب تعريضي دقيق بني على الكناية بتهجية الحروف المقطّعة في أوّل السورة كما تقدّم في مفتتح سورة البقرة. ولذلك أتبعت تلك الحروف بقوله تعالى {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} [1] إشارة إلى أنّ إعجازه لهم هو الدليل على أنّه من عند الله. وقد جاء التصريح بما كني عنه هنا في قوله { قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ } [38].

وأتبع بإثبات رسالة محمد ﷺ وإبطال إحالة المشركين أن يرسل الله رسولا بشرا.

وانتقل من ذلك إلى إثبات انفراد الله تعالى بالإلهية بدلالة أنّه خالق العالم ومدبّره، فأفضى ذلك إلى إبطال أن يكون لله شركاء في إلهيّته، وإلى إبطال معاذير المشركين بأنّ أصنامهم شفعاء عند الله.

وأتبع ذلك بإثبات الحشر والجزاء. فذلك إبطال أصول الشرك.

وتخلّل ذلك بذكر دلائل من المخلوقات، وبيان حكمة الجزاء، وصفة الجزاء، وما في دلائل المخلوقات من حكم ومنافع للنّاس.

ووعيد منكري البعث المعرضين عن آيات الله، وبضدّ أولئك وعد الذين آمنوا. فكان معظم هذه السورة يدور حول محور تقرير هذه الأصول.

فمن ذلك التنبيه على أنّ إمهال الله تعالى الكافرين دون تعجيل العذاب هو حكمة منه.

ومن ذلك التذكير بما حلّ بأهل القرون الماضية لمّا أشركوا وكذّبوا الرسل.

والاعتبار بما خلق الله للنّاس من مواهب القدرة على السير في البر والبحر، وما في أحوال السير في البحر من الألطاف.

وضرب المثل للدنيا وبهجتها وزوالها، وأنّ الآخرة هي دار السلام.

واختلاف أحوال المؤمنين والكافرين في الآخرة، وتبرّؤ الآلهة الباطلة من عَبدتها.

وإبطال إلهيّة غير الله تعالى، بدليل أنّها لا تغني عن النّاس شيئا في الدنيا ولا في الآخرة.

وإثبات أنّ القرآن منزل من الله، وأنّ الدلائل على بطلان أن يكون مفترى واضحة.

وتحدّي المشركين بأن يأتوا بسورة مثله، ولكن الضلالة أعمت أبصار المعاندين.

وإنذار المشركين بعواقب ما حلّ بالأمم التي كذّبت بالرسل، وأنّهم إن حلّ بهم العذاب لا ينفعهم إيمانهم، وأنّ ذلك لم يلحق قوم يونس لمصادفة مبادرتهم بالإيمان قبل حلول العذاب.

وتوبيخ المشركين على ما حرّموه ممّا أحل الله من الرزق.

وإثبات عموم العلم لله تعالى.

وتبشير أولياء الله في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وتسلية الرسول عما يقوله الكافرون، وأنّه لو شاء لآمن من في الأرض كلّهم.
ثم تخلّص إلى الاعتبار بالرّسل السابقين نوح ورسل من بعده ثم موسى وهارون.
ثم استشهد على صدق رسالة محمد ﷺ بشهادة أهل الكتاب.
وختمت السورة بتلقين الرسول عليه الصلاة والسلام ممّا يعذر به لأهل الشك في دين الإسلام، وأنّ اهتداء من اهتدى لنفسه وضلال من ضل عليها، وأن الله سيحكم بينه وبين معانديه.

{ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ } [1]

{ الر} تقدّم القول في الحروف الواقعة في فواتح بعض السور في أوّل سورة البقرة، فهي بمنزلة الأعداد المسرودة، لا محل لها من الإعراب، ولا ينطق بها إلّا على حال السكت.

{ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ }

اسم الإشارة يجوز أن يكون مرادا به جميع آي القرآن التي نزلت قبل هذه السورة باعتبار حضور تلك الآيات في أذهان النّاس من المؤمنين وغيرهم.

فالمقصود من الإشارة إمّا الحثّ على النظر في آيات القرآن، ليتبيّن لهم أنّه من عند الله ويعلموا صدق من جاءهم به. وإمّا إقنّاعهم من الآيات الدالة على صدق النبيء ﷺ بآيات الكتاب الحكيم، أي ما هو آية واحدة بل آيات كثيرة، فإنّ الإعجاز حاصل بكل سورة منه. ولأنّه اشتمل على الحقائق السامية والهدى إلى الحقّ والحكمة. فرجل أمّيّ ينشأ في أمّة جاهلة يجيء بمثل هذا الهدى والحكمة لا يكون إلّا موحى إليه بوحي إلهي. كما دلّ عليه قوله {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} [العنكبوت:48]

ويجوز أن تجعل الإشارة بـ {تِلْكَ} إلى حروف {ألر} لأنّ المختار في الحروف المقطّعة في فواتح السور أنّ المقصود من تعدادها التحدي بالاعجاز، فهي بمنزلة التهجّي للمتعلّم. وهذا لتسجيل عجزهم عن معارضته، بأنّ آيات الكتاب الحكيم كلّها من جنس حروف كلامهم، فما لكم لا تستطيعون معارضتها بمثلها إنّ كنتم تكذّبون بأنّ الكتاب منزل من عند الله.

الكتاب، القرآن. التعريف للعهد، ويجوز جعله دالا على معنى الكمال في الجنس، كما تقول: أنتَ الرجل.

الحكيم، وصف إما بمعنى فاعل، أي الحاكم على الكتب بتمييز صحيحها من محرفها، مثل قوله {وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} [البقرة: 213].

وإمّا بمعنى مُفعَل (بفتح العين)، أي محكُم، مثل عَتِيد، بمعنى مُعَد.

وإمّا بمعنى ذي الحكمة، لاشتماله على الحكمة والحق والحقائق العالية.

{ **الْحَكِيمِ** } اختيار هذا الوصف من بين أوصاف الكمال الثابتة للقرآن، لأنّ لهذا الوصف مزيد اختصاص بمقام إظهار الإعجاز من جهة المعنى بعد إظهار الإعجاز من جهة اللفظ، ولمّا اشتملت عليه السورة من براهين التوحيد وإبطال الشرك.

{ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ } [2]

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، وجاءت على هذا النظم الجامع بين بيان الداعي، وبين إنكار السبب الذي دعا إليه وتجهيل المتسبّبين فيه. ولك أن تجعله استئنافا ابتدائيا، لأنّه مبدأ الغرض الذي جاءت له السورة، وهو الاستدلال على صدق الرّسول وإثبات البعث.

فالهمزة للاستفهام المستعمل في الإنكار، أي كيف يتعجّبون من ذلك تعجّب إحالة.

{ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً** } لزيادة الدلالة على استقرار هذا التعجّب فيهم، لأنّ أصل اللام أن تفيد الملك، ويستعار ذلك للتمكّن، أي لتمكّن العجب من نفوسهم.

{ **أَنْ أَوْحَيْنَا** } اسم كان، وجيء فيه بـ(أَنْ) والفعل بصيغة الماضي كي يفيد الاستقرار، تحقيقا لوقوع الوحي المتعجّب منه وتجدّده، وذلك ما يزيدهم كمدا.

العجب، مصدر عجِب، إذا عدّ الشيء خارجا عن المألوف، نادر الحصول. ولمّا كان التعجّب مبدأ للتكذيب وهم قد كذبوا بالوحي إليه ولم يقتصروا على كونه عجيبا جاء الإنكار عليهم بإنكار تعجّبهم من الإيحاء إلى رجل من البشر.

ويجوز أن يكون العجب كناية عن إحالة الوقوع، كما في قوله تعالى { قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [هود: 72، 73].

{ **النَّاسَ** } على طائفة من البشر، والمراد المشركون من أهل مكّة. عن ابن عبّاس:" أنكرت طائفة من العرب رسالة محمد ﷺ فقالوا: الله أعظم من أن يكون له رسول بشرا، فأنزل الله تعالى {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ } ".

{ **أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ** } تفسيريّة لفعل {أَوْحَيْنَا}، و{النَّاسَ} الثاني يعمّ جميع البشر الذين يمكن إنذارهم، فهو عموم عرفي. وحذف المنذر به للتهويل، ولأنّه يعلم حاصله من مقابله {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا}.

{ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ }

القدم، اسم لما تقدّم وسلف، فيكون في الخير والفضل وفي ضدّه. و{ **قَدَمَ صِدْقٍ** } أي قدم خير.

الصدق، موافقة الشيء لاعتقاد المعتقد، واشتهر في مطابقة الخبر. ويضاف شيء إلى { صِدْقٍ } فيفيد مصادفته للمأمول منه المرضي، وأنّه لا يخيب ظنّ آمل كقوله { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ } [90] **{ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ }**.

قرأه الجمهور {لسِحْر} (بكسر السين وسكون الحاء) على أنّ المراد به الحاصل بالمصدر، أي أنّ هذا الكلام كلام السحر، كلام يُسحر به. وقرأه ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي {لَسَاحِرٌ} فالإشارة إلى النبيء صلى الله عليه وسلم، وإن وصفهم إياه بالسحر ينبئ بأنهم كذّبوا بكونه من عند الله ولم يستطيعوا أن يدّعوه هذيانا وباطلا فهرعوا إلى ادّعائه سحرا. وهذا من عجزهم عن الطعن في القرآن بمطاعن في لفظه ومعانيه.

السحر، تخييل ما ليس بكائن كائنا. وقد تقدّم عند قوله تعالى {يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} [البقرة:102].

المبين، اسم فاعل من أبان الذي هو بمعنى بان، أي ظهر. أي سحر واضح ظاهر.

{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ }[3]

استئناف ابتدائي للاستدلال على تفرد الله تعالى بالإلهيّة. ذلك أنّ أقوى شيء بعث المشركين على ادعاء أنّ ما جاء به النبيء سحر هو أنّه أبطل الشركاء لله في الإلهيّة ونفاها عن إلهتهم التي أشركوا بها فقالوا {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: 5] فلا جرم أن أعقب إنكار إحالتهم ذلك بإقامة الدليل على ثبوته.

والخطاب للمشركين، ولذلك أكّد الخبر بحرف التوكيد. وقد مضى القول في نظير صدر هذه الآية في قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }[الأعراف:54].

{ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ } في موضع الحال من اسم الجلالة، أو خبر ثان عن {رَبَّكُمُ }

التدبير، النظر في عواقب المقدّرات وعوائقها لقصد إيقاعها تامة فيما تُقصد له، محمودة العاقبة. وتدبير الله الأمور عبارة عن تمام العلم بما يخلقها عليه، لأنّ لفظ (التدبير) هو أوفى الألفاظ اللغوية بتقريب إتقان الخلق.

الأمر، جنس يعمّ جميع الشؤون والأحوال في العالم.

وفي إجراء هذه الصفات على الله تعالى تعريض بالردّ على المشركين. فبعد أن وصف الإله الحقّ بما هو منتف عن إلهتهم، نفي عنها وصف الشفاعة عند الله وحماية المغضوب عليهم منه.

{ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ } احتراس لإثبات شفاعة محمد ﷺ بإذن الله، قال تعالى {وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} .

الشفاعة، تقدّمت عند قوله تعالى {وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} [البقرة:48]، وكذلك **الشفيع** تقدّم عند قوله {فَهَلْ لَنَا

مِنْ شُفَعَاءَ} [الأعراف:53].

{ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ } ابتدائية، فذلكة للجمل التي قبلها ونتيجة لها. والإتيان في صدرها باسم الإشارة لتمييزه أكمل تمييز، لأنّهم امتروا في صفة الإلهية وضلوا فيها ضلالا مبينا، فكانوا أحرياء بالإيقاظ بطريق اسم الإشارة، وللتنبيه على أنّ المشار إليه حقيق بما سيذكر بعد اسم الإشارة من حيث إنّه اتصف بتلك الأوصاف التي أشير إليه من أجلها، فإن خالق العوالم بغاية الإتقان والمقدرة ومالك أمرها ومدبّر شؤونها والمتصرّف المطلق مستحق للعبادة.

والمقصود من العبادة العبادة الحقّ التي لا يشرَك معه فيها غيره، بقرينة تفريع الأمر بها على الصفات المنفرد بها الله دون معبوداتهم.

{ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } التفات من الغيبة، وهي ابتدائية للتقريع. فالاستفهام إنكار لانتفاء تذكّرهم إذ أشركوا معه غيره ولم يتذكّروا في أنه المنفرد بخلق العوالم وبملكها وبتدبير أحوالها.

التذكّر: التأمّل. فهو قريب من التفكّر، إلّا أنّ التذكّر لمّا كان مشتقا من مادة الذكر التي هي في الأصل جريان اللفظ على اللسان، والتي يعبّر بها أيضا عن خطور المعلوم في الذهن بعد سهوه وغيبته عنه، كان مشعرا بأنّه حركة الذهن في معلومات متقرّرة فيه من قبل. وللإشارة إلى أنّ الاستدلال على وحدانية الله تعالى قد تقرّر في النفوس بالفطرة.

{ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ }[4]

وقع أمرهم بعبادته عقب ذكر الجزاء، إنذارا وتبشيرا، فالجملة كالدليل على وجوب عبادته، وهي بمنزلة النتيجة الناشئة عن إثبات خلقه السماوات والأرض، لأنّ الذي خلق مثل تلك العوالم من غير سابق وجود لا يعجزه أن يعيد بعض الموجودات الكائنة في تلك العوالم خلقا ثانيا. وقد تضمنت هذه الآية إثبات الحشر الذي أنكروه وكذّبوا النبيء ﷺ لأجله.

{ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ } في تقديم المجرور إفادة القصر، أي لا إلى غيره، قطع لمطامع بعضهم القائلين في آلهتهم {هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [18]، يريدون أنّهم شفعاء على تسليم وقوع البعث للجزاء.

المرجع، مصدر ميمي بمعنى الرجوع. وقد تقدّم في قوله { إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً } [العقود:105].

{ وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً } مفعول مطلق توكيد لمضمون الجملة المساوية له {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ}. والتقدير، وعدكم الله وعدا حقا.

{ **إِنَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** } واقعة موقع الدليل على وقوع البعث وإمكانه، بأنّه قد ابتدأ خلق النّاس، وابتداء خلقهم يدلّ على إمكان إعادة خلقهم بعد العدم.

{ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ** } إبداء لحكمة البعث وهي الجزاء على الأعمال المقترفة في الحياة الدنيا. إذ لو أرسل النّاس على أعمالهم بغير جزاء على الحسن والقبيح لاستوى المحسن والمسيء، وربما كان بعض المسيئين في هذه الدنيا أحسن فيها حالا من المحسنين. فكان من الحكمة أن يلقى كل عامل جزاء عمله. ولم يكن هذا العالم صالحا لإظهار ذلك، لأنّه وضع نظامه على قاعدة الكون والفساد، قابلا لوقوع ما يخالف الحقّ، ولصرف الخيرات عن الصالحين وانهيالها على المفسدين والعكس، لأسباب وآثار هي أوفق بالحياة المقرّرة في هذا العالم، فكانت الحكمة قاضية بوجود عالم آخر متمحّض للكون والبقاء وموضوعا فيه كل صنف فيما يليق به لا يعدوه إلى غيره، إذ لا قبل فيه لتصرفات وتسببات تخالف الحقّ والاستحقاق.

وقدم جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات لشرفه ولياقته بذلك العالم.

القسط، العدل. وهو التسوية بين شيئين في صفة، والجزاء بما يساوي المجزى عليه. فتفيد (الباء) أنّهم يجزون بما يعادل أعمالهم الصالحة، فيكون جزاؤهم صلاحا هنالك وهو غاية النعيم، وأنّ ذلك الجزاء مكافأة على قسطهم في أعمالهم.

وإنّما خصّ بذلك جزاء المؤمنين مع أنّ الجزاء كله عدل، بل ربّما كانت الزيادة في ثواب المؤمنين فضلا زائدا على العدل لأمرين:

أحدهما، تأنيس المؤمنين وإكرامهم بأنّ جزاءهم قد استحقّوه بما عملوا، كقوله {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل: 32]. ومن أعظم الكرم أن يوهم الكريم أنّ ما تفضل به على المكرم هو حقّه وأن لا فضل له فيه.

الثاني، الإشارة إلى أن جزاء الكافرين دون ما يقتضيه العدل، ففيه تفضّل بضرب من التخفيف لأنّهم لو جوزوا على قدر جرمهم لكان عذابهم أشد، ولأجل هذا خولف الأسلوب في ذكر جزاء الذين كفروا فجاء صريحا بما يعم أحوال العذاب.

{ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** } استئناف بياني، لأنّه لمّا ورد ذكر جزاء المؤمنين على أنّه العلّة لرجوع الجميع إليه ولم يذكر في العلة ما هو جزاء الجميع، لا جرم يتشوّف السامع إلى معرفة جزاء الكافرين، فجاء الاستئناف للإعلام بذلك.

ونكتة تغيير الأسلوب، حيث لم يعطف جزاء الكافرين على جزاء المؤمنين فيقال: ويجزى الذين كفروا بعذاب، هو للإشارة إلى الاهتمام بجزاء المؤمنين الصالحين وأنّه الذي يبادر بالإعلام به وأنّ جزاء الكافرين جدير بالإعراض عن ذكره لولا سؤال السامعين.

شراب الحميم، تقدّم في قوله تعالى { لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [الأنعام:70].
وخصّ الشراب من الحميم بالذكر من بين أنواع العذاب الأليم لأنه أكره أنواع العذاب في مألوف النفوس.
{ **بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** } الباء للعوض.

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [5]

هذا استدلال آخر على انفراده تعالى بالتصرّف في المخلوقات، وهذا لون آخر من الاستدلال على الإلهيّة ممزوج بالامتنان على المحجوجين به، لأنّ الدليل السابق كان متضمّنا لعظيم أمر الخلق وسعة العلم والقدرة بذكر أشياء ليس للمخاطبين حظ في التمتّع بها. وهذا الدليل قد تضمّن أشياء يأخذ المخاطبون بحظ عظيم من التمتّع بها وهو خلق الشمس والقمر على صورتهما وتقدير تنقلاتهما تقديرا مضبوطا ألهم الله البشر للانتفاع به في شؤون حياتهم.

فجعل الشمس ضياء لانتفاع الناس بضيائها في مشاهدة ما به قوام أعمال حياتهم في أوقات أشغالهم. وجعل القمر نورا للانتفاع بنوره انتفاعا مناسبا للحاجة التي قد تعرض إلى طلب رؤية الأشياء في وقت الظلمة.

الضياء، النور الساطع القوي، لأنّه يضيء للرائي. وهو اسم مشتق من الضوء، وهو النور الذي يوضح الأشياء، فالضياء أقوى من الضوء.

النور، الشعاع، وهو مشتق من اسم النّار، وهو أعمّ من الضياء، يصدق على الشعاع الضعيف والشعاع القوي، فضياء الشمس نور ونور القمر ليس بضياء. هذا هو الأصل في إطلاق هذه الأسماء، ولكن يكثر في كلام العرب إطلاق بعض هذه الكلمات في موضع بعض آخر بحيث يعسر انضباطه. ولمّا جعل النور في مقابلة الضياء تعيّن أن المراد به نور ما.

{ **وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ** } وهي مراتب نور القمر في القوّة والضعف. فالنور في كل منزلة له قدر غير قدره الذي في منزلة أخرى.

المنازل، جمع منزل، وهو مكان النزول. والمراد بها هنا المواقع التي يظهر القمر في جهتها كل ليلة من الشهر. وهي ثمان وعشرون منزلة على عدد ليالي الشهر القمري. وإطلاق اسم المنازل عليها مجاز بالمشابهة، وإنّما هي سموت يلوح للنّاس القمر كلّ ليلة في سمت منها، كأنّه ينزل بها. وقد رصدها البشر فوجدوها لا تختلف. وعلم المهتدون منهم أنّها ما وجدت على ذلك النظام إلّا بصنع الخالق الحكيم.

وهذه المنازل أمارتها أنجم مجتمعة على شكل لا يختلف، فوضع العلماء السابقون لها أسماء وهي: (العَوَّاء،

السِّمَاك الاعْزل، الغَفْر، الزُّبَاني، الاكليل، القَلْب، الشَّوْلَة، النَعَائم، البَلْدَة، سَعْد الذَّابِح، سَعْد بَلَع، سَعْد السُّعود، سَعْد الأخْبِيَة، الفَرْغ الأعلى، الفَرْغ الأسفل، الحُوت، الشَّرَطَانِ، البُطَيْن، الثُّرَيَا، الدَّبَران، الهَقْعَة، الهَنْعَة، ذِرَاع الأسَد، النَّثْرَة، الطَّرْف، الجَبْهَة، الزُّبْرَة، الصَّرْفَة).

{ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } أنبأنا الله بعلة تقديره القمر منازل، بأنّها معرفة النّاس عدد السنين والحساب.

الحساب، مصدر حسب بمعنى عدّ. وهو معطوف على {عَدَدَ} ، أي ولتعلموا الحساب. والمراد به حساب الأيام والأشهر، لأنّ حساب السنين قد ذكر بخصوصه.

{ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ } مستأنفة كالنتيجة للجملة السابقة كلّها لأنّه لما أخبر بأنّه الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وذكر حكمة بعض ذلك، أفضى إلى الغرض من ذكره وهو التنبيه إلى ما فيها من الحكمة ليستدل بذلك على أنّ خالقهما فاعل مختار حكيم ليستفيق المشركون من غفلتهم عن تلك الحكم، كما قال تعالى في هذه السورة { وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ }

{ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } هذه الجملة مستأنفة ابتدائية مسوقة للامتنان بالنعمة، ولتسجيل المؤاخذة على الذين لم يهتدوا بهذه الدلائل إلى ما تحتوي عليه من البيان. فعلى قراءة {نفصّل} بالنون وهي لنافع والجمهور ورواية عن ابن كثير ففي ضمير صاحب الحال التفات، وعلى قراءة {يُفَصِّلُ } بالتحتية وهي لابن كثير في المشهور عنه وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب أمرها ظاهر.

التفصيل، التبيين، لأنّ التبيين يأتي على فصول الشيء كلّها. والإتيان بالفعل المضارع لإفادة التكرار.

{ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }، أي الذين من شأنهم العلم، لما يؤذن به المضارع من تجدّد العلم، وإنّما يتجدّد لمن هو ديدنه ودأبه، فإن العلماء أهل العقول الراجحة هم أهل الانتفاع بالأدلة والبراهين.

{ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ } [6]

استدلال آخر على انفراد الله تعالى بالخلق والتقدير. وهو استدلال بأحوال الضوء والظلمة وتعاقب الليل والنّهار وفي ذلك عبرة عظيمة. وهو أعمّ من الدليل الأوّل لشموله ما هو أكثر من خلق الشمس والقمر ومن خلق الليل والنهار، ومن كلّ ما في الأرض والسماء ممّا تبلغ إليه معرفة النّاس في مختلف العصور وعلى تفاوت مقادير الاستدلال من عقولهم.

{ إِنَّ } التأكيد لأجل تنزيل المخاطبين به الذين لم يهتدوا بتلك الدلائل إلى التوحيد، منزلة من ينكر أنّ في ذلك آيات على الوحدانيّة، بعدم جريهم على موجب العلم.

وتقدّم القول في شبيهة هذه الآية وهو قوله {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْر } [البقرة:164] وفي خواتم سورة آل عمران [190]

{ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ } وفي آية البقرة {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} وفي آية آل عمران {لِأُولِي الْأَلْبَابِ}، لأنّ السياق هنا تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بالآيات، ليعلموا أنّ بعدهم عن التقوى هو سبب حرمانهم من الانتفاع بالآيات، وأنّ نفعها حاصل للذين يتّقون، أي يحذرون الضلال. فالمتّقون هم المتصفون باتّقاء ما يوقع في الخسران، فيبعثهم على تطلّب أسباب النجاح فيتوجه الفكر إلى النظر والاستدلال بالدلائل.

{ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ [7] أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [8]

هذا استئناف وعيد للذين لم يؤمنوا بالبعث ولا فكّروا في الحياة الآخرة، ولم ينظروا في الآيات. إشارة إلى أنّ هؤلاء لا تنفعهم الأدلة وإنّما ينتفع بها الذين يعلمون ويتّقون، وأمّا هؤلاء فهم سادرون في غلوائهم حتى يلاقوا العذاب.

الرجاء، ظنّ وقوع الشيء من غير تقييد كون المظنون محبوبا، وإن كان ذلك كثيرا في كلامهم لكنّه ليس بمتعيّن. فمعنى **{ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا }** لا يظنّونه ولا يتوقّعونه.

{ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا } أنّهم لم يُعملوا النظر في حياة أخرى أرقى وأبقى، لأنّ الرضا بالحياة الدنيا والاقتناع بأنّها كافية يصرف النظر عن أدلة الحياة الآخرة، وأهل الهدى يرون الحياة الدنيا حياة ناقصة فيشعرون بتطلّب حياة تكون أصفى من أكدارها، فلا يلبثون أن تطّلع لهم أدلّة وجودها. وناهيك بإخبار الصادق بها ونصب الأدلة على تعين حصولها، فلهذا جعل الرضى بالحياة الدنيا مذمّة وملقيا في مهواة الخسران.

وليس ذلك بمقتض الإعراض عن الحياة الدنيا، فإنّ الله أنعم على عباده بنعم كثيرة فيها، وجب الاعتراف بفضله بها وشكره عليها والتعرّف بها إلى مراتب أعلى، هي مراتب حياة أخرى، والتزوّد لها.

الاطمئنان، السكون يكون في الجسد وفي النفس وهو الأكثر، قال تعالى { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ } .

{ اطْمَأَنُّوا بِهَا } سكنت أنفسهم وصرفوا هممهم في تحصيل منافعها ولم يسعوا لتحصيل ما ينفع في الحياة الآخرة. لأنّ السكون عند الشيء يقتضي عدم التحرّك لغيره.

{ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ } هم عين الذين لا يرجون اللقاء، ولكن أعيد الموصول للاهتمام بالصلة والإيماء إلى أنّها وحدها كافية في استحقاق ما سيذكر بعدها من الخبر. وإنّما لم يعد الموصول في قوله

{وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا} لأنّ الرضى بالحياة الدنيا من تكملة معنى {إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا}.

الغفلة، إهمال النظر في الآيات أصلا، بقرينة المقام الدال على الدوام، وبتقديم المجرور. مما يدل مجموعه على أن غفلتهم عن آيات الله دأب لهم وسجيّة، وأنّهم يتعمّدونها، فتؤول إلى معنى الإعراض عن آيات الله وإباء النظر فيها عنادا ومكابرة. وليس المراد من تعرض له الغفلة عن بعض الآيات في بعض الأوقات.

{ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }

المأوى، اسم مكان الإيواء، أي الرجوع إلى مصيرهم ومرجعهم.

{ بِمَا كَسَبُوا } للإيماء إلى علّة الحكم، أي أن مكسوبهم سبّب في مصيرهم إلى النّار.

{ كَانُوا } للدلالة على أنّ هذا المكسوب ديدنهم. والإتيان بالمضارع **{ يَكْسِبُونَ }** لتأكيد التكرير.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ [9] **دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }** [10]

جاءت هذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا لتكون أحوال المؤمنين مستقلّة بالذكر غير تابعة في اللفظ لأحوال الكافرين، وهذا من طرق الاهتمام بالخبر. ومناسبة ذكرها مقابلة أحوال الذين يكذّبون بلقاء الله بأضدادها تنويها بأهلها وإغاضة للكافرين.

الهداية، الإرشاد على المقصد النافع والدلالة عليه. فمعنى **{ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ }** يرشدهم إلى ما فيه خيرهم. والمقصود، الإرشاد التكويني، أي يخلق في نفوسهم المعرفة بالأعمال النافعة وتسهيل الإكثار منها. وأمّا الإرشاد الذي هو الدلالة بالقول والتعليم فالله يخاطب به المؤمنين والكافرين.

{ بِإِيمَانِهِمْ } الباء للسببيّة، بحيث إن الإيمان يكون سببا في الهداية. وفي الحديث الذي رواه الترمذي: " اتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله".

{ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } خبر ثان لذكر ما يحصل لهم من النعيم في الآخرة بسبب هدايتهم الحاصلة لهم في الدنيا. وتقدّم القول في نظيره في [البقرة :25].

{ مِنْ تَحْتِهِمُ } من تحت منازلهم.

النعيم، تقدّم في قوله تعالى **{ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ }** [براءة:21]

{ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ }

الدعوى، هنا الدعاء. يقال: دعوة ، ودعوى.

سبحان، مصدر بمعنى التسبيح، أي التنزيه. وتقدّم عند قوله تعالى {قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا} [البقرة:32].

{ اللَّهُمَّ } نداء لله تعالى. ويجوز أن تكون تسمية هذا التسبيح دعاء من حيث إنّه ثناء مسوق للتعرّض إلى إفاضة الرحمات والنعيم.

ووجه ذكر هذا في عدد أحوالهم أنّها تدلّ على أنّ ما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين بحيث إن أرادوا أن ينعموا بمقام دعاء ربّهم الذي هو مقام القرب لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه فاعتاضوا عن السؤال بالثناء على ربّهم، فألهموا إلى التزام التسبيح لأنّه أدلّ لفظ على التمجيد والتنزيه.

{ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ }

التحية، اسم جنس لما يفاتح به عند اللقاء من كلمات التكرمة. وأصلها مشتقة من مصدر حيّاه إذا قال له عند اللقاء أحياك الله. ثم غلبت في كل لفظ يقال عند اللقاء، كما غلب لفظ السلام. فيشمل: نحو حيّاك الله، وعم صباحا، وعم مساء وصبّحك الله بخير، وبتّ بخير. أي جعل الله لهم لفظ السلام تحية لهم.

والظاهر أنّ التحيّة بينهم هي كلمة (سلام)، وأنّها محكية هنا بلفظها دون لفظ السلام عليكم أو سلام عليكم. وأما قوله { وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ } [الرعد: 23، 24] فهو تلطّف معهم بتحيتهم التي جاءهم بها الإسلام.

ونكتة حذف كلمة (عليكم) في سلام أهل الجنّة بعضهم على بعض أنّ التحيّة بينهم مجرّد إيناس وتكرمة فكانت أشبه بالخير والشكر منها بالدعاء والتأمين. بخلاف تحيّة أهل الدنيا فإنّها تقع كثيرا بين المتلاقين الذين لا يعرف بعضهم بعضا فكانت فيها بقيّة من المعنى الذي أحدث البشر لأجله السلام، وهو معنى تأمين الملاقي من الشر المتوقّع.

ووجه ذكر تحيتهم في هذه الآية الإشارة إلى أنّهم في أنس وحبور، وذلك من أعظم لذات النفس. وفيه تنويه بشأن هذا اللفظ الذي هو شعار المسلمين عند ملاقاتهم لما فيه من المعاني الجامعة للإكرام، إذ هو دعاء بالسلامة من كلّ ما يكدّر، فهو أبلغ من أحياك الله.

{ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } بقيّة الجمل الحالية. والمعنى أنّهم يختمون به دعاءهم فهم يكرّرون {سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ} فإذا أرادوا الانتقال إلى حالة أخرى من أحوال النعيم نهوا دعاءهم بذلك.

وقد دلّ على فضل هاتين الكلمتين قول النبيء ﷺ: " كلمتان حبيبتان إلى الرحمان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم ".

{ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [11]

هذه الجملة معطوفة على جملة {إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا} [7] ، فحيث ذكر عذابهم الذي هم أيلون إليه ناسب أن يبيّن لهم سبب تأخير العذاب عنهم في الدنيا لتكشف شبهة غرورهم، وليعلم الذين آمنوا حكمة من حكم تصرف الله في هذا الكون. والقرينة على هذا الاتصال في آخر الآية. فقد بيّنت هذه الآية أنّ الرفق جعله الله مستعمرا على عباده غير منقطع عنهم لأنّه أقام عليه نظام العالم إذ أراد ثبات بنائه، وأنّه لم يقدّر توازي الشرّ في هذا العالم بالخير، لطفا منه ورفقا، فالله لطيف بعباده، وفي ذلك منّة عظيمة عليهم، وأنّ الذين يستحقّون الشرّ لو عجّل لهم ما استحقّوه لبطل النظام الذي وضع عليه العالم.

{ لِلنَّاسِ } اسم عام لجميع النّاس، ولكن لمّا كان الكلام على إبطال شبهة المشركين وكانوا المستحقّين للشرّ كانوا أوّل من يتبادر من عموم النّاس، كما زاده تصريحا قوله {فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }.

{ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ } جاء نظم الآية على إيجاز محكم بديع، فذكر في جانب الشرّ {يُعَجِّلُ} الدال على أصل جنس التعجيل ولو بأقل ما يتحقّق فيه معناه، وعبّر عن تعجيل الله الخير لهم بلفظ {اسْتِعْجَالَهُمْ} الدال على المبالغة في التعجيل بما تفيده زيادة السين والتاء.

فليس الاستعجال هنا بمعنى طلب التعجيل لأنّ المشركين لم يسألوا تعجيل الخير ولا سألوه فحصل، بل هو بمعنى التعجل الكثير. والمعنى، ولو يعجّل الله للنّاس الشرّ كما يجعل لهم الخير كثيرا.

{ بِالْخَيْرِ } الباء لتأكيد اللصوق، وتأكيد اللصوق على الامتنان، بأنّ الخير لهم كثير ومكين. وقد كثر اقتران مفعول فعل الاستعجال بهذه الباء ولم ينبّهوا عليه في مواقعه المتعددة. وسيجيء في النحل.

{ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ } جواب (لو)، وشأن جواب (لو) أن يكون في حيز الامتناع، أي وذلك ممتنع لأنّ الله قدّر لآجال انقراضهم ميقاتا معينا {مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ} [الحجر: 5].

القضاء، التقدير. و**الأجل**، المدّة المعيّنة لبقاء قوم.

{ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } مفرّعة على جملة (لو) وجوابها المفيدة انتفاء أن يعجّل الله للنّاس الشرّ بانتفاء لازمه وهو بلوغ أجلهم إليهم. أي فإذا انتفى التعجيل فنحن نذر الذين لا يرجون لقاءنا يعمهون، أي نتركهم في مدة تأخير العذاب عنهم متلبّسين بطغيانهم، أي فرط تكبّرهم وتعاظمهم.

العمه، عدم البصر. و**الطغيان**، الكفر. أي فنترك المنكرين للبعث في ضلالهم استدراجا لهم. وتقدّم نظيره في قوله { وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [البقرة:15].

{ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [12]

لمّا بين في الآية السابقة وجه تأخير عذاب الاستئصال عنهم وإرجاء جزائهم إلى الآخرة، بيّن في هذه حالهم عندما يمسّهم شيء من الضرّ وعندما يكشف الضرّ عنهم. والغرض الأهم من كلتيهما هو الاعتبار بذميم أحوال المشركين تفظيعا لحالهم وتحذيرا من الوقوع في أمثالها.

{ الْإِنْسَانَ } مراد به الجنس، والتعريف يفيد الاستغراق العرفي، أي الإنّسان الكافر، لأنّ جمهور النّاس حينئذ كافرون، إذ كان المسلمون قبل الهجرة لا يعدون بضعة وسبعين رجلا مع نسائهم وأبنائهم الذين هم تبع لهم. وبهذا الاعتبار يكون المنظور إليهم في هذا الحكم هم الكافرون. ويأخذ المسلمون من هذا الحكم ما يناسب مقدار ما في آحادهم من بقايا هذه الحال الجاهليّة فيفيق كلّ من غفلته.

ومن المفسّرين من جعل اللام في الإنسان للعهد، وجعل المراد به أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي، واسمه مُهَشِّم، وكان مشركا، وكان أصابه مرض.

الضرّ، تقدّم في قوله { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ } [الأنعام:17].

الدعاء، هنا الطلب والسؤال بتضرّع.

{ لِجَنْبِهِ } اللام بمعنى (على) كقوله تعالى {يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ} [الإسراء:109]. وإنّما سلك هنا حرف الاختصاص للإشارة إلى أنّ الجنب مختصّ بالدعاء عند الضرّ ومتّصل به، فبالأولى غيره.

{ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً } ذكر الأفعال الدالة على أصل المعنى، للدلالة على أنّه يدعو الله في أندر الأحوال ملابسة للدعاء، وهي حالة تطلب الراحة وملازمة السكون. ولذلك ابتدئ بذكر الجنب، وزيادة {أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً} لقصد تعميم الأحوال وتكميلها، لأن المقام مقام الإطناب لزيادة تمثيل الأحوال، أي دعانا في سائر الأحوال لا يلهيه عن دعائنا شيء.

{ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ } هذا التفريع هو المقصود من الكلام إذ الحالة الأولى وهي المفرع عليها حالة محمودة لولا ما يعقبها.

الكشف، حقيقته إظهار شيء عليه ساتر أو غطاء. وشاع إطلاقه على مطلق الإزالة. إمّا على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق، وإمّا على طريقة الاستعارة بتشبيه المزال بشيء ساتر لشيء.

المرور، هنا مجازي بمعنى استبدال حالة بغيرها. شبّه الاستبدال بالانتقال من مكان إلى آخر، أي نسي حالة اضطراره واحتياجه إلينا فصار كأنّه لم يقع في ذلك الاحتياج.

{ **كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } تذييل يعمّ ما تقدّم وغيره، أي هكذا التزيين الشيطاني زيّن لهم ما كانوا يعملون من أعمالهم في ماضي أزمانهم في الدعاء وغيره من ضلالاتهم.

وهو تزيين إعراضهم عن دعاء الله في حالة الرخاء.

الإسراف، الإفراط والإكثار في شيء غير محمود. فالمراد بالمسرفين هنا الكافرون. واختير لفظ {الْمُسْرِفِينَ} لدلالته على مبالغتهم في كفرهم، فالتعريف في المسرفين للاستغراق ليشمل المتحدّث عنهم وغيرهم.

وأسند فعل التزيين إلى المجهول لأنّ المسلمين يعلمون أنّ المزيّن للمسرفين خواطرهم الشيطانية، فقد أسند فعل التزيين إلى الشيطان غير مرّة. أو لأنّ معرفة المزيّن لهم غير مهمّة هاهنا وإنّما المهمّ الاعتبار والاتعاظ باستحسانهم أعمالهم الذميمة استحسانا شنيطا.

والمعنى أن شأن الأعمال الذميمة القبيحة إذا تكررت من أصحابها أن تصير لهم دربة، تحسن عندهم قبائحها فلا يكادون يشعرون بقبحها فكيف يقلعون عنها.

{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ } [13]

عاد الخطاب إلى المشركين عودا على بدئه، بمناسبة التماثل بينهم وبين الأمم قبلهم في الغرور بتأخير العذاب عنهم حتّى حلّ بهم الهلاك فجأة. وهذه الآية تهديد وموعظة بما حلّ بأمثالهم.

ولتوكيد التهديد والوعيد أكدت الجملة بلام القسم و(قد) التي للتحقيق.

الإهلاك، الاستئصال والإفناء.

القرون، جمع قرن وأصله مدة طويلة من الزمان، والمراد به هنا أهل القرون.

والمعنى، أهلكناهم حينما ظلموا، أي أشركوا وجاءتهم رسلهم بالبيّنات، مثل هود وصالح، ولم يؤمنوا

البيّنات، جمع بيّنة، وهي الحجّة على الصدق.

{ **وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا** } معطوفة عليها. ومجموع الجمل الثلاث هو ما وقّت به الإهلاك. قال تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً }.

{ **كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ** } تذييل. والتعريف في {الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} للاستغراق، فلذلك عمّ القرون الماضية والمخاطبين، وبذلك كان إنذارا لقريش بأن ينالهم ما نال أولئك. والمراد بالإجرام أقصاه، وهو الشرك.

{ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [14]

{ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ } عطف على {أَهْلَكْنَا} وحرف (ثمّ) مؤذن ببعد ما بين الزمنين، أي ثم جعلناكم تخلفونهم في الأرض. و تقتضي أيضا التراخي الرتبي، لأنّ جعلهم خلائف أهمّ من إهلاك القرون قبلهم، لما فيه من المنّة عليهم، ولأنّه عوّضهم بهم.

الخلائف، جمع خليفة. وتقدّم في قوله {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ} [الأنعام:165].

{ الْأَرْضِ } بلاد العرب، فالتعريف فيه للعهد، لأنّ المخاطبين خلفوا (عادا وثمودا وطسما وجديسا وجرهما) في منازلهم على الجملة.

{ لِنَنْظُرَ } مستعمل في العلم المحقّق، لأنّ النظر أقوى طرق المعرفة، أي لنعلم علما متعلّقا بأعمالكم.

وإنّما جعل استخلافهم في الأرض علّة لعلم الله بأعمالهم كناية عن ظهور أعمالهم في الواقع إن كانت مما يرضي الله أو مما لا يرضيه. فإذا ظهرت أعمالهم علمها الله علم الأشياء النافعة وإن كان يعلم أن ذلك سيقع علما أزليا. وقد تقدّم نظير هذا في قوله تعالى {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ} [آل عمران:140].

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [15]

أسلوب آخر من أساليب تكذيبهم النبيء ﷺ أن يكون القرآن موحى إليه من الله تعالى. فهم يتوهّمون أنّ القرآن وضعه النبيء ﷺ من تلقاء نفسه، ولذلك جعلوا من تكذيبهم أن يقولوا له {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ} إطماعا له بأن يؤمنوا به.

{ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ } لزيادة التعجيب من طلبهم تبديلها إذ لا طمع في خير منه.

{ ائْتِ بِقُرْآنٍ } وسموا ما طلبوا الإتيان به قرآنا لأنّه عوض عن المسمى بالقرآن، فإنّ القرآن علم على الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ أي ائت بغير هذا مما تسميه قرآنا.

{ غَيْرِ هَذَا } مخالِفه. والمراد المخالفة للقرآن كلّه بالإعراض عنه وابتداء كتاب آخر بأساليب أخرى، كمثل كتب قصص الفرس وملاحمهم، إذ لا يحتمل كلامهم غير ذلك. إذ ليس مرادهم أن يأتي بسور أخرى غير التي نزلت من قبل لأنّ ذلك حاصل.

التبديل، التغيير. والمراد بالتبديل أن يعمد إلى القرآن الموجود فيغيّر الآيات المشتملة على عبارات ذمّ الشرك بمدحه، وعبارات ذمّ أصنامهم بالثناء عليها، وعبارات البعث والنشر بضدّها.

ثم إنّ قولهم يحتمل أن يكون جدّا ويحتمل أن يريدوا به الاستهزاء، وعلى الاحتمالين فقد أمر الله نبيّه ﷺ بأن يجيبهم بما يقلع شبهتهم من نفوسهم إن كانوا جادين، أو من نفوس من يسمعونهم من دهمائهم فيحسبوا كلامهم جدّا فيترقبوا تبديل القرآن.

ولمّا كان لاقتراحهم معنى صريح، وهو الإتيان بقرآن آخر أو تبديل آيات القرآن الموجود، ومعنى التزامي كنائي، وهو أنّه غير منزل من عند الله وأنّ الذي جاء به غير مرسل من الله، كان الجواب عن قولهم جوابين، أحدهما، ما لقّنه الله بقوله {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي} وهو جواب عن صريح اقتراحهم، وثانيهما، ما لقّنه بقوله {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ} [16] وهو جواب عن لازم كلامهم.

وعن مجاهد تسمية أناس ممن قال هذه المقالة وهم خمسة: (**عبد الله بن أمية**، و**الوليد بن المغيرة**، و**مكرز بن حفص**، و**عمرو بن عبد الله بن أبي قيس**، و**العاص ابن عامر**)، قالوا للنبيء ﷺ: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة الأصنام واللات والعزى ومناة وهبل، وليس فيه عيبها.

{ **قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي** } وقد جاء الجواب بأبلغ صيغ النفي وهو {مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ} أي ما يكون التبديل ملكا بيدي.

{ **تِلْقَاءِ** } صيغة مصدر على وزن التفعال. وقياس وزن التفعال الشائع هو فتح التاء وقد شذ عن ذلك (تلقاء، وتبيان، وتمثال، بمعنى اللقاء والبيان والمثول) فجاءت بكسر التاء لا رابع لها، ثم أطلق التلقاء على جهة التلاقي ثم أطلق على الجهة والمكان مطلقا كقوله تعالى {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ} [القصص: 22].

فالمعنى، من جهة نفسي.

{ **إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ** } تعليل، أي ما أتبع إلّا الوحي وليس لي تصرف بتغيير.

ومن رام أن يحتجّ بهذا القصر على عدم جواز الاجتهاد للنبيء ﷺ فقد خرج بالكلام عن مهيعه.

{ **إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } في موضع التعليل لجملة {إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} ولذلك فصلت عنها. واقترنت بحرف (إن) للاهتمام، وهي تؤذن بالتعليل.

{ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ}[16]

هذا جواب عن لازم اقتراحهم وكنايته عن رميهم الرّسول ﷺ بالكذب عن الله فيما ادّعى من إرساله وإنزال القرآن عليه كما تقدّم في الجواب قبله. ولكونه جوابا مستقلا عن معنى قصدوه من كلامهم جاء الأمر به مفصولا عن الأول غير معطوف عليه تنبيها على استقلاله وأنّه ليس بتكملة للجواب الأول.

وفي هذا الجواب استدلال على أنّه مرسل من الله تعالى، وأنّه لم يختلق القرآن من عنده. أي لو شاء الله أن لا آتيكم بهذا القرآن لما أرسلني به ولبقيت على الحالة التي كنت عليها من أول عمري.

التلاوة، قراءة المكتوب أو استعراض المحفوظ، فهي مشعرة بإبلاغ كلام من غير المبلّغ. وقد تقدّمت عند قوله تعالى {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [البقرة:102].

{ **أَدْرَاكُمْ** } عرّفكم. وفعل الدراية إذا تعلق بذات يتعدى إليها بنفسه تارة وبالباء أيضا، يقال: دريته ودريت به. وقد جاء في هذه الآية على الاستعمال الثاني وهو الأكثر في حكاية سيبويه.

{ **وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ** }، أي لو شاء الله ما أمرني بتلاوة القرآن عليكم ولا أعلمكم الله به.

{ **فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** } تذكير لهم بقديم حاله المعروفة بينهم وهي حال الأمّيّة. أي قد كنت بين ظهرانيكم مدة طويلة، وهي أربعون سنة، تشاهدون أطوار نشأتي.

اللبث، الإقامة في المكان مدّة. وتقدم في قوله تعالى: { قَالَ كَمْ لَبِثْتَ } [البقرة:259]

{ **فِيكُمْ** }، أي بينكم.

العمر، الحياة. اشتق من العمران، لأنّ مدة الحياة يعمر بها الحي العالم الدنيوي. ويطلق العمر على المدّة الطويلة التي لو عاش المرء مقدارها لكان قد أخذ حظّه من البقاء. وهذا هو المراد هنا بدليل تنكير {عُمُراً} والمعنى لبثت فيكم أربعين سنة قبل نزول القرآن.

{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } إذ قد ظهر من حالهم ما يجعلهم كمن لا يعقل. والتقدير، أفلا تعقلون أنّ مثل هذا الحال، من الجمع بين الأمّيّة والإتيان بهذا الكتاب البديع في بلاغته ومعانيه، لا يكون إلّا حال من أفاض الله عليه رسالته

{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ } [17]

لما قامت الحجّة عليهم بما لا قبل لهم بالتنصّل منه أعقبت بالتفريع على افترائهم الكذب وذلك مما عُرف من أحوالهم من اتخاذهم الشركاء له، وتكذيبهم بآيات الله.

{ **أَوْ** } للتقسيم، وهو إمّا تقسم أحوال، وإما تقسم أنواع. والاستفهام إنكاري.

الظلم، هنا بمعنى الاعتداء. وإنّما كان أحد الأمرين أشدّ الظلم لأنّه اعتداء على الخالق بالكذب عليه وبتكذيب آياته.

{ **إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ** } تذييل، وموقعه يقتضي شمول عمومه للمذكورين في الكلام.

الفلاح، تقدّم في قوله تعالى { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [البقرة:5].

وافتتاح الجملة بضمير الشأن لقصد الاهتمام بمضمونها.

{ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }[18]

عطف على { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ } [15] عطف القصّة على القصّة. والمناسبة بين القصّتين أنّ في كلتيهما كفرا أظهروه في صورة السخرية والاستهزاء. كانوا إذا أنذرهم النبيء ﷺ بعذاب الله قالوا: تشفع لنا إلهتنا عند الله. وقد روي أنّه قاله النضر بن الحارث: " إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى".

ويجوز أن تكون {وَيَعْبُدُونَ} عطفا على {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً} [17] فإن عبادتهم ما لا يضرّهم ولا ينفعهم من الافتراء.

{ يَعْبُدُونَ } و **{ يَقُولُونَ }** اختيار صيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة من استمرارهم على عبادتها.

{ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ } وقدّم ذكر نفي الضر على نفي النفع لأن المطلوب من المشركين الإقلاع عن عبادة الأصنام وقد كان سدنتها يخوّفون عَبدتها بأنّها تلحق بهم وبصبيانهم الضرّ، كما قالت امرأة طفيل بن عمرو الدوسي حين أخبرها أنّه أسلم ودعاها إلى أن تسلم فقالت: " أما تخشى على الصبية من ذي الشَرَى". [الشرى(بفتح الشين المعجمة وألف في آخره) شجر الحنظل. وذو الشرى: صنم كان يعبده بنو دوس. كان بين مكة والطائف. ويسمى أيضاً ذا الكفّين]. فأريد الابتداء بنفي الضرّ لإزالة أوهام المشركين في ذلك الصّادة لكثير منهم عن نبذ عبادة الأصنام.

{ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } لتحقير رأيهم من رجاء الشفاعة من تلك الأصنام، فإنّها لا تقدر على ضرّ ولا نفع في الدنيا فهي أضعف مقدرة في الآخرة. وفي قولهم اعتراف بأنّ المتصرّف هو الله.

{ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ } وقد أمر الله نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يردّ عليهم بتهكّم بهم. ومعنى ذلك أنّ هذا لمّا كان شيئا اخترعوه وهو غير واقع جعل اختراعه بمنزلة أنّهم أعلموا الله به وكان لا يعلمه، فصار ذلك كناية عن بطلانه، لأنّ ما لم يعلم الله وقوعه فهو منتف.

{ أَتُنَبِّئُونَ } الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

الإنباء، الإعلام.

{ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } إنشاء تنزيه، فهي منقطعة عن التي قبلها فلذلك فصلت. وتقدّم الكلام على نظيره عند قوله { وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنعام:100].

{ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }[19]

جملة معترضة بين جملة {وَيَعْبُدُونَ} [18] وجملة {وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} [20]. لأنّ عبادة الأصنام واختراع صفة الشفاعة لها هو من الاختلاف الذي أحدثه ضُلّال البشر في العقيدة السليمة التي فطر الله النّاس عليها في أوّل النشأة، فهي مما يشمله التوبيخ الذي في قوله {أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ} [18].

{ وَمَا كَانَ النَّاسُ } صيغة القصر للمبالغة في تأكيد الخبر لأنّه خبر مهم عجيب، هو من الحِكم العِمرانية والحقائق التاريخية بالمكان الأسمى.

وحسن القصر هنا وقوعه عقب الجدال مع الذين غيّروا الدين الحقّ وروّجوا نحلتهم بالمعاذير الباطلة كقولهم {هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [18] وقولهم {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: 3]، بخلاف آية سورة البقرة {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً}[213]، فإنّها وقعت في سياق المجادلة مع أهل الكتاب، وأهل الكتاب لا ينكرون أنّ النّاس كانوا أمة واحدة.

فآية هذه السورة تشير إلى الوحدة الاعتقادية ولذلك عبر عن التفرّق الطارئ عليها باعتبار الاختلاف المشعر بالمذمّة والمعقب بالتخويف في قوله {وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ} إلى آخره. وآية سورة البقرة تشير إلى الوحدة الشرعية التي تجمعها الحنيفية الفطرية، ولذلك عبّر عن التفرّق الذي طرأ عليها بأنّ الله بعث النبيئين مبشّرين ومنذرين، ثم جاء ذكر الاختلاف عرضا عقب ذلك بقوله {وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ } وأريد به الاختلاف بين أتباع الشرائع لقوله { وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ } [البقرة: 213].

{ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً } تقدّم القول في نظيره في سورة البقرة[213].

النّاس، اسم جمع للبشر وتعريفه للاستغراق.

الأمة، الجماعة العظيمة التي لها حال واحد في شيء ما. والمراد هنا أمّة واحدة في الدين. فتعيّن أنّ المراد في هذه الآية بكون النّاس أمّة واحدة، الوحدة في الحقّ، لأنّ المقصود من هذه الآية بيان فساد الشرك وإثبات خطأ منتحليه بأن سلفهم الأول لم يكن مثلهم في فساد العقول، وقد كان للمخاطبين تعظيم لما كان عليه أسلافهم.

ويجوز أن يراد بالنّاس العرب خاصة بقرينة الخطاب، ويكون المراد تذكيرهم بعهد أبيهم إبراهيم عليه السلام إذ كان هو وأبناؤه وذريّتهم على الحنيفيّة والتوحيد كما قال تعالى {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الزخرف: 26-28]، أي

في عقبه من العرب، فيكون التعريف للعهد.

{ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } إخبار بأنّ الحقّ واحد، وأنّ ذلك الاختلاف مذموم، وأنّه لولا أنّ الله أراد إمهال البشر إلى يوم الجزاء لأراهم وجه الفصل في اختلافهم باستئصال المبطل وإبقاء المحقّ.

{ كَلِمَةٌ } أجملت هنا وأشير إليها في الشورى بقوله {وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} [الشورى:14]. وأصرح من ذلك في بيان معناها قوله تعالى { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [هود:118] وسيأتي بيانها.

الأجل، هو أجل بقاء الأمم، وذلك عند انقراض العالم، فالقضاء بينهم إذن مؤخّر إلى يوم الحساب.

{ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } تقديم المجرور للرعاية على الفاصلة.

{ وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ}[20]

عطف على { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ} [18]، فبعد أن ذكر افتراءهم في جانب الإلهيّة نفى بهتانهم في جانب النبوّة.

{ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } (لولا) حرف تحضيض، وشأن التحضيض أن يواجه به المحضّض لأنّ التحضيض من الطلب، وشأن الطلب أن يواجه به المطلوب، ولذلك كان تعلّق فعل الإنزال بضمير الغائب في هذه الآية مؤولا بأحد وجهين:

إمّا أن يكون التفاتا، وأصل الكلام: لولا أنزل عليك، وهو من حكاية القول بالمعنى، ونكتة ذلك، نكتة الالتفات لتجديد نشاط السامع.

وإما أن يكون هذا القول صدر منهم فيما بينهم ليبيّن بعضهم لبعض شبهة على انتفاء رسالة محمد ﷺ، أو صدر منهم للمسلمين طمعا في أن يردوهم إلى الكفر.

الآية، علامة الصدق. وأرادوا خارقا للعادة على حسب اقتراحهم. وهذا من جهلهم بحقائق الأشياء وتحكيمهم الخيال والوهم في حقائق الأشياء، فهم يفرضون أنّ الله حريص على إظهار صدق رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنّه يستفزّه تكذيبهم إيّاه فيغضب ويسرع في مجاراة عنادهم ليكفّوا عنه، فإن لم يفعل فقد أفحموه وأعجزوه وهو القادر. فتوهّموا أنّ مدعي الرسالة عنه غير صادق في دعواه وما دروا أنّ الله قدّر نظام

الأمور تقديرا، ووضع الحقائق وأسبابها، وأجرى الحوادث على النظام الذي قدّره، وجعل الأمور بالغة مواقيتها التي حدّد لها، ولا يضرّه أن يكذّب المكذّبون أو يعاند الجاهلون، وقد وضع لهم ما يليق بهم من الزواجر في الآخرة لا محالة، وفي الدنيا تارات، كل ذلك يجري على نظم اقتضتها الحكمة لا يحمله على تبديلها سؤال سائل ولا تسفيه سفيه. وهو الحكيم العليم.

فهم جعلوا استمرار الرّسول ﷺ على دعوتهم بالأدلة التي أمره الله أن يدعوهم بها وعدم تبديله ذلك بآيات أخرى على حسب رغبتهم جعلوا كل ذلك دليلا على أنّه غير مؤّيد من الله فاستدلوا بذلك على انتفاء أن يكون الله أرسله، لأنّه لو أرسله لأيّده بما يوجب له القبول عند المرسل إليهم.

{ **مِنْ رَبِّهِ** } العدول عن اسم الجلالة إلى لفظ الربّ المضاف إلى ضمير الرسول ﷺ إيماء إلى الربوبيّة الخاصة بالتعلّق بالرسول ﷺ وهي ربوبية المصطفِي (بصيغة اسم الفاعل) للمصطفَى (بصيغة المفعول) من بين بقية الخلق المقتضية الغضب لغضبه لتوهّمهم أنّ غضب الله مثل غضب الخلائق يستدعي الإسراع إلى الانتقام وما علموا أسرار الحكمة الإلهية والحكم الإلهي والعلم الأعلى.

{ **فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ** } ، أمر الله رسوله بأن يجيب عن اقتراحهم بما هو الحقيقة المرشدة وإن كانت أعلى من مداركهم، جوابا فيه تعريض بالتهديد لهم، فجاء بفاء التفريع هنا دون بعض نظائره للإشارة إلى تعقيب كلامهم بالجواب شأن المتمكّن من حاله المتثبّت في أمره.

الغيب، ما غاب عن حواس النّاس من الأشياء، والمراد به هنا ما يتكوّن من مخلوقات غير معتادة في العالم الدنيوي من المعجزات.

{ **لِلَّهِ** } اللام للملك، أي الأمور المغيّبة لا يقدر عليها إلّا الله. وجاء الكلام بصيغة القصر للردّ عليهم في اعتقادهم أنّ في مكنة الرّسول الحق أن يأتي بما يسأله قومه من الخوارق، فجعلوا عدم وقوع مقترحهم علامة على أنّه ليس برسول من الله، فلذلك رد عليهم بصيغة القصر الدالة على أنّ الرّسول ليس له تصرّف في إيقاع ما سألوه، ليعلموا أنّهم يرمون بسؤالهم إلى الجراءة على الله تعالى بالإفحام.

{ **فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ** } أي ليس دأبي ودأبكم إلّا انتظار ما يأتي به الله إن شاء، كقول نوح لقومه {إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [هود: 33].

{ **مَعَكُمْ** } معية مجازية مستعملة في الاشتراك في مطلق الانتظار.

{ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ }[21]

لمّا حكى تمرّد المشركين بيّن هنا أنّهم في ذلك لاهون ببطرهم وازدهائهم بالنعمة والدعة فأنساهم ذلك أن يتوقّعوا حدوث ضدّه فتفنّنوا في التكذيب والاستهزاء، كما قال تعالى {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً} [المزمل: 11].

والملقى إليه الكلام هو النبيء ﷺ والمؤمنون. وفيه تعريض بتذكير الكفّار بحال حلول المصائب بهم لعلّهم يتذكّرون، فيعدّوا عدّة الخوف من حلول النقمة التي أنذرهم بها في قوله { فَانْتَظِرُوا } [20].

{ النَّاسَ } المعهودون المتحدّث عنهم بقرينة السياق في قوله تعالى {وَإِذَا مَسَّ الْأِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ} [12].

الإذاقة، مستعملة في مطلق الإدراك، استعارة أو مجازا، كما تقدّم في قوله {لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ} [المائدة:95].

الرحمة، هنا مطلقة على أثر الرحمة، وهو النعمة والنفع، كقوله {وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ }.

الضراء، الضرّ. و**المسّ،** مستعمل في الإصابة.

والمعنى إذا نالت النّاس نعمة بعد الضرّ، كالمطر بعد القحط، والأمن بعد الخوف، والصحة بعد المرض.

{ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا } (إذا) للمفاجأة، يدل على البدار والإسراع بمضمون الجملة، فيفيد مفاد فاء التعقيب التي يؤتى بها لربط جواب الشرط بشرطه، فإذا جاء حرف المفاجأة أغنى عنها.

المكر حقيقته إخفاء الإضرار وإبرازه في صورة المسالمة.

والمعنى، أنّهم يوهمون أنّ آيات القرآن غير دالة على صدق الرسول، ويزعمون أنّه لو أنزلت عليه آية أخرى لآمنوا بها وهم كاذبون في ذلك، وإنّما هم يكذّبونه عنادا ومكابرة وحفاظا على دينهم في الشرك.

{ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً } ولمّا كان الكلام متضمّنا التعريض بإنذارهم، أمر الرسول أن يعظهم بأنّ الله أسرع مكرا. وأطلق على تأجيل الله عذابهم اسم المكر على وجه الاستعارة التمثيلية، وحسنته المشاكلة.

{ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ } استئناف خطاب للمشركين مباشرة تهديدا من الله، فلذلك فصلت على التي قبلها لاختلاف المخاطب. أعلمهم الله بأنّ الملائكة الموكّلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك. والمقصود أنّ مكرهم محصى معدود عليهم لا يهمل، وهو إنذار بالعذاب عليه.

{يَكْتُبُونَ - يَمْكُرُونَ} المضارع للدلالة على التكرّر.

{ مَا تَمْكُرُونَ } التفات من الغيبة إلى الخطاب لاختلاف معادي الضميرين.

{ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ [22] **فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }** [23]

هذه الجملة بدل اشمال من الجملة السابقة، لأن البغي في الأرض اشتمل عليه المكر في آيات الله. والمقصود من هذه الجملة هو قوله {فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ} وما سواه تمهيد وإدماج للامتنان.

أعقب التهديد على كفران النعمة بذكر بعض نعم الله عليهم، ثم ضرّاء تعقب النعمة للابتلاء والتذكير بخالقهم. لكيلا يغترّوا بالإمهال فيحسبوه رضى بكفرهم أو عجزا عن أخذهم، وهذا موقع رشيق جدّ الرشاقة لهذه الآية القرآنية.

{ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ } قصر ادعائي، وإسناد التسيير إلى الله تعالى باعتبار أنّه سببه، لأنّه خالق إلهام التفكير وقوى الحركة العقلية والجسديّة، فالإسناد مجاز عقلي. والكلام مستعمل في الامتنان والتعريض بإخلالهم بواجب الشكر.

{ حَتَّى } ابتدائية، وهي غاية للتسيير في البحار خاصة، والمغيًّا هو ما في قوله {يُسَيِّرُكُمْ} من المنّة المؤذنة بأنّه تسيير رفق ملائم للنّاس، فكان ما بعد (حتّى) ومعطوفاتها نهاية ذلك الرفق، حيث ينتهي السير المنعّم به ويدخلون في حالة البأساء والضراء، وهذا النظم نسج بديع في أفانين الكلام.

ومن بديع الأسلوب في الآية أنّها لمّا كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمائر الخطاب الصالحة لجميع السامعين، فلمّا تهيأت للانتقال إلى ذكر الضرّاء وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يخلّصه إلى الإفضاء إلى ما يخصّ المشركين فقال **{ وَجَرَيْنَ بِهِمْ }** على طريقة الالتفات، أي وجرين بكم. وهذا ضرب من الالتفات لم ينبّه عليه أهل المعاني وهو كالتخصيص بطريق الرمز.

{ يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } والسير في البر معروف للعرب. وكذلك السير في البحر. كانوا يركبون البحر إلى اليمن وإلى بلاد الحبشة. وكانت لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن وقد يركبون البحر لذلك. وقد وصف طرفة بن العبد السفن وسيرها، وذكرها عمرو بن كلثوم في معلقته، والنابغة في داليّته.

الفلك، اسم لمركب البحر، وهو هنا مراد به الجمع.

الجري، السير السريع في الأرض أو في البحر، قال تعالى {باسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا} والظاهر أنّه حقيقة فيهما.

الريح، مؤنّثة في كلام العرب.

الطيّبة، والطيّب، الموصوف بالطيب الشديد. وأصل معنى الطيّب الملاءمة فيما يراد من الشيء، كقوله تعالى { فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً } [النحل: 97]، ويقال: طاب له المقام في مكان كذا، وهنا الملائمة الرفيقة بالراكبين .

{ **جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ** } جواب {إذَا} . وفي ذكر جَريها بريح طيبة وفرحهم بها إيماء إلى أنّ مجيء العاصفة حدث فجأة دون توقّع.

العاصف، وصف خاص بالريح، أي شديدة السرعة. وإنّما لم تلحقه علامة التأنيث لأنّه مختصّ بوصف الريح فاستغنى عن التأنيث، مثل: نافس وحائض ومرضع، فشاع استعماله كذلك.

{ **مِنْ كُلِّ مَكَانٍ** } من كل جهة من جهات الفلك.

{ **وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ** } ظنوا الهلاك. فالعرب يقولون: أحاط العدو بالقبيلة إذا تمكّن منها وغلبها، لأنّ الإحاطة بها تدلّ على الإحداق بها وتطويقها. استعارة تمثيلية للهلاك كما تقدم في قوله تعالى {وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} [البقرة: 19] وقوله تعالى { وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ } [الكهف: 42] أي هلكت.

{ **دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** } جواب: {إذَا} . ومعنى مخلصين له الدين ممحّضين له العبادة في دعائهم. أي دعوه ولم يدعوا معه أصنامهم. وليس المراد أنّهم أقلعوا عن الإشراك في جميع أحوالهم بل تلك حالتهم في الدعاء عند الشدائد.

{ **لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** } بيان لجملة { دَعَوُا } لأنّ مضمونها هو الدعاء. والإشارة بـ {هَذِهِ } إلى حالة حاضرة لهم، وهي حالة إشرافهم على الغرق. وقد أُكّد وعدهم بالشكر بثلاث مؤكّدات: لام توطئة القسم، ونون التوكيد، والتعبير بصيغة {**مِنَ الشَّاكِرِينَ**} دون لنكوننّ شاكرين، لما يفيده من كونهم من هذه الزمرة التي ديدنها الشكر، كما تقدّم بيان خصوصية مثل هذا التركيب.

{ **فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** } وأتى بحرف (إذا) الفجائية للدلالة على تعجيلهم بالبغي في الأرض عقب النجاة.

البغي، الاعتداء. والمراد به هنا الإشراك كما صرّح به في نظيرها {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [العنكبوت: 65]. وسمّي الشرك بغيا لأنّه اعتداء على حقّ الخالق وهو أعظم اعتداء، كما يسمّى ظلما في آيات كثيرة منها قوله {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: 13]. ولا يحسن تفسير البغي هنا بالظلم والفساد في الأرض، إذ ليس ذلك شأن جميعهم فإنّ منهم حلماء قومهم، ولأنّه لا يناسب قوله بعد {إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} { **فِي الْأَرْضِ** } لمجرد تأكيد تمكّنهم من النجاة. وهو كقوله {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ} [لقمان: 32] أي جعلوا مكان أثر النعمة بالنجاة مكانا للبغي.

{ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** } كذلك هو قيد كاشف لمعنى البغي، إذ البغي لا يكون بحق.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ } لاستصغاء أسماعهم. والمقصود من هذا تحذير المشركين ثم تهديدهم.

{ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ } وصيغة قصر البغي تنبيه على حقيقة واقعيّة وموعظة لهم، ليعلموا أنّ التحذير من الشرك والتهديد عليه لرعي صلاحهم لا لأنّهم يضرّونه. فالمعنى إنّما بغي كل أحد على نفسه، لأنّ الشرك لا يضرّ إلّا بنفس المشرك باختلال تفكيره وعمله ثم بوقوعه في العذاب.

{ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } مرفوع في قراءة الجمهور على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي هو متاع الحياة الدنيا. وقرأه حفص عن عاصم بالنصب على الحال من { بغيكم }.

وتوقيت البغي بهذه المدة باعتبار أنّه ذكر في معرض الغضب عليهم، فالمعنى أنّه أمهلكم إمهالا طويلا فهلا تتذكرون؟ فلا تحسبون الإمهال رضى بفعلكم ولا عجزا، وسيؤاخذكم به في الآخرة.

المتاع، ما ينتفع به انتفاعا غير دائم. والمعنى على كلتا القراءتين واحد، أي أمهلناكم على إشراككم مدّة الحياة لا غير ثم نؤاخذكم على بغيكم عند مرجعكم إلينا.

{ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ } عطفت بـ { ثُمَّ } لإفادة التراخي الرتبي لأنّ مضمون هذه الجملة أصرح تهديدا من مضمون جملة { إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ }. وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص، أي ترجعون إلينا لا إلى غيرنا.

{ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } تفريع وعيد على تهديد. واستعمل الإنباء كناية عن الجزاء، لأنّ الإنباء يستلزم العلم بأعمالهم السيئة، والقادر إذا علم بسوء صنيع عبده لا يمنعه من عقابه مانع.

{ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }[24]

تتنزّل هذه الآية منزلة البيان لجملة {مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [23] المؤذنة بأنّ تمتّعهم بالدنيا ما هو إلّا لمدة قصيرة، فبيّنت هذه الآية أن التمتّع صائر إلى زوال، وأطنبت فشبّهت هيئة التمتّع بالدنيا لأصحابها بهيئة الزرع في نضارته ثم في مصيره إلى الحصد.

{ إِنَّمَا مَثَلُ } المثَل، الحال الماثلة على هيئة خاصة، كان التشبيه هنا تشبيه حالة مركّبة بحالة مركبة. عبّر عن ذلك بلفظ المثل الذي شاع في التشبيه المركّب كما تقدم في أوّل سورة البقرة.

وصيغة القصر لتأكيد المقصود من التشبيه، وهو سرعة الانقضاء. ولتنزيل السامعين منزلة من يحسب دوام

بهجة الحياة الدنيا. وهو قصر قلب، بني على تنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد عكس تلك الحالة. ومن بديع هذا التشبيه تضمّنه لتشبيهات مفرّقة من أطوار الحالين المتشابهين.

{ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ } شبّه به ابتداء أطوار الحياة من وقت الصبا، إذ ليس ثمّة سوى الأمل في نعيم العيش ونضارته، فذلك الأمل يشبه حال نزول المطر من السماء في كونه ما يؤمّل منه من زخرف الأرض ونضارتها.

{ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ } شبّه به طور ابتداء نضارة العيش وإقبال زهرة الحياة، فذلك يشبه خروج الزرع بعيد المطر فيما يشاهد من بوارق المأمول، ولذلك عطف بفاء التعقيب للإيذان بسرعة ظهور النبات عقب المطر، فيؤذن بسرعة نماء الحياة في أوّل أطوارها.

{ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ } وصف لنبات الأرض الذي منه أصناف يأكلها النّاس من الخضروات والبقول، وأصناف تأكلها الأنعام من العشب والكلأ، وذلك يشبّه به ما ينعَم به النّاس في الحياة من اللذّات وما ينعَم به الحيوان، فإنّ له حظّا في نعيم الحياة بمقدار نطاق حياته.

ولمّا كان ذلك قد تضمن المأكول والأكل صحّ أن تشبّه به رغبات النّاس في تناول لذائذ الحياة على حسب اختلاف مراتب الهمم، وذلك يتضمّن تشبيه معالي الأمور من نعم الدنيا التي تسمو إليها الهمم العوالي بالنبات الذي يقتاته النّاس، وتشبيه سفاسف الأمور بالنبات الذي يأكله الأنعام.

{ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ } مثله في قوله {حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ} [22]، وهو غاية شبّه بها بلوغ الانتفاع بخيرات الدنيا إلى أقصاه، وانهماك النّاس في تناولها ونسيانهم المصير إلى الفناء.

وإطلاق أخذ الأرض زخرفها على حصول الزينة فيها استعارة مكنية. شبّهت الأرض بالمرأة حين تريد التزين فتحضر فاخر ثيابها من حليّ وألوان.

الزخرف، اسم الذهب. وأطلق على ما يتزين به مما فيه ذهب وتلوين من الثياب والحلي.

{ ازَّيَّنَتْ } أصله تزيّنت فقلبت التاء زايا لتدغم في الزاي فسكنت وأدغمت واجتلبت همزة الوصل لأجل النطق بالساكن.

{ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا } أنّهم مستمرّون على الانتفاع بها محصّلون لثمراتها، فأطلق على التمكّن من الانتفاع ودوامه لفظ (القدرة) على وجه الاستعارة.

{ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ }

أمر الله: تقديره وتكوينه. **وإتيانه:** إصابة تلك الأرض بالجوائح المعجّلة لها باليبس والفناء.

{ لَيْلاً أَوْ نَهَاراً } ترديد في الوقت لإثارة التوقّع من إمكان زوال نضارة الحياة في جميع الأزمنة، لأنّ الشيء الموقّت بمعيّن من التوقيت يكون النّاس في أمن من حلوله في غير ذلك الوقت.

الحصيد، المحصود، وهو الزرع المقطوع من منابته. والإخبار عن الأرض بحصيد على طريقة المجاز العقلي، وإنّما المحصود نباتها.

{ **لَمْ تَغْنَ** } لم تَعْمُر، أي لم تعمر بالزرع. يقال: غَنِيَ المكان إذا عَمَر. ومنه المغنَى للمكان المأهول. وضد أغنى أقفر المكان.

{ **بِالْأَمْسِ**} الباءللظرفية. والأمس، اليوم الذي قبل يومك. والمراد في الآية مطلق الزمن الذي مضى، لأنّ أمس يستعمل بمعنى ما مضى من الزمان، كما يستعمل الغد في معنى المستقبل واليوم في معنى الحال.

{ **كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } تذييل جامع، أي نبيّن الدلالات كلّها الدالة على عموم العلم والقدرة وإتقان الصنع. فهذه آية من الآيات المبيّنة وهي واحدة من عموم الآيات. وتقدّم نظيره في قوله تعالى {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام:55]

التفكّر، التأمّل والنظر، وهو تفعّل مشتق من الفكر، وقد مرّ عند قوله تعالى { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ} [الأنعام:50]. وفيه تعريض بأنّ الذين لم ينتفعوا بالآيات ليسوا من أهل التفكّر ولا كان تفصيل الآيات لأجلهم.

{ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }[25]

{ **وَاللَّهُ يَدْعُو** } حذف المفعول لقصد التعميم، أي يدعو كلّ أحد. و**الدعوة** هي الطلب والتحريض. وهي هنا أوامر التكليف ونواهيه.

دار السلام، الجنّة، ، وتقدّم وجه تسميتها بذلك في قوله { لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ } [الأنعام:127].

{ **وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** } الهداية، الدلالة على المقصود النافع، والمراد بها هنا خلق الاهتداء إلى المقصود. فهي هداية بالمعنى الأصلي، أي خلق حصوله بأمر التكوين. وهذا التكوين يقع إمّا في كل جزئيّة من جزئيّات الاهتداء، على طريقة الأشاعرة، وإمّا بخلق الاستعداد له بحيث يقدر على الاهتداء عند حصول الأدلة، على طريقة المعتزلة. وهما متقاربان في الحال، وشؤون الغيب خفيّة. وقد تقدّم شيء من ذلك عند قوله تعالى {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: 6]. و**الصراط المستقيم**: الطريق الموصل.

{ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [26]

{ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا } هم الذين هداهم الله إلى صراط مستقيم، وأنّ الصراط المستقيم هو العمل الحسن، وأنّ الحسنى هي دار السلام.

الحسنى، في الأصل صفة أنثى الأحسن، ثم عوملت معاملة الجنس فأدخلت عليها لام تعريف الجنس فبعدت عن الوصفية ولم تتبع موصوفها. وتعريفها يفيد الاستغراق.

والمعنى، للذين أحسنوا الجنّة، لأنّها أحسن مثوبة يصير إليها الذين أحسنوا، وبذلك صيّرها القرآن علما بالغلبة على الجنّة ونعيمها.

{ وَزِيَادَةٌ } زيادة لهم ليست داخلة في نوع الحسنى. فتعيّن أنّها أمر يرجع إلى رفعة الأقدار. قيل: هي رضى الله تعالى، كما في قوله { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة: 72]. وقيل: هي رؤيتهم الله تعالى. وقد ورد ذلك عن النبيء ﷺ في صحيح مسلم وجامع الترمذي، عن صهيب عن النبيء ﷺ في قوله تعالى: { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } قال: " إذا دخل أهل الجنّة الجنّة نادى مناد: إنّ لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه، قالوا: ألم تبيّض وجوهنا وتنجنا من النّار وتدخلنا الجنّة، قال: فيكشف الحجاب، قال: فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحبّ إليهم من النظر إليه ". وهو أصرح ما ورد في تفسيرها.

الرهق، الغشيان.

القتر، لون هو غُبرة إلى السواد. ويقال له قترة. والذي تخلّص لي من كلام الأئمة والاستعمال أنّ القترة لون يغشى جلدة الوجه من شدّة البؤس والشقاء والخوف.

الذلّة، الهوان. والمراد أثر الذلّة الذي يبدو على وجه الذليل. والكلام مستعمل في صريحه وكنايته، أي لا تتشوّه وجوههم بالقتر وأثر الذلة ولا يحصل لهم ما يؤثر القتر وهيئة الذلّة.

وليس معنى نفي القتر والذلّة عنهم في جملة أوصافهم مديحا لهم لأنّ ذلك لا يخطر بالبال وقوعا بعد أن أثبت لهم الحسنى وزيادة، بل المعنى التعريض بالذين لم يهدهم الله إلى صراط مستقيم، وهم الذين كسبوا السيّئات تعجيلا للمساءة إليهم بطريق التعريض قبل التصريح الذي سيأتي.

{ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } نتيجة للمقدّمة، فبينها وبين التي قبلها كمال الاتصال ولذلك فصلت عنها ولم تعطف.

{ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [27]

{ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ } للإشارة إلى أنّ إساءتهم من فعلهم وسعيهم فما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

{ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا } التنكير للعموم، أي جزاء كلّ سيّئة بمثلها، وهو وإن كان في سياق الإثبات فالعموم مستفاد من المقام وهو مقام عموم المبتدأ.

{ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ } اقتصر على الذلّة لهم دون زيادة (ويرهقهم قتر) لأنّه سيجيء ما هو أشدّ منه.

{ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ } تهديد وتأييس.

العاصم، المانع والحافظ. ومعنى **{ مِنَ اللَّهِ }** من انتقامه وجزائه.

{ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً } بيان لجملة { تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ } بيان تمثيل.

{ أُغْشِيَتْ } معدّى غَشِي، إذا أحاط وغطّا. وتقدّم في قوله تعالى {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} [الأعراف:54].

{ قِطَعاً } (بفتح الطاء) في قراءة الجمهور، جمع قطعة، وهي الجزء من الشيء، سمّي قطعة لأنّه يقتطع من كلّ غالبا. وقرأه ابن كثير والكسائي ويعقوب {قِطْعا} (بسكون الطاء). وهو اسم للجزء من زمن الليل المظلم. قال تعالى { فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ } [هود:81].

{ مُظْلِماً } حال من الليل. ووصف الليل وهو زمن الظلمة بكونه مظلما لإفادة تمكّن الوصف منه.

{ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } هي كجملة {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [26].

{ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ [28] **فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ}**[29]

لمّا ذكر في الجملتين السابقتين ما يختصّ به كلّ فريق من الفريقين من الجزاء وسماته، جاءت هذه الجملة بإجمال حالة جامعة للفريقين ثم بتفصيل حالة يمتاز بها المشركون ليحصل بذلك ذكر فظيع من أحوال الذين بلغوا الغاية في كسب السيّئات، وهي سيّئة الإشراك الذي هو أكبر الكبائر.

{ وَيَوْمَ } زيد في صدر الجملة لأنّ ذلك اليوم لمّا كان هو زمن الحشر وأعمال عظيمة أريد التذكير به تهويلا وموعظة.

{ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً } الضمير للذين تقدّم الكلام عليهم، وهم الذين أحسنوا والذين كسبوا السيّئات. وذلك أنّ الحشر يعمّ النّاس كلهم. ومن نكت ذكر حشر الجميع هنا التنبيه على أنّ فظيع حال المشركين وافتضاحهم

يكون بمرأى ومسمع من المؤمنين، فتكون السلامة من تلك الحالة زيادة في النعمة على المسلمين وتقوية في النكاية للمشركين.

الحشر، الجمع من أمكنة إلى مكان واحد. وتقدّم في قوله تعالى {وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأنعام،111].

{ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ }

{ مَكَانَكُمْ } منصوب على المفعولية بفعل محذوف تقديره، الزموا مكانكم، واستعماله هذا شائع في كلام العرب في الأمر بالملازمة، مع التزام حذف العامل فيه حتّى صار بمنزلة أسماء الأفعال الموضوعة للأمر، نحو: صه. وأمرهم بملازمة المكان تثقيف وحبس. وإذ قد جُمع فيه المخاطبون وشركاؤهم علم أنّ ذلك الحبس لأجل جريمة مشتركة بين الفريقين، وهي كون أحد الفريقين عابدا والآخر معبودا.

{ وَشُرَكَاؤُكُمْ } الأصنام. وصفوا بالشركاء لاعتقاد المخاطبين ذلك. فإضافة شركاء إلى ضمير المخاطبين تهكّم.

{ فَزَيَّلْنَا } زيّل، مضاعف زال المتعدّي. يقال: زاله عن موضعه يَزِيله، بمعنى أزاله فجعلوه يائي العين للتفرقة بينه وبين زال القاصر الذي هو واوي العين. فزيّل فعل للمبالغة في الزيل مثل فرّق مبالغة في فرق. والمعنى وقع بينهم تفريق قوي بحيث انقطعت جميع الوِصَل التي كانت بينهم.

والتزييل هنا مجازي فيشمل اختلاف القول.

{ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ } ويقول الشركاء هذا الكلام بخلق نطق فيها خارق للعادة يفهمه النّاس لإشعار أولئك العابدين بأن أصنامهم تبرأوا منهم، وذلك مما يزيدهم ندامة. وكلام الأصنام يفيد نفي أن يكونوا عبدوهم بل عبدوا غيرهم. وفي استقامة ذلك إشكال لأنّ الواقع أنهم عبدوهم وعبدوا غيرهم، فكيف ينفي كلامهم عبادتهم إيّاهم ؟

وقد تأوّل المفسرون هذا بوجوه لا ينثلج لها الصدر. والذي ظهر لي أن يكون آخر كلام الأصنام مبيّنا لما أجمله أوّله، بأنّهم نفوا أن يكونوا عبدوهم عبادة كاملة وهي العبادة التي يقصد منها العابد امتثال أمر المعبود وإرضاءه، فتقتضي أن يكون المعبود عالما وآمرا بتلك العبادة. ولمّا كانت الأصنام غير عالمين ولا آمرين استقام نفيهم أن يكون عَبدتهم قد عبدوهم تلك العبادة وإنّما عبدوا غيرهم ممّن أمروهم بالعبادة، وهم الشياطين ولذلك قالوا {إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ} كما تفسره الآية الأخرى وهي قوله تعالى {أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} [سبأ: 40، 41].

{ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ } مؤكّدة بالقسم ليُثبتوا البراءة مما ألصق بهم. وجواب القسم {إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ}. وعطفت جملة القسم بالفاء للدلالة على أنّ القسم متفرّع على الكلام المتقدّم، لأنّ إخبارهم بنفي أن يكونوا يعبدونهم خبر غريب مخالف لما هو مشاهد فناسب أن يفرّع عليه ما يحقّقه ويبيّنه مع تأكيد

ذلك بالقسم. والإتيان بفاء التفريع عند تعقيب الكلام بجملة قسميّة من فصيح الاستعمال، كقوله تعالى { فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الحجر: 90-93]. ومن خصائصه أنّه إذا عطف بفاء التفريع كان مؤكدا لما قبله بطريق تفريع القسم عليه ومؤكدا لما بعده بطريق جواب القسم به. وهذه الآية لم تفسر حق تفسيرها.

الشهيد، الشاهد، وهو المؤيّد والمصدق لدعوى مدّع.

كفى، بمعنى أجزأ وأغنى عن غيره. وتقدّم في قوله تعالى { وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً } [النساء:45].

{ **إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ** } جواب للقسم. وتقديم {عَنْ عِبَادَتِكُمْ} على عامله للاهتمام وللرعاية على الفاصلة.

{ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}[30]

تذييل وفذلكة للجمل السابقة. وهو اعتراض بين الجمل المتعاطفة.

{ **هُنَالِكَ** } الإشارة إلى المكان الذي أنبأ عنه قوله {نَحْشُرُهُمْ} [28]، أي في ذلك المكان الذي نحشرهم فيه. وقُدم للاهتمام به، لأنّ الغرض الأهم من الكلام عظم ما يقع فيه.

{ **تَبْلُو** } تُختبر، وهو هنا كناية عن التحقّق وعلم اليقين. و{ **أَسْلَفَتْ** } قدّمت، أي عملا أسلفته.

والمعنى أنّها تختبر حالته وثمرته فتعرف ما هو حسن ونافع وما هو قبيح وضار، إذ قد وضح لهم ما يفضي إلى النعيم بصاحبه، وضدّه.

{ **وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ** }

يجوز ان تكون معطوفة على جملة {هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ} فتكون من تمام التذييل. ويجوز أن تكون معطوفة على قوله و {يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً} [28] أي ونردّهم إلينا، ويكون ضمير {ردّوا} عائدا إلى الذين أشركوا خاصة. والمعنى تحقّق عندهم الحشر الذي كانوا ينكرونه.

الردّ: الإرجاع. والإرجاع إلى الله، الإرجاع إلى تصرّفه بالجزاء على ما يرضيه وما لا يرضيه. وقد كانوا من قبل حين كانوا في الحياة الدنيا ممهلين غير مجازين.

المولى، السيّد، لأنّ بينه وبين عبده ولاء عهد الملك. ويطلق على متولّي أمور غيره وموفّر شؤونه.

الحقّ، الموافق للواقع والصدق، أي ردوا إلى الإله الحقّ دون الباطل. أي دون الأولياء الذين زعموهم باطلا.

{ **وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } هذه الجملة مختصه بالمشركين كما هو واضح.

الضلال، الضياع.

{ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } ما كانوا يكذبون من نسبتهم الإلهيّة إلى الأصنام.

{ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ } [31]

انتقال من غرض إلى غرض في أفانين إبطال الشرك وإثبات توحّد الله تعالى بالإلهيّة. وهذه الجملة تتنزّل منزلة الاستدلال لقوله {مَوْلاهُمُ الْحَقِّ} [30]، لأنّها برهان على أنّه المستحق للولاية.

فاحتجّ على ذلك بمواهب الرزق الذي به قوام الحياة، وبموهبة الحواس، وبنظام التناسل والتوالد الذي به بقاء الأنواع، وبتدبير نظام العالم وتقدير المقدّرات، فهذه كلها مواهب من الله. وهم كانوا يعلمون أنّ جميع ما ذكر لا يفعله إلّا الله، إذ لم يكونوا ينسبون إلى أصنامهم هذه الأمور، فلا جرم أن كان المختصّ بها هو مستحق الولاية والإلهيّة.

والاستفهام تقريري. وجاء الاستدلال بطريقة الاستفهام والجواب لأنّ ذلك في صورة الحوار، فيكون الدليل الحاصل به أوقع في نفوس السامعين، ولذلك كان من طرق التعليم ممّا يراد رسوخه من القواعد العلميّة أنّ يؤتى به في صورة السؤال والجواب.

{ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } تذكير بأحوال الرزق ليكون أقوى حضورا في الذهن، فالرزق من السماء المطر، والرزق من الأرض النبات.

{ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ } (أم) للإضراب الانتقالي من استفهام إلى آخر. أي يملك التصرّف فيهما، وهو ملك إيجاد تينك الحاستين، وذلك استدلال وتذكير بأنفع صنع وأدقّه.

وأفرد **{ السَّمْعَ }** لأنّه مصدر فهو دال على الجنس الموجود في جميع حواس النّاس. وأمّا **{الْأَبْصَارَ}** فجي به جمعا لأنّه اسم، فهو ليس نصّا في إفادة العموم لاحتمال توهّم بصر مخصوص، فكان الجمع أدلّ على قصد العموم وأنفى لاحتمال العهد ونحوه، بخلاف قوله {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [الإسراء: 36]، لأنّ المراد الواحد لكلّ مخاطب بقوله { وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [الإسراء: 36].

وقد تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ } [الأنعام:46].

{ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ } هو تولّد أطفال الحيوان من النطف ومن البيض. فالنطفة أو البيضة تكون لا حياة فيها ثم تتطور إلى الشكل القابل للحياة ثم تكون فيها الحياة. وإخراج الميّت من الحي إخراج النطفة والبيض من الحيوان. وقد تقدّم الكلام على نظيره في قوله {وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ

وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} [آل عمران:27]. غير أنّ ما هنا ليس فيه رمز إلى شيء.

{ **وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** } تقدّم القول في نظيره في أوائل هذه السورة. وهو هنا تعميم بعد تخصيص.

{ **فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ** } فاء السببية التي من شأنها أن تقترن بجواب الشرط إذا كان غير صالح لمباشرة أداة الشرط، وذلك أنّه قصد تسبّب قولهم { اللَّهُ } على السؤال المأمور به النبيء عليه الصلاة والسلام.

{ **فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ** } والفاء في { فَقُلْ } فاء الفصيحة، أي إن قالوا ذلك فقل أفلا تتقون. والفاء في {أَفَلا تَتَّقُونَ} فاء التفريع، أي يتفرّع على اعترافكم بأنّه الفاعل الواحد إنكار عدم التقوى عليكم.

ومفعول {تَتَّقُونَ} محذوف، تقديره تتقونه، أي بتنزيهه عن الشريك.

{ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } [32]

{ **فَذَلِكُمُ** } الفاء للتفريع على الإنكار الذي في قوله {أَفَلا تَتَّقُونَ} [31]، فالفرع من جملة المقول. واسم الإشارة عائد إلى اسم الجلالة للتنبيه على أنّ المشار إليه جدير بالحكم الذي سيذكر بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف المتقدّمة على اسم الإشارة وهي كونه، الرازق، الواهب الادراك، الخالق، المدبّر.

{ **اللَّهُ** } اسم الجلالة بيان لاسم الإشارة لزيادة الإيضاح تعريضا بقوة خطئهم وضلالهم في الإلهية.

{ **رَبُّكُمُ الْحَقُّ** } تقدّم الوصف بالحقّ آنفا في الآية مثل هذه.

{ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ** } فاء تفريع للاستفهام الإنكاري على الاستنتاج الواقع بعد الدليل، فهو تفريع على تفريع، وتقريع بعد تقريع.

{ **بَعْدَ** } هنا مستعملة في معنى (غير) باعتبار أنّ المغاير يحصل إثر مغايره وعند انتفائه. فالمعنى، لا يكون إثر انتفاء الحقّ إلّا الضلال إذ لا واسطة بينهما. فلمّا كان الله هو الربّ الحقّ تعيّن أنّ غيره مما نسبت إليه الإلهيّة باطل. وعبّر عن الباطل بالضلال لأنّ الضلال أشنع أنواع الباطل.

{ **فَأَنَّى تُصْرَفُونَ** } الفاء للتفريع أيضا، أي لتفريع التصريح بالتوبيخ على الإنكار والإبطال.

{ **أَنَّى** } استفهام عن المكان، إلى أيّ مكان تصرفكم عقولكم؟ وهو مكان اعتباري، أي أنكم في ضلال وعماية كمن ضلّ عن الطريق.

{ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ }[33]

تذييل للتعجيب من استمرارهم على الكفر بعد ما ظهر لهم من الحجج والآيات، وتأييس من إيمانهم بإفادة أنّ انتفاء الإيمان عنهم بتقدير من الله تعالى عليهم، فقد ظهر وقوع ما قدّره من كلمته في الازل. والكاف الداخلة

قبل اسم الإشارة كاف التشبيه. والمشبه به هو المشار إليه، وهو حالهم وضلالهم.
وقرأ نافع، وابن عامر {كلمات ربك} بالجمع. وقرأها الباقون بالإفراد، والمعنى واحد لأنّ الكلمة تطلق على مجموع الكلام كقوله تعالى {كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا} [المؤمنون: 100]، ولأن الجمع يكون باعتبار تعدد الكلمات أو باعتبار تكرر الكلمة الواحدة بالنسبة لأنّاس كثيرين.
{ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا }
الفسق، الخروج من المسلك الذي شأن الشيء سلوكه، والمراد به فسق عن تلقي دعوة الرسل وإعمال النظر، وتقدّم في قوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } [البقرة:26]
ثم يجوز أن يكون المرد بالذين فسقوا كلّ من استمر على فسقه فلا يؤمن، فتكون الجملة تذييلا لما فيها من العموم الشامل لهؤلاء المتحدّث عنهم. ويجوز أن يكون المراد بالذين فسقوا المتحدّث عنهم خاصة فيكون من الإظهار في مقام الإضمار لإفادة أنّهم مع صفاتهم السابقة قد اتصفوا بالفسق، ولإفادة كون فسقهم علّة في أن حقت عليهم كلمة الله.
{ أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } بدل من **{ كَلِمَتُ رَبِّكَ }**.

{ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [24]
هذا مقام تقرير وتعديد الاستدلال، وهو من دواعي التكرير، وهو احتجاج عليهم بأنّ حال إلهتهم على الضدّ من صفات الله تعالى، فبعد أن أقام عليهم الدليل على انفراد الله تعالى بالرزق وخلق الحواس وخلق الأجناس وتدبير جميع الأمور وأنّه المستحق للإلهيّة بسبب ذلك الانفراد، بيّن هنا أنّ إلهتهم مسلوبة من صفات الكمال وأنّ الله متّصف بها. وإنّما لم يعطف لأنّه غرض آخر مستقل، وموقع التكرير يزيده استقلالا.
{ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ } الاستفهام إنكار وتقرير بإنكار ذلك، إذ ليس المتكلّم بطالب للجواب، ولا يسعهم إلّا الاعتراف بذلك، فهو في معنى نفي أن يكون من إلهتهم من يبدأ الخلق ثم يعيده.
{ قُلِ اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } أمر النبيء ﷺ بأن يرتقي معهم في الاستدلال، فصار مجموع الجملتين قصرا لصفة بدء الخلق وإعادته على الله تعالى قصر إفراد، أي دون شركائكم، أي فالأصنام لا تستحق الإلهية والله منفرد بها.
{ ثُمَّ يُعِيدُهُ .... ثُمَّ يُعِيدُهُ } ذكر إعادة الخلق في الموضعين مع أنّهم لا يعترفون بها ضرب من الإدماج في الحجاج وهو فن بديع.
{ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } كقوله { فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } [32].
أَفَكَهُ، قلبه. والمعنى، فإلى أي مكان تقلبون. والقلب مجازي وهو إفساد الرأي.

{ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } [35]

هذا تكرير آخر وهو استدلال بنقصان إلهتهم عن الإرشاد إلى الكمال النفساني بنشر الحقّ، وبأنّ الله تعالى هو الهادي إلى الكمال والحقّ، ومجموع الجملتين مفيد قصر صفة الهداية إلى الحقّ على الله تعالى دون إلهتهم قصر إفراد، كما تقدّم في نظيره آنفا. ومعلوم أنّ منّة الهداية إلى الحقّ أعظم المنن لأنّ بها صلاح المجتمع وسلامة أفراده من اعتداء قويّهم على ضعيفهم، ولولا الهداية لكانت نعمة الإيجاد مختلّة أو مضمحلّة.

{ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ } إلى الدين، وهو الأعمال الصالحة، وأصوله وهي الاعتقاد الصحيح.

وقد أتبع الاستدلال على كمال الخالق ببدء الخلق وإعادته بالاستدلال على كماله بالهداية كما في قول إبراهيم - عليه السلام - {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} [الشعراء: 78] وقول موسى - عليه السلام - {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: 50] وقوله تعالى {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [الأعلى: 1-3]. وذلك أنّ الإنسان الذي هو أكمل ما على الأرض مركّب من جسد وروح، فالاستدلال على وجود الخالق وكماله بإيجاد الأجساد وما فيها هو الخلق، والاستدلال عليه بنظام أحوال الأرواح وصلاحها هو الهداية.

{ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ } إلى آخره تفريع استفهام تقريري على ما أفادته الجملتان السابقتان من قصر الهداية إلى الحق على الله تعالى دون إلهتهم. وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه أهل العقول بأنّ الذي يهدي إلى الحقّ يوصل إلى الكمال الروحاني وهو الكمال الباقي إلى الأبد وهو الكون المصون عن الفساد فإن خلق الأجساد مقصود لأجل الأرواح، والأرواح مراد منها الاهتداء، فالمقصود الأعلى هو الهداية. وإذ قد كانت العقول عرضة للاضطراب والخطأ احتاجت النفوس إلى هدي يُتلقّى من الجانب المعصوم عن الخطأ وهو جانب الله تعالى، فلذلك كان الذي يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يُتَّبع، لأنّه مصلح النفوس ومصلح نظام العالم البشري، فاتّباعه واجب عقلا.

{ مَّنْ لا يَهِدِّي } أي الذي لا يهتدي فضلا عن أن يهدي غيره، أي لا يقبل الهداية فكيف يهدي غيره، فلا يحقّ له أن يُتَّبع. والمراد بها الأصنام، فإنّها لا تهتدي إلى شيء، كما قال إبراهيم {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً} [مريم: 42].

{ إِلَّا أَنْ يُهْدَى } والاستثناء تهكّم من تأكيد الشيء بما يشبه ضده. وأريد بالهدي النقل من موضع إلى موضع أي لا تهتدي إلى مكان إلّا إذا نقلها النّاس ووضعوها في المكان الذي يريدونه لها. فشبّه المنقول بالسائر على

طريقة المكنية، ورمز إلى ذلك بما هو من لوازم السير وهو الهداية.
{ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } تفريع استفهام تعجيبي على اتّباعهم من لا يهتدي بحال. واتّباعهم هو عبادتهم.

{ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ }[36]
بعد أن أمر الله رسوله بأن يحجّهم فيما جعلوهم آلهة، وهي لا تَصَرّف ولا تدبير ولا هداية لها، أعقب ذلك بأنّ عبادتهم إيّاها اتّباع لظنّ باطل، أي لوهم ليس فيه شبهة حقّ.
{ أَكْثَرُهُمْ } الضميرعائد إلى أصحاب ضمير {شُرَكَائِكُمْ} [35] وضمير {مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} [35].
وإنّما عمّهم في ضمائر {شُرَكَائِكُمْ / مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} ، وخصّ بالحكم في اتّباعهم الظنّ أكثرهم، لأنّهم ليسوا سواء في الاعتقاد الباعث لهم على عبادة الأصنام، إيماء إلى أنّ من بينهم عقلاء قليلين ارتقت مدارك أفهامهم فوق أن يعتقدوا أنّ للأصنام تصرفا، ولكنّهم أظهروا عبادتها تبعا للهوى وحفظا للسيادة بين قومهم. وبالتأمّل يظهر أنّ هؤلاء هم خاصة القوم وأهل الأحلام منهم، لأنّ المقام مقام تخطئة ذلك الظنّ. ففيه إيقاظ لجمهورهم، وفيه زيادة موعظة لخاصّتهم ليقلعوا عن الاستمرار في عبادة ما لا تطمئن إليه قلوبهم.
الظن، يطلق على مراتب الإدراك، فيطلق على الاعتقاد الجازم الذي لا يشوبه شك، كما في قوله تعالى {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: 45، 46]، ويطلق على الاعتقاد المشوب بشك. ويظهر أنّه حقيقة في هذا الثاني وأنّه مجاز في الأوّل، لكنّه في الأوّل شائع فصار كالمشترك. وقد تقدّم في سورة البقرة عند الكلام على الآية المذكورة. ومنه قوله تعالى { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [الأعراف:66].
وقد أطلق مجازا على الاعتقاد المخطئ كما في قوله تعالى {إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} وقول النبيء عليه الصلاة والسلام: " إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث ".
وقد يطلق على الظنّ الحصيبي وهو العلم المستند إلى دليل راجح مع احتمال الخطأ احتمالا ضعيفا. وهذا الظن هو مناط التكليف بفروع الشريعة، وهذا المعنى هو المصطلح عليه عند علماء أصول الدين وأصول الفقه. كقوله تعالى {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً} [النور: 12] وقوله تعالى {إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: 12].
فوجه الجمع بين هذه المتعارضات إعمال كلّ في مورده اللائق به بحسب مقامات الكلام وسياقه، فمحمل قوله هنا **{ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً }**، أنّ العلم المشوب بشكّ لا يغني شيئا في إثبات الحقّ المطلوب، وذلك ما يطلب فيه الجزم واليقين من العلوم الحاصلة بالدليل العقلي، لأنّ الجزم فيها ممكن لمن أعمل رأيه إعمالا صائبا، إذ الأدلة العقلية يحصل منها اليقين، فأمّا ما طريق تحصيله الأدلّة الظاهرة التي لا يتأتى اليقين

بها في جميع الأحوال فذلك يكتفى فيه بالظنّ الراجح بعد إعمال النظر وهو ما يسمى بالاجتهاد.

{ ظَنّاً } التنكير للتحقير، أي ظنّا واهيا. ودلت صيغة القصر على أنّهم ليسوا في عقائدهم المنافية للتوحيد على شيء من الحقّ، ردا على اعتقادهم أنّهم على الحقّ.

{ مِنَ } للبدليّة، أي عوضا عن الحقّ.

الحقّ، هو الثابت في نفس الأمر. والمراد به هنا معرفة الله وصفاته مما دلّ عليها الدليل العقلي مثل وجوده وحياته، وما دل عليها فعل الله مثل العلم والقدرة والإرادة.

{ شَيْئاً } مفعول مطلق مؤكد لعامله، أي لا يغني شيئا من الإغناء.

{ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } استئناف للتهديد بالوعيد.

{ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [37]

لمّا كان الغرض الأوّل في هذه السورة إبطال تعجّب المشركين من الإيحاء بالقرآن إلى النبيء ﷺ وتبيين عدم اهتدائهم إلى آياته البيّنات الدالة على أنّه من عند الله، وكيف لم ينظروا في أحوال الرّسول الدالة على أنّ ما جاء به وحي من الله، وكيف سألوه مع ذلك أن يأتي بقرآن غيره أو يبدّل آياته بما يوافق أهواءهم. وتخلّل ذلك كلّه وصف افترائهم الكذب في دعوى الشركاء لله وإقامة الأدلة على انفراد الله بالإلهية وعلى إثبات البعث، وإنذارهم بما نال الأمم من قبلهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم وإمهالهم، وبيان خطئهم في اعتقاد الشرك اعتقادا مبنيّا على سوء النظر والقياس الفاسد، لا جرم عاد الكلام إلى قولهم في القرآن بإبطال رأيهم الذي هو من الظنّ الباطل أيضا، بقياسهم أحوال النبوءة والوحي بمقياس عاداتهم، كما قاسوا حقيقة الإلهية بمثل ذلك، فقارعتهم هذه الآية بذكر صفات القرآن في ذاته الدالة على أنّه حقّ من الله وتحدتهم بالإعجاز عن الإتيان بمثله.

{ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ }

وهذا الكلام مسوق للتحدّي بإعجاز القرآن، وهي مفيدة المبالغة في نفي أن يكون مفترى من غير الله. أي لو تأمّل المتأمل الفطن تأمّلا صادقا في سور القرآن لعلم أنّه من عند الله وأنّه لا يجوز أن يكون من وضع البشر.

{ أَنْ يُفْتَرَى } بمنزلة أن يقال: ما كان ليفترى، بلام الجحود، وإنّما عدل عن الإتيان بلام الجحود، لأنّ الغالب أنّ لام الجحود تقع في نفي كون عن فاعل لا عن مفعول بما تدل عليه اللام من معنى الملك.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } (من) للابتداء المجازي، أي أن يفتريه على الله مفتر.

الافتراء، الكذب، وتقدّم في قوله { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [العقود:103].

{ **وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ** } لمّا نفى عن القرآن الافتراء أخبر عنه بأنّه تصديق وتفصيل، فجرت أخباره كلّها بالمصدر، تنويها ببلوغه الغاية في هذه المعاني حتى اتّحد بأجناسها.

{ **تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** } كونه مصدّقا للكتب السالفة، أي مبيّنا للصادق منها ومميّزا له عمّا زيد فيها وأسيء من تأويلها كما قال تعالى {مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ} [العقود:48].

وأيضا هو مصدَّق (بفتح الدال) بشهادة الكتب السالفة فيما أخذت من العهد على أصحابها أن يؤمنوا بالرّسول الذي يجيء مصدّقا وخاتما. فالوصف بالمصدر صالح للأمرين، لأنّ المصدر يقتضي فاعلا ومفعولا.

التفصيل، التبيين بأنواعه.

{ **الْكِتَابِ** } والظاهر أنّ التعريف تعريف الجنس فيستغرق الكتب كلّها. ومعنى كون القرآن تفصيلا لها أنّه مبيّن لما جاء مجملا في الكتب السالفة، وناسخ لما لا مصلحة للنّاس في دوام حكمه، ودافع للمتشابهات التي ضلّ بها أهل الكتاب. فكلّ ذلك داخل في معنى التفصيل، وهو معنى قوله { وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [العقود:48].

{ **لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } مستأنفة، ردّت مزاعم الذين زعموا أنّه مفترى باقتلاع دعوى افترائه، وأنّها مما لا يروج على أهل الفطن والعقول العادلة، فالريب المنفي عنه هو أن يكون من أحواله في ذاته ومقارناته ما يثير الريب، ولذلك كان ريب المرتابين فيه ريبا مزعوما مدّعى، وهم لو راجعوا أنفسهم لوجدوها غير مرتابة. وقد تقدم القول في نظير هذا في طالعة سورة البقرة[2].

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[38]

{ **أَمْ** } للإضراب الانتقالي من النفي إلى الاستفهام الإنكاري التعجيبي، وهو ارتقاء بإبطال دعواهم أن يكون القرآن مفترى من دون الله.

{ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ** } ومن بديع الأسلوب وبليغ الكلام أن قدّم وصف القرآن بما يقتضي بُعده عن الافتراء، وبما فيه من أجلّ صفات الكتب، وبتشريف نسبته إلى الله تعالى ثم أعقب ذلك بالاستفهام عن دعوى المشركين افتراءه، ليتلقى السامع هذه الدعوى بمزيد الاشمئزاز والتعجّب من حماقة أصحابها، فلذلك جعلت دعواهم افتراءه في حيّز الاستفهام الإنكاري التعجيبي.

{ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ** } أمر الله نبيّه أن يجيبهم عن دعوى الافتراء بتعجيزهم، وأن يقطع الاستدلال عليهم.

فأمرهم بأن يأتوا بسورة مثله. والأمر أمر تعجيز، وقد وقع التحدّي بإتيانهم بسورة تماثل سور القرآن، أي تشابهه في البلاغة وحسن النظم. وقد تقدّم تقرير هذه المماثلة عند تفسير قوله تعالى {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ} [البقرة:23].

{ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } هو كقوله {وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة:23].

{ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ } حذف المفعول لظهوره من فعل { ادْعُوا }، أي من استطعتم دعوته لنصرتكم وإعانتكم على تأليف سورة مثل سور القرآن.

{ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } [39]

{ بَلْ } إضراب انتقالي لبيان كنه تكذيبهم، وأنّ حالهم في المبادرة بالتكذيب قبل التأمّل أعجب من أصل التكذيب، إذ أنّهم بادروا إلى تكذيبه دون نظر في أدلّة صحّته التي أشار إليها قوله { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ } [37].

التكذيب، النسبة إلى الكذب، أو الوصف بالكذب سواء كان عن اعتقاد أم لم يكنه.

{ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ } اختيار التعبير عن القرآن بطريق الموصولية لما تؤذن به صلة الموصول من عجيب تلك الحالة المنافية لتسليط التكذيب، فهم قد كذّبوا قبل ان يختبروا، وهذا من شأن الحماقة والجهالة.

الإحاطة، يكنى بها عن التمكّن من الشيء بحيث لا يفوت منه. ومنه قوله تعالى { وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً } [طه: 110] وقوله {وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ} [الجن: 28] أي علمُه.

{ بِعِلْمِهِ } الباء للتعدية. وشأنها مع فعل الإحاطة أن تدخل على المحاط به وهو المعلوم، وهو هنا القرآن، وعدل عن ذلك للمبالغة إذ جعل العلم معلوما. أي وكان الحقّ أن يحيطوا بعلمه، لأن توفّر أدلة صدقه يحتاج إلى زيادة تأمّل وتدقيق. وفي هذا مبالغة في فرط احتياجه إلى صدق التأمّل، ومبالغة في تجهيل الذين بادروا إلى التكذيب من دون تأمّل.

{ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } معطوفة على الصلة، أي كذّبوا بما لما يأتهم تأويله. وهذا ارتقاء في وصفهم بقلّة الأناة والتثبّت، أي لو انتظروا حتى يأتيهم تأويل القرآن، أي ما يحتاج منه إلى التأويل، بل هم صمّموا على التكذيب قبل ظهور التأويل.

التأويل، مشتقّ من آل إذا رجع إلى الشيء. وهو يطلق على تفسير اللفظ الذي خفي معناه تفسيرا يظهر

المعنى، فيؤول واضحا بعد أن كان خفيّا، وهو بهذا الإطلاق قريب من معنى التفسير. وقد مرّ في سورة آل عمران الآية [7]، وفي المقدمة الأولى من هذا التفسير.

والتأويل الذي في هذه الآية يحتمل المعنيين، ولعل كليهما مراد. أي لمّا يأتهم تأويل ما يدّعون أنّهم لم يفهموه من معاني القرآن لعدم اعتيادهم بمعرفة أمثالها، مثل حكمة التشريع، ووقوع البعث، وتفضيل ضعفاء المؤمنين على صناديد الكافرين، وتنزيل القرآن منجما، ونحو ذلك. فهم كانوا يعتبرون الأمور بما ألفوه في المحسوسات، وكانوا يقيسون الغائب على الشاهد، فكذّبوا بذلك وأمثاله قبل أن يأتيهم تأويله. ولو آمنوا ولازموا النبيء ﷺ لعلموها واحدة بعد واحدة.

وأيضا لمّا يأتهم تأويل، ما حسبوا عدم التعجيل به دليلا على الكذب كما قالوا {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: 32] ظنّا أنّهم إن استغضبوا الله عجّل لهم بالعذاب فظنّوا تأخّر حصول ذلك دليلا على أنّ القرآن ليس حقّا من عنده. وكذلك كانوا يسألون آيات من الخوارق، كقولهم {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً} [الإسراء: 90]. ولو أسلموا ولازموا النبيء ﷺ لعلموا أنّ الله لا يعبأ باقتراح الضُلّال.

{ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } استئناف، والخطاب للنبيء ﷺ أو لمن يتأتى منه السماع. والإشارة بـ {كَذَلِكَ} إلى تكذيبهم المذكور، أي كان تكذيب الذين من قبلهم كتكذيبهم. والمراد بالذين من قبلهم الأمم المكذبون رسلهم كما دلّ عليه المشبّه به. ومما يقصد من هذا التشبيه أمور:

أحدها، ، التعريض بالنذارة لهم بحلول العذاب بهم كما حل بأولئك الأمم التي عرف السامعون مصيرها وشاهدوا ديارها.

الثاني، تسلية النبيء ﷺ بأنّه ما لقي من قومه إلّا مثل ما لقي الرسل السابقون من أقوامهم.

{ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } خطاب للنبيء ﷺ. والأمر بالنظر في عاقبة الظالمين مقصود منه قياس أمثالهم في التكذيب عليهم.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ } [40]

عطف على {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ} [39] لأنّ الإخبار عن تكذيبهم بأنّه دون الإحاطة بعلم ما كذّبوا به يقتضي أنّ تكذيبهم به ليس عن بصيرة وتأمّل. وما كان بهاته المثابة كان حال المكذّبين فيه متفاوتا حتّى يبلغ إلى أن يكون تكذيبا مع اعتقاد صدقه باطنا. ولذلك جاء موقع هذه الآية عقب الأخرى موقع التخصيص للعام في الظاهر، أو البيان للمجمل من عدم الإحاطة بعلمه.

فكان حالهم في الإيمان بالقرآن كحالهم في اتباع الأصنام إذ قال فيهم {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً} [36]، فأشعر لفظ {أَكْثَرُهُمْ} بأنّ منهم من يعلم بطلان عبادة الأصنام ولكنّهم يتبعونها مشايعة لقومهم ومكابرة للحقّ. وكذلك حالهم في التكذيب بنسبة القرآن إلى الله، فمنهم من يؤمن به ويكتم إيمانه مكابرة وعداء، ومنهم من لا يؤمنون به ويكذّبون عن تقليد لكبرائهم. والفريقان مشتركان في التكذيب في الظاهر كما أنبأت عنه (من) التبعيضية. فمعنى يؤمن به، يصدّق بحقّيته في نفسه ولكنّه يظهر تكذيبه، جمعا بين إسناد الإيمان إليهم وبين جعلهم بعضا من الذين يقولون { افْتَرَاهُ }.

واختيار المضارع للدلالة على الاستمرار والاصرار.

{ **وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ** } تعريض بالوعيد والإنذار، وبأنّهم من المفسدين. فالمعنى، وربّك أعلم بهم لأنّه أعلم بالمفسدين الذين هم من زمرتهم.

{ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ } [41]

لما كان العلم بتكذيبهم حاصلا ممّا تقدّم من الآيات تعيّن أنّ التكذيب المفروض هنا بواسطة أداة الشرط هو التكذيب في المستقبل، أي الاستمرار على التكذيب. وذلك أنّ كل ما تبيّن به صدق القرآن هو مثبِت لصدق الرّسول ﷺ الذي أتى به. أي إن أصرّوا على التكذيب بعد ما قارعتهم به من الحجّة فاعلم أنّهم لا تنجع فيهم الحجج، وأعلن لهم بالبراءة منهم كما تبرّؤوا منك.

{ **فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ** } المتاركة. وهو مما أجري مُجرى المثل، ولذلك بني على الاختصار ووفرة المعنى، فأفيد فيه معنى الحصر بتقديم المعمول، وبالتعبير بالإضافة بـ {عَمَلِي} و {عَمَلُكُمْ}.

البريء، الخليّ عن التلبّس بشيء وعن مخالطته. وهو فعيل من برّأ المضاعف على غير قياس. وفعل بَرَّأَ مشتق من برِيء (بكسر الراء) من كذا، إذا خلت عنه تبعته والمؤاخذة به.

{ **أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ** } بيان لجملة { لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ } ولذلك فصلت. وهذا التركيب لا يراد به صريحه وإنّما يراد به الكناية عن المباعدة. وقد جاء هذا المكنى به مصرّحا به في قوله تعالى { فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ } [الشعراء: 216]

وإنّما عدل عن الإتيان بالعمل مصدرا كما أتي به في قوله {لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ} إلى الإتيان به فعلا صلة لـ {مَا} الموصولة للدلالة على البراءة من كل عمل يحدث في الحال والاستقبال، وأمّا العمل الماضي فلكونه قد انقضى لا يتعلق الغرض بذكر البراءة منه. ولو عبّر بالعمل لربما توهم أن المراد عمل خاص لأنّ المصدر المضاف لا يعم. ولتجنب إعادة اللفظ بعينه في الكلام الواحد، لأنّ جملة البيان من تمام المبين، ولما

في {تَعْمَلُونَ} من المد الذي يراعي الفاصلة. وهذا من دقائق فصاحة القرآن الخارجة عن الفصاحة المتعارفة بين الفصحاء.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ [42] وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ } [43]

لما سبق تقسيم المشركين بالنسبة إلى اعتقادهم في الأصنام إلى من يتّبع الظنّ ومن يوقن بها، وتقسيمهم بالنسبة لتصديق القرآن إلى قسمين؛ من يؤمن بصدقه باطنا ومن لا يؤمن بصدقه، كمّل في هذه الآية تقسيمهم بالنسبة للتلقّي من النبيء ﷺ إلى قسمين؛ قسم يحضرون مجلسه ويستمعون إلى كلامه، وقسم لا يحضرون مجلسه وإنّما يتوسّمونه وينظرون سمته. وفي كلا الحالين مسلك عظيم إلى الهدى لو كانوا مهتدين، فإنّ سماع كلام النبيء وإرشاده ينير عقول القابلين للهداية، فلا جرم أن كان استمرار المشركين على كفرهم مع سماعهم كلام النبيء أو رؤية هديه مؤذنا ببلوغهم الغاية في الضلالة، ميئوسا من نفوذ الحق إليهم، وليس ذلك لقصور كلامه عن قوّة الإبلاغ إلى الاهتداء. كما أنّ التوسّم في سمته الشريف ودلائل نبوءته الواضحة في جميع أحواله، كاف في إقبال النفس عليه بشراشرها، فما عدم انتفاع الكفّار، الذين يعاينون ذاته الشريفة بمعاينتها، إلّا لشدّة بغضهم إيّاه وحسدهم.

وجيء بالفعل المضارع دون اسم الفاعل للدلالة على تكرّر الاستماع والنظر.

{ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ } تفريع لبيان سبب عدم انتفاعهم بسماع كلام النبيء ﷺ، وتسلية له وتعليم للمسلمين، فقُرّبت إليهم هذه الحالة الغريبة، بأنّ أولئك المستمعين بمنزلة صمّ لا يعقلون.

وبني على ذلك استفهام عن التمكّن من إسماع هؤلاء الصمّ وهدي هؤلاء العمي. وهذان الاستفهامان مستعملان في التعجيب من حالهم إذ يستمعون إلى دعوة النبيء ﷺ ولا يعقلونها، وإذ ينظرون أعماله وسيرته ولا يهتدون بها. فليس في هذين الاستفهامين معنى الإنكار على محاولة النبيء إبلاغهم وهديهم، لأنّ المقام ينبو عن ذلك.

{ وَلَوْ كَانُوا } (لو) وصلية دالة على المبالغة في الأحوال، وهي التي يكون الذي بعدها أقصى ما يعلق به الغرض. ولذلك يقدّرون لتفسير معناها جملة قبل جملة (لو) مضمونها ضد الجملة التي دخلت عليها (لو)، فيقال هنا: أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون بل ولو كانوا لا يعقلون.

ولما كان الغرض هنا التعجيب من حالهم إذ لم يصلوا إلى الهدى كان عدم فهمهم وعدم تبصرهم كناية عن كونهم لا يعقلون وكونهم لا بصائر لهم.

{ **لا يَعْقِلُونَ** } ليس لهم إدراك العقول، أي ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم، فإنّ الأصم العاقل ربما تفرّس في مخاطبه واستدلّ بملامحه.

{ **لا يُبْصِرُونَ** } لا بصيرة لهم يتبصّرون بها. وفي (الكشّاف) أنّه يقال: أبصر إذ استعمل بصيرته، وهي التفكير والاعتبار بحقائق الأشياء. وكلام (الأساس) يحوم حوله. وأيًّاما كان، فالمراد معنى التأمّل.

وقد عُلم أنّ هذه الحالة التي اتّصفوا بها هي حالة جعلها الله عقابا لهم في تمّردهم في كفرهم، وتصلّبهم في شركهم، وإعراضهم عن دعوة رسوله، ولذلك جعلهم صمّا وعميا.

فبهذا النظم البديع المشتمل على الاستعارة في أوّله وعلى الكناية في آخره وعلى التعجيب وتقويته في وسطه حصل تحقيق أنّهم لا ينتفعون بأسماعهم ولا بأبصارهم وأنّهم لا يعقلون ولا يتبصّرون في الحقائق.

{ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [44]

تذييل، وشمل عموم النّاس المشركين الذين يستمعون ولا يهتدون وينظرون ولا يعتبرون. والمقصود من هذا التذييل التعريض بالوعيد بأن سينالهم ما نال جميع الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسل الله. وعموم {النَّاسَ} الأول على بابه وعموم {النَّاسَ} الثاني مراد به خصوص النّاس الذين ظلموا أنفسهم بقرينة الخبر.

{ **وَلَكِنَّ** } أشعر هذا الاستدراك بكلام مطوي بعد نفي الظلم عن الله، وهو أنّ الله لا يظلم النّاس بعقابه من لم يستوجب العقاب، ولكن النّاس يظلمون فيستحقّون العقاب. فصار المعنى، أنّ الله لا يظلم الناس بالعقاب ولكنهم يظلمون أنفسهم بالاعتداء على ما أراد منهم فيعاقبهم عدلا، لأنّهم ظلموا فاستوجبوا العقاب.

{ **أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } تقديم المفعول على عامله لإفادة تغليطهم بأنّهم ما جنوا بكفرهم إلّا على أنفسهم.

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } [45]

عطف على { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً } [28] عطف القصّة على القصّة. فإنّه لمّا جاء فيما مضى ذكر يوم الحشر، إذ هو حين افتضاح ضلال المشركين ببراءة شركائهم منهم، أتبع ذلك بالتقريع على عبادتهم الأصنام مع وضوح براهين الوحدانيّة لله تعالى. وإذ كان القرآن قد أبلغهم ما كان يعصمهم من ذلك الموقف الذليل لو اهتدوا به، أتبع ذلك بالتنويه بالقرآن وإثبات أنّه خارج عن طوق البشر، وتسفيه الذين كذّبوه وتفنّنوا في الإعراض عنه، واستوفي الغرض حقّه، عاد الكلام إلى ذكر يوم الحشر مرة أخرى، إذ هو حين خيبة أولئك

الذين كذّبوا بالبعث وهم الذين أشركوا، وظهر افتضاح شركهم في يوم الحشر فكان مثل رد العجز على الصدر.

{ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ }

{ كَأَنْ } مخفّفة (كأنَّ)، وإذا خفّفت يكون اسمها محذوفا غالبا، والتقدير هنا: كأنّهم لم يلبثوا إلّا ساعة من النهار. وقد دل على الاسم المحذوف ما تقدّم من ضمائرهم.

{ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ } وصف غير مراد منه التقييد، إذ لا فرق في الزمن القليل بين كونه من النّهار أو من الليل، وإنّما هذا وصف خرج مخرج الغالب، لأنّ النّهار هو الزمن الذي تستحضره الأذهان في المتعارف. كما في الحديث: " وإنّما أحلت لي ساعة من نهار". والمقصود ساعة من الزمان وهي الساعة التي يقع فيها قتال أهل مكة، من غير التفات إلى تقييد بكونه في النهار، وإن كان صادف أنّه في النهار.

الساعة، المقدار من الزمان، والأكثر أن تطلق على الزمن القصير إلّا بقرينة تصرفها عن ذلك.

والمقصود من التشبيه التعريض بإبطال دعوى المشركين إحالتهم البعث بشبهة أنّ طول اللبث وتغيّر الأجساد ينافي إحياءها، { يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً } [النازعات: 10، 11].

{ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ } حال من الضمير المنصوب في { نَحْشُرُهُمْ }.

التعارف، تفاعل من عرف، أي يعرف كل واحد منهم يومئذ من كان يعرفه في الدنيا ويعرفه الآخر كذلك.

والمقصود من ذكر هذه الحال كالمقصود من ذكر حالة {كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ} لتصوير أنّهم حشروا على الحالة التي كانوا عليها في الدنيا في أجسامهم وإدراكهم. زيادة في بيان إبطال إحالتهم البعث بشبهة أنّه ينافي تمزق الأجسام في القبور وانطفاء العقول بالموت.

{ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } عدل عن الأظمار إلى الموصولية، للإيماء إلى أنّ سبب خسرانهم هو تكذيبهم بلقاء الله، وذلك التكذيب من آثار الشرك. فظهر خسرانهم يومئذ بأنّهم نفوا البعث فلم يستعدّوا ليومه بقبول ما دعاهم إليه الرسول ﷺ.

{ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ }[46]

كان ذكر تكذيبهم منذرا بترقّب عذاب يحل بهم في الدنيا كما حلّ بالقرون الذين من قبلهم، وكان معلوما من خلق النبيء ﷺ رأفته بالنّاس ورغبته أن يتمّ هذا الدين وأن يهتدي جميع المدعوين إليه، فربما كان النبيء يحذر أن ينزل بهم عذاب الاستئصال فيفوت اهتداؤهم. وكان قوله: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [يونس: 11] تصريحا بإمكان

استبقائهم وإيماء إلى إمهالهم، فجاء هذا الكلام بيانا لذلك وإنذارا بأنّهم إن أمهلوا فأبقي عليهم في الدنيا فإنّهم غير مفلتين من المصير إلى عقاب الآخرة حين يرجعون إلى تصرّف الله دون حائل.

{ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ } هو عذاب الدنيا، فإنّهم أوعدوا بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

فالمعنى، إن وقع عذاب الدنيا بهم فرأيته أنت أو لم يقع فتوفاك الله، فمصيرهم إلينا على كل حال.

وإنما كُنِي عن التعجيل بأن يريه الله الرسول، للإيماء إلى أنّ حالة تعجيل العذاب لا يريد الله منها إلّا الانتصاف لرسوله، بأن يريه عذاب معانديه، ولذلك بني على ضدّ ذلك، ضد التعجيل، فكني بتوفّيه عن عدم تعجيل العذاب بل عن تأخيره، إذ كانت حكمة التعجيل هي الانتصاف للرّسول ﷺ.

{ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ } اسمية تفيد الدوام والثبات، أي ذلك أمر في تصرّفنا دوما.

{ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ } خبر مستعمل في معناه الكنائي، إذ هو كناية عن الوعيد بالجزاء على جميع ما فعلوه في الدنيا بحيث لا يغادر شيئا.

الشهيد، الشاهد، وحقيقته المخبر عن أمر فيه تصديق للمخبر، واستعمل هنا في العالم علم تحقيق.

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }[47]

عطف على {وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ} [46]، وهي بمنزلة السبب لمضمون الجملة التي قبلها. فقد بيّنت أنّ مجيء الرّسول للأمّة هو منتهى الإمهال، وأنّ الأمّة إن كذّبت رسولها استحقّت العقاب على ذلك. فهذا إعلام بأنّ تكذيبهم الرّسول هو الذي يجرّ عليهم الوعيد بالعقاب.

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ } ليست هي المقصود من الإخبار بل هي تمهيد للتفريع { فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ }. فلذلك لا يؤخذ من الجملة الأولى تعيّن أن يُرسل رسول لكلّ أمّة، لأنّ تعيين الأمّة بالزمن أو بالنسب أو بالموطن لا ينضبط. وقد تخلو قبيلة أو شعب أو عصر أو بلاد عن مجيء رسول فيها ولو كان خلوّها زمنا طويلا. وقد قال الله تعالى {لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ} [القصص: 46].

فالمعنى، ولكلّ أمّة من الأمم ذوات الشرائع رسول معروف جاءها مثل عاد وثمود ومدين واليهود والكلدان.

{ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ } الفاء للتفريع و(إذا) للظرفيّة، مجرّدة عن الاستقبال. والمعنى، أنّ في زمن مجيء الرسول يكون القضاء بينهم بالقسط.

{ بَيْنَهُمْ } تدل على توسّط في شيئين أو أشياء، فتعيّن أنّ الضمير الذي أضيفت إليه هنا عائد إلى مجموع الأمّة ورسولها، أي قضي بين الأمّة ورسولها بالعدل، أي بحسب عملهم مع رسولهم.

والمعنى: أنّ الله يمهل الأمّة على ما هي فيه من الضلال فإذا أرسل إليها رسولا فإرساله أمارة على أنّ الله تعالى أراد إقلاعهم عن الضلال فانتهى أمد الإمهال بإبلاغ الرسول إليهم مراد الله منهم فإن أطاعوه رضي

الله عنهم وربحوا، وإن عصوه وشاقوه قضى الله بين الجميع.

{ **قُضِيَ بَيْنَهُمْ** } أشعر بحدوث مشاقة بين الكافرين وبين المؤمنين وفيهم الرّسول.

وهذا تحذير من مشاقة النبيء ﷺ وإنذار لأهل مكّة بما نالهم. وقد كان من بركة النبيء ﷺ ورغبته أن أبقى الله على العرب فلم يستأصلهم، ولكنّه أراهم بطشته وأهلك قادتهم يوم بدر، ثم ساقهم بالتدريج إلى حظيرة الإسلام حتى عمّهم وأصبحوا دعاته للأمم وحملة شريعته للعالم.

{ **وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** } حال مؤكّدة لعاملها الذي هو { قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ } للإشعار بأنّ الذنب الذي قضي عليهم بسببه ذنب عظيم.

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [48] قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ } [49]

لمّا بيّنت الآية السالفة أنّ تعجيل الوعيد في الدنيا لهم وتأخيره سواء عند الله تعالى، إذ الوعيد الأتمّ هو وعيد الآخرة، أتبعت بهذه الآية، حكاية لتهكّمهم على تأخير الوعيد.

{ **وَيَقُولُونَ** } صيغة المضارع لقصد استحضار الحالة، للدلالة على تكرّر صدوره منهم.

{ **الْوَعْدُ** } أي الموعود به، أي متى ظهوره؟ والوعد المذكور هنا ما هُدّدوا به من عذاب الدنيا.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } الإشارة إلى أنّهم مكذّبون بحصوله بطريق الإيماء، أي إن كنتم صادقين في أنّه واقع فعيّنوا لنا وقته، وهم يريدون أننا لا نصدّقك حتى نرى ما تتوعّدنا به.

والسؤال مستعمل في الاستبطاء، وهو كناية عن عدم اكتراثهم به وأنّهم لا يأبهون به.

وخطابهم للنبي وللمسلمين، جمعوهم في الخطاب لأنّ النبيء أخبر به والمسلمين آمنوا به، فخاطبوهم بذلك جميعا لتكذيب النبيء، وإدخال الشك في نفوس المؤمنين به. وإنّما خصّ الرسول عليه الصلاة والسلام بالأمر بجوابهم لأنّه الذي أخبرهم بالوعيد وأمّا المؤمنون فتابعون له في ذلك.

{ **قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً** } أي لا أستطيع، كما تقدّم في قوله تعالى { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً}]المائدة:76]. وقدّم الضرّ على النفع لأنّه أنسب بالغرض لأنّهم أظهروا استبطاء ما فيه مضرّتهم وهو الوعيد، ولأنّ استطاعة الضرّ أهون من استطاعة النفع فيكون ذكر النفع بعده ارتقاء.

{ **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** } استثناء منقطع بمعنى لكن، أي لكن نفعي وضري هو ما يشاءه الله لي.

فكان معنى الجواب، أنّ الوعد من الله لا مني وأنا لا أقدر على إنزاله بكم لأنّ له أجلا عند الله.

{ **لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** } تتضمّن أنّ سبب عدم المقدرة على ذلك هو أنّ الله قدّر آجال أحوال الأمم. ومن ذلك أجل

حلول العقاب بهم، بحكمة اقتضت تلك الآجال، فلا يحلّ العقاب بهم إلّا عند مجيء الأجل، فلا يقدر أحد على تغيير ما حدّده الله.

{ **إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** } صفة، أي أجل محدود لا يقبل التغيّر. وقد تقدّم الكلام على نظيرها في سورة الأعراف.

و {إِذَا} في هذه الآية مشربة معنى الشرط، فلذلك اقترنت جملة عاملها بالفاء الرابطة للجواب.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ [50] أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ } [51]

هذا جواب ثان عن قولهم {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [4] باعتبار ما يتضمّنه قولهم بأنّهم يؤمنون إذا حقّ الوعد الذي توعّدهم به. وهذا الجواب إبداء لخلل كلامهم واضطراب استهزائهم.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً** } تفنّن في تخييل التهويل لهذا العذاب الموعود، تخييلا يناسب تحقّق وقوعه. فإنّ هاذين الوقتين لا يخلو حلول الحوادث عن أحدهما.

البيات، اسم مصدر التبييت، ليلا. وذلك مباغتة.

{ **مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ** } استفهام مستعمل في الإنكار عليهم، وفي التعجيب من تعجّلهم العذاب بنيّة أنّهم يؤمنون به عند نزوله. أي لا شيء من العذاب بصالح لاستعجالهم إيّاه، لأنّ كلّ شيء منه مهلك حائل بينهم وبين التمكّن من الإيمان وقت حلوله.

{ **أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ** } حرف المهلة(ثمّ) للدلالة على التراخي الرتبي كما هو شأنها في عطفها الجمل. لأنّ إيمانهم بالعذاب الذي كانوا ينكرون وقوعه حين وقوعه بهم أغرب وأهمّ من استعجالهم به.

والاستفهام مستعمل في الإنكار، بمعنى التغليط وإفساد رأيهم، فإنّهم وعدوا بالإيمان عند نزول العذاب استهزاء منهم، فوقع الجواب بمجاراة ظاهر حالهم وبيان أخطائهم، أي أتؤمنون بالوعد عند وقوعه.

{ **آلْآنَ** } استفهام إنكاري عن حصول إيمانهم عند حلول ما توعّدهم، فعبّر عن وقت وقوعه باسم الزمان الحاضر.

{ **وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ** } ترشيح. وإمّا تقدير قول في الكلام، أي يقال لهم إذا آمنوا بعد نزول العذاب: آلآن آمنتم، كما ذهب إليه أكثر المفسرين. فذلك تقدير معنى لا تقدير نظم وإعراب، لأنّ نظم هذا الكلام أدق من ذلك.

{ **تَسْتَعْجِلُونَ** } تكذّبون، فعبّر عن التكذيب بالاستعجال حكاية لحاصل قولهم {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} [48] الذي هو في صورة الاستعجال، والمراد منه التكذيب.
وتقديم المجرور للاهتمام بالوعد الذي كذّبوا به، وللرعاية على الفاصلة.

{ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ }[52]

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، فهذا عذاب أعظم من العذاب الذي في قوله {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً } فإن ذلك عذاب الدنيا وأمّا عذاب الخلد فهو عذاب الآخرة، وهذا أعظم.
{ **ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا** } صيغة الماضي مستعملة في معنى المستقبل تنبيها على تحقيق وقوعه.
{ **لِلَّذِينَ ظَلَمُوا** } هم القائلون {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} [48]. ومعنى ظلموا، أشركوا.
الذوق، مستعمل في الإحساس، وهو مجاز مشهور بعلاقة الإطلاق.
{ **هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** } الاستفهام إنكاري بمعنى النفي. والجملة استئناف بياني، لأنّ جملة {ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ} تثير سؤالا في نفوسهم عن مقدار ذلك العذاب فيكون الجواب على أنّه على قدر فظاعة ما كسبوه من الأعمال. مع إفادة تعليل تسليط العذاب عليهم.

{ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } [53]

هذا حكاية فنّ من أفانين تكذيبهم، فمرّة يتظاهرون باستبطاء الوعد استخفافا به، ومرّة يقبلون على الرسول في صورة المستفهم الطالب فيسألونه: أهذا العذاب الخالد، أي عذاب الآخرة، حقّ؟
الحقّ، الثابت الواقع، فهو بمعنى حاق، أي ثابت، أي أن وقوعه ثابت.
{ **أَحَقٌّ هُوَ** } استفهاميّة معلّقة فعل {يَسْتَنْبِئُونَكَ} عن العمل في المفعول الثاني.
{ **قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ** } أجيبوا على طريقة الأسلوب الحكيم بحمل كلامهم على خلاف مرادهم تنبيها على أنّ الأولى بهم سؤال الاسترشاد، تغليطا لهم واغتناما لفرصة الإرشاد بناء على ظاهر حال سؤالهم، ولذلك أكّد الجواب بالتوكيد اللفظي إذ جمع بين حرف {إي} وهو حرف جواب يحقّق به المسؤول عنه، وبين الجملة الدالة على ما دل عليه حرف الجواب، وبالقسم، وإنّ، ولام الابتداء، وكلّها مؤكّدات.
{ **إي** } (بكسر الهمزة) حرف جواب لتحقيق ما تضمّنه سؤال سائل، فهو مرادف نعم ، ولكن من خصائص هذا الحرف أنّه لا يقع إلّا وبعده القسم.

{ **وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** } معطوفة على جملة جواب القسم فمضمونها من المقسم عليه. أي هو واقع وأنتم مصابون به غير مفلتين منه.

المعجزون، الغالبون. أي وما أنتم بغالبين الذي طلبكم، أي بمفلتين. وقد تقدم عند قوله تعالى {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [الأنعام:134].

{ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }[54]

{ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ }

الأظهر أنّ هذه الجملة من بقيّة القول، فهي عطف على جملة {إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ } [53] إعلاما لهم بهول ذلك العذاب عساهم أن يحذروه، ولذلك حذف المتعلق الثاني لفعل { افْتَدَتْ } لأنّه يقتضي مفديا به ومفديا منه، أي لافتدت به من العذاب. والمعنى، أنّ هذا العذاب لا تتحمّله أية نفس على تفاوت الأنفس في احتمال الآلام.

{ **ظَلَمَتْ** } أشركت، وهو ظلم النفس {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }.

{ **مَا فِي الْأَرْضِ** } يعمّ كل شيء في ظاهر الأرض وباطنها، لأنّ الظرفيّة ظرفية جمع واحتواء.

افتدى، مرادف فدى، وفيه زيادة تاء الافتعال لتدل على زيادة المعنى، أي لتكلّفت فداءها به.

{ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }

جملة مستأنفة معطوفة عطف كلام على كلام. وضمير {أَسَرُّوا} عائد إلى {كُلِّ نَفْسٍ} باعتبار المعنى مع تغليب المذكّر على المؤنث.

{ **وَأَسَرُّوا** } عبّر عن الإسرار المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقيق وقوعه حتى كأنّه قد مضى.

والمعنى: وسيسرّون الندامة قطعا. وكذلك قوله { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ }

الندامة، الندم. وهو أسف يحصل في النفس على تفويت شيء ممكن عمله في الماضي. والندم من هواجس النفس، فهو أمر غير ظاهر ولكنه كثير، أي يصدر عن صاحبه قول أو فعل يدل عليه، فإذا تجلّد صاحب الندم فلم يظهر قولا ولا فعلا فقد أسرّ الندامة، أي قصرها على سرّه فلم يظهرها، وإنما يكون ذلك من شدة الهول. فإنّما أسروا الندامة لأنّهم دهشوا لرؤية ما لم يكونوا يحتسبون، فلم يطيقوا صراخا ولا عويلا.

{ **قُضِيَ بَيْنَهُمْ** } قضي فيهم، أي قضي على كل واحد منهم بما يستحقّه بالعدل، فالقضاء بالعدل وقع فيهم. وليس المعنى أنه قضي بين كل واحد وآخر لأن القضاء هنا ليس قضاء نزاع ولكنه قضاء زجر وتأنيب، إذ

ليس الكلام هنا إلا على المشركين وهم صنف واحد.

{ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } جملة حالية.

{ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ [55] هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [56]

تذييل تنهية الكلام المتعلّق بصدق الرّسول والقرآن وما جاء به من الوعيد وترقّب يوم البعث ويوم نزول العذاب بالمشركين. وقد اشتمل هذا التذييل على مجمل تفصيل ذلك الغرض، وعلى تعليله بأنّ من هذه شؤونه لا يعجز عن تحقيق ما أخبر بوقوعه.

فكان افتتاحه بأنّ الله هو المتوحّد بملك ما في السماوات والأرض فهو يتصرّف في النّاس وأحوالهم في الدنيا والآخرة تصرفا لا يشاركه فيه غيره، فتصرّفه في أمور السماء شامل للمغيّبات كلّها، منها إظهار الجزاء بدار الثواب ودار العذاب، وتصرّفه في أمور الأرض شامل لتصرّفه في النّاس. ثم أعقب بتحقيق وعده، وأعقب بتجهيل منكريه، وأعقب بالتصريح بالمهم من ذلك وهو الإحياء والإماتة والبعث.

{ أَلا إِنَّ } افتتح هذا التذييل بحرف التنبيه، وأعيد فيه حرف التنبيه للاستيعاء لسماعه، وللتنبيه على أنّه كلام جامع هو حوصلة الغرض الذي سمعوا تفصيله آنفا. وأكّد بحرف التوكيد بعد حرف التنبيه في الموضعين للاهتمام به، ولرد إنكار منكري بعضه والذين هم بمنزلة المنكرين بعضه الآخر.

{ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } اللام في {لِلَّهِ} للملك، و(ما) اسم موصول مفيد لعموم كل ما ثبتت له صلة الموصول من الموجودات الظاهرة والخفيّة.

وعد الله، هو وعده بعذاب المشركين، وهو وعيد. ويجوز أن يكون وعده مرادا به البعث، قال تعالى **{** كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**}**، فسمّى إعادة الخلق وعدا.

{ وَعْدَ اللَّهِ } أظهر اسم الجلالة في الجملة الثانية دون الإتيان بضميره لتكون الجملة مستقلّة فتجري مجرى المثل والكلام الجامع.

{ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } استدراك، لأن الجملتين اللتين قبله أريد بهما الردّ على معتقدي خلافهما فصارتا في قوّة نفي الشك عن مضمونهما، فكأنّه قيل: ولكن أكثرهم لا يعلمون فلذلك يشكّون.

وتقييد نفي العلم بالأكثر إشارة إلى أنّ منهم من يعلم ذلك ولكنّه يجحده مكابرة، كما قال في الآية السابقة {وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ}، فضمير {أَكْثَرَهُمْ} للمتحدّث عنهم فيما تقدّم.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}[57]

خطاب جميع النّاس بالتعريف بشأن القرآن وهديه، بعد أن كان الكلام في جدال المشركين والاحتجاج عليهم بإعجاز القرآن على أنّه من عند الله، وأنّ الآتي به صادق فيما جاء به من تهديدهم وتخويفهم من عاقبة تكذيب الأمم رسلها، وما ذيّل به ذلك من الوعيد وتحقيق ما توعّدوا به. وعلى هذا الوجه فليس في الخطاب بـ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} التفات من الغيبة إلى الخطاب.

والمعنى، أنّ القرآن موعظة لجميع النّاس وإنّما انتفع بموعظته المؤمنون فاهتدوا وكان لهم رحمة.

ويجوز أن يكون خطابا للمشركين بناء على الأكثر في خطاب القرآن بـ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، فيكون ذكر الثناء على القرآن بأنّه هدى ورحمة للمؤمنين، إدماجا وتسجيلا على المشركين بأنّهم حرموا أنفسهم الانتفاع بموعظة القرآن وشفائه لما في الصدور، فانتفع المؤمنون بذلك.

{ قَدْ } للتأكيد، لأنّ في المخاطبين كثيرا ممن ينكر هذه الأوصاف للقرآن.

المجيء، مستعمل مجازا في الإعلام بالشيء، كما استعمل للبلوغ أيضا، إلّا أنّ البلوغ أشهر في هذا وأكثر، يقال: بلغني خبر كذا، ويقال أيضا: جاءني خبر كذا أو أتاني خبر كذا. وإطلاق المجيء عليه في هذه الآية أعزّ.

والمراد بما جاءهم وبلغهم هو ما أنزل من القرآن وقرئ عليهم، وقد عبّر عنه بأربع صفات هي أصول كماله وخصائصه وهي (**موعظة - شفاء لما في الصدور - هدى - رحمة للمؤمنين**).

الموعظة، الوعظ كلام فيه نصح وتحذير مما يضرّ. وقد مضى الكلام عليها عند قوله تعالى {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ} [النساء:63]، وعند قوله تعالى {مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ} [الأعراف:145].

{ مِنْ رَبِّكُمْ } للتنبيه على أنّها بالغة غاية كمال أمثالها.

الشفاء، تقدّم عند قوله تعالى {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} [براءة:14]. وحقيقته، زوال المرض والألم، ومجازه، زوال النقائص والضلالات وما فيه حرج على النفس، وهذا هو المراد هنا.

الهدى، تقدّم في قوله تعالى {هُدىً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة:2]، وأصله الدالة على الطريق الموصل إلى المقصود. ومجازه، بيان وسائل الحصول على المنافع الحقّة.

الرحمة، تقدّمت في تفسير البسملة.

وقد أومأ وصف القرآن بالشفاء إلى تمثيل حال النفوس بالنسبة إلى القرآن وإلى ما جاء به، بحال المعتلّ

السقيم الذي تغير نظام مزاجه عن حالة الاستقامة فأصبح مضطرب الأحوال خائر القوى فهو يترقّب الطبيب الذي يدبّر له بالشفاء.

وقد كان هذا التمثيل لكماله قابلا لتفريق تشبيه أجزاء الهيئة المشبهة بأجزاء الهيئة المشبه بها، فزواجر القرآن ومواعظه يشبه بنصح الطبيب على وجه المكنية، وإبطاله العقائد الضالة يشبه بنعت الدواء للشفاء من المضار على وجه التصريحية، وتعاليمه الدينية وآدابه تشبه بقواعد حفظ الصحة على وجه المكنية، وعبر عنها بالهدى، ورحمته للعالمين تشبه بالعيش في سلامة على وجه المكنية.

فالأوصاف الثلاثة الأول ثابتة للقرآن في ذاته سواء في ذلك من قبلها وعمل بها، ومن أعرض عنها ونبذها، إلّا أن وصفه بكونه هدى لمّا كان وصفا بالمصدر المقتضي للمبالغة كان الأنسب أن يراد به حصول الهدى به بالفعل فيكون في قران الوصف الرابع (الرحمة).

والوصف الرابع وهو الرحمة خاص بمن عمل بمقتضى الأوصاف الثلاثة الأول فانتفع بها فكان القرآن رحمة له في الدنيا والآخرة. وهو ينظر إلى قوله تعالى {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً} [الإسراء: 82].

{ **لِلْمُؤْمِنِينَ** } قيد متعلّق بـ { رَحْمَةٌ } بلا شبهة، وقد خصّه به جمهور المفسرين. ومن المحقّقين من جعله قيدا لـ {هُدىً وَرَحْمَةً} ناظرا إلى قوله تعالى {هُدىً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: 2] فإنّه لم يجعله هدى لغير المتقين وهم المؤمنون.

والوجه أنّ كونه موعظة وصف ذاتي له، لأنّ الموعظة هي الكلام المحذّر من الضرّ ولهذا عقّبت بقوله {مِنْ رَبِّكُمْ} فكانت عامة لمن خوطب بـ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} . وأمّا كونه شفاء فهو في ذاته صالح للشفاء ولكن الشفاء بالدواء لا يحصل إلّا لمن استعمله. وأمّا كونه هدى ورحمة فإنّ تمام وصف القرآن بهما يكون بالنسبة لمن حصلت له حقيقتهما وأمّا لمن لم تحصل له آثارهما فوصف القرآن بهما بمعنى صلاحيته لذلك وهو الوصف بالقوة في اصطلاح أهل المنطق. فالأظهر أنّ قيد { لِلْمُؤْمِنِينَ } راجع إلى {هُدىً وَرَحْمَةً} معا على قاعدة القيّد الوارد بعد مفردات، وأما رجوعه إلى {شِفَاءٌ} فمحتمل، لأنّ وصف {شِفَاءٌ} قد عقب بقيد {لِمَا فِي الصُّدُورِ} فانقطع عن الوصفين اللذين بعده، ولأن تعريف {الصُّدُورِ} باللام يقتضي العموم.

{ **قَدْ جَاءَتْكُمْ** } متعلّق بالنّاس باعتبار كونهم المقصود بإنزال القرآن في الجملة. ثم وقع التفصيل بالنسبة لما اختلفت فيه أحوال تلقيهم وانتفاعهم، فعمّم في مجيء البرهان وإنزال النور جميع النّاس، وخصّص في الرحمة والفضل والهداية المؤمنين، وهذا منتهى البلاغة وصحة التقسيم.

{ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ }[58]

يتفرّع على كون القرآن هدى ورحمة للمؤمنين تنبيههم إلى أنّ ذلك فضل من الله عليهم ورحمة بهم يحقّ لهم أن يفرحوا بهما، وأن يقدّروا قدر نعمتهما، وأن يعلموا أنّها نعمة تفوق نعمة المال التي حرم منها أكثر المؤمنين ومنحها أكثر المشركين، فكانت الجملة حقيقة بأن تفتتح بفاء التفريع.

{ قُلْ } جيء بالأمر بالقول معترضا بين الجملة المفرعة والجملة المفرع عليها تنويها بالجملة المفرعة، بحيث يؤمر الرسول أمرا خاصا بأن يقولها وإن كان جميع ما ينزل عليه من القرآن مأمورا بأن يقوله. وتقدير نظم الكلام: قل لهم فليفرحوا بفضل الله وبرحمته.

{ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ } مجرور متعلّق بفعل {فَلْيَفْرَحُوا} قدّم على متعلقه للاهتمام به للمسلمين ولإفادة القصر، أي بفضل الله وبرحمته دون مما سواه.

{ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا } {فَبِذَلِكَ} رابطة للجواب، والفاء في قوله {فَلْيَفْرَحُوا} مؤكدة للربط. ولم يختلف المفسّرون في أنّ القرآن مراد من فضل الله ورحمته. وقد روي حديث عن أنس بن مالك عن النبيء صلى الله عليه وسلم أنّه قال: " فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله " . وهو الذي يقتضيه اللفظ، فإنّ الفضل هو هداية الله التي في القرآن، والرحمة هي التوفيق إلى اتباع الشريعة التي هي الرحمة في الدنيا والآخرة.

{ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } مبيّنة للمقصود من القصر المستفاد من تقديم المجرورين. أي ذلك خير مما يجمعون.

{ مَا يَجْمَعُونَ } مراد به الأموال والمكاسب، لأنّ فعل الجمع غلب في جمع المال. قال تعالى {الذي جمع مالا وعدده} [الهمزة: 2]. ومن المعتاد أنّ جامع المال يفرح بجمعه. وعلى هذا الوجه يظهر معنى القصر أتمّ الظهور، وهو أيضا المناسب لحالة المسلمين وحالة المشركين يومئذ، فإنّ المسلمين كانوا في ضعف لأنّ أكثرهم من ضعاف القوم أو لأن أقاربهم من المشركين تسلطوا على أموالهم ومنعوهم حقوقهم إلجاء لهم إلى العود إلى الكفر.

وقد أجملت الآية وجه تفضيل هذا الفضل والرحمة على ما يجمعونه لقصد إعمال النظر في وجوه تفضيله، فإنّها كثيرة، منها واضح وخفي. وينبئ بوجه تفضيله في الجملة إضافته الفضل والرحمة إلى الله وإسناد فعل {يَجْمَعُونَ} إلى ضمير {النَّاسُ} [57]. وهذا الفضل أخروي ودنيوي؛ أمّا الأخروي فظاهر، وأمّا الدنيوي فلأن كمال النفس وصحّة الاعتقاد وتطلع النفس إلى الكمالات وإقبالها على الأعمال الصالحة تكسب الراحة في الدنيا وعيشة هنيئة.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ } [59]

الاستدلال عليهم بشيء من تشريعهم في خصوص أرزاقهم متعلّق بآخر الكلام الذي قبله ليظهر ما فيه من حسن التخلّص إليه وذلك أنّ أخر الكلام المتقدّم جملة {هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [58]، أي من أموالهم. وتلك الأموال هي التي رزقهم الله إيّاها فجعلوا منها حلالا ومنها حراما وكفروا نعمة الله إذ حرّموا على أنفسهم من طيبات ما أعطاهم ربهم، وحسبهم بذلك شناعة بهم ملصقة، وأبوابا من الخير في وجوههم مغلقة.

{ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ } الرزق، ما ينتفع به. وتقدّم في قوله تعالى {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة:3]. وعبّر عن إعطاء الرزق بالإنزال لأنّ معظم أموالهم كانت الثمار والأعناب والحبوب، وكلّها من آثار المطر الذي هو نازل من السحاب بتكوين الله، فأسند إنزاله إلى الله بهذا الاعتبار، ومعظم أموالهم الأنعام، وحياتها من العشب والكلأ وهي من أثر المطر، قال تعالى {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ} [الذاريات: 22].

{ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً } هو ما حكى الله بعضه عنهم في قوله {وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها} وقوله {وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا} [الأنعام:138، 139]. ومحلّ الإنكار ابتداء هو جعلهم بعض ما رزقهم الله حراما عليهم.

{ وحَلالاً } عطف على {حَرَاماً} للإنكار بالتبع.

{ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ } الاستفهام تقريري باعتبار إلزامهم بأحد الأمرين: إمّا أن يكون الله أذن لهم، أو أن يكونوا مفترين على الله.

{ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ }[60]

عطف على {قُلْ أَرَأَيْتُمْ} [59]، فهو كلام غير داخل في القول المأمور به، ولكنّه ابتداء خطاب لجميع النّاس. والاستفهام مستعمل في التعجيب من حالهم، والمقصود به التعريض بالمشركين ليستفيقوا من غفلتهم ويحاسبوا أنفسهم.

{ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ } عدل عن مقتضى الظاهر إلى الإتيان بالموصول بالصلة المختصّة بهم للتنبيه على أنّ الترديد بين أن يكون الله أذن لهم فيما حرّموه وبين أن يكونوا مفترين عليه قد انحصر في القسم الثاني، وهو كونهم مفترين، إذ لا مساغ لهم في ادعاء أنّه أذن لهم. فإذا تعيّن أنّهم مفترون، فقد صار الافتراء حالهم

المختص بهم.

{ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } منصوب على الظرفية وعامله الظنّ. أي ما هو ظنهم في ذلك اليوم؟ أي إذا رأوا الغضب عليهم يومئذ ماذا يكون ظنهم أنهم لاقون؟ وهذا تهويل.

{ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} تذييل، وفيه قطع لعذر المشركين، وتسجيل عليهم بالتمرّد بأن الله تفضل عليهم بالرزق والموعظة والإرشاد فقابلوا ذلك بالكفر دون الشكر وجعلوا رزقهم أنّهم يكذّبون في حين قابله المؤمنون بالفرح والشكر فانتفعوا به في الدنيا والآخرة.

{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }[61]

وعد بالثواب للرّسول على ما هو قائم به من تبليغ أمر الله وتدبير شؤون المسلمين وتأييد دين الإسلام، وبالثواب للمسلمين على اتّباعهم الرّسول فيما دعاهم إليه. وجاء هذا الوعد بطريقة التعريض بحصول رضى الله تعالى في قوله { إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً }. ويتضمّن ذلك تنويها بالنبيء ﷺ في جليل أعماله وتسلية على ما يلاقيه من المشركين من تكذيب وأذى، لأنّ اطلاع الله على ذلك وعلمه بأنّه في مرضاته كاف في التسلية، ولذلك توجّه الخطاب ابتداء إلى النبيء ﷺ ثم توجّه إليه وإلى من معه من المسلمين.

الشأن، العمل المهم والحال المهم.

{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ }

ابتدئ الكلام بشؤون النبيء ﷺ التي منها ما هو من خواصّه كقيام الليل، وثُنِّي بما هو من شؤونه بالنسبة إلى النّاس وهو تلاوة القرآن على النّاس، وثُلِّث بما هو من شؤون الأمّة في قوله {وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ} فإنّه وإن كان الخطاب فيه شاملا للنبيء ﷺ إلّا أنّ تقديم ذكر شأن في أوّل الآية يخصّص عموم الخطاب في قوله {تَعْمَلُونَ} فلا يبقى مرادا منه إلّا ما يعمله بقية المسلمين.

{ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً }، أي إلّا علمنا بذلك، فجملة {كُنَّا عَلَيْكُمْ} في موضع الحال.

الشهود، جمع شاهد. وأخبر بصيغة الجمع عن الواحد وهو الله تعالى تبعا لضمير الجمع المستعمل للتعظيم. والشاهد، الحاضر، وأطلق على العالم بطريقة المجاز المرسل، ولذلك عدي بحرف (على).

الإفاضة في العمل، الاندفاع فيه، أي الشروع في العمل بقوّة واهتمام، وهذه المادة مؤذنة بأنّ المراد أعمالهم في مرضاة الله ومصابرتهم على أذى المشركين.

{ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ } هي بمنزلة التذييل لما فيها من زيادة التعميم في تعلّق علم الله تعالى بجميع الموجودات بعد الكلام على تعلّقه بعمل النبيء ﷺ والمسلمين.

العزوب، البعد، وهو مجاز هنا للخفاء وفوات العلم، لأنّ الخفاء لازم للشيء البعيد.

المثقال، اسم آلة لما يعرف به مقدار ثقل الشيء فهو على وزن مفعال من ثقل.

الذرّة، النملة الصغيرة، ويطلق على الهباءة التي ترى في ضوء الشمس كغبار دقيق جدا، والظاهر أنّ المراد في الآية الأول. وذكرت الذرّة مبالغة في الصغر والدقة للكناية بذلك عن إحاطة العلم بكل شيء، فإنّ ما هو أعظم من الذرّة يكون أولى بالحكم.

{ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ } المقصود تعميم الجهات والأبعاد بأخصر عبارة. وتقديم الأرض هنا لأنّ ما فيها أعلق بالغرض الذي فيه الكلام وهو أعمال النّاس فإنّهم من أهل الأرض، بخلاف قوله {عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ }[سبأ :3] فإنّه لما كان المقام لذكر علم الغيب، والغيب ما غاب عن النّاس ومعظمه في السماء لاءم ذلك أن قدّمت السماء على الأرض.

{ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ } تصريح بما كنّي عنه بمثقال ذرّة من جميع الأجرام.

{ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } أي إلّا معلوما مكتوبا، ويعلم السامع أنّ المكتوب في كتاب مبين لا يمكن أن يعزب، فيكون انتفاء عزوبه حاصلا بطريق برهاني.

الكتاب، علم الله، استعير له الكتاب لأنّه ثابت لا يخالف الحق بزيادة ولا نقصان.

مبين، اسم فاعل من أبان بمعنى بان، أي واضح بين لا احتمال فيه.

{ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [62] **الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** [63] **لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }** [64]

استئناف للتصريح بوعد المؤمنين، وبتسلية النبيء ﷺ على ما يلاقيه من الكفّار من أذى وتهديد، إذ أعلن الله للنبيء والمؤمنين بالأمن من مخافة أعدائهم، ومن الحزن من جرّاء ذلك، ولمّح لهم بعاقبة النصر، ووعدهم البشرى في الآخرة وعدا لا يقبل التغيير ولا التخلّف تطمينا لنفوسهم.

{ أَلا إِنَّ} افتتاح الكلام بأداة التنبيه إيماء إلى أهميّة شأنه. وأكدت الجملة بـ {إِنَّ} بعد أداة التنبيه.

{ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ } يؤذن بأنّ المخاطبين قد حُقّ لهم أنّهم من أولياء الله، مع إفادة حكم عام شملهم ويشمل من يأتي على طريقتهم.

{ **لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** } **الخوف**، توقع حصول المكروه للمتوقِّع، فيتعدّى بنفسه إلى الشيء المتوقَّع حصوله، فيقال: خاف الشيء. وإذا كان توقّع حصول المكروه لغير المتوقِّع يقال للمتوقَّع: خاف عليه، كقوله تعالى: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الشعراء: 135]..

أي هم بمأمن من أن يصيبهم مكروه يُخاف من إصابة مثله، فحالهم حال من لا ينبغي أن يخاف، ولذلك لا يخاف عليهم أولياؤهم لأنّهم يأمنون عليهم من عاقبة ما يتوجسون منه خيفة.

فالكلام يفيد أنّ الله ضمن لأوليائه أن لا يحصل لهم ما يخافونه وأن لا يحل بهم ما يحزنهم. ولمّا كان ما يخاف منه من شأنه أن يحزن من يصيبه كان نفي الحزن عنهم مؤكِّدا لمعنى نفي خوف خائف عليهم.

وجمهور المفسرين حملوا الخوف والحزن المنفيين على ما يحصل لأهل الشقاوة في الآخرة بناء على أنّ الخوف والحزن يحصلان في الدنيا.

الولي، الموالي، أي المحالف والناصر. وكلّها ترجع إلى معنى الوَلْي (بسكون اللام) ، وهو القرب. وتقدم في قوله تعالى{ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً } [الأنعام:14]. وهو قرب من الجانبين، ولذلك فسروه هنا بأنّه الذي يتولّى الله بالطاعة ويتولّاه الله بالكرامة.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** } بيّن أولياء الله في هذه الآية بأنّهم الذين آمنوا واتقوا، اعتناء بهم.

ودل قوله {وَكَانُوا يَتَّقُونَ} على أنّ التقوى ملازمة لهم، أخذا من صيغة {كَانُوا}، وأنّها متجددة منهم أخذا من صيغة المضارع {يَتَّقُونَ} . وقد كنت أقول في المذاكرات منذ سنين خلت في أيام الطلب أن هذه الآية هي أقوى ما يعتمد عليه في تفسير حقيقة الولي شرعا، وأن على حقيقتها يُحمل معنى قوله في الحديث القدسي الذي رواه الترمذي عن النبيء ﷺ قال: " قال الله تعالى من عادى لي وليا فقد آذنته بحرب".

{ **لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** } إشارة إلى تولّي الله إيّاهم بالكرامة. وتعريف { الْبُشْرَى } تعريف الجنس فهو صادق ببشارات كثيرة. والمعنى، أنّهم يُبشّرون بخيرات قبل حصولها؛ في الدنيا بما يتكرّر من البشارات الواردة في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، وفي الآخرة بما يتلقونه من الملائكة وما يسمعونه من أمر الله بهم إلى النعيم المقيم. روى الترمذي عن أبي الدرداء أنّه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } فقال: " ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت، فهي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له". ومحمل هذا الخبر أنّ الرؤيا الصالحة من جملة البشرى في الحياة الدنيا.

{ **لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ** } تذكير لهم بأنّ ما وعدهم الله به من البشائر مثل النصر وحسن العاقبة أمر ثابت لا يتخلّف لأنّه من كلمات الله.

التبديل، التغيير والإبطال، لأنّ إبطال الشيء يستلزم إيجاد نقيضه.

{ **كَلِمَاتِ اللَّهِ** } الأقوال التي أوحى بها إلى الرّسول في الوعد المشار إليه.

{ **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } مؤكّدة لجملة { لَهُمُ الْبُشْرَى } ومقرّرة لمضمونها فلذلك فصلت.
والإشارة بـ (ذلك) إلى المذكور من مضمون الجمل الثلاث المتقدمة، واختيار اسم الإشارة لأنّه أجمع لما ذكر، وفيه كمال تمييز له لزيادة تقرير معناه.
{ **هُوَ** } ذكر ضمير الفصل بعد اسم الإشارة لزيادة التأكيد ولإفادة القصر، أي هو الفوز العظيم لا غيره مما يتقلب فيه المشركون في الحياة الدنيا من رزق ومنعة وقوّة، لأنّ ذلك لا يعدّ فوزا إذا عاقبته المذلّة والإهانة في الدنيا وبعده العذاب الخالد في الآخرة، كما أشار إليه قوله تعالى {لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: 196، 197].

{ **وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** }[65]

معطوفة على { أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } [62] عطف الجزئي على الكلّي، لأنّ الحزن المذكور هنا نوع من أنواع الحزن المذكور سابقا. ولأنّ الرّسول ﷺ من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وعدل عن العطف بفاء التفريع إلى العطف بالواو ليعطي مضمون الجملة المعطوفة استقلالا بالقصد إليه، فيكون ابتداء كلام مع عدم فوات معنى التفريع لظهوره من السياق.
والحزن المنهي عن تطرّقه هو الحزن الناشئ عن أذى المشركين محمدا ﷺ بأقوالهم البذيئة وتهديداتهم. ووجه الاقتصار على دحضه أنّ النبيء ﷺ لم يكن يلقى من المشركين محزنا إلّا أذى القول البذئي.
{ **لا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ** } خطاب للنبي ﷺ. وظاهر صيغته أنّه نهي عن أن يُحزن النبيء ﷺ كلام المشركين، مع أنّ شأن النهي أن يتوجّه الخطاب به إلى من فعل الفعل المنهي عنه، ولكن المقصود من مثل هذا التركيب نهي النبيء عليه الصلاة والسلام عن أن يتأثّر بما شأنه أن يحزن النّاس من أقوالهم.
{ **إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً** } تعليل لدفع الحزن عنه، بأنّ عزتهم كالعدم لأنّها محدودة وزائلة والعزة الحق لله.
والجملة في محل استئناف بياني. وكل جملة كان مضمونها علّة للتي قبلها تكون أيضا استئنافا بيانيا، فالاستئناف البياني أعمّ من التعليل. وافتتحت بحرف التأكيد للاهتمام بها، ولأنّه يفيد مفاد لام التعليل وفاء التفريع في مثل هذا المقام الذي لا يقصد فيه دفع إنكار من المخاطب.
{ **الْعِزَّةَ** } تعريف الجنس المفيد للاستغراق بقرينة السياق.
{ **لِلَّهِ** } اللام للملك. وقد أفاد جعل جنس العزة ملكا لله أن جميع أنواعها ثابت لله، فيفيد أن له أقوى أنواعها وأقصاها. وبذلك يفيد أن غير الله لا يملك منها إلا أنواعا قليلة.
{ **جَمِيعاً** } حال، موكّدة مضمون الجملة قبلها، المفيد لاختصاصه تعالى بجميع جنس العزّة لدفع احتمال إرادة المبالغة في ملك ذلك الجنس.

{ **هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } تفيد تعليلا آخر أو تكملة للتعليل الأوّل، لأنّه إذا تذكّر المخاطب أن صاحب العزّة يعلم أقوالهم وأحوالهم زاد ذلك قوّة في دفع الحزن من أقوالهم عن نفسه لأنّ الذي نهاه عن الحزن من أقوالهم وتطوالهم أشدّ منهم قوّة ومحيط علمه بما يقولونه وبأحوالهم.

{ **السَّمِيعُ** } العالم بأقوالهم التي من شأنها أن تسمع، و{ **الْعَلِيمُ** } ما هو أعمّ من أحوالهم التي ليست بمسموعات فلا يطلق على العلم بها اسم (السميع).

{ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [66]

المقصود بتوجيه هذا الكلام هم المشركون لتأييسهم من كل احتمال لانتصارهم على النبيء ﷺ والمسلمين.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا ومناسبة وقوعها عقب جملة {وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ} أنّ أقوالهم دحضت بمضمون هذه الجملة. وأمّا وقوعها عقب جملة {إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً} [65] فلأنّها حجّة على أنّ العزّة لله، لأنّ الذي له من في السماوات ومن في الأرض تكون له العزّة الحقّ.

{ **أَلا إِنَّ لِلَّهِ** } افتتاح الجملة بحرف التنبيه مقصود منه إظهار أهميّة العلم بمضمونها وتحقيقه ولذلك عقّب بحرف التأكيد، وزيد ذلك تأكيدا بتقديم الخبر في قوله {لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} وباجتلاب لام الملك.

{ **مَنْ** } الموصولة شأنها أن تطلق على العقلاء وجيء بها هنا مع أنّ المقصد الأول إثبات أنّ آلهتهم لله تعالى، وهي جمادات غير عاقلة، تغليبا، فإنّ من العرب من عبد الملائكة، ومنهم من عبدوا المسيح، وهم نصارى العرب.

وذكر السماوات والأرض لاستيعاب أمكنة الموجودات فكأنّه قيل: ألا إنّ لله جميع الموجودات.

{ **وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ** } هي كالنتيجة للجملة الأولى، إذ المعنى أنّ جميع الموجودات ملك لله، واتّباع المشركين أصنامهم اتباع خاطئ باطل.

{ **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** } توكيد لفظي لجملة {يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ} وأعيد مضمونها قضاء لحقّ الفصاحة، حيث حصل من البعد بين المستثنى والمستثنى منه بسبب الصلة الطويلة ما يشبه التعقيد اللفظي وذلك لا يليق بأفصح كلام، مع إفادة تلك الإعادة مفاد التأكيد، لأنّ المقام يقتضي الإمعان في إثبات الغرض.

الظنّ هنا، العلم المخطئ. وقد بيّنت الجملة التي بعدها أنّ ظنّهم لا دليل عليه بقوله {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ }.
الخرص، القول بالحزر والتخمين. وتقدّم نظير هذه الآية في قوله { وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام:116]

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ }[67].
معترضة بين {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ} [66] و{قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً} [68] جاءت مجيء الاستدلال على فساد ظنّهم وخرصهم بشواهد خلق الليل والنّهار المشاهد في كل يوم من العمر مرّتين، وهم في غفلة عن دلالته.
ووصف النهار بمبصِر مجاز عقلي للمبالغة في حصول الإبصار فيه حتّى جعل النّهار هو المبصِر، والمراد مبصِرًا فيه النّاس.
ومن لطائف المناسبة أنّ النور الذي هو كيفية زمن النهار شيء وجودي فكان زمانه حقيقيا بأن يوصف بأوصاف العقلاء، بخلاف الليل فإنّ ظلمته عدميّة فاقتصر في العبرة به على ذكر الفائدة الحاصلة فيه وهي أن يسكنوا فيه.
فالمقصود الاستدلال على انفراده تعالى بخصائص الإلهيّة التي منها الخلق والتقدير، وأنّ آلهتهم انتفت عنها خصائص الإلهيّة، وقد حصل مع الاستدلال امتنان على النّاس بجعل الليل والنّهار على هذا النظام. وهذا الامتنان مستفاد من قوله {جَعَلَ لَكُمُ} ومن تعليل خلق الليل بعلّة سكون النّاس فيه، وخلق النّهار بعلّة إبصار النّاس، وكلّ النّاس يعلمون ما في سكون الليل من نعمة وما في إبصارهم بالنهار من نعمة كذلك.
وفي إدماج الاستدلال بالامتنان تعريض بأنّ الذين جعلوا لله شركاء جمعوا وصمتين هما: وصمة مخالفة الحقّ، ووصمة كفران النعمة.
{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } مستأنفة.
الآيات: الدلائل الدالة على وحدانيّة الله تعالى بالإلهيّة، فإنّ النظام الذي نشأ عنه الليل والنهار مشتمل على دقائق كثيرة من العلم والحكمة والقدرة وإتقان الصنع.
فمن تلك الآيات: خلق الشمس وخلق الأرض، وخلق النور في الشمس وخلق الظلمة في الأرض، ووصول شعاع الشمس إلى الأرض، ودوران الأرض كلّ يوم بحيث يكون نصف كرتها مواجها للشعاع ونصفها الآخر محجوبا عن الشعاع. وخلق الإنسان وجعل نظام مزاجه العصبي متأثّرا بالشعاع نشاطا، وبالظلمة فتورا، وخلق حاسة البصر، وجعلها مقترنة بتأثر الضوء، وجعل نظام العمل مرتبطا بحاسة البصر، وخلق نظام المزاج الإنساني مشتملا على قوى قابلة للقوّة والضعف، ثم مدفوعا إلى استعمال قواه بقصد وبغير قصد بسبب نشاطه العصبي، ثم فاقدا بالعمل نصيبا من قواه محتاجا إلى الاعتياض بقوى تخلفها بالسكون

والفتور الذي يلجئه إلى تطلب الراحة. وأيّة آيات أعظم من هذه، وأيّة منّة على الإنسان أعظم من إيداع الله فيه دواعي تسوقه إلى صلاحه وصلاح نوعه بداع من نفسه.

{ **لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** } إشارة إلى أنّ تلك الآيات والدلائل تنهض دلالتها للعقول بالتأمّل فيها، وأنّ توجّه التفكير إلى دلائلها غير محتاج إلّا إلى التنبيه عليها ولفته إليها. فلمّا كان سماع تذكير الله بها هو الأصل الأصيل في استخراج دلالتها أو تفريع مدلولاتها على تفاوت الأذهان في الفطنة وترتيب الأدلة جعل آيات دلالتها حاصلة للذين يسمعون. ويجوز أن يكون المراد يسمعون تفاصيل تلك الدلائل في تضاعيف سور القرآن. وعلى كلا الاحتمالين فالوصف بالسمع تعريض بأنّ الذين لم يهتدوا بها ولا تفطنوا لدلالتها بمنزلة الصمّ، كقوله تعالى {أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ }.

{ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ } [68]

حكاية فن من فنون كفرهم مغاير لادّعاء شركاء لله، لأنّ هذا كفر خفي من دينهم، ولأنّ الاستدلال على إبطاله مغاير للاستدلال على إبطال الشركاء.

{ **قَالُوا** } عائد إلى {الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ} [66] أي قال المشركون. وليس المراد من الضمير غيرهم من النصارى لأنّ السورة مكيّة والقرآن المكّي لم يتصدّ لإبطال زيغ عقائد أهل الكتاب. ذلك أنّ كثيرا من المشركين كانوا يزعمون أنّ لله بنات هم الملائكة، وهم بناته من سَروات نساء الجنّ، ولذلك عبدت فرق من العرب الجنّ. قال تعالى {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} [سبأ: 41].

الاتّخاذ، جعل شيء لفائدة الجاعل، وهو مشتق من الأخذ لأنّ المتّخِذ يأخذ الشيء الذي يصطفيه. وتقدّم في قوله تعالى {أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً} [الأنعام:74]. فالاتخاذ يصدق على أخذ شيء موجود للاستئثار به، ويصدق على تكوين شيء للانتفاع به. وهو هنا صالح للمعنيين لأنّ منهم من يعتقد تولّد الولد عن الله تعالى، ومنهم من يعتقد أنّ الله تبنّى بعض مخلوقاته.

الولد، اسم مصوغ على وزن فعل. وهو مأخوذ من الولادة. وأطلق على الواحد والجمع كما يوصف بالمصدر. يقال: هؤلاء ولد فلان. وفي الحديث: " أنا سيد ولد آدم ". والمراد هنا الجمع لأنّهم قالوا الملائكة بنات الله استولدها من سروات الجن قال تعالى {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ} [النحل: 57].

{ **سُبْحَانَهُ** } إنشاء تنزيه للردّ عليهم. وهو اسم مصدر لـ (سبّح) إذا نزّه، نائب عن الفعل، أي نسبّحه. أي تنزيها لله عن هذا، لأنّ ما قالوه يستلزم تنقيص الله تعالى.

{ **هُوَ الْغَنِيُّ** } أي هو الغني عن اتخاذ الولد، لأنّ الإلهيّة تقتضي الغنى المطلق عن كلّ احتياج.

الغنيّ، الموصوف بالغنى، فعيل للمبالغة في فعل (غَنِيَ) عن كذا إذا كان غير محتاج، وغنى الله هو الغنى المطلق.

{ **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** } مقرّرة لوصف الغنى بأنّ ما في السماوات وما في الأرض ملكه، فهو يسخّر كل موجود لما خلقه لأجله، فلا يحتاج إلى إعانة ولد.

{ **إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا** } جواب ثان لقولهم { اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً}، فبعد أن أستدلّ على إبطال قولهم، سجّل عليهم أنّهم لا حجّة لهم في قولهم ذلك.

السلطان، البرهان والحجّة، لأنّه يُكسب المستدلّ به سلطة على مخالفه ومجادله.

{ **أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } جواب ثالث ناشئ عن الجوابين لأنّهم لما أُبطل قولُهم بالحجّة. ونُفي أن تكون لهم على قولهم حجّة كانوا أحرياء بالتوبيخ والتشنيع بأنّهم يجترئون على جناب الله فيصفون الله بما لا يعلمون، أي بما لا يوقنون به، ولكونها جوابا فصلت. فالاستفهام مستعمل في التوبيخ، لأنّ المذكور بعده شيء ذميم، واجتراء عظيم وجهل كبير مركب.

{ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ [69] مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } [70]

{ **قُلْ** } أمر للنبيء ﷺ، لتنبيه السامعين بأنّه أمر مهم ووعيد لكلّ من يفتري على الله ما لم يقله.

الفلاح، حصول ما قصده العامل من عمله بدون انتقاض ولا عاقبة سوء. وتقدّم في طالع سورة البقرة[5]. فنفي الفلاح هنا نفي لحصول مقصودهم من الكذب وتكذيب محمد ﷺ.

{ **مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا** } استئناف بياني، أي أمرهم متاع لا يعبأ به.

المتاع، المنفعة القليلة في الدنيا، إذ يقيمون بكذبهم سيادتهم وعزّتهم بين قومهم ثم يزول ذلك. ومادة (متاع) مؤذنة بأنّه غير دائم كما تقدّم في قوله تعالى {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [الأعراف:24]. وتنكيره مؤذن بتقليله، وتقييده بأنّه في الدنيا مؤكّد للزوال وللتقليل.

{ **ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ** } (ثمّ) للتراخي الرتبي لأنّ مضمونه هو محقّة أنّهم لا يفلحون.

المرجع، مصدر ميمي بمعنى الرجوع. ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى وقت نفاذ حكمه المباشر فيهم.

ويجوز أن يكون المرجع كناية عن الموت.

{ **ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ** } بيان لجملة {ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ} .

إذاقة العذاب، إيصاله إلى الإحساس، أطلق عليه الإذاقة لتشبيهه بإحساس الذوق في التمكّن من أقوى أعضاء الجسم.

والجمل الأربع هي من المقول المأمور به النبيء ﷺ تبليغا عن الله تعالى.

{ **بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** }الباء للتعليل. والتركيب يؤذن بتكرّر ذلك منهم وتجدده بأنواع الكفر.

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ} [71]

انتقال من مقارعة المشركين بالحجج الساطعة على بطلان دينهم، وبالدلائل الواضحة على تفنيد أكاذيبهم وتكذيبهم، وما تخلّل ذلك من الموعظة والوعيد بالعذاب العاجل والآجل والإرهاب، إلى التعريض لهم بذكر ما حلّ بالأمم المماثلة أحوالها لأحوالهم، استقصاء لطرائق الحجاج على أصحاب اللجاج، فإنّ نوحا عليه السلام مع قومه مثلٌ لحال محمد ﷺ مع المشركين من قومه في ابتداء الأمر وتطوّره. ففي ذكر عاقبة قوم نوح عليه السلام تعريض للمشركين بأنّ عاقبتهم كعاقبة أولئك، أو أنّهم إنّما يمتّعون قليلا ثم يؤخذون أخذة رابية. كما متع قوم نوح زمنا طويلا ثم لم يفلتوا من العذاب في الدنيا. وفيه أيضا تأنيس للرّسول ﷺ وللمسلمين بأنّهم إسوة بالأنبياء، والصالحين من أقوامهم. وكذلك قصة موسى عليه السلام عقبها.

{ **إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ** } إيماء إلى أنّ محاورته قومه وإصرارهم على الإعراض هو محلّ العبرة، لأنّه وجه الشبه بين المشركين وبين قوم نوح عليه السلام في صمّ آذانهم عن دعوة رسولهم.

التلاوة، القراءة. وتقدّمت في سورة الأنفال.

النبأ، الخبر. وتقدّم في قوله { وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام:34].

والتعريف **بنوح** عليه السلام وتاريخه مضى في أول آل عمران.

{ **لِقَوْمِهِ** } تعريف قوم نوح بطريق الإضافة إلى ضمير نوح، إذ ليس ثمّة طريق لتعريفهم غير ذلك إذ لم يكن لتلك الأمّة اسم تعرف به.

{ **يَا قَوْمِ** } إيذان بأهمية ما سيلقيه إليهم، لأنّ النداء طلب الإقبال. ولمّا كان هنا ليس لطلب إقبال قومه إليه لأنّه ما ابتدأ خطابهم إلّا في مجمعهم تعيّن أنّ النداء مستعمل مجازا في طلب الإقبال المجازي، وهو توجيه

أذهانهم إلى فهم ما سيقوله. واختيار التعبير عنهم بوصف كونهم قومه تحبيب لهم في نفسه ليأخذوا قوله مأخذ قول الناصح المتطلّب الخير لهم، لأنّ المرء لا يريد لقومه إلّا خيرا. وحذفت ياء المتكلّم من المنادى المضاف إليها على الاستعمال المشهور في نداء المضاف إلى ياء المتكلم.

{ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ } شقّ عليكم وأحرجكم.

الكبر، وفرة حجم الجسم بالنسبة لأمثاله من أجسام نوعه، ويستعار لأوصاف الذوات أو المعاني. وقد يكون مدحا كقوله تعالى {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} ، ويكون ذمّا كقوله {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} [الكهف: 5]. ويستعار للمشقّة والحرج، كقوله تعالى {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} [الشورى: 13] وقوله {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ} [الأنعام: 35] وكذلك هنا.

المقام، مصدر ميمي مرادف للقيام. وقد استعمل هنا في معنى شأن المرء وحاله كما في قوله تعالى {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمان: 46]. وهو استعمال من قبيل الكناية، لأنّ مكان المرء ومقامه من لوازم ذاته، وفيهما مظاهر أحواله.

{ بِآيَاتِ اللَّهِ } الباء لتأكيد تعديّة المصدر إلى مفعوله الثاني. وآيات الله، دلائل فضله عليهم، ودلائل وحدانيته، لأنّهم لما أشركوا بالله فقد نسوا تلك الدلائل، فكان يذكّرهم بها، وذلك يبرّمهم ويحرجهم.

{ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ } أي لا على غيره.

التوكّل، التعويل على من يدبّره أمره. وقد مرّ عند قوله {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [آل عمران:159].

{ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ } الفاء للتفريع على جملة {عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ} فللجملة المفرّعة حكم جواب الشرط لأنّها مفرّعة على جملة الجواب.

إجماع الأمر، العزم على الفعل بعد التردّد بين فعله وفعل ضدّه. وهو مأخوذ من الجمع الذي هو ضدّ التفريق، لأنّ المتردّد في ماذا يعمله تكون عنده أشياء متفرقة فهو يتدبّر ويتأمل، فإذا استقر رأيه على شيء منها فقد جمع ما كان متفرّقا. ويقولون: جاؤوا وأمرهم جميع، أي متفق عليه.

الأمر، شأنهم، من قصد دفعه وأذاه، وتردّدهم في وجوه ذلك ووسائله.

{ وَشُرَكَاءَكُمْ } منصوب في قراءة الجمهور على أنّه مفعول معه، أي أجمعوا أمركم ومعكم شركاؤكم الذين تستنصرون بهم. وزاد ذكر شركائهم للدلالة على أنّه لا يخشاها، لأنّها في اعتقادهم أشد بطشا من القوم، وذلك تهكّم بهم، كما في قوله تعالى {قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ} [الأعراف: 195].

{ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً } {ثُمَّ} دالة على التراخي في الرتبة لما تتضمّنه الجملة الثانية من الترقّي في قلّة مبالاته بما يهيّئونه له من الضرّ، أي اجتهدوا في أن لا يكون ذلك.

الغُمّة، اسم مصدر للغَمّ. وهو الستر. والمراد بها في مثل هذا التركيب الستر المجازي، وهو انبهام الحال،

وعدم تبيّن السداد فيه، ولعل هذا التركيب جرى مجرى المثل.

{ **ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ** } (ثمّ) للتراخي في الرتبة، فإن رتبة إنفاذ الرأي بما يزمعون عليه من أذاه أقوى من تدبير ذلك.

{ **اقْضُوا** } أمر من القضاء، فيجوز أن يكون من القضاء بمعنى الإتمام والفصل، أي انفذوا ما ترونه من الإضرار بي. ويجوز أن يكون من القضاء بمعنى الحكم، وهو قريب من الوجه الأول، أي أنفذوا حكمكم.

وعدّي بـ (إلى) دون (على) لأنّه ضُمّن معنى الإبلاغ والإيصال تنصيصا على معنى التنفيذ بالفعل، لأنّ القضاء يكون بالقول فيعقبه التنفيذ أو الإرجاء أو العفو، ويكون بالفعل، فهو قضاء بتنفيذ، ويسمى عند الفقهاء بالقضاء الفعلي.

{ **وَلا تُنْظِرُونِ** } تأكيد لمدلول التضمين المشار إليه بحرف (إلى).

الإنظار، التأخير، وحذفت ياء المتكلّم من {تُنْظِرُونِ} للتخفيف، وهو حذف كثير في فصيح الكلام، وبقاء نون الوقاية مشعر بها.

{ **فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** }[72]

الفاء لتفريغ الكلام على الكلام فجملة الشرط وجوابه مفرعتان على الجملتين السابقتين،

ولما كان توليهم عن دعوته قد وقع واستمر تعين أن جعل التولي في جملة الشرط مراد به ما كان حصل ليرتّب عليه جواب الشرط الذي هو شيء قد وقع أيضا. والمعنى، فإن تولّيتم فقد علمتم أنّي ما سألتكم أجرا فتتهموني برغبة في نفع ينجرّ لي من دعوتكم حتّى تعرضوا عنها شحّا بأموالكم أو اتهاما بتكذيبي، وهذا إلزام لهم بأن تولّيهم لم يكن فيه احتمال تهمتهم إيّاه بتطلب نفع لنفسه. وبذلك برّأ نفسه من أن يكون سببا لتوليهم.

{ **إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ** } تعميم لنفي تطلّبه أجرا على دعوتهم سواء منهم أم من غيرهم، فالقصر حقيقي وبه يحصل تأكيد جملة {فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ} مع زيادة التعميم. وطريق جزمه بأنّ الله يؤجره على ذلك هو وعد الله إيّاه به بما أوحى إليه.

الأجر، العوض الذي يعطى لأجل عمل يعمله آخذ العوض.

{ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** } معطوفة على جملة الجواب، أي أمرني الله أن أتّبع الدين الحقّ ولو كنت وحدي. وهذا تأييس لهم بأن إجماعهم على التولي عنه لا يفلّ حدّه ولا يصدّه عن مخالفة دينهم الضلال.

وبني الفعل للمجهول ، إذ من المعلوم من سياق الكلام أن الذي أمره هو الله تعالى. وقوله { مِنَ الْمُسْلِمِينَ} أي من الفئة التي يصدق عليها هذا الوصف وهو الإسلام، أي توحيد الله دون عبادة شريك.

وقد سمّي التوحيد ودين الحقّ الخالص إسلاما في مختلف العصور، وسمّى الله به سنن الرسل فحكاه عن نوح عليه السلام هنا وعن إبراهيم {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [البقرة: 131]، وعن إسماعيل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ} [البقرة: 128]، ويعقوب وبنيه {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: 133]، وعن يوسف {تَوَفَّنِي مُسْلِماً} [يوسف: 101]، وعن موسى {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس: 8]، وعن سليمان {أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} [البقرة: 31]، وعن عيسى والحواريين {قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [المائدة: 111]. وقد تقدّم بيان ذلك مفصلا عند قوله تعالى{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ} [البقرة:128].

{ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ }[73]

{ **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ** } الفاء التي في جملة { فَنَجَّيْنَاهُ } للترتيب والتعقيب، لأنّ تكذيب قومه قد استمر إلى وقت إغراقهم وإنجاء نوح عليه السلام ومن اتّبعه. وهذا نظم بديع وإيجاز معجز، إذ رجع الكلام إلى التصريح بتكذيب قومه الذي لم يذكر قبل بل أشير له ضمنا بقوله {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي}[71] فكان كرد العجز على الصدر، ثم أشير إلى استمراره في الأزمنة كلّها حتّى انتهى بإغراقهم، فكان تفنّنا بديعا في النظم مع إيجاز بهيج.

وتقدّم ذكر إنجائه قبل ذكر الإغراق الذي وقع الإنجاء منه للإشارة إلى أنّ إنجاءه أهم عند الله تعالى من إغراق مكذّبيه، ولتعجيل المسرّة للمسلمين السامعين لهذه القصّة.

الفلك، السفينة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ } [البقرة:164].

الخلائف، جمع خليفة وهو اسم للذي يخلف غيره. وتقدّم عند قوله { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30]. وصيغة الجمع هنا باعتبار الذين معه في الفلك تفرع على كل زوجين منهم أمّة.

{ **فَانْظُرْ** } هنا نظر عين، نزل خبرهم لوضوحه واليقين به منزلة المشاهد. و يجوز أن يكون الخطاب لكلّ من يسمع، فلا يراد به مخاطب معيّن. ويجوز أن يكون خطابا لمحمد ﷺ، فخصّ به، تعظيما لشأنه، بأنّ الذين كذّبوه يوشك أن يصيبهم من العذاب نحو مما أصاب قوم نوح عليه السلام، وفي ذلك تسلية له على ما يلاقيه من أذاهم وإظهار لعناية الله به.

{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ }[74]

{ ثُمَّ } للتراخي الرتبي، لأنّ بعثة رسل كثيرين إلى أمم تلقّوهم بمثل ما تلقّى به نوحًا قومُه أعجب من شأن قوم نوح حيث تمالأت تلك الأمم على طريقة واحدة من الكفر. وليست للتراخي في الزمن للاستغناء عن ذلك بقوله {مِنْ بَعْدِهِ }.

{ رُسُلاً } أبهم الرسل في هذه الآية ووقع في آيات أخرى التصريح بأنهم: هود وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب. وقد يكون هنالك رسل آخرون كما قال تعالى { وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ } [النساء: 164].

ويتعيّن أن يكون المقصود هنا من كانوا قبل موسى لقوله {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى} [75].

وفي الآية إشارة إلى أن نوحا أوّل الرسل.

{ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } الفاء للتعقيب، أي أظهروا لهم المعجزات بإثر إرسالهم. والباء للملابسة، أي جاءوا قومهم مبلّغين الرسالة ملابسين البيّنات، و**البيّنات،** هي الحجج الواضحة الدالة على الصدق.

{ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا } الفاء للتفريع، أي فترتّب على ذلك أنّهم لم يؤمنوا. وصيغ النفي بصيغة لام الجحود مبالغة في انتفاء الإيمان عنهم بأقصى أحوال الانتفاء. ودلّت أيضا على أنّ الرّسل حاولوا إيمانهم محاولة متكرّرة.

{ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ } دلّ أن هنالك تكذيبا بادروا به لرسلهم، فلمّا كذّبوهم جاؤوهم بالبيّنات على صدقهم فاستمروا على التكذيب. وهذا من إيجاز الحذف لجمل كثيرة. وهذا يقتضي تكرّر الدعوة وتكرّر البيّنات، وإلّا لما كان لقوله {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ} وقع، لأنّ التكذيب الذي حصل أوّل مرّة إذا لم يطرأ عليه ما من شأنه أن يقلعه كان تكذيبا واحدا منسيا. وهذا من بلاغة معاني القرآن.

{ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ } الطبع مؤذن بأنّ قلوبهم قد ورد عليها ما حال دون تأثير البيّنات في قلوبهم. وقد جعل الطبع الذي وقع على قلوب هؤلاء مثلا لكيفيّات الطبع على قلوب المعتدين، أي مثل هذا الطبع العجيب نطبع على قلوب المعتدين، فتأملوه واعتبروا به.

الطبع، الختم. وهو استعارة لعدم دخول الإيمان قلوبهم. وتقدّم في قوله { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [البقرة:7]

الاعتداء، افتعال من عدا عليه، إذا ظلمه، فالمعتدين مرادف الظالمين، والمراد به المشركونّ لأنّ الشرك اعتداء، فإنّهم كذّبوا الرسل فاعتدوا على الصادقين بلمزهم بالكذب. وقد جاء في نظير هذه الآية { كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ }[الأعراف:101] فهذا التخالف للتفنّن في حكاية هذه العبرة في الموضعين.

{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ }[75]

{ ثُمَّ } للتراخي الرتبي لأنّ بعثة موسى وهارون عليهما السلام كانت أعظم من بعثة من سبقهما من الرسل. وخصّت بعثة موسى وهارون بالذكر لأنّها كانت انقلابا عظيما وتطوّرا جديدا في تاريخ الشرائع وفي نظام الحضارة العقلية والتشريعية، فإنّ الرسل الذين كانوا قبل موسى إنّما بعثوا في أمم مستقلّة، وكانت أديانهم مقتصرة على الدعوة إلى إصلاح العقيدة، وتهذيب النفوس، وإبطال ما عظم من مفاسد في المعاملات، ولم تكن شرائع شاملة لجميع ما يحتاج إليه من نظم الأمّة وتقرير حاضرها ومستقبلها.

وأمّا بعثة موسى فقد أتت بتكوين أمّة، وتحريرها من استعباد أمة أخرى إيّاها، وتكوين وطن مستقل لها، وتأسيس قواعد استقلالها، ووضع نظام سياسة الأمة، وإعطاء كتاب يشتمل على قوانين حياتها الاجتماعية من كثير نواحيها. فبعثة موسى كانت أوّل مظهر عام من مظاهر الشرائع لم يسبق له نظير في تاريخ الشرائع ولا في تاريخ نظام الأمم، وهو مع تفوّقه على جميع ما تقدّمه من الشرائع قد امتاز بكونه تلقينا من الله المطّلع على حقائق الأمور، المريد إقرار الصالح وإزالة الفاسد.

{ مُوسَى وَهَارُونَ } وجعل موسى وهارون مبعوثين كليهما من حيث إنّ الله استجاب طلب موسى أن يجعل معه أخاه هارون مؤيدا ومعربا عن مقاصد موسى، فكان بذلك مأمورا من الله بالمشاركة في أعمال الرسالة، وقد بيّنته سورة القصص، فالمبعوث أصالة هو موسى وأمّا هارون فبعث معينا له وناصرا.

فرعون، ملك مصر، وهو منفطاح الثاني أحد فراعنة العائلة التاسعة عشرة من الأسر التي ملكت بلاد القبط، وقد مضى الكلام عليه عند قوله { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ } [الأعراف:103].

{ وَمَلَأِهِ } خاصة النّاس وسادتهم، وذلك أن موسى بعث الى بني إسرائيل وبعث إلى فرعون وأهل دولته ليطلقوا بني إسرائيل.

{ اسْتَكْبَرُوا } السين والتاء للمبالغة في التكبّر، والمراد أنّهم تكبّروا عن تلقي الدعوة من موسى، لأنّهم احتقروه وأحالوا أن يكون رسولا من الله وهو من قوم مستعبدين استعبدهم فرعون وقومه، وهذا وجه اختيار التعبير عن إعراضهم عن دعوته بالاستكبار.

{ وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ } حال، والتركيب يفيد أنّ الإجرام كان دأبهم وخلقهم، فكان استكبارهم على موسى من جملة إجرامهم.

الإجرام، فعل الجرم، وهو الجناية والذنب العظيم. وتقدّم عند قوله {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ} [الأعراف:40] وقد كان الفراعنة طغاة جبابرة فكانوا يعتبرون أنفسهم آلهة للقبط وكانوا قد وضعوا شرائع لا تخلو عن جور،

وكانوا يستعبدون الغرباء، وقد استعبدوا بني إسرائيل وأذلوهم قرونا، فإذا سألوا حقّهم استأصلوهم ومثّلوا بهم وقتلوهم، كما حكى الله عنهم {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} . وكان القبط يعتقدون أوهاما ضالة وخرافات، فلذلك قال الله تعالى {وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ} ، أي فلا يستغرب استكبارهم عن الحق والرشاد.

{ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ [76] قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ } [77]

أي لمّا رأوا المعجزات التي هي حقّ ثابت وليست بتخيّلات وتمويهات، وعلموا أنّ موسى صادق فيما ادّعاه، تدرّجوا من مجرّد الإباء المنبعث عن الاستكبار إلى البهتان المنبعث عن الشعور بالمغلوبيّة.

الحقّ، يطلق اسما على ما قابل الباطل وهو العدل الصالح، ويطلق وصفا على الثابت الذي لا ريبة فيه، كما يقال: أنت الصديق الحقّ. ويلازم الإفراد لأنّه مصدر وصف به. والذي أثبت له المجيء هنا هو الآيات التي أظهرها موسى إعجازا لهم لقوله قبله {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآياتِنَا} [103]، فكان جعل الحقّ جائيا بتلك الآيات صالحا لمعنيي الحقّ، لأنّ تلك الآيات لمّا كانت ثابتة لا ريبة فيها كانت في ذاتها حقّا، فمجيئها حصولها، وظهورها المقصود منه إثبات صدق موسى في رسالته فكان الحق جائيا معها، فمجيئه ثبوته كقوله تعالى {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} [الإسراء: 81].

وبهذا يظهر أن لكلمة {**الحق**} ولكلمة {**مِنْ عِنْدِنَا**} هنا، من الوقع في الدلالة على تمام المعنى المراد ما ليس لغيرهما في الإيجاز، وهذا من حدّ الإعجاز.

وبهذا تبيّن أنّ الآية دالة على أنّ آيات الصدق ظهرت وأنّ المحجوجين أيقنوا بصدق موسى وأنّه جاء بالحقّ. واعتذارهم عن ظهور الآيات بأنّها سحر هو اعتذار المغلوب العديم الحجّة الذي قهرته الحجّة وبهره سلطان الحقّ، فلم يبق له منتشب من المعارضة المقبولة، فهو يهرع إلى انتحال معارضات بمعاذير لا تدخل تحت التمحيص ولا تثبت في محك النقد.

{ **إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ** } الإشارة إلى ما هو مشاهد بينهم حين إظهار المعجزة مثل انقلاب العصا حية، وخروج اليد بيضاء، أي أنّ هذا العمل الذي تشاهدونه سحر مبين.

{ **قَالَ مُوسَى** } مجاوبة منه عن كلامهم ففصلت من العطف على الطريقة التي استخرجناها في حكاية الأقوال. وتولى موسى وحده دون هارون مجادلتهم لأنّه المباشر للدعوة أصالة، ولأنّ المعجزات ظهرت على يديه.

{ **أَتَقُولُونَ** } استفهام إنكاري. واللام في { **لِلْحَقِّ** } لام التعليل. وبعضهم يسميها لام البيان. وبعضهم يسميها لام المجاوزة بمعنى (عن).

{ **أَسِحْرٌ هَذَا** } مستأنفة للتوبيخ والإنكار، أنكر موسى عليهم وصفهم الآيات الحقّ بأنّها سحر. والإشارة تفيد التعريض بجهلهم وفساد قولهم. ولذلك كان مفعول {أَتَقُولُونَ} محذوفا لدلالة الكلام عليه، فالتقدير، أتقولون هذا القول للحقّ لمّا جاءكم.

{ **وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ** } معطوفة على {أَسِحْرٌ هَذَا}. لمّا نفى موسى عن آيات الله أن تكون سحرا ارتقى فأبان لهم فساد السحر وسوء عاقبة معالجيه تحقيرا لهم، لأنّهم كانوا ينوّهون بشأن السحر.

{ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ }[78]

{ **أَجِئْتَنَا** } الاستفهام إنكاري، بنوا إنكارهم على تخطئة موسى فيما جاء به، وعلى سوء ظنّهم به وبهارون في الغاية التي يتطلبانها { وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ } .

{ **تَلْفِتَنَا** } مضارع لَفَتَ، متعدّيا إذا صرف وجهه عن النظر إلى شيء مقابل لوجهه. والفعل القاصر منه ليس إلّا للمطاوعة يقال: التفت. وهو هنا مستعمل مجازا في التحويل عن العمل أو الاعتقاد إلى غيره، فأصله استعارة تمثيليّة ثمّ غلبت حتّى صارت مساوية الحقيقة.

{ **عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** } جمعت الصلة (ما) كلّ الأحوال التي كان آباؤهم متلبسين بها.

{ **وَجَدْنَا** } الإشارة إلى أنّهم نشأوا عليها وعقلوها، وذلك مما يكسبهم تعلّقا بها، وأنّها كانت أحوال آبائهم وذلك مما يزيدهم تعلّقا بها تبعا لمحبة آبائهم، لأنّ محبّة الشيء تقتضي محبّة أحواله وملابساته.

وقد جاءهم موسى لقصد لفتهم عمّا وجدوا عليه آباءهم فكان ذلك محلّ الإنكار عندهم، لأنّ تغيير ذلك يحسبونه إفسادا { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ } [الأعراف: 127].

{ **وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ** } أرادوا أنّهم تفطّنوا لغرض موسى وهارون في مجيئها إليهم بما جاءوا به، وهو الاستحواذ على سيادة مصر بالحيلة. و**الكبرياء**، العظمة وإظهار التفوّق على النّاس.

الأرض، هي المعهودة بينهم، وهي أرض مصر، كقوله {يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ} [الأعراف:110].

{ **لَكُمَا** } أتوا في خطاب موسى بضمير المثنّى المخاطب لأنّ هارون كان حاضرا فالتفتوا عن خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين. وإنّما شرّكوا هارون في هذا الظنّ من حيث إنّه جاء مع موسى ولم يباشر الدعوة فظنوا أنه جاء معه لينال من سيادة أخيه حظا لنفسه.

{ **وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ** } عطف على جملة {أَجِئْتَنَا}، وهي في قوّة النتيجة لتلك الجملة بما معها من العلّة، أي لما تبيّن مقصدكما فما نحن لكما بمؤمنين. وتقديم { لَكُمَا } على متعلقه لأنّ المخاطبين هما الأهم من جملة النفي، لأنّ انتفاء إيمانهم في زعمهم كان لأجل موسى وهارون إذ توهموهما متطلبي نفع لأنفسهما.
{ **وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ** } جملة اسمية، لإفادة الثبات والدوام، وأن انتفاء إيمانهم بهما متقرّر متمكّن لا طماعيّة لأحد في ضدّه.

{ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ** [79] **فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ** [80] **فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ** [81] **وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** } [82].
{ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ** } عطف على { قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ } [76]، فهذه الجملة في حكم جواب ثان لحرف (لمّا) حكي أوّلا ما تلقى به فرعون وملؤه دعوة موسى ومعجزته من منع أن يكون ما جاء به تأييدا من عند الله. ثم حكي ثانيا ما تلقى به فرعون خاصة تلك الدعوة من محاولة تأييد قوله {إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ} ليثبت أنّه قادر بما أوتي من سلطان على الإتيان بمثلها.
{ **ائْتُونِي** } المخاطب هم ملأ فرعون وخاصته الذين بيدهم تنفيذ أمره.
{ **بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ** } أمر بإحضار جميع السحرة المتمكّنين في علم السحر لأنّهم أبصر بدقائقه، وأقدر على إظهار ما يفوق خوارق موسى في زعمه. والعموم عموم عرفي، أي بكل ساحر تعلمونه وتظفرون به. أو أريد { **بِكُلِّ** } معنى الكثرة.
{ **فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ** } عطف بفاء التعقيب للدلالة على الفور في إحضارهم، وهو تعقيب بحسب المتعارف في الإسراع بمثل الشيء المأمور به، والمعطوف في المعنى محذوف لأنّ الذي يعقب قوله {ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ} هو إتيانهم بهم، ولكن ذلك لقلة جدواه في الغرض الذي سيقت القصّة لأجله حذف استغناء عنه بما يقتضيه ويدلّ عليه دلالة عقلية ولفظية من قوله {جَاءَ السَّحَرَةُ} على طريقة الإيجاز. والتقدير: فأتوه بهم فلما جاءوا قال لهم موسى.
{ **قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ** } وإنّما أمرهم موسى بأن يبتدئوا بإلقاء سحرهم إظهارا لقوّة حجّته، لأنّ شأن المبتدئ بالعمل المتباري فيه أن يكون أمكن في ذلك العمل من مباريه، ولا سيما الأعمال التي قوامها التمويه والترهيب، والتي يتطلّب المستنصر فيها السبق إلى تأثر الحاضرين وإعجابهم.

وقد ذكر القرآن في آيات أخرى أنّ السحرة خيروا موسى بين أن يبتدئ هو بإظهار معجزته وبين أن يبتدئوا، وأن موسى اختار أن يكونوا المبتدئين.

الإلقاء، رمي شيء في اليد إلى الأرض. وإطلاق الإلقاء على عمل السحر لأنّ أكثر تصاريف السحرة في أعمالهم السحرية يكون برمي أشياء إلى الأرض. وقد ورد في آيات كثيرة أنّهم ألقوا حبالهم وعصيّهم، وأنّها يخيّل من سحرهم أنها تسعى، وكان منتهى أعمال الساحر أن يخيّل الجماد حيّا.

{ مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ } قصد به التعميم البدلي، أي شيء تلقونه، وهذا زيادة في إظهار عدم الاكتراث بمبلغ سحرهم، وتهيئة للملأ الحاضرين أن يعلموا أنّ الله مبطل سحرهم على يد رسوله.

وقد طوي ذكر صورة سحرهم في هذه الآية، لأنّ الغرض من العبرة في هذه الآية وصف إصرار فرعون وملئه على الإعراض عن الدعوة، وما لقيه المستضعفون الذين آمنوا بموسى عليه السلام من اعتلاء فرعون عليهم، وكيف نصر الله رسوله والمستضعفين معه، وكيف كانت لهم العاقبة الحسنى ولمن كفروا عاقبة السوء، ليكونوا مثلا للمكذّبين بمحمد ﷺ. ولذلك لم يعرّج بالذكر إلّا على مقالة موسى - عليه السلام - حين رأى سحرهم، الدالة على يقينه بربه ووعده، وبأنّ العاقبة للحقّ.

{ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ } أي ما أظهرتموه لنا، فالمجيء قد استعمل مجازا في الإظهار.

{ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ } خبر (ما) الموصولة على قراءة الجمهور، وتأكيد الخبر بـ (إنّ) زيادة في إلقاء الروع في نفوسهم. و**إبطاله،** إظهار أنّه تخييل ليس بحقيقة، أي أن الله سيبطل تأثيره على النّاس بفضح سرّه.

{ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ } معترضة، وهي تعليل لمضمون جملة {إن الله سيبطله}، وتعريف {الْمُفْسِدِينَ} بلام الجنس، من التعميم في جنس الإصلاح المنفي وجنس المفسدين، ليعلم أنّ سحرهم هو من قبيل عمل المفسدين. والمراد بإصلاح عمل المفسدين الذي نفاه أنّه لا يؤيّده.

{ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ } معطوفة على { إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ } أي سيبطله ويحق الحق، أي يثبت المعجزة. **الإحقاق،** التثبيت. ومنه سمّي الحقّ حقّا لأنّه الثابت.

الكلمات، مستعارة لتعلّق قدرته تعالى بالإيجاد وهو التعلّق المعبر عنه بالتكوين الجاري على وفق إرادته وعلى وفق علمه. وهي استعارة رشيقة، لأنّ ذلك التعلّق يشبه الكلام في أنّه ينشأ عنه إدراك معنى ويدل على إرادة المتكلّم وعلى علمه.

{ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ } في موضع الحال، و(لو) وصلية. لأن تلك الكراهية من شأنها أن تبعثهم على معارضة الحقّ الذي يسوءهم ومحاولة دحضه، فأعلمهم أن الله خاذلهم.

{ الْمُجْرِمُونَ } فرعون وملأه فعدل عن ضمير الخطاب إلى الاسم الظاهر لما فيه من وصفهم بالإجرام تعريضا بهم. وإنّما لم يخاطبهم بصفة الإجرام عدولا عن مواجهتهم بالذم، وقوفا عند أمر الله تعالى، إذ قال له

{فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً} [طه: 44]، فأتى بالقضية في صورة قضية كليّة وهو يريد أنّهم من جزئيّاتها بدون تصريح بذلك. وموسى كان محاولا فرعون وملأه أن يؤمنوا، فكان في مقام الترغيب باللين.

{ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ } [83]

تفريع على ما تقدّم من المحاورة، أي فتفرّع على ذلك أنّ فرعون وملأه لم يؤمنوا بموسى، لأنّ حصر المؤمنين في ذرّيّة من قوم موسى يفيد أنّ غيرهم لم يؤمنوا وهو المقصود، فكانت صيغة القصر في هذا المقام إيجازا.

وقد طوي ما حدث بين المحاورة وبين تصميمهم على الإعراض، وهو إلقاء موسى عصاه والتقامها ما ألقوه من سحرهم، لعدم تعلق الغرض ببيان ذلك إذ المقصود الإفضاء إلى أنّهم صمّموا على الإعراض لأنّ ذلك محلّ تمثيل أعمالهم بحال مشركي أهل مكّة.

{ آمَنَ } أصله(أأْمن) بهمزتين، إحداهما أصلية في الكلمة لأنّ الكلمة مشتقة من الأمانة، والثانية همزة مزيدة للتعدية، أي جعله ذا أمانة، أي غير كاذب، فصار فعل {آمَنَ} بمعنى صدّق، وحقّه أن يعدّى إلى المفعول بنفسه ولكن عدي باللام للتفرقة بين (آمن) بمعنى صدّق من الأمانة، وبين (آمن) بمعنى جعله في أمن، أي لا خوف عليه منه.

{ لِمُوسَى } هذه اللام سمّاها ابن مالك لام التبيين وتبعه ابن هشام، وهي تدخل على المفعول لتقوية معنى المفعولية.

وقد يعدّى بالباء لتضمنه معنى صدّق كما في قوله تعالى {قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائِيلَ} [يونس: 90].

الذرّيّة، الأبناء وتقدّم في قوله {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ} [آل عمران:34].

أي فما آمن بما جاء به موسى إلّا أبناء بني إسرائيل ولم تبلغ دعوته بقية قومه أو لم يؤمر بالتبليغ إليهم حينئذ.

{ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ } و(على) بمعنى (مع)، أي آمنوا مع خوفهم. وهذا ثناء عليهم بأنّهم آمنوا ولم يصدّهم عن الإيمان خوفهم من فرعون.

والمعنى، أنّهم آمنوا عند ظهور معجزته، أي أعلنوا الإيمان به في ذلك الموطن لأنّ الإيمان لا يعرف إلّا بإظهاره ولا فائدة منه إلّا ذلك الإظهار. أي من الحاضرين في ذلك المشهد من بني إسرائيل. وهذا لا

يقتضي أنّ بقية قومه كفروا به، إذ يحتمل أن يكونوا آمنوا به بعد ذلك لمّا بلغتهم دعوته، لأنه يكون قد ابتدأ بدعوة فرعون مبادرة لامتثال الأمر من الله بقوله {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [طه: 43] فيكون المأمور به ابتداء هو دعوة فرعون وتخليص بني إسرائيل من الأسر.

{ وَمَلَإِهِمْ } تقدم آنفا في هذه القصة، وأضيف الملأ إلى ضمير الجمع وهو عائد إلى الذرّيّة، أي على خوف من فرعون وعلى خوف من قومهم، وهم بقية القوم الذين لم يحضروا ذلك المشهد خشية أن يغضبوا عليهم ويؤذنهم لإيمانهم بموسى لما يتوقّعون من مؤاخذة فرعون بذلك جميع قبيلتهم على عادة الجبابرة في أخذ القبيلة بفعلة من بعض رجالها.

الفَتْنُ، إدخال الروع والاضطراب على العقل بسبب تسليط ما لا تستطيع النفس تحمله، وتقدّم في قوله تعالى {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:191].

{ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ } في موضع الحال فهي عطف على قوله {عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ} وهي تفيد معنى التعليل لخوفهم من فرعون، فبعد أن أثنى عليهم بأنّهم آمنوا في حال شدّة الخوف، زاد فبيّن أنّهم أحقاء بالخوف، وفي هذا زيادة ثناء على قوّة إيمانهم. وتأكيد الخبر بـ (إنّ) للاهتمام بتحقيق بطش فرعون.

العلوّ: مستعار للغلبة والاستبداد.

الإسراف، تجاوز حدّ الاعتدال المعروف في فعل، فهو تجاوز مذموم، وأشهر موارده في الإنفاق، ولم يذكر متعلق الإفراط، فتعين أن يكون إسرافا فيما عرف به ملوك زمانهم من الصفات المكروهة عند النّاس الملازمة للملوك في العادة.

{ مِنَ الْمُسْرِفِينَ } أبلغ في وصفه بالإسراف من أن يقال: وإنه لمسرف.

{ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ [84] فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [85] وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } [86].

هذا خطاب موسى لجميع قومه، وهم بنو إسرائيل الذين بمصر، وهو يدلّ على أنّه خاطبهم بذلك بعد أن دعاهم وآمنوا به كما يؤذن به قوله {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ} . والمعنى، إن كنتم آمنتم بالله حقّا كما أظهرته أقوالكم فعليه اعتمدوا في نصركم ودفع الضرّ عنكم، ولا تعتمدوا في ذلك على أنفسكم بمصانعة فرعون، ولا على فرعون بإظهار الولاء له.

أراد إثارة صدق إيمانهم وإلهاب قلوبهم بجعل إيمانهم معلّقا بالشرط محتمل الوقوع، حيث تخوّفوا من فرعون

أن يفتنهم فأرادوا أن يكتموا إيمانهم تقيّة من فرعون وملئهم، وإنما جعل عدم اكتراثهم ببطش فرعون علامة على إيمانهم لأنّ الدعوة في أوّل أمرها لا تتقوّم إلّا بإظهار متّبعيها جماعتهم، فلا تغتفر فيها التقيّة حينئذ.

وبذلك عمل المسلمون الأوّلون مثل بلال، وعمّار، وأبي بكر، فأعلنوا الإيمان وتحمّلوا الأذى، وإنّما سوّغت التقيّة للآحاد من المؤمنين بعد أن تقوم جامعة الإيمان، فذلك محل قوله تعالى {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} [النحل: 106].

التوكّل، تقدّم آنفا في قصة نوح.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ** } شرط ثان مؤكد لشرط {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ} ، فحصل من مجموع الجملتين أن حصول هذا التوكّل متوقف على حصول إيمانهم وإسلامهم، لمزيد الاعتناء بالتوكّل وأنّه ملازم للإيمان والإسلام، ومبيّن أيضا للشرط الأول، أي إن كان إيمانكم إيمان مسلّم لله، أي مخلص له غير شائب إيّاه بتردّد في قدرة الله ولا في أنّ وعده حقّ.

الإيمان، تصديق الرسول فيما جاء به وهو عمل قلبي، ولا يعتبر شرعا إلّا مع الإسلام.

الإسلام، النطق بما يدلّ على الإيمان ولا يعتبر شرعا إلا مع الإيمان.

فالإيمان انفعال قلبي نفساني، والإسلام عمل جسماني، وهما متلازمان في الاعتداد بهما في اتباع الدين إذ لا يعلم حصول تصديق القلب إلّا بالقول والطاعة، وإذ لا يكون القول حقّا إلّا إذا وافق ما في النفس، قال تعالى {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرلت: 14]. وقد ورد ذلك صريحا في حديث سؤال جبريل في الصحيحين.

{ **فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } وقد كان صادق إيمانهم مع نور الأمر النبوي الذي واجههم به نبيّهم مسرعا بهم إلى التجرّد عن التخوّف والمصانعة، وإلى عقد العزم على التوكل على الله، فلذلك بادروا بجوابه بكلمة {عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا} مشتملة على خصوصية القصر المقتضي تجرّدهم عن التوكل على غير الله تعالى.

وأشير إلى مبادرتهم بأن عطفت جملة قولهم ذلك على مقالة موسى بفاء التعقيب خلافا للأسلوب الغالب في حكاية جمل الأقوال الجارية في المحاورات أن تكون غير معطوفة، فخولف مقتضى الظاهر لهذه النكتة.

ثم ذيلوا كلمتهم بالتوجه إلى الله بسؤالهم من أن يقيهم ضرّ فرعون. وسموا ذلك فتنة لأنها تزيد الناس توغلا في الكفر، والكفر فتنة. فمعنى سؤالهم، أن لا يجعلهم الله فتنة، هو أن لا يجعلهم سبب فتنة.

{ **لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } لأنّ الشرك ظلم، ولأنّه يشعر بأنّهم تلبسوا بأنواع الظلم؛ ظلم أنفسهم، وظلم الخلائق.

{ **وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** } ثم سألوا ما فيه صلاحهم فطلبوا النجاة من القوم الكافرين، أي من بطشهم وإضرارهم.

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [87]

وقع الوحي بهذا الأمر إلى موسى وهارون عليهما السلام لأنّه من الأعمال الراجعة إلى تدبير أمر الأمّة، فيمكن الاشتراك فيها بين الرّسول ومؤازره.

التبوؤ، اتخاذ مكان يسكنه، وهو تفعّل من البوء، أي الرجوع، كأنّ صاحب المسكن يكلّف نفسه الرجوع إلى محل سكنه ولو كان تباعد عنه في شؤون اكتسابه. أي اجعلا قومكما متبوّئين بيوتا. وأسند هنا إلى ضمير موسى وهارون - عليهما السلام - على طريقة المجاز العقلي، إذ كانا سبب تبوؤ قومهما للبيوت.

ومعنى تبوؤ البيوت لقومهما أن يأمرا قومهما باتخاذ البيوت على الوصف الذي يأمرانهم به. وإذ قد كان لبني إسرائيل ديار في مصر من قبل، إذ لا يكونون قاطنين مصر بدون مساكن، وقد كانوا ساكنين أرض (جاسان) قرب مدينة (منفيس) قاعدة المملكة يومئذ في جنوب البلاد المصرية، كما بيّناه في سورة البقرة، لا جرم أن تكون البيوت المأمور بتبوئها غير البيوت التي كانوا ساكنيها.

واضطرب المفسّرون في المراد من هذه البيوت وذكروا روايات غير ملائمة لحالة القوم يومئذ. فقيل: أريد بالبيوت بيوت العبادة أي مساجد يصلّون فيها. وقيل: البيوت بيوت السكنى وأمسكوا عن المقصود من هذه البيوت.

فالذي يظهر لي أنّ هذه البيوت خيام أو أخصاص أمرهم الله باتخاذها تهيئة للارتحال وهي غير ديارهم التي كانوا يسكنونها في(جاسان) قرب مدينة فرعون. وقد جاء في التوراة ما يشهد بهذا التأويل في الفصل الرابع من سفر الخروج، أنّ الله أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل إلى البادية ليعملوا عيد الفصح ثلاثة أيام وأنّ ذلك أوّل ما سأله موسى من فرعون، وأن فرعون منعهم من ذلك، وأنّ موسى كرّر طلب ذلك من فرعون كلّ ذلك يمنعه، كما في الفصل السابع والفصل الثامن من سفر الخروج، وقد صار لهم ذلك عيدا بعد خروجهم.

{ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً } أي هذه الخيام أو الأخصاص التي تتخذونها تجعلونها مفتوحة إلى القبلة. قاله ابن عطيّة عن ابن عباس.

القبلة، اسم في العربية لجهة الكعبة. وتلك الجهة هي ما بين المشرق والمغرب لأنّ قبلة بلاد مصر كقبلة المدينة ما بين المشرق والمغرب وهي الجنوب، فيجوز أن يكون التعبير عن تلك الجهة بالقبلة في الآية حكاية لتعبير موسى عنها بما يدل على معنى التوجّه إلى الجهة التي يصلّون إليها، وهي قبلة إبراهيم، فيكون أمر بني إسرائيل يومئذ جاريا على الملّة الحنيفيّة قبل أن ينسخ بالاستقبال إلى صخرة القدس.

ويجوز أن يكون موسى قد عبّر بما يفيد معنى الجنوب فحكيت عبارته في القرآن باللفظ المرادف له الشائع في التعبير عن الجنوب عند العرب وهو كلمة قبلة.

والحكمة في جعل البيوت إلى القبلة أنّ الشمس تدخلها من أبوابها في غالب أوقات النهار في جميع الفصول وفي ذلك منافع كثيرة.

والذين فسروا البيوت بأنها بيوت السكنى فسروا قبلة إما بمعنى متقابلة، وإما بمعنى اجعلوا بيوتكم محلّ صلاتكم، وكلا التفسيرين بعيد عن الاستعمال.

وأما الذين تأولوا البيوت بالمساجد فقد فسروا القبلة بأنها قبلة الصلاة، أي جهة الكعبة. وعن ابن عباس: كانت الكعبة قبلة موسى. وعن الحسن: كانت الكعبة قبلة كل الأنبياء. وهذا التفسير يلائم تركيب {اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} لأنّ التركيب اقتضى أن المجعول قبلة هو البيوت أنفسها لا أن تجعل الصلاة فيها إلى جهة القبلة فإذا افتقدنا التأويلات كلّها لا نجدها إلّا مفكّكة متعسفة خلا التفسير الذي عوّلنا عليه، وقد اختلفوا فيه فهدانا الله إليه.

{ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ** } وأمرهم بإقامة الصلاة، أي التي فرضها الله عليهم على لسان موسى، والتي كانوا يصلّونها من قبل مجيء موسى اتباعا لإبراهيم عليه السلام وأبنائه. والظاهر أن الداعي إلى أمرهم بإقامة الصلاة أن اتخاذ البيوت كان في حالة رحيل فكانت حالتهم مظنّة الشغل عن إقامة الصلوات فلذلك أمروا بالمحافظة على إقامة الصلاة في مدّة رحلتهم.

{ **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** } مشعرة بترقّب أخطار وتخوف، فإنهم قالوا {رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً} فأمر موسى أنّ يبشّرهم بحسن العاقبة، وأنّهم منصورون على عدوهم وناجون منه. والمؤمنون هم قوم موسى.

{ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } [88]

عطف بقية ما جرى في القصّة ممّا فيه عبرة وموعظة. وهذا مقدّمة لخبر خروج موسى ومن معه من أرض مصر. فهذه المقدّمة لتعريف كرامة موسى عليه السلام على ربّه بأن استجاب له دعاءه، وأنفذ برسالته مراده تعالى من إنقاذ بني إسرائيل من الاستعباد.

ومهّد موسى لدعائه تمهيدا يدلّ على أنّ ما سأله من الله لزجر فرعون وملئه إنّما هو لمصلحة الدين لا للانتقام منه لقومه ولنفسه، فسأل الله سلب النعمة عن فرعون وملئه وحلول العذاب بهم لخضد شوكتهم وتذليل تجبّرهم ليرجعوا عن ضلالهم ويسهل قبولهم الإيمان.

ولمّا كانت النعمة مغرية بالطغيان لأهل الجهالة والخباثة جعل موسى إمداد فرعون بالنّعمة مغريا لفرعون بالاسترسال على الإعراض عن الدين فكان دعاء موسى عليهم استصلاحا لهم وتطلّبا لإيمانهم بوسائل التشديد عليهم، ولكن الله علم من قلوبهم ما لم يعلمه موسى وقضى عليهم بالاستئصال.

{ **رَبَّنَا** } افتتح الدعاء بالنداء لمناسبته لمقام الدعاء. ونودي الله بوصف الربوبيّة تذلّلا لإظهار العبوديّة.

{ **إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً** } توطئة للدعاء عليهم، والخبر مستعمل في التمهيد لطلب سلب النعمة عنهم.

{ **لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ** } تردّد المفسّرون في محل اللام، والذي سلكه أهل التدقيق منهم أنّ اللام **لام العاقبة**. ونقل ذلك عن نحاة البصرة، الخليل وسيبويه، والأخفش، وأصحابهما، على نحو اللام في قوله تعالى {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً}، فالمعنى، إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فضلّوا بذلك وأضلّوا.

وللمفسّرين وجوه خمسة أخرى:

أحدها: أن يكون للتعليل، وأن المعنى: إنك فعلت ذلك استدراجا لهم، ونسب إلى الفراء، وفسّر به الطبري.

الثاني: أنّ الكلام على حذف حرف، والتقدير: لئلا يضلوا عن سبيلك أي فضلوا. حكاه الفخر.

الثالث: أن اللام لام الدعاء. روي هذا عن الحسن. واقتصر عليه في الكشاف. وقاله ابن الأنباري. وهو أبعد الوجوه وأثقلها.

الرابع: أن يكون على حذف همزة الاستفهام. والتقدير: ليضلوا عن سبيلك آتيناهم زينة وأموالا تقريرا للشنعة عليهم، قاله ابن عطية. ويكون الاستفهام مستعملا في التعجب، قاله الفخر.

الخامس: تأويل معنى الضلال بأنّه الهلاك، قاله الفخر.

وهي وجوه ضعيفة متفاوتة الضعف فلا نطيل بتقريرها.

الزينة، ما يتزيّن به النّاس، وما يحسن في أنظارهم من طرائف الدنيا، كالحليّ والجواهر والمباني الضخمة. قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ} [آل عمران: 14].

الأموال، ما به قوام المعاش، فالزينة تلهيهم عن اتباع المواعظ، وتعظّم شأنهم في أنظار قومهم، والأموال يسخّرون بها الرعيّة لطاعتهم، وقد كان للفراعنة من سعة الرزق ورفاهية العيش ما سار ذكره في الآفاق.

{ **رَبَّنَا** ... **رَبَّنَا** } وأعيد النداء بين الجملة المعلِّلة والجملة المعلَّلة لتأكيد التذلّل والتعرّض للإجابة ولإظهار التبرؤ من قصد الاعتراض.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب {لِيَضِلُّوا} بفتح الياء. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي بضم الياء على معنى سعيهم في تضليل الناس. والمعنى الحاصل من القراءتين متّحد لأنّهم إذا ضلّوا في أنفسهم وهم قادة قومهم كان ضلالهم تضليلا لغيرهم، وكذلك إذا أضلّوا النّاس فإنّهم ما

أضلّوهم إلّا وهم ضالون مثلهم. وقد علمت آنفا أنّ الزينة سبب ضلالهم والأموال سبب إضلال النّاس.
وأعيد النداء ثالث مرة لزيادة تأكيد التوجه والتضرّع.
{ **رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ** } هي المقصود من هذا الكلام، والنداء يقوم مقام وصل الجملة بما قبلها بمنزلة حرف العطف.
الطمس، المحو والإزالة. وفعله يتعدّى بنفسه كما في قوله {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً} [النساء:47]. ويُعدى بحرف (على) كما هنا وفي قوله تعالى {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ} في سورة يس[66]. ولعل تعديته بـ (على) لإرادة تمكّن الفعل من المفعول، أو لتضمين الطمس معنى الاعتلاء، فطمس الأموال إتلافها وإهلاكها.
{ **وَاشْدُدْ** } أحسب أنّه مشتقّ من الشدّ، وهو العسر. ومنه الشدّة للمصيبة والتحرّج، ولو أريد غير ذلك لقيل: واطبع، أو واختم، أو نحوهما. والمعنى: أدخل الشدّة في قلوبهم.
القلوب، النفوس والعقول.
والمعنى: أنّه يدعو عليهم بالأنكاد والأحزان التي تجعل قلوبهم في ضيق وحرج، أي اجعلهم في عناء وبلبلة بال ما داموا في الكفر. وهذا حرص منه عليه السلام على وسائل هدايتهم رجاء أنّهم إذا زالت عنهم النعم وضاقت صدورهم بكروب الحياة تفكّروا في سبب ذلك، فعجّلوا بالتوبة إلى الله، كما هو معتاد النفوس الغافلة قال تعالى {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ} [الزمر: 8].
{ **فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** } فاء السببيّة في جواب الدعاء، أي افعل بهم ذلك ليؤمنوا. والفعل منصوب بـ (أن) مضمرة إضمارا واجبا بعد فاء السببية.
وإنّما عدل عن إيقاع جواب الدعاء بصيغة إثبات الإيمان، إلى إيراده بصيغة نفي مغيّا بغاية هي رؤية العذاب سلوكا لأسلوب بديع في نظم الكلام، لأنّه أراد أن يجمع بين ترتيب الجواب على الدعاء وبين ما استبان له من طبع نفوسهم بطبع أنّهم لا تنفع فيهم الحجج، وأنّ قساوة قلوبهم وشراسة نفوسهم لا تذلّلها إلّا الآلام الجسديّة والنفسانية، وكل ذلك علاج بما هو مظنّة إيصالهم من طرق الضغط والشدّة، حيث لم تجد فيهم وسائل الحجّة. وهذا إيجاز بديع إذ جمع في هذا التركيب جواب الدعاء وبيان علة الدعاء عليهم بذلك. وأصل الكلام: فيؤمنوا، فإنّهم لا يؤمنون إلّا إذا رأوا العذاب الأليم.
الرؤية، مستعملة في الإحساس على وجه المجاز المرسل، أو مستعملة كناية عن حلول العذاب بهم لأنّ المشاهدة ملازمة لحلول الشيء المشاهد.
العذاب الأليم، عذاب الفقر والجوع وعذاب النكد في النفس.

{ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ }[89]

جواب من الله لكلام موسى جرى على طريقة حكاية المحاورات أن لا تُعطف جملها كما تقدّم غير مرة.

{ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا } أضيفت الدعوة إلى ضمير التثنية المخاطب به موسى وهارون، وإن كانت الدعوة إنّما حكيت عن موسى عليه السلام وحده، لأنّ موسى عليه السلام دعا لما كان هارون مواطئا له وقائلا بمثله لأن دعوتهما واحدة. وقيل: كان موسى عليه السلام يدعو وهارون عليه السلام يؤمّن.

ومعنى إجابة الدعوة إعطاء ما سأله موسى ربّه أن يسلب عن فرعون وملئه النعم، ويوالي عليهم المصائب حتّى يسأموا مقاومة دعوة موسى وتنحط غلواؤهم، قال تعالى {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف: 130] وقال {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ} [الأعراف: 133].

{ فَاسْتَقِيمَا } فرّع على إجابة دعوتهما أمرهما بالاستقامة، فعلم أنّ الاستقامة شكر على الكرامة، فإن إجابة الله دعوة عبده إحسان للعبد وإكرام، وتلك نعمة عظيمة تستحق الشكر عليها، وأعظم الشكر طاعة المنعم.

وإذ قد كان موسى وهارون مستقيمين، وناهيك باستقامة النبوءة، كان أمرهما بالاستقامة مستعملا في الأمر بالدوام عليها. ومن الاستقامة أن يستمرّا على الدعوة إلى الدين ولا يضجرا. فكان أمرهما بالاستقامة جامعا لجميع خصال الخير والصلاح.

الاستقامة، حقيقتها الاعتدال، وهي ضدّ الاعوجاج، وهي مستعملة كثيرا في معنى ملازمة الحقّ والرشد، لأنّه شاع تشبيه الضلال والفساد بالاعوجاج والالتواء. وقيل للحقّ: طريق مستقيم. وفي حديث أبي عمرة الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك. قال: قل: "آمنت بالله ثم استقم" .

{ وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ } وأعقب حثّهما على الاستقامة بالنهي عن اتباع طريق الذين لا يعلمون، وإن كان ذلك مشمولا للاستقامة، تنبيها على توخي السلامة من العدول عن طريق الحقّ اهتماما بالتحذير من الفساد.

السبيل، الطريق، وهو هنا مستعمل للسيرة والعمل الغالب.

{ وَلا تَتَّبِعَانِّ } قرأه الجمهور بتشديد النون مكسورة. وهما نونان: إحداهما نون المثنى والأخرى نون التوكيد. وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر {وَلا تَتَّبِعَانِ} بنون خفيفة مكسورة. وهي نون رفع المثنى لا نون التوكيد، فتعيّن أن تكون (لا) على هاته القراءة نافية غير ناهية، والجملة في موضع الحال والواو واو الحال، لأن جملة الحال المضارعة المفتتحة بحرف نفي يجوز اقترانها بالواو وعدمه.

{ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ }[90]

معطوفة على جملة {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً} عطف الغرض على التمهيد، أي أمرناهما باتخاذ تلك البيوت تهيئة للسفر ومجاوزة البحر.

{ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ } أي قطعنا بهم البحر، وتقدّم نظيره في سورة الأعراف[138]. ومجاوزتهم البحر تقتضي خوضهم فيه، وذلك أنّ الله جعل لهم طرائق في البحر يمرّون منها.

{ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً } بمعنى لحقهم. يقال: تبعه فأتبعه إذا سار خلفه فأدركه. ومنه {فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}.

البغي، الظلم، مصدر بغى. وتقدم عند قوله تعالى {وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الأعراف:33].

العدو، مصدر عدا. وهو تجاوز الحدّ في الظلم، وهو مسوق لتأكيد البغي.

والمعنى: أنّ فرعون دخل البحر يتقصّى آثارهم فسار في تلك الطرائق يريد الإحاطة بهم ومنعهم من السفر، وإنما كان اتّباعه إيّاهم ظلما وعدوانا، إذ ليس له فيه شائبة حقّ، لأنّ بني إسرائيل أرادوا مفارقة بلاد فرعون وليست مفارقة أحد بلده محظورة إن لم يكن لأحد عليه حق في البقاء، فإنّ لذي الوطن حقا في الإقامة في وطنه فإذا رام مغادرة وطنه فقد تخلّى عن حقّ له، وللإنسان أن يتخلى عن حقّه، فلذلك كان الخلع في الجاهلية عقابا، وكان النفي والتغريب في الإسلام عقوبة لا تقع إلّا بموجب شرعي، وكان الإمساك بالمكان عقابا، ومنه السجن، فليس الخروج من الوطن طوعا بعدوان. فلمّا رام فرعون منع بني إسرائيل من الخروج وشدّ للحاق بهم لردهم كرها كان في ذلك ظالما معتديا، لأنه يبتغي بذلك إكراههم على البقاء، ولأنّ غرضه من ذلك تسخيرهم.

{ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{ حَتَّى } ابتدائية لوقوع **{ إِذَا }** الفجائية بعدها. والتقدير: حتى أدركه الغرق فإذا أدركه الغرق قال آمنت.

الإدراك، اللحاق وانتهاء السير. وهو يؤذن بأنّ الغرق دنا منه تدريجيّا بهول البحر ومصارعته الموج، وهو يأمل النجاة منه، وأنّه لم يظهر الإيمان حتى أيس من النجاة وأيقن بالموت، وذلك لتصلّبه في الكفر.

وقد بني نظم الكلام على جملة {إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ} ، وجعل ما معها كالوسيلة إليها، فجعلت (حتّى) لبيان غاية الإتباع وجعلت الغاية أن قال {آمَنْتُ} لأنّ إتباعه بني إسرائيل كان مندفعا إليه بدافع حنقه عليهم لأجل الدين الذي جاء به رسولهم ليخرجهم من أرضه، فكانت غايته إيمانه بحقّهم. ولذلك قال {الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ} ليفيد مع اعترافه بالله تصويبه لبني إسرائيل فيما هدوا إليه، فجعل الصلة طريقا لمعرفته بالله،

ولعدم علمه بالصفات المختصة بالله إلّا ما تضمّنته الصلة إذ لم يتبصّر في دعوة موسى تمام التبصر، ولذلك احتاج أن يزيد {وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} لأنّه كان يسمع من موسى دعوته لأنّ يكون مسلما فنطق بما كان يسمعه وجعل نفسه من زمرة الذين يحق عليهم ذلك الوصف، ولذلك لم يقل: أسلمت، بل قال أنا من المسلمين.
وسيأتي قريبا في تفسير الآية التي بعد هذه تحقيق صفة غرق فرعون، وما كان في بقاء بدنه بعد غرقه.

{ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [91] فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ } [92].

مقول لقول حذف لدلالة المقام عليه، تقديره: قال الله. وهو جواب لقوله {آمَنْتُ} لأنّه قصد بقوله ذلك طلب الإنجاء من الغرق اعترافا لله بالربوبية، فكأنّه وجّه إليه كلاما.

{ **الْآنَ** } الاستفهام إنكاري. ظرف لفعل محذوف دلّ عليه قوله {آمَنْتُ} تقديره، الآن تؤمن، أي هذا الوقت. والإنكار مؤذن بأنّ الوقت الذي علّق به الإنكار ليس وقتا ينفع فيه الإيمان، لأن الاستفهام الإنكاري في قوة النفي، فيكون المعنى: لا إيمان الآن.

وإنّما لم ينفعه إيمانه لأنّه جاء به في وقت حصول الموت. وهو وقت لا يقبل فيه إيمان الكافر ولا توبة العاصي، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ } [النساء: 18].

{ **كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** } الصيغة أبلغ في الوصف بالإفساد من وكنت مفسدا، كما تقدّم آنفا.

{ **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ** } الفاء فاء الفصيحة، تفصح عن شرط مقدّر في الكلام يدل عليه السياق. والمعنى: فإن رمت بإيمانك بعد فوات وقته أن أنجيك من الغرق فاليوم ننجيك ببدنك. والكلام جار مجرى التهكّم، فإطلاق الإنجاء على إخراجه من البحر استعارة تهكّميّة. وليس مسوغها التهكّم المحض كما هو الغالب في نوعها، بل فيها علاقة المشابهة، لأنّ إخراجه إلى البر كاملا يشبه الإنجاء، ولكنّه ضد الإنجاء، فكان بالمشابهة استعارة، وبالضديّة تهكما.

{ **بِبَدَنِكَ** } الأظهر أنّ الباء مزيدة للتأكيد، أي تأكيد آية إنجاء الجسد، فيكون (بدنك) في معنى البدل المطابق من الكاف في {نُنَجِّيكَ}.

البدن، الجسم بدون روح وهذا احتراس من أن يُظنّ المراد الإنجاء من الغرق. لأنّه لو لم يكن المقصود الاقتصار على تلك الحالة لما كان داع للبليغ أن يزيد ذلك القيد، فإن كل زيادة في الكلام البليغ يقصد منها معنى زائد، وإلّا لكانت حشوا في الكلام والكلام البليغ موزون، ولغة العرب مبنية على أساس الإيجاز.

{ **لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً** } أي من وراءك، في معنى المتأخّر والباقي، أي من ليسوا معك. أي لتكون ذاته آية على أن الله أعظم وأقهر من فرعون وآلهته. لأنهم كانوا يزعمون أنّ الفرعون لا يغلب، وأنّه حين يموت إنّما يُنقل إلى دار الخلود. ولذلك كانوا يموّهون على النّاس فيبنون له البيوت في الأهرام ويودعون بها لباسه وطعامه ورياشه وأنفس الأشياء عنده، فموته بالغرق وهو يتبع أعداءه ميتة لا تؤوّل بشيء من ذلك.

ولم يعدم فرعون فائدة من إيمانه، فإنّ الله بحكمته قدّر له الخروج من غمرات الماء، فلم يبق في الماء أكلة للحيتان ولكن لفظته الأمواج، وتلك حالة أقل خزيا من حالات سائر جيشه.

{ **فَالْيَوْمَ** } مستعملة في الآن، لأنّ اسم اليوم أطلق على جزء من زمن الحال مجازا بعلاقة الكلية والجزئية.

{ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** } تذييل لموعظة المشركين، والواو اعتراضية، أو واو الحال.

والمراد، دفع توهّم النقص عن آيات الله عندما يُحرم كثير من النّاس الاهتداء بها، فهي في ذاتها دلائل هدى سواء انتفع بها بعض النّاس أم لم ينتفعوا، فالتقصير منهم.

واعلم أن هذه الآية أصرح آية في القرآن دلالة على أنّ فرعون الذي أرسل إليه موسى والذي أتبع بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر قد أصابه الغرق. وقد أشارت إليه آية سورة الأعراف وآية سورة البقرة.

وفرعون هذا هو منفطاح الثاني، ويقال له (**مَيْرْنْبَتَا**)، بباء فارسية أو (**منفتاح**)، أو (**منيفتا**) وهو ابن رعمسيس الثاني المعروف عند اليونان باسم (**سَيْزُوستريس**)، من ملوك العائلة التاسعة عشرة من الأسر الفرعونية، وكانوا في حدود سنة (1491 ق م).

ومؤرخو القبط لم يتعرّضوا لصفة موته، وما ذلك إلّا لأن الكهنة أجمعوا على إخفائها كيلا يتطرق الشك إلى الأمّة فيما يمجّد به الكهنة كل فرعون من صفات بنوّة الآلهة. وخلفته في ملك مصر ابنته المسماة (طوسير) لأنه تركها وابنا صغيرا.

وقد جاء ذكر غرق فرعون في التوراة في الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج بعبارات مختلفة الصراحة والإغلاق.

ومن دقائق القرآن قوله تعالى {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً} وهي عبارة لم يُأت مثلها فيما كتب من أخبار فرعون، وإنّها لمن الإعجاز العلمي في القرآن إذ كانت الآية منطبقة على الواقع التاريخي.

{ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [93]

فلمّا ضرب الله مثل السوء أتبعه بمثل الصلاح بحال الذين صدّقوا الرسول واتّبعوه، وكيف كانت عاقبتهم الحسنى، ليظهر الفرق بين مصيري فريقين جاءهم رسول فآمن به فريق وكفر به آخر، ليكون ذلك ترغيبا للمشركين في الإيمان، وبشارة للمؤمنين من أهل مكّة.

فالمراد ببني إسرائيل القوم المتحدّث عنهم، وترتيب الإخبار يقتضي أنّ الله بوّأهم مبوّأ صدق عقب مجاوزتهم البحر وغرق فرعون وجنوده، فإنّهم دخلوا بعد ذلك صحراء التيه وأمنوا على أنفسهم وأقبلوا على تزكية نفوسهم وإصلاح شؤونهم، ورزقوا المنّ والسلوى، وأعطوا النصر على الأمم التي تعرّضت لهم، تحاول منعهم من امتلاك الأرض الطيّبة. فما زالوا يتدرّجون في مدارج الخير والإنعام، فذلك مبوّأ الصدق.

فما اختلف أولئك ولا من خلفهم من أبنائهم وأخلافهم.

التبوّؤ تقدم آنفا، والمبوّأ: مكان البوء، أي الرجوع، والمراد المسكن كما تقدّم، والصدق هنا بمعنى الخالص في نوعه. وتقدّم عند قوله تعالى {أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [2]. والمراد بمبوّأ الصدق ما فتح الله عليهم من بلاد فلسطين وما فيها من خصب وثراء، قال تعالى { وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } [الأعراف: 137].

{ فَمَا اخْتَلَفُوا } تفريع على {بَوَّأْنَا}، تفريع ثناء عليهم بأنّهم شكروا تلك النعمة ولم يكفروها كما كفرها المشركون الذين بوّأهم الله حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كلّ شيء، فجعلوا لله شركاء، ثم كفروا بالرّسول المرسل إليهم. فوقع في الكلام إيجاز حذف. وتقدير معناه: فشكروا النعمة واتّبعوا وصايا الأنبياء وما خالفوا ذلك إلّا من بعد ما جاءهم العلم.

الاختلاف، افتعال أريد به شدّة التخالف، وهي مشتقة من الاسم الجامد وهو (الخلف) لمعنى الوراء، فتعيّن أن زيادة التاء للمبالغة مثل (اكتسب) مبالغة في(كسب). فيحمل على خلاف شديد، وهو مضادة ما جاء به الدين وما دعا إليه الرّسول ﷺ. وهو المناسب للسياق فإنّ الكلام ثناء مردف بغاية تؤذن أن ما بعد الغاية نهاية للثناء وإثبات للوم، فالذين لم يختلفوا هم الذين بوّأهم الله مبوّأ صدق. إلى أن جاء الذين اختلفوا على الأنبياء، وهؤلاء ما صدق ضمير الرفع في قوله { جَاءَهُمُ الْعِلْمُ }.

{ حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ } يجوز أن يكون ما جاءهم به الأنبياء من شرع الله فلم يعملوا بما جاؤوهم به، وأعظم ذلك تكذيبهم بمحمد ﷺ . ويجوز أن يكون العلم هو القرآن. فعن ابن عباس: هم اليهود الذين كانوا في زمن النبيء محمد ﷺ كانوا قبل مبعثه مقرّين بنبيء يأتي، فلمّا جاءهم العلم، وهو القرآن اختلفوا في تصديق محمد ﷺ.

قال ابن عباس: هم قريظة والنضير وبنو قينقاع.
وعلى هذا الوجه يكون معنى الآية كمعنى قوله {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ} [آل عمران: 19]، وقوله: {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البينة: 4] فإن البيّنة هي محمد ﷺ لأن قبل هذا قوله {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً} [1، 2].
وهذا المحمل هو المناسب لحرف (حتّى). وتعقيب {فَمَا اخْتَلَفُوا} بالغاية يؤذن بأنّ ما بعد الغاية منتهى حالة الشكر، أي فبقوا في ذلك المبوّأ، وفي تلك النعمة، حتّى اختلفوا فسلبت نعمتهم فإنّ الله سلبهم أوطانهم.
{ **إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } تذييل وتوعّد، والمقصود منه، أنّ أولئك قوم مضوا بما عملوا وأنّ أمرهم إلى ربهم كقوله {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ} [البقرة: 134]، وفيه إيماء إلى أنّ على الحاضرين اليوم أن يفكّروا في وسائل الخلاص من الضلال والوقوع في المؤاخذة يوم القيامة.

{ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ [94] وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[95].

تفريع على سياق القصص التي جعلها الله مثلا لأهل مكّة وعظة بما حلّ بأمثالهم. انتقل بهذا التفريع من أسلوب إلى أسلوب، كلاهما تعريض بالمكذّبين، فالأسلوب السابق تعريض بالتحذير من أن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم المماثلة لهم، وهذا الأسلوب الموالي تعريض لهم بشهادة أهل الكتاب على تلك الحوادث، وما في الكتب السابقة من الأنباء برسالة محمد ﷺ.
{ **مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ** } هو المنزّل الذي تفرع عليه هذا الكلام وهو ما أنزل في هذه السورة من القصص.
ثمّ إنّ الآية تحتمل معنيين لا يستقيم ما سواهما:
أوّلهما: أن تبقى الظرفية التي دلّت عليها (في) على حقيقتها، ويكون الشكّ قد أطلق وأريد به أصحابه، أي فإن كنت في قوم أهل شكّ ممّا أنزلنا إليك، أي يشكّون في وقوع هذه القصص، كما يقال: دخل في الفتنة، أي في أهلها. ويكون معنى {فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} فاسأل أهل الكتاب سؤال تقرير وإشهاد عن صفة تلك الأخبار يخبروا بمثل ما أخبرتهم به، فيزول الشك من نفوس أهل الشكّ، إذ لا يحتمل تواطؤك مع أهل الكتاب على صفة واحدة لتلك الأخبار.
فالمقصود من الآية إقامة الحجة على المشركين بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى قطعا لمعذرتهم.

ثانيهما: أن تكون (في) للظرفيّة المجازية كالتي في قوله تعالى {فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ} [هود: 109] ويكون سوق هذه المحاورة إلى النبيء ﷺ على طريقة التعريض لقصد أن يسمع ذلك المشركون فيكون استقرار حاصل المحاورة في نفوسهم أمكن ممّا لو ألقي إليهم مواجهة. وهذه طريقة في الإلقاء التعريضي يسلكها الحكماء وأصحاب الأخلاق متى كان توجيه الكلام إلى الذي يقصد به مظنّة نفور كما في قوله تعالى {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: 65] أو كان في ذلك الإلقاء رفق بالذي يُقصد سوق الكلام إليه، كما في قصّة الخصم من اللذين اختصما إلى داود المذكورة في سورة (ص).

وكلا الاحتمالين يلاقي قوله {فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} فإنه يقتضي أنّ المسؤول عنه ممّا لا يكتمه أهل الكتاب، وأنّهم يشهدون به، وإنّما يستقيم ذلك في القصص الموافقة لما في كتبهم، فإنّهم لا يتحرّجون من إعلانها والشهادة بها.

{ **فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ** } جواب للشرط باعتبار ما تفيده مادة السؤال من كونهم يجيبون بما يزيل الشك، فبذلك يلتئم التلازم بين الشرط والجواب.

{ **لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا لجواب سؤال ناشئ عن الشرط وجوابه، كأن السامع يقول: فإذا سألتهم ماذا يكون؟ فقيل: لقد جاءك الحق من ربك.

{ **لَقَدْ** } لمّا كان المقصود من ذلك علم السامعين بطريق التعريض لا علم الرسول ﷺ، لأنّه ليس بمحلّ الحاجة لإعلامه بأنّه على الحق، قرنت الجملة بحرفي التأكيد(لام القسم - قد) ، لدفع إنكار المعرّض بهم.

{ **فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** } تعريض أيضا بالمشركين.

الامتراء، الشكّ فيما لا شبهة للشك فيه. فهو أخصّ من الشك.

{ **وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ** } أصرح في التعريض بهم.

{ **فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } وهذا يقتضي أنهم خاسرون. ونظيره { لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

وحاصل المعنى: فإن كنتم شاكين في صدق ما أنزلنا على محمد ممّا أصاب المكذّبين قبلكم فاسألوا أهل الكتاب يخبروكم بأنّ ذلك صدق. لقد جاءكم الحقّ من رب محمد ﷺ فلا تكونوا شاكين ولا تكذّبوا بآيات الله فتكونوا خاسرين.

{ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ [96] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [97]

لمّا سبق التعريض بالمشركين الشّاكين في صدق ﷺ والاستشهاد عليهم في صدقه بشهادة أهل الكتاب أعقب ذلك بأنّهم من زمرة الفرق الذين حقّت عليهم كلمة الله أن لا يؤمنوا، فهم لا تجدي فيهم الحجّة لأنّهم أهل مكابرة وليسوا طالبين للحقّ، فالذين لم يؤمنوا بما يجيء من الآيات هم ممن علم الله أنّهم لا يؤمنون. وهذا مسوق مساق التأييس من إيمانهم.

حقّت، ثبتت. و**عَلَيْهِمْ**، للاستعلاء المجازي، وهو تمكّن الفعل الذي تعلّقت به.

{ كَلِمَتُ رَبِّكَ }، أمر التكوين، على مراعاة الجنس، أي يحق على كلّ أمّة كلمة . وجمعت الكلمات (في قراءة نافع) بالنظر إلى أنّ متعلّقها ناس كثيرون، فكل واحد منهم تحقّ عليه كلمة.

ويحتمل أن تجعل الجملة في موضع التعليل للقصص السابقة، فتكون بمنزلة التذييل، والموصول للعموم الجامع جميع الأمم التي هي بمثابة الأمم المتحدّث عنهم، وتكون (**إنّ**) لمجرّد الاهتمام بالخبر، فتفيد التعليل والربط، وتغني عن فاء التفريع، كما تقدّم غير مرّة، ويكون في الآية تعريض آخر بالمشركين.

{ وَلَوْ } وصلية للمبالغة، أي لا يؤمنون ولو جاءتهم كلّ آية، فكيف إذا لم تجئهم إلّا بعض الآيات.

{ كُلُّ آيَةٍ } مستعملة في معنى الكثرة، وهو استعمال كثير في القرآن. كما في قوله تعالى { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } [البقرة:27]، أي ولو جاءتهم آيات كثيرة.

رؤية العذاب، كناية عن حلوله بهم.

والمعنى: أنّهم لا يؤمنون إلّا حين لا ينفعهم الإيمان، لأنّ نزول العذاب هو ابتداء مجازاتهم على كفرهم.

ومن بركة هذا الدين أن الذين كفروا به قد هداهم الله قبل أن ينزل بهم عذابا.

{ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ }[98]

الفاء لتفريع التغليط على امتناع أهل القرى من الإيمان بالرسل قبل أن ينزل بهم العذاب على الإخبار بأنّ الذين حقّت عليهم كلمة الله أن لا يؤمنوا لا يؤمنون حتّى يروا العذاب. والغرض من ذكر أهل القرى التعريض بالمقصود، وهم أهل مكّة، فإنّهم أهل قرية. فكان ذلك كالتخلّص بالتعريض إلى المخصوصين به، وللإفضاء به إلى ذكر قوم يونس فإنّهم أهل قرية.

{ **فَلَوْلا** } الفاء للتفريع و(لولا) حرف يرد لمعان منها التوبيخ، وهو هنا مستعمل في لازم التوبيخ كناية عن التغليط، لأنّ أهل القرى قد انقضوا، وذلك أنّ أصل معنى (لولا) التحضيض، وهو طلب الفعل بحثّ، فإذا دخلت على فعل قد فات وقوعه كانت مستعملة في التغليط والتنديم والتوبيخ على تفويته، ويكون ما بعدها في هذا الاستعمال فعل ماضي مثل قوله تعالى {وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا} [النور:16].

والمقصود، التعريض بأنّ مشركي أهل مكّة يوشك أن يكونوا على سنن أهل القرى. وذلك تعريض بتحريض أهل مكّة على الإيمان قبل نزول العذاب.

والمستخلص من الروايات الواردة في قوم يونس أنّهم بادروا إلى الإيمان بعد أن فارقهم يونس، توقّعا لنزول العذاب، وقبل أن ينزل بهم العذاب، وذلك دليل على أنّ معاملة الله إيّاهم ليست مخالفة لما عامل به غيرهم من أهل القرى، وأن ليست لقوم يونس خصوصيّة، وبذلك لا يكون استثنائهم استثناءا منقطعا.

{ **لَمَّا آمَنُوا** } مستأنفة لتفصيل مجمل معنى الاستثناء. وفي الآية إيماء إلى أنّ أهل مكّة يعاملهم الله معاملة قوم يونس إذ آمنوا عند رؤية العذاب. وذلك حالهم عندما تسامعوا بقدوم جيش غزوة الفتح الذي لا قبل لهم به عَدّة وعُدّة، فيكاد يحل بهم عذاب استئصال لولا أنّهم عجّلوا بالإيمان يوم الفتح. فقال لهم النبيء ﷺ: " أنتم الطلقاء ".

وقوم يونس هم أهل قرية **نَيْنَوَى**[بفتح النونين بينهما ياء تحتية ساكنة وبعد النون الثانية واو مفتوحة بعدها ألف، هي إحدى مدن بلاد أشور من العراق كائنة على الضفة اليسرى من الدجلة بناها الملك أشور سنة (2229 ق م) وكانت مصطافا لملوك أشور من عهد شلمناصر الأوّل]. وهم خليط من الآشوريين واليهود الذين كانوا في أسر ملوك بابل بعد بختنصر. وكانت بعثة يونس إليهم في أول القرن الثامن قبل المسيح. وقد تقدّم ذكر يونس وترجمته في سورة الأنعام.

ولمّا كذّبه أهل نينوى توعّدهم بخسف مدينتهم بعد أربعين يوما، وخرج من المدينة غاضبا عليهم، فلمّا خرج خافوا نزول العذاب بهم فتابوا وآمنوا بالله فقبل الله إيمانهم ولم يعذّبهم. والمذكور أنّهم رأوا غيما أسود بعد مضي خمسة وثلاثين يوما من حين توعّدهم يونس عليه السلام بحلول العذاب فعلموا أنّه مقدّمة العذاب فآمنوا وخضعوا لله تعالى فأمسك عنهم العذاب. وسيجيء ذكر ما حل بيونس عليه السلام في خروجه ذلك من ابتلاع الحوت إيّاه في سورة الأنبياء.

الكشف، إزالة ما هو ساتر لشيء، وهو هنا مجاز في الرفع. عبّر عن الرفع وإبطال العذاب قبل وقوعه بالكشف تنزيلا لمقاربة الوقوع منزلة الوقوع.

الخزي، الإهانة والذلّ. وإضافة العذاب إلى الخزي يجوز كونها بيانيّة لأنّ العذاب كلّه خزي، ويجوز أن تكون الإضافة حقيقيّة للتخصيص، ويكون المراد من الخزي الحالة المتصوّرة من حلوله. وهي شناعة الحالة لمن يشاهدهم مثل الخسف والحرق والغرق، وأشنع الخزي ما كان بأيدي أناس مثلهم، وهو عذاب السيف

الذي حل بصناديد قريش يوم بدر، والذي كاد أن يحل بجميع قريش يوم فتح مكّة فنجاهم الله منه كما نجى قوم يونس.

{ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } صفة ل {عَذَابَ الْخِزْيِ} للإشارة إلى أنّ العذاب الذي يحلّ بالأمم الكافرة هو عقاب في الدنيا وبعده عقاب في الآخرة، وأنّ الأمم التي لم تعذّب في الدنيا قد ادخر لها عذاب الآخرة.

التمتيع، الإمهال.

{ إِلَى حِينٍ } إبهام، لأنّه مختلف باختلاف آجال آحادهم. والمراد به التمتيع بالحياة لا بكشف العذاب، لأنّهم بعد موتهم ناجون من العذاب إذ كانوا قد آمنوا وأخلصوا.

ولعل الحكمة في نجاة قوم يونس تتمثل في أمرين:

أحدهما، أنّ الله علم أنّ تكذيبهم يونس - عليه السلام- في ابتداء دعوته لم يكن ناشئا عن تصميم على الكفر واستخفاف بعظمة الله، ولكنه كان شكا في صدق يونس - عليه السلام- . ولعلّ ذلك أنّهم كانوا على بقيّة من شريعة موسى - عليه السلام -، وإنّما حرّفوا وحادوا عن طريق الإيمان ممّا يعلمه الله، فإن في نينوى كثيرا من أسرى بني إسرائيل الذين كانوا في أسر الآشوريين كما علمت آنفا، فلما أوعدهم يونس - عليه السلام - بالعذاب بعد أربعين يوما ورأوا أماراته بعد خمسة وثلاثين يوما اهتدوا وآمنوا إيمانا خالصا.

ثانيهما، أنّ يونس -عليه السلام- لمّا صدرت منه فلتة المغاضبة كان قد خلط في دعوته شيئا من حظّ النفس، وإن كان لفائدة الدين، فقدّر الله إيمان قومه لعلمه كمال الإيمان والصبر والتسليم لله، وهذا عتاب وتأديب بينه وبين ربّه، ولذلك حذر رسولُ الله ﷺ الأمّة من توهّم أنّ ما جرى ليونس - عليه السلام - من المغاضبة والمعاقبة ينقص من قدره فقال ﷺ: " لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متّى" يعني في صحة الرسالة لا في التفاضل فيها.

{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[99]

تسلية للنبيء ﷺ على ما لقيه من قومه. وهذا تذييل لما تقدّم من مشابهة حال قريش مع النبيء ﷺ بحال قوم نوح وقوم موسى وقوم يونس. وهذه الجملة كالمقدّمة الكلّية للجملة التي بعدها {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ} المفرّعة على الجملة الأولى، وهي المقصود من التسلية.

النّاس، العرب، أو أهل مكّة منهم، وذلك إيماء إلى أنّهم المقصود من سوق القصص الماضية كما بيّنّاه.

{ كُلُّهُمْ } التأكيد للتنصيص على العموم المستفاد من **(من)** الموصولة فإنّها للعموم.

{ جَمِيعاً } لزيادة رفع احتمال العموم العرفي دون الحقيقي.

والمعنى: لو شاء الله لجعل مدارك النّاس متساوية منساقة إلى الخير، فكانوا سواء في قبول الهدى والنظر

الصحيح.
{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ } (لو) تقتضي انتفاء جوابها لانتفاء شرطها. فالمعنى: لكنّه لم يشأ ذلك، فاقتضت حكمته أن خلق عقول الناس متأثّرة ومنفعلة بمؤثرات التفاوت في إدراك الحقائق فلم يتواطؤا على الإيمان.
{ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } مفرعة على التي قبلها، لأنّه لمّا تقرّر أنّ الله لم تتعلّق مشيئته باتفاق النّاس على الإيمان بالله تفرّع على ذلك إنكار ما هو كالمحاولة لتحصيل إيمانهم جميعا.
والاستفهام إنكاري، فنزل النبيء ﷺ لحرصه على إيمان أهل مكّة وحثيث سعيه لذلك بكل وسيلة صالحة منزلة من يحاول إكراههم على الإيمان حتّى ترتّب على ذلك التنزيل إنكاره عليه.
وهذا تعريض بالثناء على النبيء ومعذرة له على عدم استجابتهم إيّاه، ومن بلغ المجهود حقّ له العذر.
وليس تقديم المسند إليه هنا مفيدا للتخصيص، أي القصر، لأنّ المقام غير صالح لاعتبار القصر، إذ مجرد تنزيل النبيء ﷺ منزلة من يستطيع إكراه النّاس على الإيمان كاف في الإشارة إلى تشبيه حرصه على إيمانهم بحرص من يستطيع إكراههم عليه. فما وقع في (الكشاف) من الإشارة إلى معنى الاختصاص غير وجيه.
الإكراه، الإلجاء والقسر.

{ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ }[100]

عطف على {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ} لتقرير مضمونها، لأنّ مضمونها إنكار أن يقدر النبيء ﷺ على إلجاء النّاس إلى الإيمان، لأنّ الله هو الذي يقدر على ذلك.
ويجوز أن تكون الواو للحال من ضمير المخاطب، أي كيف يمكنك أن تكره النّاس على الإيمان والحال أنّه لا تستطيع نفس أن تؤمن إلّا بإذن الله لها بالإيمان.
الإذن، هنا إذن تكوين وتقدير. فهو خلق النفس مستعدّة لقبول الحقّ مميّزة بين الحق والباطل، والصلاح والفساد، متوصّلة بالنظر الصحيح إلى معرفة ما ينبغي أن يتّبع وما لا ينبغي، متمكّنة بصحّة الإرادة من زجر داعية الهوى والأعراض العاجلة، ومن اتّباع داعية الحقّ والعاقبة الدائمة، حتّى إذا وُجّه إليها الإرشاد حصل فيها الهدى. ويومئ إلى هذا المعنى من الإذن قوله {وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ} فقابل هذه الحالة بحالة الذين لا يعقلون، فعلم أنّ حالة الإيمان حالة من يعقلون.
الرجس، حقيقته الخبث والفساد. وأطلق هنا على الكفر، لأنّه خبث نفساني، والقرينة مقابلته بالإيمان.
{ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ } نفي العقل المستقيم، أي الذين لا تهتدي عقولهم إلى إدراك الحقّ ولا يستعملون عقولهم بالنظر في الأدلة.

{ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ }[101]

أي فادعهم إلى النظر في دلائل الوحدانيّة والإرشاد إلى تحصيل أسباب الإيمان ودفع غشاوات الكفر، وذلك بالإرشاد إلى النظر والاستدلال بما هو حول الإنسان من أحوال الموجودات وتصاريفها الدالة على الوحدانية مثل أجرام الكواكب وتقادير مسيرها، وأحوال النور والظلمة والرياح والسحاب والمطر...

{ قُلِ } للاهتمام بمضمونها. وقد عمّم ما في السماوات والأرض لتتوجه كلّ نفس إلى ما هو أقرب إليها وأيسر استدلالا عليه لديها.

النظر، مستعمل هنا فيما يصلح للنظر القلبي والنظر البصري، وجيء بعده بالاستفهام المعلّق لكلا الفعلين بحيث أصبح حمل النظر على كليهما على حد السواء فصار صالحا للمعنيين الحقيقي والمجازي، وذلك من مقاصد القرآن.

{ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ } معترضة، فيجوز أن تكون متمّمة لمقول القول ممّا أمر النبيء ﷺ أن يقوله لهم، ويجوز أن تكون استئناف كلام من الله تعالى. والمعنى، أبلغهم ما أمرت بتبليغه إليهم وليست تغني الآيات عن قوم لا يؤمنون. وذلك أن القرآن جاء للنّاس بالاستدلال وبالتخويف ثم سجّل على هذا الفريق بأنّه لا تنجع فيه الآيات والأدلة ولا النذر والمخوّفات.

{ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ } يفيد أنّ انتفاء الإيمان عنهم وصف عرفوا به وأنّه مستقرّ من نفوسهم، لأنّ اجتلاب لفظ {قَوْمٍ} هنا مع صحّة حلول غيره محله يشير إلى أنّ الوصف المذكور بعده من مقوّمات قوميتهم لأنّه صار من خصائصهم، بخلاف ما لو قيل: عمّن لا يؤمنون.

{ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ [102]
ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ } [103]

الاستفهام مجاز تهكّمي إنكاري، نزلوا منزلة من ينتظرون شيئا يأتيهم ليؤمنوا، وليس ثمّة شيء يصلح لأن ينتظروه إلّا أن ينتظروا حلول مثل أيام الذين خلوا من قبلهم التي هلكوا فيها. وضُمّن الاستفهام معنى النفي بقرينة الاستثناء المفرَّع. والتقدير: فهل ينتظرون شيئا؟ ما ينتظرون إلّا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم.

{ أَيَّامِ } وأطلقت على ما يقع فيها من الأحداث العظيمة. ومن هذا (أيام العرب) على الوقائع الواقعة فيها.

{ قُلْ فَانْتَظِرُوا } مفرّعة على {فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ} . وفصل بينهما بـ {قُلْ} لزيادة الاهتمام، ولينتقل من مخاطبة الله رسولَه ﷺ إلى مخاطبة الرسول ﷺ قومَه، وبذلك يصير التفريع بين كلامين مختلفي القائل. على أنّ الاختلاف بين كلام الله وكلام الرسول ﷺ، في مقام الوحي والتبليغ، اختلاف ضعيف، لأنّهما آئلان إلى كلام

واحد. وهذا موقع غريب لفاء التفريع.

والكلام يتضمّن وعد الله نبيّه بأنّه يرى ما ينتظرهم من العذاب، فهو وعيد وهو يتضمن النصر عليهم.

وسيصرح بذلك { ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا }.

{ **إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ** } استئناف بياني مستعمل كناية عن ترقّبه النصر، إذ لا يُظنّ به أنّه ينتظر سوءا فتعيّن أنّه ينتظر من ذلك ضدّ ما يحصل لهم، فالمعيّة في أصل الانتظار لا في الحاصل بالانتظار.

{ **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا** } ولمّا كانوا مهدّدين بعذاب يحلّ بموضع فيه الرّسول ﷺ والمؤمنون عجّل الله البشارة للرّسول ﷺ والمؤمنين بأنّه ينجّيهم من ذلك العذاب بقدرته كما أنجى الرسل من قبله.

{ **كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ**} تذييل. و{حَقّاً عَلَيْنَا} جملة معترضة لأنّ المصدر بدلّ من الفعل، أي حقّ ذلك علينا حقا. وجعله الله حقّا عليه تحقيقا للتفضّل به والكرامة حتّى صار كالحقّ عليه.

وقرأ الجمهور {نُنَجّي المؤمنين} بفتح النون الثانية وتشديد الجيم على وزان {نُنَجِّي رُسُلَنَا} . وقرأ الكسائي، وحفص عن عاصم {نُنْج المؤمنين} بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم من الإنجاء. فالمخالفة بينه وبين نظيره الذي قبله تفنن، والمعنى واحد. وكتب في المصحف {نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ} بدون ياء بعد الجيم على صورة النطق بها لالتقاء الساكنين.

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }[104]

هذه الجملة متّصلة المعنى بجملة { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، إذ المقصود من النظر المأمور به هنالك النظر للاستدلال على إثبات الوحدانيّة. فلمّا أمرهم بالنظر المؤدي إلى إثبات انفراده تعالى بالإلهية أعقبه بأن يخبرهم بأنّهم إن استمروا على الشكّ فيما جاء به الرسول ﷺ، فإنّ الرسول ﷺ ثابت على ما جاء به، وأنّ دلائل صحّة دينه بيّنة للناظرين.

{ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } المشركون من أهل مكّة، أو جميع أمّة الدعوة الذين لمّا يستجيبوا للدعوة.

{ **فِي شَكٍّ** } للظرفيّة المجازية المستعملة في التمكّن، تشبيها لتمكّن الصفة بتمكّن الظرف من المظروف من جهة الإحاطة.

{ **مِنْ دِينِي** } للابتداء المجازي، أي إن كنتم شاكين شكا سببه ديني، أي يتعلّق بحقّيّته، لأنّ الشك يحمل في كل مقام على ما يناسبه. والشك في الدين هو الشك في كونه حقّا، وكونه من عند الله.

{ **فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } واقعة موقع جواب الشرط ودالة عليه في المعنى. فتقدير الجواب:

فأنا على يقين من فساد دينكم، فلا أتّبعه، فلا أعبد الذين تعبدونهم ولكن أعبد الله.
{ **الَّذِينَ تَعْبُدُونَ** } الأصنام. وعوملت معاملة العقلاء فأطلق عليها اسم الموصول الذي لجماعة العقلاء مجاراة لما يعتقدونه فيها من العقل والتدبير. ونظير هذا في القرآن كثير.
{ **الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ** } اختيار صلة التوفّي هنا في نعت اسم الجلالة لما فيها من الدلالة على كمال التصرّف في المخلوق، فإنّ المشركين لم يبلغ بهم الإشراك إلى ادّعاء أنّ الأصنام تحيي وتميت. واختيار ذلك من بين الصفات الخاصة بالله تعالى تعريض بتذكيرهم بأنّهم معرّضون للموت فيقصّرون من طغيانهم.
{ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } أريد بالمؤمنين الذين آمنوا بالله وبرسوله ﷺ وبالقرآن والبعث، فإذا أطلق لفظ المؤمنين انصرف إلى القوم الذين اتّصفوا بالإسلام، ولذلك لا يقدّر للمؤمنين متعلّق. وفي جعل النبيء ﷺ من جملة المؤمنين تشريف لهذا الجمع وتنويه به.

{ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [105]

{ **وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً** } موقع هذه الجملة معضل لأنّ الواو عاطفة لا محالة، ووقعت بعدها (أن) المصدرية، ووقوع فعل الطلب بعدها غير مألوف، لأنّ حق صلة (أن) أن تكون جملة خبرية.
قال في (الكشاف): قد سوغ سيبويه أن توصل (أن) بالأمر والنهي، وأن تكون بمنزلة (أي). فالمعنى: وأمرت بإقامة وجهي للدين حنيفا. ويكون العطف عطف مفرد على مفرد.
وقيل الواو عطفت فعلا مقدرا يدلّ عليه فعل (أمرت). والتقدير، وأوحي إلي، وتكون (أن) مفسّرة للفعل المقدّر، لأنّه فيه معنى القول دون حروفه.
وعندي أنّ أسلوب نظم الآية على هذا الوجه لم يقع إلّا لمقتضى بلاغي، فلا بد من أن يكون لصيغة {أَقِمْ وَجْهَكَ} خصوصيّة في هذا المقام، فلنعرض عما وقع في (الكشاف) وعن جعل الآية مثالا لما سوّغه سيبويه ولنجعل الواو متوسّعا في استعمالها بأن استعملت نائبة مناب الفعل الذي عطفت عليه، أي فعل (أمرْت) دون قصد تشريكها لمعطوفها مع المعطوف عليه بل استعملت لمجرد تكريره. والتقدير: أمرت أن أقم وجهك.
وهذا من عطف الجمل لا من عطف المفردات، وقد سبق مثل هذا عند قوله تعالى {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ} [المائدة:49]، وهو هنا أوعب.
الإقامة، جعل الشيء قائما. وهي هنا مستعارة لإفراد الوجه بالتوجّه إلى شيء معين لا يترك وجهه ينثني إلى شيء آخر.
{ **لِلدِّينِ** } اللام للعلّة، أي لأجل الدين، فيصير المعنى، محّض وجهك للدين، لا تجعل لغير الدين شريكا في توجّهك. وهذه التمثيليّة كناية عن توجيه نفسه بأسرها لأجل ما أمره الله به من التبليغ وإرشاد الأمّة

وإصلاحها. وقريب منه قوله { أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ } [آل عمران:20]

{ **حَنِيفاً** } حال من {الدين} وهو دين التوحيد، لأنّه حنف أي مال عن الآلهة وتمحّض لله. وقد تقدّم عند قوله تعالى { قل بل ملّة إبراهيم حنيفا } [البقرة :135].

{ **وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } نهي مؤكّد لمعنى الأمر الذي قبله تصريحا بمعنى {حَنِيفاً} . وتأكيد الفعل المنهي عنه بنون التوكيد للمبالغة في النهي عنه اعتناء بالتبرؤ من الشرك.

{ **مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } أبلغ في الاتصاف من نحو: لا تكن مشركا، لما فيه من التبرؤ من الطائفة ذات نحلة الإشراك.

{ وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ } [106]

عطف على {وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}. ولم يؤكّد الفعل بنون التوكيد لئلّا يمنع وجودها من حذف حرف العلة، لأنّ حذفه تخفيف وفصاحة، ولأنّ النهي لما اقترن بما يومئ إلى التعليل كان فيه غنية عن تأكيده، لأنّ الموصول في قوله {مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ} يومئ إلى وجه النهي عن الدعاء، إذ دعاء أمثالها لا يقصده العاقل.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } اعتراض بين فعل { تَدْعُ } ومفعوله، وهو إدماج للحثّ على دعائه الله.

{ **فَإِنْ فَعَلْتَ** }تفريع على النهيين للإشارة إلى أنّه لا معذرة لمن يأتي ما نُهي عنه بعد أن أُكد نهيه وبُيّنت علّته، فمن فعله فقد ظلم نفسه واعتدى على حقّ ربّه.

{ **مِنَ الظَّالِمِينَ** } تأكيد مثل ما تقدّم في قوله {مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [105] ونظائره.

والمقصود من هذا الفرض تنبيه النّاس على فظاعة عظم هذا الفعل حتّى لو فعله أشرف المخلوقين لكان من الظالمين.

{ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }[107]

عطف على {وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ} لقصد التعريض بإبطال عقيدة المشركين أنّ الأصنام شفعاء عند الله، فلمّا أبطلت الآية السابقة أن تكون الأصنام نافعة أو ضارة، عُقِّبت بهذه الجملة للإعلام بأنّ إرادة الله النفع أو الضرّ لأحد لا يستطيع غيره أن يصرفه عنها أو يتعرض فيها إلّا من جعل الله له ذلك بدعاء أو شفاعة.

وتوجيه الخطاب للنبي ﷺ لأنّه أولى النّاس بالخير ونفي الضرّ. فيعلم أنّ غيره أولى بهذا الحكم وهذا المقصود.

المس، حقيقته وضع اليد على جسم، وقد يطلق على الإصابة مجازا مرسلا. وقد تقدّم عند قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ } [الأعراف:201].

{ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ } تقديره والقصد إليه. ولما كان الذي لا يعجزه شيء ولا يتردّد علمه فإذا أراد شيئا فعله، فإطلاق الإرادة هنا **كناية عن الإصابة** كما يدلّ عليه قوله بعده **{يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}** .

وقد عبّر بالمسّ في موضع الإرادة في نظيرها { وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأنعام:17].

ولكن عبّر هنا بالإرادة مبالغة في سلب المقدرة عمن يريد معارضة مراده تعالى كائنا من كان بحيث لا يستطيع التعرّض لله في خيره ولو كان بمجرد إرادته قبل حصول فعله، فإنّ التعرض حينئذ أهون، لأنّ الدفع أسهل من الرفع، وأمّا آية سورة الأنعام فسياقها في بيان قدرة الله تعالى لا في تنزيهه عن المعارض والمعاند.

{ لِفَضْلِهِ } ، هو الخير، ولذلك فإيقاعه موقع الضمير للدلالة على أنّ الخير الواصل إلى النّاس فضل من الله لا استحقاق لهم به، لأنّهم عبيد إليه يصيبهم بما يشاء.

{ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } واقعة موقع البيان لما قبلها والحوصلة له، فلذلك فصلت عنها.

{ بِهِ } الضمير المجرور بالباء إمّا عائد إلى الخير، فيكون امتنانا وحثّا على التعرض لمرضاة الله، أو يعود إلى ما تقدّم من الضرّ. والضمير باعتبار أنّه مذكور فيكون تخويفا وتبشيرا وتحذيرا وترغيبا.

{ مَنْ يَشَاءُ } أجملت المشيئة هنا ولم تبيّن أسبابها ليسلك لها النّاس كلّ مسلك يأملون منه تحصيلها في العطاء وكل مسلك يتّقون يوقعهم فيها في الحرمان.

الإصابة، اتصال شيء بآخر ووروده عليه، وهي في معنى المس المتقدم، فقوله **{يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ}** هو في معنى قوله { وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأنعام:17]

{ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } تذييل، يشير إلى أنّ إعطاء الخير فضل من الله ورحمة وتجاوز منه تعالى عن سيّئات عباده الصالحين، وتقصيرهم وغفلاتهم، فلو شاء لما تجاوز لهم عن شيء من ذلك فتورّطوا كلّهم.

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ } [108]

استئناف ابتدائي هو كذيل لما مضى في السورة كلّها وحوصلة لما جرى من الاستدلال والمجادلة والتخويف والترغيب، ولذلك جاء ما في هذه الجملة كلاما جامعا وموادعة قاطعة.

{ **قُلْ** } للتنبيه على أنّه تبليغ عن الله تعالى فهو جدير بالتلقّي.

{ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } افتتاح المقول بالنداء لاستيعاء سماعهم لأهمية ما سيقال لهم، والخطاب لجميع النّاس من مؤمن وكافر، والمقصود منه ابتداء المشركون، ولذلك أطيل الكلام في شأنهم. وقد ذكر معهم من اهتدى تشريفا لهم.

{ **قَدْ** } أكد الخبر، تسجيلا عليهم بأنّ ما فيه الحقّ قد أُبلغ إليهم، وتحقيقا لكونه حقّا.

الحقّ، هو الدين الذي جاء به القرآن.

{ **مِنْ رَبِّكُمْ** } للتنويه بأنّه حقّ مبيّن لا يخلطه باطل ولا ريب، فهو معصوم من ذلك.

{ **فَمَنِ اهْتَدَى** } تفريع على {قَدْ جَاءَكُمُ} للإشارة إلى أنّ مجيء الحقّ الواضح يترتّب عليه أن إتّباعه غنم لمتّبعه وليس مزيّة له على الله، ليتوصّل من ذلك إلى أنّ المُعرض عنه قد ظلم نفسه، ورتّب عليها تبعة الإعراض.

{ **لِنَفْسِهِ** } اللام دالة على أنّ الاهتداء نعمة وغنى وأنّ الإعراض ضرّ على صاحبه.

{ **فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ** } و { **فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** } الإتيان بطريقتي الحصر للردّ على المشركين إذ كانوا يتمطَّون في الاقتراح فيقولون {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً} [الإسراء: 90] ونحو ذلك ممّا يفيد أنّهم يمنّون عليه لو أسلموا، وكان بعضهم يظهر أنّه يغيظ النبيء ﷺ بالبقاء على الكفر، فكان القصر مفيدا أن اهتداءه مقصور لفائدة نفسه. وأنّ ضلاله مقصور لمضرّتها.

{ **وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ** } داخلة في حيّز التفريع، وإتمام للمفرّع، لأنّه إذا كان اهتداء المهتدي لنفسه وضلال الضال على نفسه تحقّق أنّ النبيء ﷺ غير مأمور من الله بأكثر من التبليغ وأنّه لا نفع لنفسه في اهتدائهم ولا يضرّه ضلالهم، فلا يحسبوا حرصه لنفع نفسه أو دفع ضرّ عنها حتى يتمطّوا ويشترطوا، وأنّه ناصح لهم ومبلّغ ما في اتباعه خيرهم والإعراض عنه ضرّهم.

والإتيان بالجملة الاسمية المنفية للدلالة على دوام انتفاء ذلك الحكم وثباته في سائر الأحوال.

{ **عَلَيْكُمْ** } بمعنى على اهتدائكم. و**الوكيل**، الموكول إليه تحصيل الأمر.

{ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ }[109]

عطف على {قُلْ} أي بلّغ النّاس ذلك القول {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} ، أي اتّبع في نفسك وأصحابك ما يوحى إليك، و {اصْبِرْ} أي على معاندة الذين لم يؤمنوا بقرينة الغاية بقوله {حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ}، فإنّها غاية لهذا الصبر الخاص لا لمطلق الصبر.

ولما كان الحكم يقتضي فريقين حذف متعلقه تعويلا على قرينة السياق، أي حتّى يحكم الله بينك وبينهم.

{ **وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** } ثناء وتذييل لما فيه من العموم، أي وهو خير الحاكمين بين كل خصمين في هذه القضية وفي غيرها، فالتعريف في {الْحَاكِمِينَ} للاستغراق بقرينة التذييل.

{ **خَيْرُ** } تفضيل، أصله (أخير) فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال. والأخيريّة من الحاكمين أخيرية وفاء الإنصاف في إعطاء الحقوق. وهي هنا كناية عن معاقبة الظالم، لأنّ الأمر بالصبر مشعر بأنّ المأمور به معتدى عليه، ففي الإخبار بأنّ الله خير الحاكمين إيماء بأنّ الله ناصر رسوله ﷺ والمؤمنين على الذين كذبوا وعاندوا. وهذا كلام جامع فيه براعة المقطع.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة هود

سمّيت في جميع المصاحف وكتب التفسير والسنّة سورة هود، ولا يعرف لها اسم غير ذلك، وكذلك وردت هذه التسمية عن النبيء ﷺ في حديث ابن عباس أنّ أبا بكر قال: " يا رسول الله قد شبتَ، قال: شيّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت". رواه الترمذي بسند حسن في كتاب التفسير من سورة الواقعة. وروي من طرق أخرى بألفاظ متقاربة يزيد بعضها على بعض.

وسمّيت باسم هود لتكرّر اسمه فيها خمس مرات، ولأنّ ما حكي عنه فيها أطول ممّا حكي عنه في غيرها، ولأنّ عادا وصفوا فيها بأنّهم قوم هود في قوله { أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ } [60].

وهي مكيّة كلّها عند الجمهور. وروي ذلك عن ابن عباس وابن الزبير، وقتادة، إلّا آية واحدة وهي { وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ- إلى قوله – لِلذَّاكِرِينَ } [114].

وقال ابن عطية: هي مكّية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة. وهي قوله تعالى {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} [12]، وقوله { أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ - إلى قوله - أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} قيل نزلت في عبد الله بن سلام، وقوله { وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ } [114]. قيل نزلت في قصة أبي اليُسْر كما سيأتي.

والأصحّ أنّها كلّها مكّيّة وأن ما روي من أسباب النزول في بعض آيها توهّم، لاشتباه الاستدلال بها في قصة بأنها نزلت حينئذ كما يأتي، على أنّ الآية الأولى من هذه الثلاث واضح أنّها مكّية.

نزلت هذه السورة بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف. وقد عدّت الثانية والخمسين في ترتيب نزول السور.

وقد عدّت آياتها مائة وإحدى وعشرين في العدد المدني الأخير. وكانت آياتها معدودة في المدني الأوّل مائة واثنتين وعشرين، وهي كذلك في عدد أهل الشام وفي عدد أهل البصرة وأهل الكوفة مائة وثلاث وعشرون.

أغراض السورة

ابتدأت بالإيماء إلى التحدّي لمعارضة القرآن بما تومئ إليه الحروف المقطعة في أوّل السورة.

وبالتنويه بالقرآن. وبالنهي عن عبادة غير الله تعالى.

وبأنّ الرسول عليه الصلاة والسلام نذير للمشركين بعذاب يوم عظيم وبشير للمؤمنين بمتاع حسن إلى أجل مسمّى.

وإثبات الحشر. والإعلام بأنّ الله مطلع على خفايا النّاس. وأنّ الله مدبّر أمور كلّ حي على الأرض. وخلق

العوالم بعد أن لم تكن. وأن مرجع النّاس إليه، وأنّه ما خلقهم إلّا للجزاء.
وتثبيت النبيء ﷺ وتسليته عمّا يقوله المشركون وما يقترحونه من آيات على وفق هواهم { أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ} [12]. وأنّ حسبهم آية القرآن الذي تحدّاهم بمعارضته فعجزوا فتبيّن خذلانهم فهم أحقّاء بالخسارة في الآخرة.
وضرب مثل لفريقي المؤمنين والمشركين. وذكر نظرائهم من الأمم البائدة من قوم نوح وتفصيل ما حلّ بهم وعاد وثمود، وإبراهيم، وقوم لوط، ومدين، ورسالة موسى، تعريضا بما في جميع ذلك من العبر وما ينبغي منه الحذر، فإنّ أولئك لم تنفعهم آلهتهم التي يدعونها. وأن في تلك الأنباء عظة للمتّبعين بسيرهم.
وأنّ ملاك ضلال الضالين عدم خوفهم عذاب الله في الآخرة فلا شك في أن مشركي العرب صائرون إلى ما صار إليه أولئك.
وانفردت هذه السورة بتفصيل حادث الطوفان وغيضه.
ثم عَرض باستئناس النبيء ﷺ وتسليته باختلاف قوم موسى في الكتاب الذي أوتيه، فما على الرّسول وأتباعه إلّا أن يستقيم فيما أمره الله وأن لا يركنوا إلى المشركين، وأنّ عليهم بالصلاة والصبر والمضي في الدعوة إلى الصلاح فإنّه لا هلاك مع الصلاح.
وقد تخلل ذلك عظات وعبر والأمر بإقامة الصلاة.

{ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } [1]

{ **الر** } تقدّم القول على الحروف المقطّعة الواقعة في أوائل السور في أوّل سورة البقرة وغيرها من نظرائها وما سورة يونس ببعيد.

{ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ }

{ **كِتَابٌ** } تنكيره مماثل لما في قوله {كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [الأعراف:2]. والمعنى، أنّ القرآن كتاب من عند الله فلماذا يعجب المشركون من ذلك ويكذّبون به. فهو مبتدأ، سوغ الابتداء ما فيه من التنكير للنوعيّة، و{مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} خبر و{أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ} صفة للكتاب.

الإحكام: إتقان الصنع، مشتقّ من الحِكْمة (بكسر الحاء وسكون الكاف). وهي إتقان الأشياء بحيث تكون سالمة من الأخلال التي تعرض لنوعها، أي جعلت آياته كاملة في نوع الكلام . وتقدّم عند قوله تعالى {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ} [آل عمران:7].

آيات القرآن: الجمل المستقلّة بمعانيها المختتمة بفواصل. وقد تقدّم وجه تسمية جمل القرآن بالآيات عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } [البقرة:39]، وفي المقدّمة الثامنة من مقدّمات هذا التفسير.

التفصيل: التوضيح والبيان. وهو مشتقّ من الفصل بمعنى التفريق بين الشيء وغيره بما يميّزه، فصار كناية مشهورة عن البيان لما فيه من فصل المعاني. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام:55]. ونظيره، **الفرق**، كني به عن البيان فسمّي القرآن فرقانا. وعن النصر فسمي يوم بدر يوم الفرقان، ومنه في ذكر ليلة القدر { فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ } [الدخان: 4].

{ **مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** } أي من عند الموصوف بإبداع الصنع لحكمته، وإيضاح التبيين لقوّة علمه.

الخبير: العالم بخفايا الأشياء، وكلّما كثرت الأشياء كانت الإحاطة بها أعزّ.

فالحكيم مقابل لـ {أُحْكِمَتْ} ، والخبير مقابل لـ {فُصِّلَتْ} . وهما وإن كانا متعلّق العلم ومتعلّق القدرة، إذ القدرة لا تجري إلّا على وفق العلم، إلّا أنّه روعي في المقابلة الفعل الذي هو أثر إحدى الصفتين أشد تبادرا فيه للنّاس من الآخر وهذا من بليغ المزاوجة.

{ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ }[2]

هذه الجملة تفسيريّة لما أحكم من الآيات، لأنّ النهي عن عبادة غير الله وإيجاب عبادة الله هو أصل الدين، وإليه مرجع جميع الصفات التي ثبتت لله تعالى بالدليل، وهو الذي يتفرّع عنه جميع التفاصيل، ولذلك تكرّر الأمر بالتوحيد والاستدلال عليه في القرآن.

{ **أَلَّا تَعْبُدُوا** } الخطاب وضمائر الخطاب التي بعده موجّهة إلى الذين لم يؤمنوا، وهم كلّ من يسمع هذا الكلام المأمور بإبلاغه إليهم.

{ **إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** } معترضة بين { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } [1] و{ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ } [3]، وهو اعتراض للتحذير من مخالفة النهي والتحريض على امتثاله.

{ **نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** } هو جامع عمل الرّسول ﷺ في رسالته، فهو بشير لمن آمن وأطاع، ونذير لمن أعرض وعصى، وذلك أيضا جامع للأصول المتعلّقة بالرّسالة وأحوال الرّسل وما أخبروا به من الغيب فاندرج في ذلك العقائد السمعية، وهذا عين الإحكام.

{ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ } [3]

عطف على { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } [2] وهو تفسير ثان يرجع إلى ما في الجملة الأولى من لفظ التفصيل، فهذا

ابتداء التفصيل لأنّه بيان وإرشاد لوسائل نبذ عبادة ما عدا الله تعالى، ودلائل على ذلك وأمثال ونذر.

الاستغفار: طلب المغفرة، أي طلب عدم المؤاخذة بذنب مضى، وذلك الندم.

التوبة: الإقلاع عن الذنب، والعزم على أن لا يعود إليه.

{ ثُمَّ } للترتيب الرتبي، لأنّ الاعتراف بفساد ما هم فيه من عبادة الأصنام أهمّ من طلب المغفرة، فإنّ تصحيح العزم على عدم العودة إليها هو مسمّى التوبة، وهذا ترغيب في نبذ عبادة الأصنام وبيان لما في ذلك من الفوائد في الدنيا والآخرة.

المتاع: اسم مصدر التمتيع لما يتمتّع به، أي ينتفع. ويطلق على منافع الدنيا. و تقدّم عند قوله تعالى {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأعراف:24]. والمراد بالمتاع هنا، الإبقاء، أي الحياة، والمعنى أنّه لا يستأصلهم. ووصفه بـ **{ حَسَناً }** لإفادة أنّها حياة طيبة.

{ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً } متعلق بـ {يُمَتِّعْكُمْ} وهو غاية للتمتيع، وذلك موعظة وتنبيه على أنّ هذا المتاع له نهاية. والمقصود بالأجل: أجل كلّ واحد وهو نهاية حياته.

{ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ } عطف على { يُمَتِّعْكُمْ } .

الإيتاء: الإعطاء، وذلك يدلّ على أنّه من المتاع الحسن، فيعلم أنّه إعطاء نعيم الآخرة.

الفضل: إعطاء الخير. سمّي فضلا لأنّ الغالب أنّ فاعل الخير يفعله بما هو فاضل عن حاجته، ثم تنوسي ذلك فصار الفضل بمعنى إعطاء الخير.

الفضل الأول: العمل الصالح، بقرينة مقابلته بفضل الله الغنيّ عن النّاس.

الفضل الثاني المضاف إلى ضمير الجلالة هو ثواب الآخرة، بقرينة مقابلته بالمتاع في الدنيا.

والمعنى: ويؤت الله فضله كل ذي فضل في عمله. وضبط ذلك لا يعلمه إلّا الله، وهو سر بين العبد وربه.

{ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ }

من تمام ما جاء تفسيرا لـ {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ} وهو مما أوحي به إلى الرّسول ﷺ أن يبلّغه إلى النّاس.

تولّوا: أصله تتولّوا، حذفت إحدى التائين تخفيفا.

{ إِنْ } أداة التأكيد هذه، مع مجيء المسند إليه فيها اسما مخبرا عنه بالجملة الفعلية لقصد شدّة تأكيد توقع العذاب.

{ يَوْمٍ } التنكير للتهويل، لتذهب نفوسهم للاحتمال الممكن أن يكون يوما في الدنيا أو في الآخرة، لأنّهم كانوا ينكرون الحشر، فتخويفهم بعذاب الدنيا أوقع في نفوسهم.

{ كَبِيرٍ } لزيادة تهويله، والمراد بالكبر الكبر المعنوي، وهو شدّة ما يقع فيه، أعني العذاب، فوصف اليوم بالكبر مجاز عقلي.

{ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[4]

جملة في موضع التعليل للخوف عليهم، فلذلك فصلت. والمعنى: أنّكم صائرون إلى الله، أي إلى قدرته غير منفلتين منه فهو مجازيكم على تولّيكم عن أمره.

المرجع: مصدر ميمي بمعنى الرجوع. وهو مستعمل كناية عن لازمه العرفي وهو عدم الانفلات وإن طال الزمن، وذلك شامل للرجوع بعد الموت. ولكنّه هنا أنسب بالمصير الدنيوي لأنّه المسلم عندهم لقوله {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. لأنّ القدرة يوم القيامة غير محتاجة للتنصيص لو آمنوا بالمصير الأخروي.

وتقديم المجرور على عامله للاهتمام والتقوّي، وليس المراد منه الحصر.

{ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } أي فما ظنّكم برجوعكم إلى القادر على كلّ شيء وقد عصيتم أمره.

{ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }[5]

حُوّل أسلوب الكلام عن مخاطبة النبيء ﷺ، بما أمر بتبليغه، إلى إعلامه بحال من أحوال الذين أمر بالتبليغ إليهم في جهلهم بإحاطة علم الله تعالى بكلّ حال. فقدّم لذلك إبطال وهم من أوهام أهل الشرك أنّهم في مكنة من إخفاء بعض أحوالهم عن الله تعالى.

{ أَلا } حرف تنبيه للاهتمام بمضمونه لغرابة أمرهم المحكي، وللعناية بتعليم إحاطة علم الله تعالى.

وضمائر الجماعة الغائبين عائدة إلى المشركين الذين أُمر النبيء ﷺ بالإبلاغ إليهم في قوله { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ} [2] وليس بالتفات. وضمائر الغيبة للمفرد عائدة إلى اسم الجلالة في قوله {إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ} [4].

الثني: الطيّ، وأصل اشتقاقه من اسم الاثنين. يقال: ثَنَاه (بالتخفيف)، إذا جعله ثانيا، يقال: هذا واحد فاثْنِه، أي كن ثانيا له، فالذي يطوي الشيء يجعل أحد طاقيه ثانيا للذي قبله.

فثني الصدور: إمالتها وحنيها تشبيها بالطيّ. ومعنى ذلك **الطأطأة**. وهذا الكلام يحتمل الإجراء على حقيقة ألفاظه من ثني صدور والطأطأة. ويحتمل أن يكون تمثيلا لهيئة نفسية بهيئة حسيّة.

وقد روي أنّ الآية أشارت إلى ما يفعله المشركون أنّ أحدهم يدخل بيته ويرخي الستر عليه ويستغشي ثوبه ويحني ظهره ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي؟ وذلك من جهلهم بعظمة الله.

وعلى الاحتمال الثاني فهو تمثيل لحالة إضمارهم العداوة للنبيء ﷺ في نفوسهم وتمويه ذلك عليه وعلى المؤمنين به بحال من يثني صدره ليخفيه ومن يستغشي ثوبه على ما يريد أن يستره به. ففي (أسباب النزول) للواحدي أنّها نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة وكان رجلا حلو المنطق، وكان يظهر

المودة للنبي ﷺ وهو منطو على عداوته، أي عداوة الدين، فضرب الله ثني الصدور مثلا لإضماره بغض النبيء ﷺ. فهو تمثيل وليس بحقيقة.

الاستخفاء: الاختفاء، فالسين والتاء فيه للتأكيد، مثل استجاب واستأخر.

{ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ } يجوز أن تكون إتماما لجملة { أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ} فيكون حرف { أَلا } الثاني تأكيدا لنظيره لزيادة تحقيق الخبر، وتكون الحالة الموصوفة حالة واحدة مركّبة من ثني الصدور واستغشاء الثياب.

الاستغشاء: التغشّي بما يُغْشِي، أي يستر، فالسين والتاء فيه للتأكيد، مثل قوله { وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ } [نوح:7].

{ وَمَا يُعْلِنُونَ } لدفّع توهّم علمه بالخفيّات دون الظاهر.

{ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } نتيجة وتعليل للجملة قبله، أي يعلم سرّهم وجهرهم، لأنّه شديد العلم بالخفيّ في النفوس وهو يعلم الجهر بالأولى.

ذات الصدور: الأشياء المستقرّة في النفوس التي لا تعدوها، فأضيفت إليها. لأنّ العرب يعبّرون عن الحواس الباطنيّة بالصدر.

{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[6]

عطف على {يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [5]. والتقدير: وما من دابة إلّا يعلم مستقرّها ومستودعها، وإنّما نظم الكلام على هذا الأسلوب تفنّنا لإفادة التنصيص على العموم بالنفي المؤكّد ب {من} ، ولإدماج تعميم رزق الله كلّ دابة في الأرض في أثناء إفادة عموم علمه بأحوال كلّ دابة، فلأجل ذلك أخّر الفعل المعطوف لأنّ في التذكير بأنّ الله رازق الدواب التي لا حيلة لها في الاكتساب استدلالا على أنّه عليم بأحوالها.

الدابة: اسم لما يدبّ أي يمشي على الأرض غير الإنسان.

{ فِي الْأَرْضِ } تأكيد لمعنى {دَابَّةٍ} في التنصيص على أنّ العموم مستعمل في حقيقته.

{ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا } لإفادة القصر، أي على الله لا على غيره، ولإفادة معنى أنّ الله تكفّل برزقها ولم يهمله، لأنّ (على) تدلّ على اللزوم والمحقوقيّة، ومعلوم أنّ الله لا يلزمه أحد شيئا، فما أفاد معنى اللزوم، فإنما هو التزامه بنفسه بمقتضى صفاته المقتضية ذلك له كما أشار إليه قوله تعالى {وَعْداً عَلَيْنَا} [الأنبياء:104]، وقوله {حَقّاً عَلَيْنَا} [يونس: 103]. وحصر الرزق على الله مجاز عقلي في العرف باعتبار أنّ الله مسبّب ذلك الرزق ومقدّره.

{ **وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا** } أي والله يعلم مستقرّ كلّ دابة ومستودعها. فليس حكم هذه الجملة بداخل في حيّز الحصر.

المستقر: محلّ استقرارها.

المستودع: محل الإيداع، والإيداع: الوضع والدخر. والمراد به مستودعها في الرحم قبل بروزها إلى الأرض كقوله { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ } [الأنعام:98].

{ **كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** } أي كلّ رزقها ومستقرها ومستودعها في كتاب مبين، أي كتابة. وهو مستعمل في تقدير العلم وتحقيقه، بحيث لا يقبل زيادة ولا نقصانا ولا تخلّفا. كما أنّ الكتابة يقصد منها أن لا يزاد في الأمر ولا ينقص ولا يبطل.

المبين: اسم فاعل أبان بمعنى أظهر، وهو تخييل لاستعارة الكتاب للتقدير.

{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } [7]

{ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** }

عطف على {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [6]. والمناسبة أنّ خلق السماوات والأرض من أكبر مظاهر علم الله وإتقان الصنع. فالمقصود من هذا الخبر لازمه وهو الاعتبار بسعة علمه وقدرته.

{ **وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** } والمعنى أنّ العرش كان مخلوقا قبل السماوات وكان محيطا بالماء أو حاويا للماء. وحمل العرش على أنّه ذات مخلوقة فوق السماوات هو ظاهر الآية. وذلك يقتضي أنّ العرش مخلوق قبل ذلك وأنّ الماء مخلوق قبل السماوات والأرض. وتفصيل ذلك وكيفيّته وكيفيّة الاستعلاء ممّا لا قبل للأفهام به إذ التعبير عنه تقريب.

ويجوز أن يكون المراد من العرش ملك الله وحكمه تمثيلا بعرش السلطان، أي كان ملك الله قبل خلق السماوات والأرض ملكا على الماء.

{ **لِيَبْلُوَكُمْ** } متعلق ب {خَلَقَ} واللام للتعليل.

البلو: الابتلاء، أي اختبار شيء لتحصيل علم بأحواله، وهو مستعمل كناية عن ظهور آثار خلقه تعالى للمخلوقات، لأنّ حقيقة البلو مستحيلة على الله لأنّه العليم بكّل شيء، فلا يحتاج إلى اختباره.

وجعل البلو علّة لخلق السماوات والأرض لكونه من حكمة خلق الأرض، باعتبار كون الأرض من مجموع هذا الخلق، ثم إنّ خلق الأرض يستتبع خلق ما جعلت الأرض عامرة به، واختلاف أعمال المخاطبين من

جملة الأحوال التي اقتضاها الخلق، فكانت من حكمة خلق السماوات والأرض، وكان التعليل هنا بمراتب كثيرة، وعلّة العلة علّة.

وفي الآية إشارة إلى أنّ من حكمة خلق الأرض صدور الأعمال الفاضلة من شرف المخلوقات فيها. ثم إنّ ذلك يقتضي الجزاء على الأعمال إكمالا لمقتضى الحكمة ولذلك أعقبت بقوله {وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ}.

{ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ }

وجه جعلها جملة شرطية إفادة تجدّد التكذيب عند كل إخبار بالبعث. وتأكيد الجملة باللام الموطّئة للقسم وما يتبعه من نون التوكيد لتنزيل السامع منزلة المتردّد في صدور هذا القول منهم لغرابة صدوره من العاقل، فيكون التأكيد القويّ والتنزيل مستعملا في لازم معناه وهو التعجيب من حال الذين كفروا أن يحيلوا إعادة الخلق وقد شاهدوا آثار بدء الخلق وهو أعظم وأبدع.

ومعنى الإخبار عن القول بأنّه سحر أنّهم يزعمون أنّه كلام من قبيل الأقوال التي يقولها السحرة لخصائص تؤثّر في النفوس. ووجه جعلهم هذا القول سحرا أنّ في معتقداتهم وخرافاتهم أنّ من وسائل السحر الأقوال المستحيلة والتكاذيب البهتانيّة.

والمعنى أنّهم يكذّبون بالبعث، كلّما أخبروا به، لا يتردّدون في عدم إمكان حصوله بله إيمانهم به.

{ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } أي بيّن واضح أنه سحر أو أنّه ساحر.

{ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ }[8]

مناسبته لما قبله أنّ في كليهما وصف فن من أفانين عناد المشركين وتهكّمهم بالدعوة الإسلاميّة، فإذا خبّرهم الرّسول ﷺ بالبعث وأنّ شركهم سبب لتعذيبهم جعلوا كلامه سحرا، وإذا أنذرهم بعقوبة العذاب على الإشراك استعجلوه، فإذا تأخر عنهم إلى أجل اقتضته الحكمة الربّانيّة استفهموا عن سبب حبسه عنهم، استفهام تهكم، ظنّا أنّ تأخّره عجز.

الأمة: حقيقتها الجماعة الكثيرة من النّاس الذين أمرهم واحد، وتطلق على المدّة كأنّهم راعوا أنّها الأمد الذي يظهر فيه جيل فأطلقت على مطلق المدة، أي **بعد مدّة**.

{ مَعْدُودَةٍ } معناه مقدّرة، أي مؤجّلة. وفيه إيماء إلى أنّها ليست مديدة لأنه شاع في كلام العرب إطلاق العدّ والحساب ونحوهما على التقليل، لأن الشيء القليل يمكن ضبطه بالعدد، ولذلك يقولون في عكسه: بغير حساب، مثل { وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [البقرة:212].

الحبس: إلزام الشيء مكانا لا يتجاوزه. ولذلك يستعمل في معنى المنع كما هنا، أي ما يمنع أن يصل إلينا ويحلّ بنا، وهم يريدون التهكّم.

{ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ }

هذه الجملة واقعة موقع الجواب عن كلامهم، إذ يقولون ما يحبس عنّا العذاب، فلذلك فصلت كما تفصل المحاورة. وهذا تهديد وتخويف بأنّه لا يصرف عنهم ولكنّه مؤخّر.

{ أَلا } افتتح الكلام بحرف التنبيه للاهتمام بالخبر لتحقيقه وإدخال الروع في ضمائرهم.

الصرف: الدفع والإقصاء.

الحوق: الإحاطة. والمعنى أنّه حالٌ بهم حلولا لا مخلّص منه بحال. وصيغة الماضي مستعملة في معنى التحقّق. وهذا عذاب القتل يوم بدر.

{ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } هو العذاب، فإن ذكر العذاب كان سببا لاستهزائهم حين توعّدهم به النبيء ﷺ.

{ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ }[9]

لمّا ذكر أنّ ما هم فيه متاع إلى أجل معلوم عند الله. وأنّهم بطروا نعمة التمتيع فسخروا بتأخير العذاب، بيّنت هذه الآية أنّ أهل الضلالة راسخون في ذلك. فشأنهم أنّهم إن حلّت بهم الضراء بعد النعمة ملكهم اليأس من الخير ونسوا النعمة فجحدوها وكفروا منعمها، فإنّ تأخير العذاب رحمة وإتيان العذاب نزع لتلك الرحمة، وهذه الجملة في قوة التذييل.

{ الْإِنْسَانَ } تعريف الجنس مراد به الاستغراق، وبذلك اكتسبت الجملة قوة التذييل. فمعيار العموم الاستثناء في قوله تعالى {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [11] كما يأتي، فيكون الاستغراق عرفيّا جاريا على اصطلاح القرآن من إطلاق لفظ الإنسان أو النّاس، ولأن وصفي {يَؤُوسٌ كَفُورٌ} يناسبان المشركين فيتخصّص العام بهم.

الإذاقة، مستعملة في إيصال الإدراك على وجه المجاز، واختيرت مادة الإذاقة لما تشعر به من إدراك أمر محبوب لأنّ المرء لا يذوق إلّا ما يشتهيه.

الرحمة، أريد بها رحمة الدنيا. وأطلقت على أثرها وهو النعمة كالصحة والأمن والعافية، والمراد النعمة السابقة قبل نزول الضرّ.

النزع، حقيقته خلع الثوب عن الجسد. واستعمل هنا في سلب النعمة على طريقة الاستعارة، ولذلك عدّي بحرف (من) دون (عن)، لأنّ المعنى على السلب والافتكاك.

{ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ } جواب القسم، وجردت من الافتتاح باللام استغناء عنها بحرف التوكيد وبلام الابتداء

في خبر (إنّ).

اليؤوس والكفور، مثالا مبالغة في الآيس وكافر النعمة، أي جاحدها. والمراد بالكفور منكر نعمة الله لأنّه تصدر منه أقوال وخواطر من السخط على ما انتابه كأنّه لم ينعم عليه قطّ.

{ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ } [10]

تتميم للتي قبلها لأنّها حكت حالة ضدّ الحالة في التي قبلها، وهي جملة قسم وشرط وجواب قسم كما تقدّم في نظائرها.

النعماء، بفتح النون وبالمد، النعمة. واختير هذا اللفظ هنا وإن كان لفظ النعمة أشهر لمحسن رعي النظير في زنة اللفظين: النعماء والضراء. والمراد هنا النعمة الحاصلة بعد الضرّاء.

المسّ، مستعمل في مطلق الإصابة على وجه المجاز. واختيار فعل المس بالنسبة إلى إدراك الضرّاء إيماء إلى أن إصابة الضرّاء أخفّ من إصابة النعماء، وأن لطف الله شامل لعباده في كل حال.

وأكدت الجملة باللام الموطئة للقسم وبنون التوكيد في جملة جواب القسم لمثل الغرض الذي بيّنّاه في الجملة السابقة.

{ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي } للإشارة إلى اعتقاد كلّ واحد أنّه حقيق بأن تذهب عنه السيئات غرورا منه بنفسه.

{ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ } استئناف ابتدائي للتعجيب من حاله، أي لشديد الفرح شديد الفخر.

شدة الفرح: تجاوزه الحدّ وهو البطر والأشَر.

الفخر: تباهي المرء على غيره بما له من الأشياء المحبوبة للنّاس.

{ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ }[11]

احتراس باستثناء من **{ الْإِنْسَانَ }** [9]. والمراد بالذين صبروا المؤمنون بالله، لأنّ الصبر من مقارنات الإيمان، فإنّ الإيمان يروّض صاحبه على مفارقة الهوى ونبذ معتاد الضلالة. قال تعالى {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 3].

ومن معاني الصبر انتظار الفرج ولذلك أوثر هنا وصف { صَبَرُوا } دون { آمَنُوا } لأن المراد مقابلة حالهم بحال الكفار في قوله {إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ} [9]. ودلّ الاستثناء على أنّهم متّصفون بضدّ صفات المستثنى منهم.

وقد نسجت الآية على هذا المنوال من الإجمال لتذهب نفوس السامعين من المؤمنين في طرق الحذر من

صفتي اليأس وكفران النعمة، ومن صفتي الفرح والفخر كل مذهب ممكن.
{ **أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** } مستأنفة ابتدائية. والإتيان باسم الإشارة تنبيه على أنّهم استحقّوا ما يذكر بعد اسم الإشارة لأجل ما ذكر قبله من الأوصاف.

{ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } [12]

تفريع على { وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ - إلى قوله - يَسْتَهْزِئُونَ} [7، 8] من ذكر تكذيبهم وعنادهم. يشير هذا التفريع إلى أنّ مضمون الكلام المفرّع عليه سبب لتوجيه هذا التوقّع، لأنّ من شأن المفرّع عليه اليأس من ارعوائهم لتكرر التكذيب والاستهزاء، يأسا قد يبعث على ترك دعائهم، فذلك كلّه أفيد بفاء التفريع.

{ **فَلَعَلَّكَ** } للتوقّع، مستعمل في تحذير مَنْ شأنه التبليغ. ويجوز أن يقدّر استفهام حذفت أداته. والتقدير: ألعلك تارك. نظير قوله تعالى {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 3]. والاستفهام كناية عن بلوغ الحالة حدّا يوجب توقع الأمر المستفهم عنه.

وهذا أسلوب يقصد به التحريك من همّة المخاطب وإلهاب همّته لدفع الفتور عنه، فليس في هذا تجويز ترك النبيء ﷺ تبليغ بعض ما يوحى إليه.

{ **تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ** } هو ما فيه دعوتهم إلى الإيمان وإنذارهم بالعذاب وإعلامهم بالبعث كما يدلّ عليه قوله تعالى في آية أخرى { وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا } [الأعراف: 23]. والمعنى تحذيره من التأثّر بعنادهم وتكذيبهم واستهزائهم، ويستتبع ذلك تأييس المشركين من تركه ذكر البعث والإنذار بالعذاب. فالخطاب مستعمل في حقيقته ومراد منه مع ذلك علم السامعين بمضمونه.

{ **وَضَائِقٌ** } اسم فاعل من ضاق. وإنّما عدل عن (ضيّق) لمراعاة النظير { تَارِكٌ } لأنّ ذلك أحسن فصاحة. ولأنّ {ضَائِقٌ} لا دلالة فيه على تمكّن وصف الضيق من صدره بخلاف ضيّق، إذ هو صفة مشبّهة وهي دالة على تمكّن الوصف من الموصوف، وإيماء إلى أنّ أقصى ما يتوهّم توقعه في جانبه ﷺ هو ضيق قليل يعرض له. والضيق مستعمل مجازا في الغمّ والأسف، كما استعمل ضدّه وهو الانشراح في الفرح والمسرّة.

{ **بِهِ صَدْرُكَ** } الباء للسببية، والضمير المجرور بالباء عائد على ما بعده وهو {أَنْ يَقُولُوا}. فيكون تحذيرا من أن يضيق صدره لاقتراحهم الآيات بأن يقولوا {لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ} ، ويحصل مع ذلك

التحذير من أن يضيق صدره من قولهم {إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [هود: 7]، ومن قولهم: ما يحبس العذاب عنا.

ومعظم المفسّرين جعلوا ضمير {بِهِ} عائدا إلى {بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} . على أن ما يوحى إليه سبب لضيق صدره، أي لا يضيق له صدرك. وليس المعنى عليه بالمتين.

{ **لَوْلا** } : للتحضيض.

الكنز: المال المكنوز أي المخبوء.

إنزاله: إتيانه من مكان عال، أي من السماء.

وهذا القول صدر من المشركين قبل نزول هذه الآية فلذلك فالفعل المضارع مراد به تجدّد هذا القول وتكرّره منهم بقرينة العلم بأنّه صدر منهم في الماضي، وبقرينة التحذير من أن يكون ذلك سببا في ضيق صدره لأنّ التحذير إنّما يتعلق بالمستقبل.

{ **أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ** } أن يجيء ملك من الملائكة شاهدا برسالته، وهذا من جهلهم بحقائق الأمور وتوهّمهم أنّ الله يعبأ بإعراضهم ويتنازل لإجابة مقترح عنادهم، ومن قصورهم عن فهم المعجزات الإلهية ومدى التأييد الرباني.

{ **إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ** } في موقع العلّة للتحذير من تركه بعض ما يوحى إليه وضيق صدره من مقالتهم. فكأنّه قيل لا تترك إبلاغهم بعض ما يوحى إليك ولا يضق صدرك من مقالهم لأنّك نذير لا وكيل على تحصيل إيمانهم، حتّى يترتّب على يأسك من إيمانهم ترك دعوتهم.

{ **إِنَّمَا** } قصر إضافي، أي أنت نذير لا موكل بإيقاع الإيمان في قلوبهم إذ ليس ذلك إليك بل هو الله. وفيه تعريض بالمشركين برد اعتقادهم أنّ الرّسول يأتي بما يسأل عنه من الخوارق فإذا لم يأتهم به جعلوا ذلك سندا لتكذيبهم إيّاه. ردّا حاصلا من مستتبعات الخطاب، كما تقدم عند قوله تعالى {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} إذ كثر في القرآن ذكر نحو هذه الجملة في مقام الرد على المشركين والكافرين الذين سألوا الإتيان بمعجزات على وفق هواهم.

{ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** } أي أنّ الله وكيل على قلوب المكذّبين وهم المقصود، وإنّما جاء الكلام بصيغة العموم ليكون تذييلا وإتيانا للغرض بما هو كالدليل، ولينتقل من ذلك العموم إلى تسلية النبيء ﷺ بأنّ الله مطّلع على مكر أولئك، وأنّه وكيل على جزائهم وأنّ الله عالم ببذل النبيء جهده في التبليغ.

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [13]

{ أَمْ } هذه منقطعة بمعنى (بل) التي للإضراب، للانتقال من غرض إلى آخر، إلّا أنّ "أم" مختصة بالاستفهام فتقدّر بعدها همزة الاستفهام. والتقدير: بل أيقولون افتراه. والمناسبة ظاهرة، لأن الكلام في إبطال مزاعم المشركين، فإنهم قالوا: هذا كلام مفترى، وقرّعهم بالحجّة. والاستفهام إنكاري.

{ **افْتَرَاهُ** } الضمير المستتر عائد إلى النبيء ﷺ. وضمير الغائب البارز المنصوب عائد إلى القرآن المفهوم من قوله: {بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} [12]. و **الافتراء**: الكذب الذي لا شبهة لصاحبه، فهو الكذب عن عمد.

{ **قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** } جواب لكلامهم فلذلك فصلت على ما هو مستعمل في المحاورة سواء كانت حكاية المحاورة بصيغة حكاية القول أو كانت أمرا بالقول.

الإتيان بالشيء: جلبه، سواء كان بالاسترفاد من الغير أم بالاختراع من الجالب وهذا توسعة عليهم في التحدّي.

{ **بِعَشْرِ سُوَرٍ** } تحدّاهم هنا بأن يأتوا بعشر سور خلاف ما تحدّاهم في غير هذا المكان بأن يأتوا بسورة مثله، كما في سورة البقرة وسورة يونس. فقال ابن عباس وجمهور المفسّرين: كان التحدّي أوّل الأمر بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن. وهو ما وقع في سورة هود، ثم نسخ بأن يأتوا بسورة واحدة كما وقع في سورة البقرة وسورة يونس. فتخطى أصحاب هذا القول إلى أن قالوا إنّ سورة هود نزلت قبل سورة يونس.

{ **مُفْتَرَيَاتٍ** } مفتريات المعاني كما تزعمون على القرآن، أي بمثل قصص أهل الجاهلية وتكاذيبهم. وهذا من إرخاء العنان والتسليم الجدلي.

{ **وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ** }

الدعاء: النداء لعمل. وهو مستعمل في الطلب مجازا ولو بدون نداء. وحذف المتعلق لدلالة المقام، أي وادعوا لذلك.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } وصف لـ {مَنِ اسْتَطَعْتُمْ} ، ونكتة ذكر هذا الوصف التذكير بأنّهم أنكروا أن يكون من عند الله.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } في قولكم {افْتَرَاهُ} ، وجواب الشرط هو قوله {فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ} . ووجه الملازمة بين الشرط وجزائه أنه إذا كان الافتراء يأتي بهذا القرآن فما لكم لا تفترون أنتم مثله فتنهض حجتكم.

{ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[14]

تفريع على {وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ} [13]، أي فإن لم يستجب لكم من تدعو لهم فأنتم أعجز منهم.

الاستجابة: الإجابة، والسين والتاء فيه للتأكيد. وهي مستعملة في المعاونة والمظاهرة على الأمر المستعان فيه، وهي مجاز مرسل لأنّ المعاونة تنشأ عن النداء إلى الإعانة غالبا، فإذا انتدب المستعان به إلى الإعانة أجاب النداء بحضوره فسميت استجابة.

العلم: الاعتقاد اليقين، أي فأيقنوا أنّ القرآن ما أنزل إلّا بعلم الله. أي لأثر العلم. وقد أفادت (إنّما) الحصر.

{ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } عطف على {مَا أُنْزِلَ} لأنّهم إذا عجزوا فقد ظهر أنّ من استنصروهم لا يستطيعون نصرهم.

{ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } الفاء للتفريع على {فَاعْلَمُوا} . والاستفهام مستعمل في الحثّ على الفعل وعدم تأخيره والمعنى: فهل تسلمون بعد تحقّقكم أنّ هذا القرآن من عند الله.

وجيء بالجملة الاسمية الدالة على دوام الفعل وثباته.

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ [15] **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }** [16]

تحذير من أن يغترّوا بالمتاع العاجل، وإعلام بأنّ وراء ذلك العذاب الدائم، وأنّهم على الباطل. فالمقصود من هذا الكلام هو الجملة الثانية، { أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ }، وما قبل ذلك تمهيد وتنبيه على بوارق الغرور ومزالق الذهول.

ولمّا كان ذلك هو حالهم كان في هذا الاعتراض زيادة بيان لأسباب مكابرتهم وبعدهم عن الإيمان، وفيه تنبيه المسلمين بأن لا يغترّوا بظاهر حسن حال الكافرين في الدنيا، وأن لا يحسبوا أيضا أنّ الكفر يوجب تعجيل العذاب، فأوقظوا من هذا التوهّم، كما قال تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران: 196، 197].

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا } وفعل الشرط في المقام الخطابي يفيد اقتصار الفاعل على ذلك الفعل. فالمعنى، من كان لا يطلب إلّا منافع الحياة وزينتها. وهذا لا يصدر إلّا عن الكافرين، لأنّ المؤمن لا يخلو من إرادة خير الآخرة وما آمن إلّا لذلك.

{ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا }

التوفية: إعطاء الشيء وافيا، أي كاملا غير منقوص، أي نجعل أعمالهم في الدنيا وافية. فالمراد أنّهم لا

يُنقصون من لذاتهم التي هيّأوها لأنفسهم على اختلاف طبقاتهم في التمتّع بالدنيا، بخلاف المؤمنين فإنّهم تتهيأ لهم أسباب التمتّع بالدنيا على اختلاف درجاتهم في ذلك التهيؤ فيتركون كثيرا من ذلك لمراعاتهم مرضاة الله تعالى وحذرهم من تبعات ذلك في الآخرة على اختلاف مراتبهم في هذه المراعاة. فكأنه قيل نتركهم وشأنهم.

{ وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ } أي في الدنيا لا يجازون على كفرهم بجزاء سلب بعض النعم عنهم بل يتركون وشأنهم استدراجا لهم وإمهالا. فهذا كالتكملة.

البخس: هو الحطّ من الشيء والنقص منه على ما ينبغي أن يكون عليه ظلما.

وفي هذه الآية دليل لما رآه الأشعري أنّ الكفر لا يمنع من نعمة الله.

{ فِيهَا } يجوز أن يعود إلى {الْحَيَاةَ} وأن يعود إلى { أَعْمَالَهُمْ }.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ } مستأنفة، وفي اسم الإشارة تنبيه على أنّ المشار إليه استحقّ ما يذكر بعد اختياره من الحكم من أجل الصفات التي ذكرت قبل اسم الإشارة.

{ إِلَّا النَّارُ } استثناء مفرّغ من { لَيْسَ لَهُمْ } أي ليس لهم شيء مما يعطاه النّاس في الآخرة إلّا النار.

{ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

الحبط: البطلان، أي الانعدام.

{ مَا صَنَعُوا } ما عملوا، من الإحسان في الدنيا كإطعام العُفاة ونحوه من مواساة بعضهم بعضا، ولذلك عبر هنا بـ {صَنَعُوا} لأنّ الإحسان يسمى صنيعة.

{ فِيهَا } يجوز أن يعود إلى {الدُّنْيَا}. ويجوز أن يعود إلى {الْآخِرَةِ}، أي انعدم أثره.

والكلام تنبيه على أنّ حظّهم من النعمة هو ما يحصل لهم في الدنيا، وأنّ رحمة الله بهم لا تعدو ذلك. وقد قال النبيء ﷺ لعمر لمّا ذكر له فارس والروم وما هم فيه من المتعة: " أولئك عجّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا"

الباطل: الشيء الذي يذهب ضياعا وخسرانا.

{ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ } [17]

أغلقت معاني هذه الآية لكثرة الاحتمالات التي تعتورها من جهة معاد الضمائر واسم الإشارة، ومن جهة إجمال المراد من الموصول، وموقع الاستفهام، وموقع فاء التفريع.

والذي تخلّص لي من ذلك، وممّا فتح الله به ممّا هو أوضح وجها وأقرب بالمعنى المقصود شبها:

{ **أَفَمَنْ** } الفاء للتفريع على { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ - إلى قوله - فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [13، 14] وأنّ ما بينهما اعتراض لتقرير توغّلهم في المكابرة وابتعادهم عن الإيمان، وهذا التفريع تفريع الضدّ على ضدّه في إثبات ضدّ حكمه له. أي إن كان حال أولئك المكذّبين كما وصف فثمّ قوم هم بعكس حالهم قد نفعتهم البيّنات والشواهد، فهم يؤمنون بالقرآن وهم المسلمون. أي كما أسلم من كانوا على بيّنة من ربهم منكم ومن أهل الكتاب.

والهمزة للاستفهام التقريري، أي إن كفر به هؤلاء أفيؤمن به من كان على بيّنة من ربّه.

{ **مَنْ كَانَ** } لا يراد بها شخص معين. فكلمة (**مَنْ**) هنا تكون كالمعرّف بلام العهد الذهني صادقة على من تحققت له الصلة، أعني أنّه على بينة من ربه. وبدون ذلك لا تستقيم الإشارة. وإفراد الضمائر مراعاة للفظ (من) الموصولة وذلك أحد استعماليها. والجمع في قوله { أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ } مراعاة لمعنى (من) الموصولة وذلك استعمال آخر. والتقدير: أفمن كانوا على بيّنة من ربهم أولئك يؤمنون به.

{ **عَلَى بَيِّنَةٍ** } يجوز أن يكونوا النصارى فقط، فإنّهم كانوا منتشرين في العرب ويعرف أهل مكّة كثيرا منهم، وهم الذين عرفوا أحقيّة الإسلام مثل ورقة بن نوفل ودحية الكلبي. ويجوز أن يراد النصارى واليهود مثل عبد الله ابن سلام ممّن آمن بعد الهجرة فدلّوا على تمكّنهم من معرفة البيّنة لصحة أفهامهم ولوضوح دلالة البيّنة، فأصحابها مؤمنون بها.

{ **مِنْ رَبِّهِ** } أنّها من وحي الله ووصايته التي أشار إليها قوله تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النبيءينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ} [آل عمران:81] وقوله {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النبيء الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ} [الأعراف:157].

{ **وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ** }

يتلوه: مضارع التّلو، وهو الاتّباع وليس من التلاوة، أي يتبعه. والاتّباع مستعار للتأييد والاقتداء. فإنّ الشاهد بالحقّ يحضر وراء المشهود له.

{ **شَاهِدٌ مِنْهُ** } شاهد من ربّه، أي شاهد من الله، وهو القرآن لأنّه لإعجازه المعاندين عن الإتيان بعشر سور مثله كان حجّة على أنّه آت من جانب الله.

{ **وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً** } وذكر كتاب موسى وأنّه من قبله يشير إلى أنّ البيّنة المذكورة هنا من الإنجيل، ويقوّي أن المراد بـ {مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ} النصارى.

وإذا كان المراد بـ {مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ} النصارى خاصة كان لذكر {كِتَابُ مُوسَى} إيماء إلى أنّ كتاب موسى - عليه السلام - شاهد على صدق محمد ﷺ. ولم يذكر أهل ذلك الكتاب، وهم اليهود، لأنّهم لم يكونوا على بيّنة من ربهم كاملة من جهة عدم تصديقهم بعيسى عليه السلام.

{ **إماما ورحمة** } حالان ثناء على التوراة بما فيها من تفصيل الشريعة، فهو إمام يُهتدى به ورحمة للنّاس يعملون بأحكامها فيرحمهم الله في الدنيا بإقامة العدل وفي الآخرة بجزاء الاستقامة، إذ الإمام ما يؤتمّ به ويعمل على مثاله.

{ **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** } أي أولئك الذين كانوا على بيّنة من ربّهم يؤمنون بالقرآن وليسوا مثلكم يا معشر المشركين، وذلك في معنى قوله {فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} [الأنعام: 89].

{ **به** } عائد إلى القرآن المعلوم من المقام، أو من تقدّم ضميره في قوله {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} [13].

والباء للتعدية لا للسببيّة، أي يؤمنون بما وصف به القرآن من أنّه من عند الله.

وحاصل معنى الآية وارتباطها بما قبلها {فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [14]، أنّ الذين يؤمنون به هم الذين كانوا على بيّنة من ربّهم مؤيدة بشاهد من ربّهم ومعضودة بكتاب موسى عليه السلام من قبل بيّنتهم.

{ **وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ** } عطف على {أفمن كان على بينة من ربه} لأنّه لمّا حرّض أهل مكّة على الإسلام بقوله {فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [14]، وأراهم القدوة بقوله {أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} ، عاد فحذّر من الكفر بالقرآن والإعراض عما تبيّن لهم من بينة ربهم وشواهد رسله، بأنّ النار موعدهم.

الأحزاب: هم الذين يجمعهم أمر، فالمشركون حزب، واليهود حزب، والنصارى حزب. { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ } [ص: 12، 13].

الموعد: ظرف للوعد من مكان أو زمان. وأطلق هنا على المصير الصائر إليه، لأنّ شأن المكان المعيّن لعمل أن يعيّن به بوعد سابق.

{ **فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** }

تفريع على { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ } والخطاب للنبيء ﷺ والنهي مستعمل كناية تعريضيّة بالكافرين بالقرآن.

المرية: الشك. وهي مرادفة الامتراء المتقدّم في أوّل الأنعام. وفيه تعريض بأنّ ما فيه المشركون من اليقين بكذب القرآن أشد ذمّا وشناعة.

{ **إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** } مستأنفة تأكيد لما دلّت عليه جملة { فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ } من أنّه لوضوح حقّيته لا ينبغي أن يمترى في صدقه

{ **الْحَقُّ** } التعريف لإفادة قصر جنس الحقّ على القرآن. وهو قصر مبالغة، لكمال جنس الحقّ فيه حتّى كأنّه لا يوجد حقّ غيره. مثل قولك: حاتم الجواد.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** } الاستدراك ناشئ على حكم الحصر، فإنّ الحصر يقتضي أن يؤمن به كل من بلغه ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون.

الإيمان: هو التصديق بما جاء به الرّسول ﷺ من الدين. وحذف متعلّق {يُؤْمِنُونَ} لأن المراد انتفاء حقيقة الإيمان عنهم في كل ما طلب الإيمان به من الحق.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ [18] **الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** } [19].

لمّا انقضى الكلام من إبطال زعمهم أنّ النبيء ﷺ افترى القرآن ونسبه إلى الله. وتعجيزهم عن برهان لما زعموه، كرّ عليهم أن قد وضح أنّهم المفترون على الله عدّة أكاذيب، منها نفيهم أن يكون القرآن منزّلا من عنده.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى } عُطفت على {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [17] لبيان استحقاقهم النّار على كفرهم بالقرآن، وزعمهم أنّ الرّسول ﷺ افتراه، فكانوا بالغين غاية الظلم. والسؤال إنكاري يؤول إلى معنى النفي، أي لا أحد أظلم منهم. وقد تقدم نظيره { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ } [البقرة:114]، وقوله { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ } [الأعراف:37].

وافتراؤهم على الله هو ما وضعوه من دين الشرك، كقولهم: إنّ الأصنام شفعاؤهم عند الله، وقولهم في كثير من أمور دينهم {وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا} [الأعراف: 28].

{ أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ } استئناف. وتصديرها باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة من الخبر بسبب ما قبله من الوصف، وهذا أشد الظلم. ولما يؤذن به اسم الإشارة من معنى تعليل ما قبله فيما بعده، أي أنّ عرضهم على ربّهم عرض زجر وانتقام. والمعنى أولئك يعرضون على الله للعقاب.

{ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ } ويعلن الأشهاد بأنّهم كذبوا على ربهم، فضحا لهم.

الأشهاد: جمع شاهد بمعنى حاضر، أو جمع شهيد بمعنى المخبر بما عليهم من الحقّ. وهم من **الملائكة**.

{ هَؤُلاءِ } استحضارهم بطريق اسم الإشارة لتمييزهم للنّاس كلّهم، حتّى يشتهر ما سيخبر به عن حالهم، والمقصود من ذلك شهرتهم بالسوء وافتضاحهم.

{ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } والمقصود من إعلان هذه الصفة التشهير والخزي لا إثبات كذبهم لأنّ إثبات ذلك حاصل في صحف أعمالهم، ولذلك لم يسند العرض إلى أعمالهم وأسند إلى ذواتهم، {أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ }. والجملة من بقية قول الأشهاد. وافتتاحها بحرف التنبيه يناسب مقام التشهير. وممّا يؤيّد أنّه من قول الأشهاد وقوع نظيره مصرّحا فيه بذلك {فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [الأعراف:44].

{ **الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** } تقدم نظيره في [الأعراف:45].

{ **يَبْغُونَهَا** } ضمير المؤنث عائد إلى سبيل الله، لأنّ سبيل يجوز اعتباره مؤنثا.

والمعنى: أنّهم يبغون أن تصير سبيل الله عوجاء. وهنا انتهى كلام الأشهاد لأن نظيره الذي في سورة الأعراف[44] في قوله {فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} انتهى بما يماثل آخر هذه الآية.

واختصت هذه الآية على نظيرها في الأعراف بزيادة {هم} في قوله { هُمْ كَافِرُونَ } وهو توكيد يفيد تقوّي الحكم، لأنّ المقام هنا مقام تسجيل إنكارهم البعث وتقريره، إشعارا بما يترقّبهم من العقاب المناسب فحكي به من كلام الأشهاد ما يناسب هذا، وما في سورة الأعراف حكاية لما قيل في شأن قوم أدخلوا النار وظهر عقابهم فلا غرض لحكاية ما فيه تأكيد من كلام الأشهاد، وكلا المقالتين واقع. وإنّما يحكي البليغ فيما يحكيه ما له مناسبة لمقام الحكاية.

{ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } [20]

{ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ }

استئناف بياني ناشئ عن الاقتصار في تهديدهم على وصف بعض عقابهم في الآخرة فإن ذلك يثير في نفس السامع أن يسأل: هل هم سالمون من عذاب الدنيا؟ فأجيب بأنّهم لم يكونوا معجزين في الدنيا.

وإعادة الإشارة إليهم بقوله: "أولئك " بعد أن أشير إليهم بقوله {أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِم} لتقرير فائدة اسم الإشارة السابق.

المُعْجِزُ هنا، الذي أفلت ممّن يروم إضراره. وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } [الأنعام:134].

الأرض: الدنيا. وفائدة ذكره أنّهم لا ملجأ لهم من الله لو أراد الانتقام منهم فلا يجدون موضعا من الأرض يستعصمون به. فهذا نفي للملاجئ والمعاقل التي يستعصم فيها الهارب. وعندي أن مقارنة { في الأرض } بـ{ معجزين } جرى مجرى المثل في القرآن.

{ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ }.

يجوز أن يكون المراد بالأولياء الأنصار، أي ما لهم ناصر ينصرهم من دون الله. فجمع لهم نفي سببي النجاة من عذاب القادر؛ وهما المكان الذي لا يصل إليه القادر، أو معارضة قادر آخر يمنعه من تسليط عقابه.

ويجوز أن يراد بالأولياء الأصنام التي تولوها، أي أخلصوا لها المحبة والعبادة.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } على هذا الوجه بمعنى من غير الله.

{ **يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ** } خبر عن اسم الإشارة. ويجوز أن تكون جملة {لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} خبرا أولا وجملة {يُضَاعَفُ} خبرا ثانيا. ويجوز أن تكون جملة {لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ} حالا، وجملة {يُضَاعَفُ} خبرا أول.

والعذاب المضاعف هو عذاب الآخرة بقرينة قوله {لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} المشعر بتأخير العذاب عنهم في الدنيا لا عن عجز.

{ **مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ** } يجوز أن يكون هذا خبرا عن اسم الإشارة أو حالا منه.

{ **مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ** } مستعارة لكراهيتهم سماع القرآن وأقوال النبيء ﷺ.

وعبر هنا بالاستطاعة لأنّ النبيء ﷺ كان يدعوهم إلى استماع القرآن فيعرضون لأنهم يكرهون أن يسمعوه. لأنهم لو سمعوا ووعوا لاهتدوا. لأنّ الكلام المسموع مشتمل على تركيب الأدلة ونتائجها فسماعه كاف فيحصول الاهتداء.

{ **وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ** } هو النظر في المصنوعات الدالة على الوحدانيّة، أي ما كانوا يوجّهون أنظارهم إلى المصنوعات توجيه تأمّل واعتبار بل ينظرون إليها نظر الغافل عما فيها من الدقائق، ولذلك لم يقل هنا: وما كانوا يستطيعون أن يبصروا، لأنهم كانوا يبصرونها ولكن مجرد الإبصار غير كاف في حصول الاستدلال.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [21] لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ } [22]

استئناف، واسم الإشارة هنا تأكيد ثان لاسم الإشارة في قوله {أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ} [18].

{ **الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** } الموصول مراد به الجنس المعروف بهذه الصلة، أي إن بلغكم أنّ قوما خسروا أنفسهم فهم المفترون على الله كذبا، وخسارة أنفسهم عدم الانتفاع بها في الاهتداء، فلمّا ضلوا فقد خسروها.

وتقدّم الكلام على نظيره عند قوله تعالى { الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام:12].

الضلال: خطأ الطريق المقصود.

{ **مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } ما كانوا يزعمونه من أنّ الأصنام تشفع لهم وتدفع عنهم الضرّ عند الشدائد. { فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأحقاف: 28].

{ **لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ** } مستأنفة فذلكة ونتيجة للجمل المتقدمة، لأنّ ما جمع لهم من الزجّ

للعقوبة ومن افتضاح أمرهم ومن إعراضهم عن استماع النذر وعن النظر في دلائل الوحدانية يوجب اليقين بأنّهم الأخسرون في الآخرة.

{ **لا جَرَمَ** } كلمة جزم ويقين جرت مجرى المثل، أي لا محالة أو لا بد. ثم يجيء بعدها (أنّ) واسمها وخبرها. والتقدير: لا جرم من أنّ الأمر كذا.

وعبّر عمّا لحقهم من الضرّ بالخسارة استعارة، لأنّه ضرّ أصابهم من حيث كانوا يرجون المنفعة.

{ **هُمُ الْأَخْسَرُونَ** } أي شديدي الخسارة، لأنّهم قد اجتمع لهم من أسباب الشقاء والعذاب ما افترق بين الأمم الضالة. ولأنّهم شقوا من حيث كانوا يحسبونه سعادة قال تعالى { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً } [الكهف: 103، 104] فكانوا أخسرين لأنهم اجتمعت لهم خسارة الدنيا والآخرة.

{ **هُمُ** الْأَخْسَرُونَ } ضمير الفصل يفيد القصر، وهو قصر ادعائي، لأنّهم بلغوا الحد الأقصى في الخسارة، فكأنهم انفردوا بالأخسريّة.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[23]

لمّا ذكر أحوال البالغين أقصى غايات الخسارة ذكر مقابلهم الذين بلغوا أعلى درجات السعادة. فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ النفوس تشرئبّ عند سماع حكم الشيء إلى معرفة حكم ضدّه.

الإخبات: الخضوع والتواضع، أي أطاعوا ربّهم أحسن طاعة.

{ **أُولَئِكَ** } موقعه هنا مثل موقعه في الآية قبلها.

{ **هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } في موقع البيان لجملة { أَصْحَابُ الْجَنَّةِ } لأنّ الخلود في المكان هو أحقّ الأحوال بإطلاق وصف الصاحب على الحال بذلك المكان إذ الأمكنة لا تقصد إلّا لأجل الحلول فيها، فتكون الجملة مستأنفة لبيان ما قبلها، فمنزلتها منزلة عطف البيان. وقد تقدّم نظيرها في قوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة:82].

{ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ }[24]

بعد أن تبيّن الاختلاف بين حال المشركين المفترين على الله كذبا وبين حال الذين آمنوا وعملوا الصالحات في منازل الآخرة أعقب ببيان التنظير بين حالي الفريقين المشركين والمؤمنين بطريقة تمثيل ما تستحقّه من

ذمّ ومدح. فالجملة فذلكة للكلام وتحصيل له وللتحذير من مواقعة سببه.

المَثَل: (بالتحريك) الحالة والصفة، أي حالة الفريقين المشركين والمؤمنين تشبه حال الأعمى الأصم من جهة وحال البصير السميع من الجهة الأخرى. فالكلام تشبيه وليس استعارة لوجود كاف التشبيه وهو أيضا تشبيه مفرد لا مركب.

والفريقان هما المعهودان في الذكر في هذا الكلام، وهما فريق المشركين وفريق المؤمنين.

الفريق: الجماعة التي تفارق، أي يخالف حالها حال جماعة أخرى في عمل أو نحلة. وتقدّم عند قوله تعالى {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنعام:81]

شبّه حال فريق الكفار في عدم الانتفاع بالنظر في دلائل وحدانيّة الله الواضحة من مخلوقاته بحال الأعمى، وشبّهوا في عدم الانتفاع بأدلة القرآن بحال من هو أصم. وشبّه حال فريق المؤمنين في ضدّ ذلك بحال من كان سليم البصر، سليم السمع فهو في هدى ويقين من مدركاته.

{ **هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً** } واقعة موقع البيان للغرض من التشبيه وهو نفي استواء حالهما، ونفي الاستواء كناية عن التفضيل، والمفضّل منهما معلوم من المقام، أي معلوم تفضيل الفريق الممثل بالسميع والبصير على الفريق الممثل بالأعمى والأصم.

{ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } الاستفهام إنكاري. والمقصود تنبيه المشركين لما هم فيه من الضلالة لعلّهم يتداركون أمرهم

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ [25] أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ }[26]

انتقال من إنذار المشركين ووصف أحوالهم وما ناسب ذلك إلى موعظتهم بما أصاب المكذّبين قبلهم من المصائب، وفي ذلك تسلية للنبيء ﷺ بما لاقاه الرسل عليهم السلام قبله من أقوامهم.

فالعطف من عطف القصّة على القصّة وهي التي تسمى الواو الابتدائية.

{ **لَقَدْ**} وأكدت الجملة بلام القسم و {قَدْ} لأنّ المخاطبين لمّا غفلوا عن الحذر ممّا حلّ بقوم نوح نزلوا منزلة المنكر لوقوع رسالته.

وتقدم الكلام على نوح - عليه السلام - وقومه عند قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً} [آل عمران:33] وعند قوله {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ } [الأعراف:59].

{ **أَلّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ** } مفسرة لجملة { أَرْسَلْنَا } لأنّ الإرسال فيه معنى القول دون حروفه، ويجوز كونها تفسيرا لـ {نَذِيرٌ} لما في {نَذِيرٌ} من معنى القول.

{ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ** } تعليل لـ {نَذِيرٌ}، لأن شأن النذارة أن تثقل على النفوس فكانت جديرة بالتعليل لدفع حرج ما يلاقونه.

{ **أَخَافُ عَلَيْكُمْ** } ونحوها مثل أخشى عليك، تستعمل للتوقّع في الأمر المظنون أو المقطوع به باعتبار إمكان الانفلات من المقطوع به.

فيتعدى الفعل بنفسه إلى الخوف منه، ويتعدى إلى المخوف عليه بحرف (على) كما في الآية .

{ **عَذَابَ** } نكرة في المعنى، لأنّه أضيف إلى نكرة فكان محتملا لعذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فأما عذاب الدنيا فليس مقطوعا بنزوله بهم ولكنه مظنون من نوح عليه السلام بناء على ما علمه من عناية الله بإيمان قومه وما أوحي إليه من الحرص في التبليغ، فعلم أن شأن ذلك أن لا يترك من عصوه دون عقوبة. ولذلك قال في كلامه الآتي {إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ} [33] على ما يأتي هنالك. وكان العذاب شاملا لعذاب الآخرة أيضا إن بقوا على الكفر، وهو مقطوع به لأنّ الله يقرن الوعيد بالدعوة، فلذلك قال نوح عليه السلام في كلامه الآتي {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [33]. وقد تبادر إلى أذهان قومه عذاب الدنيا لأنهم لا يؤمنون بالبعث، فلذلك قالوا في كلامهم الآتي {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [32]. ولعل في كلام نوح - عليه السلام - ما تفيدهم أنه توعّدهم بعذاب في الدنيا، وهو الطوفان.

{ **يَوْمٍ أَلِيمٍ** } مجاز عقلي، وهو أبلغ من أن يوصف العذاب بالأليم، لأن شدة العذاب لما بلغت الغاية جعل زمانه أليما، أي مؤلما.

{ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ }[27]

العطف بالفاء للإشارة إلى أنّهم بادروه بالتكذيب والمجادلة الباطلة لمّا قال لهم {إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [25].

الملأ: سادة القوم. وتقدّم عند قوله تعالى {قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الأعراف:60].

لمّا دعاهم نوح - عليه السلام - دعوة علموا منها أنّه يقودهم إلى طاعته ففكّروا وقدّروا فرأوا الأسباب المألوفة بينهم للسؤدد مفقودة من نوح - عليه السلام - ومن الذين اتّبعوه فجزموا بأنّه غير حقيق بالسيادة عليهم فجزموا بتكذيبه فيما ادعاه من الرسالة بسيادة للأمّة وقيادة لها.

البشر: الإنسان ذكرا أو أنثى، واحدا كان أو جمعا. قال الراغب: "عبر عن الإنسان بالبشر اعتبارا بظهور بشرته وهي جلده بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف والشعر والوبر". والبشر مرادف الإنسان فيطلق كما يطلق الإنسان على الواحد والأكثر والمؤنث والمذكر، وقد يثنى { أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا } [المؤمنون: 47].

{ **وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا** } وذلك تعريض بأنّهم لا يتّبعونه لأنّهم يترفّعون عن مخالطة أمثالهم وأنّه لو أبعدهم عنه لاتّبعوه، ولذلك ورد بعده { وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا } [29] .

الأراذل: جمع أرذل المجعول اسما غير صفة كذلك على القياس، أو جمع رذيل على خلاف القياس. والرذيل المحتقر. وأرادوا أنّهم من لفيف القوم غير سادة ولا أثرياء. وكان أتباع نوح عليه السلام من ضعفاء القوم ولكنهم من أزكياء النفوس ممن سبق لهم الهدى.

{ **بَادِيَ** } قرأه الجمهور بياء تحتية في آخره على أنّه مشتق من بدا المقصور إذا **ظهر**. والمعنى، فيما يبدو لهم من الرأي دون بحث عن خفاياه ودقائقه.

وقرأه أبو عمرو وحده بهمزة في آخره على أنه مشتق من **البداء**، وهو أول الشيء. ويكون المعنى: فيما يقع أول الرأي، أي دون إعادة النظر لمعرفة الحق من التمويه، ومآل المعنيين واحد.

الرأي: نظر العقل، مشتقّ من فعل رأي، كما استعمل رأي بمعنى ظنّ وعلم.

يعنون أن هؤلاء قد غرّتهم دعوتك فتسرّعوا إلى متابعتك ولو أعادوا النظر والتأمّل لعلموا أنك لا تستحق أن تتبع.

{ **وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ** } ولمّا وصفوا كل فريق من التابع والمتبوع بما ينفي سيادة المتبوع وتزكية التابع جمعوا الوصف الشامل لهما. وهو المقصود من الوصفين المفرّقين. فنفوا أن يكون لنوح عليه السلام وأتباعه فضل على الذين لم يؤمنوا به حتّى يكون نوح عليه السلام سيّدا لهم ويكون أتباعه مفضّلين بسيادة متبوعهم.

الفضل: الزيادة في الشرف والكمال، والمراد هنا آثاره وعلاماته لأنّها التي ترى، فجعلوا عدم ظهور فضل لهم عليهم دليلا على انتفاء فضلهم.

{ **بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ** } زعموا نوحا - عليه السلام - كاذبا في دعوى الرسالة وأتباعه كاذبين في دعوى حصول اليقين بصدق نوح - عليه السلام -، بل ذلك منهم اعتقاد باطل، وهذا الظنّ الذي زعموه مستند إلى الدليل المحسوس في اعتقادهم. واستعمل الظنّ هنا في العلم كقوله { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ } وهو إطلاق شائع في الكلام.

{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ } [28]

فصلت عن التي قبلها على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات.

{ يَا قَوْمِ } افتتاح مراجعته بالنداء لطلب إقبال أذهانهم لوعي كلامه، واختيار استحضارهم بعنوان قومه لاستنزال طائر نفورهم تذكيرا لهم بأنّه منهم فلا يريد لهم إلّا خيرا.

{ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي } استفهام عن الرؤية بمعنى الاعتقاد. وهو استفهام تقريري معناه إن كنت ذا برهان واضح، ومتّصفا برحمة الله بالرسالة بالهدى فلم تظهر لكم الحجّة ولا دلائل الهدى، فهل ألزمكم أنا وأتباعي بها، أي بالإذعان إليها والتصديق بها، إن أنّتم تكرهون قبولها. وهذا تعريض بأنّهم لو تأمّلوا تأمّلا بريئا من الكراهية والعداوة لعلموا صدق دعوته.

البيّنة: الحجّة الواضحة، وتطلق على المعجزة، فيجوز أن تكون معجزته الطوفان، ويجوز أن تكون له معجزات أخرى لم تذكر، فإن بعثة الرسل - عليهم السلام - لا تخلو من معجزات.

واختيار وصف الربّ دون اسم الجلالة للدلالة على أنّ إعطاءه البيّنة والرحمة فضل من الله أراد به إظهار رفقه وعنايته به.

{ وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ } نعمة النبوءة والتفضيل عليهم الذي أنكروه، مع ما صحبها من البيّنة لأنّها من تمامها، فعطف { رحمة } على { بيّنة } يقتضي المغايرة بينهما، وهي مغايرة بالعموم والخصوص، لأنّ الرحمة أعمّ من البيّنة، إذ البيّنة على صدقه من جملة الرحمة به.

{ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ } فخفيت، وهو استعارة. ومن بديع هذه الاستعارة هنا أنّ فيها طباقا لمقابلة قولهم في مجادلتهم {مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً - وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ - وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ} [27]. فقابل نوح - عليه السلام - كلامهم مقابلة بالمعنى واللفظ إذ جعل عدم رؤيتهم من قبيل العمى.

وعطف **{ فَعُمِّيَتْ }** بفاء التعقيب إيماء إلى عدم الفترة بين إيتائه البيّنة والرحمة وبين خفائها عليهم. وهو تعريض لهم بأنّهم بادروا بالإنكار قبل التأمّل.

{ أَنُلْزِمُكُمُوهَا } الاستفهام إنكاري، أي لا نكرهكم على قبولها، فعُلّق الإلزام بضمير البيّنة أو الرحمة. والمراد تعليقه بقبولها بدلالة القرينة.

وجيء بضمير المتكلّم المشارك هنا للإشارة إلى أتباعه، فأراد أن لا يهمل ذكر أتباعه وأنّهم أنصار له لو شاء أن يهيب بهم. والقصد من ذلك التنويه بشأنهم في مقابلة تحقير الآخرين إيّاهم..

{ وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ } الكاره: المبغض لشيء. وعدي باللام إلى مفعوله لزيادة تقوية تعلّق الكراهية بالرحمة

أو البيّنة، أي وأنتم مبغضون قبولها لأجل إعراضكم عن التدبّر فيها.
وتقديم المجرور على {كَارِهُونَ} لرعاية الفاصلة مع الاهتمام بشأنها.
والمقصود من كلامه بعثهم على إعادة التأمّل في الآيات، وتخفيض نفوسهم، واستنزالهم إلى الإنصاف. وليس المقصود معذرتهم بما صنعوا ولا العدول عن تكرير دعوتهم.

{ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ } [29]

{ وَيَا قَوْمِ } لما في الخطاب به أول مرة من المعاني التي ذكرناها، وأمّا عطف النداء بالواو مع أنّ المخاطب به واحد وشأن عطف النداء أن يكون عند اختلاف المنادى، فأمّا إذا اتّحد المنادى فالشأن عدم العطف.
يجوز أن يكون تنبيها على اتصال النداءات بعضها ببعض، وأنّ أحدها لا يغني عن الآخر. ويجوز أن يكون ذلك تفنّنا عربيا في الكلام عند تكرّر النداء استحسانا للمخالفة بين التأكيد والمؤكّد. ويسجئ نظير هذا قريبا في قصة هود وقصة شعيب - عليهما السلام - .
{ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً } انتقل إلى تقريبهم من النظر في نزاهة ما جاءهم به، وأنّه لا يريد نفعا دنيويّا.
{ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ } احتراس، والمخالفة بين العبارتين { مَالاً } و { أَجْرِيَ } تفيد أنّه لا يسأل من الله مالا ولكنّه يسأل ثوابا.
الأجر: العوض على عمل. ويسمّى ثواب الله أجرا لأنّه جزاء على العمل الصالح.
{ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا } عطف على { لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً } لأنّ مضمونها كالنتيجة لمضمون المعطوف عليها، لأنّ نفي طمعه في المخاطبين يقتضي أنّه لا يؤذي أتباعه لأجل إرضاء هؤلاء. ولذلك عبّر عن أتباعه بطريق الموصوليّة {الَّذِينَ آمَنُوا} لما يؤذن به الموصول من تغليط قومه في تعريضهم له بأن يطردهم، بما أنّهم لا يجالسون أمثالهم، إيذانا بأنّ إيمانهم يوجب تفضيلهم على غيرهم الذين لم يؤمنوا به والرغبة فيهم فكيف يطردهم.
الطرد: الأمر بالبعد عن مكان الحضور تحقيرا أو زجرا. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ } [الأنعام:52].
{ إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ } في موضع التعليل لنفي أن يطردهم بأنّهم صائرون إلى الله في الآخرة فمحاسب من يطردهم، هذا إذا كانت الملاقاة على الحقيقة. أو أراد أنّهم يدعون ربهم في صلاتهم فينتصر الله لهم إذا كانت الملاقاة مجازية، أو أنّهم ملاقو ربّهم حين يحضرون مجلس دعوتي، لأنّي أدعو إلى الله لا إلى شيء يخصّني

فهم عند ملاقاتي كمن يلاقون ربّهم لأنّهم يتلقّون ما أوحى الله إلي. وهذا كقول النبيء ﷺ في قصة النفر الثلاثة الذين حضروا مجلس النبيء ﷺ فجلس أحدهم، واستحيا أحدهم، وأعرض الثالث: " أمّا الأوّل فآوى إلى الله فآواه الله، وأمّا الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه، وأمّا الثالث فأعرض فأعرض الله عنه".

{ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ } موقع الاستدراك هو أنّ مضمون الجملة ضدّ مضمون التي قبلها، أي لا ريب في ذلك ولكنّكم تجهلون فتحسبونهم لا حضرة لهم وأن لا تبعة في طردهم. وحذف مفعول {تَجْهَلُونَ} للعلم به، أي تجهلون ذلك.

{ قَوْماً } زيادة تدلّ على أنّ جهلهم صفة لازمة لهم، كأنّها من مقومات قوّميتهم.

{ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ }[30]

{ وَيَا قَوْمِ } مثل إعادته في الآية قبلها.

{ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ } الاستفهام إنكاري. **والنصر**: إعانة المقاوم لضدّ أو عدو. أي ينجيني من الله، أي من عقابه، لأنّ الله لا يحبّ إهانة أوليائه.

{ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } فرّع على ذلك إنكارا على قومه في إهمالهم التذكّر، أي التأمّل في الدلائل ومدلولاتها، والأسباب ومسبّباتها. وأصل {تَذَكَّرُونَ}، تتذكّرون فأبدلت التاء ذالا وأدغمت في الذال. والتذكّر تقدّم عند قوله {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا} [الأعراف:201].

{ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ }[31]

هذا تفصيل لما ردّ به مقالة قومه إجمالا، فهم استدلوا على نفي نبوّته بأنّهم لم يروا له فضلا عليهم، فجاء هو في جوابهم بالقول إنّه لم يدّع فضلا غير الوحي إليه، ولذلك نفى أن يكون قد ادّعى غير ذلك. واقتصر على بعض ما يتوهّمونه من لوازم النبوءة وهو أن يكون أغنى منهم، أو أن يعلم الأمور الغائبة.

{ وَلا أَقُولُ لَكُمْ } بمعنى الدعوى، وإنّما نفى ذلك بصيغة المضارع للدلالة على أنّه منتف عنه ذلك في الحال، فأمّا انتفاؤه في الماضي فمعلوم لديهم حيث لم يقله، أي لا تظنّوا أنّي مضمر ادعاء ذلك وإن لم أقله.

الخزائن: جمع خِزانة (بكسر الخاء) وهي بيت أو مشكاة كبيرة يجعل لها باب، وذلك لخزن المال أو الطعام، أي حفظه من الضياع. وذكر الخزائن هنا استعارة مكنية، شبّهت النعم والأشياء النافعة بالأموال النفيسة التي تدّخر في الخزائن، ورمز إلى ذلك بذكر ما هو من روادف المشبه به وهو الخزائن.

{ **وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ** } نفي لشبهة قولهم {مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا} ولذلك أعاد معه فعل القول، لأنّه إبطال دعوى أخرى ألصقوها به.

{ **وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً** } أراد إبطال قولهم { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا} [27]، أبطله بطريقة التغليط، بأنّ ضعفهم ليس بحائل بينهم وبين الخير من الله إذ لا ارتباط بين الضعف في الأمور الدنيوية من فقر وبين الحرمان من نوال الكمالات النفسانية والدينية، وأعاد معه فعل القول لأنّه أراد من القول معنى غير المراد منه فيما قيل، فالقول هنا كناية عن الاعتقاد، لأنّ المرء إنّما يقول ما يعتقد، وهي تعريضيّة بالمخاطبين لأنّهم يضمرون ذلك ويقدّرونه.

الازدراء: من الزري وهو الاحتقار وإلصاق العيب، فأصله: ازتراء، قلبت تاء الافتعال دالا بعد الزاي كما قلبت في الازدياد.

{ **أَعْيُنُكُمْ** } إسناد الازدراء إلى الأعين وإنّما هو من أفعال النفس مجاز عقلي، لأنّ الأعين سبب الازدراء غالبا، لأنّ الازدراء ينشأ عن مشاهدة الصفات الحقيرة عند الناظر. نظيره قوله تعالى {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ} [الأعراف: 116] وإنّما سحروا عقولهم ولكن الأعين ترى حركات السحرة فتؤثّر رؤيتها على عقول المبصرين.

{ **لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً** } جيء في النفي بحرف {لَنْ} الدالة على تأكيد نفي الفعل في المستقبل تعريضا بقومه لأنّهم جعلوا ضعف أتباع نوح عليه السلام وفقرهم دليلا على انتفاء الخير عنهم فاقتضى دوام ذلك ما داموا ضعفاء فقراء.

{ **اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ** } تعليل لنفي أن يقول { لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً } . ولذلك فصلت الجملة ولم تعطف. أي أنّ أمرهم موكول إلى ربّهم الذي علم ما أودعه في نفوسهم من الخير والذي وفّقهم إلى الإيمان، أي فهو يعاملهم بما يعلم منهم. واسم التفضيل{ **أَعْلَمُ** } مسلوب المفاضلة، مقصود منه شدّة العلم.

{ **إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ** } تعليل ثان لنفي أن يقول {لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً} . و {إذن} حرف جواب وجزاء مجازاة للقول، أي لو قلت ذلك لكنت من الظالمين، وذلك أنّه يظلمهم بالقضاء عليهم بما لا يعلم من حقيقتهم، ويظلم نفسه باقتحام القول بما لا يصدق.

{ **مِنَ الظَّالِمِينَ** } أبلغ في إثبات الظلم من إني ظالم.

{ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [32] قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [33]

فصلت هذه الجملة فصلا على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات كما تقدّم.

المجادلة: المخاصمة بالقول وإيراد الحجّة عليه، فتكون في الخير كقوله { يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ } [74]، وتكون في الشرّ كقوله { وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ } [البقرة:197]

وهذا قول وقع عقب مجادلته المحكيّة في الآية قبل هذه، فتعيّن أنّ تلك المجادلة كانت آخر مجادلة جادلها قومه، وأنّ ضجرهم وسآمتهم من تكرار مجادلته حصل ساعتئذ فقالوا قولهم هذا. فكانت كلّها مجادلات مضت. وكانت المجادلة الأخيرة هي التي استفزّت امتعاضهم من قوارع جدله حتّى سئموا من تزييف معارضتهم وآرائهم شأن المبطل إذا دمغته الحجّة، ولذلك أرادوا طي بساط الجدال، وأرادوا إفحامه بأن طلبوا تعجيل ما توعّدهم من عذاب ينزل بهم كقوله آنفا {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} [26].

{ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا } خبر مستعمل في التذمّر والتضجير والتأييس من الاقتناع.

{ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }

الإتيان بالشيء: إحضاره. وأرادوا به تعجيله وعدم إنظاره.

{ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ } قصر قلب بناء على ظاهر طلبهم، حملا لكلامهم على ظاهره على طريقة مجاراة الخصم في المناظرة.

{ إِنْ شَاءَ } احتراس راجع إلى حمل العذاب على عذاب الدنيا. ولعلّ نوحا عليه السلام لم يكن له وحي من الله بأنّ يحل بهم عذاب الدنيا، فلذلك فوضه إلى المشيئة.

{ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } يريد أنّ العذاب واقع لا محالة.

{ وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }[34]

عطف على وعظهم بحلول العذاب وتوقّعه بيان حال مجادلته إيّاهم التي امتعضوا منها بأنّها مجادلة لنفعهم وصلاحهم، وفي ذلك تعريض بتحميقهم وتسفيه آرائهم حيث كرهوا ما هو نفع لهم.

النصح: قول أو عمل يريد صاحبه صلاح المعمول لأجله. وأكثر ما يطلق على الأقوال النافعة المنقذة من الأضرار. ويكون بالعمل كقوله تعالى {إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة:91]. وفي الحديث: " الدين النصيحة لله ولرسوله " أي الإخلاص في العمل لهما، لأنّ الله لا ينبّأ بشيء لا يعلمه. وقد تقدّم في قوله { وَنَصَحْتُ لَكُمْ

وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ } [الأعراف [79]. فالمراد بالنصح هنا هو ما سماه قومه بالجدال، أي هو أولى بأن يسمّى نصحا، لأنّ الجدال يكون للخير والشرّ كما تقدّم.

{ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ } التعليق بالشرط مؤذن بعزمه على تجديد النصح في المستقبل لأنّ واجبه هو البلاغ وإن كرهوا ذلك.

{ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ } جملة الشرط، هي المقصود من الكلام، فجوابها في معنى قوله {لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي} ، ولكن نظم الكلام بني على الإخبار بعدم نفع النصح اهتماما بذلك فجعل معطوفا على ما قبله وأتي بالشرط قيدا له. أشار إلى ما هم فيه من كراهية دعوة نوح عليه السلام سببه خذلان الله إيّاهم ولولاه لنفعهم نصحه، ولكن نوحا عليه السلام لا يعلم مراد الله من إغوائهم ولا مدى استمرار غوايتهم فلذلك كان عليه أن ينصح لهم إلى نهاية الأمر.

الإغواء: جعل الشخص ذا غواية، وهي الضلال عن الحقّ والرشد.

{ هُوَ رَبُّكُمْ } ابتدائية لتعليمهم أنّ الله ربّهم إن كانوا لا يؤمنون بوجود الله، أو لتذكيرهم بذلك إن كانوا يؤمنون بوجوده ويشركون معه ودّا، وسواعا، ويغوث، ويعوق، ونسرا.

{ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } التقديم للاهتمام ولرعاية الفاصلة وليس للقصر.

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ } [35]

جملة معترضة بين جملة أجزاء القصّة وليست من القصّة، ومن جعلها منها فقد أبعد، وهي تأكيد لنظيرها السابق في أول السورة. ومناسبة هذا الاعتراض أنّ تفاصيل القصّة التي لا يعلمها المخاطبون تفاصيل عجيبة تدعو المنكرين إلى أن يتذكّروا إنكارهم ويعيدوا ذكره.

وكون ذلك مطابقا لما حصل في زمن نوح عليه السلام وشاهدة به كتب بني إسرائيل يدل على صدق النبيء ﷺ لأنّ علمه بذلك مع أمّيّته وبعد قومه عن أهل الكتاب آية على أنّه وحي من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ } ضمير النصب عائد إلى القرآن المفهوم من السياق. و**{ أَمْ }** للإضراب للانتقال من غرض لغرض. وهو يؤذن باستفهام إنكاري. وموقع الإنكار بديع لتضمّنه الحجّة عليهم.

{ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي } مفصولة عن التي قبلها لوقوعها في سياق المحاورة كما تقدّم غير مرة.

وأُمر النبيء ﷺ أن يعرض عن مجادلتهم بالدليل لأنّهم ليسوا بأهل لذلك، إذ قد أقيمت عليهم الحجّة غير مرة فلم تغن فيهم شيئا، فلذلك أجيبوا بأنّه لو فرض ذلك لكانت تبعة افترائه على نفسه لا ينالهم منها شيء.

وهذا جار على طريقة الاستدراج لهم والكلام المنصف.

الإجرام: اكتساب الجرم وهو الذنب، فهو يقتضي المؤاخذة لا محالة.

{ **وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ** } تذييل للكلام وتأييده بمقابله، أي فإجرامي علي لا عليكم كما أن إجرامكم لا تنالني منه تبعة. ولا حاجة إلى تقدير المضاف في قوله {مِمَّا تُجْرِمُونَ} أي تبعته، وإنّما هو تقدير معنى لا تقدير إعراب، والشيء يؤكّد بضدّه كقوله {لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [الكافرون: 2، 3].

وفي هذه الجملة توجيه بديع، وهو إفادة تبرئة نفسه من أن يفتري القرآن فإنّ افتراء القرآن دعوى باطلة ادّعوها عليه فهي إجرام منهم عليه، فيكون المعنى، وأنا بريء من قولكم الذي تجرمونه علي باطلا.

{ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ }[36]

عطف على { قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا } [32] أي بعد ذلك أوحي إلي نوح - عليه السلام - { أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ }

{ **لَنْ** } تفيد تأبيد النفي في المستقبل، وذلك شديد عليه لذلك عقّب بتسليته.

{ **مَنْ قَدْ آمَنَ** } تأكيد الفعل بـ { قَدْ } للتنصيص على أنّ المراد من حصّل منهم الإيمان يقينا دون الذين تردّدوا.

{ **فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** } الفاء لتفريع التسلية على الخبر المحزن.

الابتئاس، افتعال من البؤس وهو الهم والحزن، أي لا تحزن. ومعنى الافتعال هنا التأثّر بالبؤس الذي أحدثه الخبر المذكور.

{ **بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** } هو إصرارهم على الكفر واعتراضهم عن النظر في الدعوة إلى وقت أن أوحي إليه هذا.

{ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ }[37]

لمّا كان نهيه عن الابتئاس بفعلهم مع شدّة جرمهم مؤذنا بأنّ الله ينتصر له أعقبه بالأمر بصنع الفلك لتهيئة نجاته ونجاة من قد أمن به من العذاب الذي قدّره الله لقومه.

{ **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ** } داخلة في الموحى به، فتدلّ على أنّ الله أوحى إليه كيفيّة صنع الفلك، كما دل عليه قوله {وَوَحْيِنَا} . ولذلك فنوح - عليه السلام - أوّل من صنع الفلك ولم يكن ذلك معروفا للبشر، وكان ذلك منذ قرون لا يحصيها إلّا الله تعالى، ولا يعتدّ بما يوجد في الإسرائيليات من إحصاء قرونها.

الفلك: اسم يستوي فيه المفرد والجمع. وتقدّم عند قوله تعالى { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ }

[البقرة:164].

{ **بِأَعْيُنِنَا** } الباء للملابسة، وهي في موضع الحال من ضمير { **اصْنَعِ** }. والأعين استعارة للمراقبة والملاحظة. وصيغة الجمع في {أَعْيُنِنَا} بمعنى المثنّى. والمراد الكناية بالمعنى المجازي عن لازمه وهو الحفظ من الخلل والخطأ في الصنع.

{ **وَحْيِنَا** } الوحي الذي به وصف كيفيّة صنع الفلك، كما دلّ عليه عطفه على المجرور بباء الملابسة المتعلقة بالأمر بالصنع.

{ **وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا** } دلّ النهي على أنّ كفار قومه سينزل بهم عقاب عظيم، لأنّ المراد بالمخاطبة المنهي عنها المخاطبة التي ترفع عقابهم فتكون لنفعهم كالشفاعة. وطلب تخفيف العقاب لا مطلق المخاطبة. ولعلّ هذا توطئة لنهيه عن مخاطبته في شأن ابنه الكافر قبل أن يخطر ببال نوح عليه السلام سؤال نجاته حتّى يكون الرد عليه حين السؤال ألطف.

{ **إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ** } إخبار بما سيقع وبيان لسبب الأمر بصنع الفلك.

{ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ [38] **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ** } [39].

عبّر عن صنعه بصيغة المضارع لاستحضار الحالة، لتخييل السامع أنّ نوحا عليه السلام بصدد العمل.

{ **وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ** } في موضع الحال من ضمير {يَصْنَعُ }. و{كُلَّمَا} كلمة مركبة من (كل) و(ما) الظرفيّة المصدرية.

{ **قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا** } حكاية لما يجيب به سخريتهم، أجريت على طريقة فعل القول إذا وقع في سياق المحاورة، لأنّ جملة { سَخِرُوا } تتضمن أقوالا تنبني عن سخريّتهم أو تبيّن عن كلام في نفوسهم.

السخرية: الاستهزاء. وهو تعجّب باحتقار واستحماق. وفعلها يتعدّى بـ (من). وتقدّم عند قوله تعالى { فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ } [الأنعام :10].

وسخريتهم منه حمل فعله على العبث بناء على اعتقادهم أن ما يصنعه لا يأتي بتصديق مدّعاه.

{ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ** } وفي إسناد (العلم) إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى أنّ المخاطبين هم الأحق بعلم ذلك. وهذا يفيد أدبا شريفا بأنّ الواثق بأنّه على الحقّ لا يزعزع ثقته مقابلة السفهاء أعماله النافعة بالسخرية.

الخزي: الإهانة، وقد تقدّم عند قوله تعالى { رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ } [آل عمران :192].

حلول العذاب: حصوله، شبّه الحصول بحلول القادم إلى المكان، وهو إطلاق شائع حتّى ساوى الحقيقة.
العذاب المقيم: عذاب الآخرة، أي من يأتيه عذاب الخزي في الحياة الدنيا، والعذاب الخالد في الآخرة.

{ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } [40]

{ حَتَّى } ابتدائية غاية لـ {يَصْنَعُ الْفُلْكَ} أي يصنعه إلى زمن مجيء أمرنا.
{ أَمْرُنَا } هنا يحتمل أمر التكوين بالطوفان، ويحتمل الشأن وهو حادث الغرق، وإضافته إلى اسم الجلالة لتهويله بأنّه فوق ما يعرفون. و**مجيء الأمر**، حصوله.
{ وَفَارَ التَّنُّورُ }
الفوران: غليان القدر، ويطلق على نبع الماء بشدة، تشبيها بفوران ماء في القدر إذا غلي، وحملوه على ما جاء في آيات أخرى من قصة نوح عليه السلام مثل قوله {وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً} [القمر: 12]. ولذلك لم يتّضح لهم إسناده إلى التنور. فإنّ **التنّور** هو الموقد الذي ينضج فيه الخبز.
فمن المفسّرين من أبقى التنّور على حقيقته، فجعل الفوران خروج الماء من أحد التنانير وأنّه علامة جعلها الله لنوح عليه السلام إذ فار الماء من تنوره علم أنّ ذلك مبدأ الطوفان فركب الفلك وأركب من معه.
ومنهم من حمل التنّور على المجاز المفرد ففسره بسطح الأرض. أي فار الماء من جميع الأرض حتى صار بسطح الأرض كفوهة التنور.
ومنهم من حمل {فَارَ} و {التَّنُّورُ} على الحقيقة، وأخرج الكلام مخرج التمثيل لاشتداد الحال، كما يقال: حمي الوطيس. وقع حكاية ذلك في تفسير ابن عطيّة في هذه الآية وفي الكشّاف في تفسير سورة المؤمنون.
وهذا أحسن ما حكي عن المفسرين. فالقول مثلٌ لبلوغ الشيء إلى أقصى ما يتحمّل مثله. كما يقال: بلغ السيل الزُبى، وامتلأ الصاع، وفاضت الكأس وتفاقم.
الزوج: شيء يكون ثانيا لآخر في حالة. وأصله اسم لما ينضمّ إلى فرد فيصير زوجا له، وكلّ منهما زوج للآخر. والمراد بـ { زَوْجَيْنِ } هنا الذكر والأنثى من النوع. و{ اثْنَيْنِ } أي لا تزد على اثنين.
{ وَأَهْلَكَ } أهل الرجل قرابته وأهل بيته وهو اسم جمع لا واحد له. وزوجه أوّل من يبادر من اللفظ، ويطلق لفظ الأهل على امرأة الرجل قال تعالى { فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ } [القصص: 29].
{ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ } أي من مضى قول الله عليه، أي وعيده. يعني إلّا من كان من أهلك كافرا. وما صدق هذا إحدى امرأتيه المذكورة في سورة التحريم وابنه منها المذكور في آخر هذه القصة.

وكان لنوح -عليه السلام - امرأتان.

{ مَنْ آمَنَ } كل المؤمنين.

{ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } اعتراض لتكميل الفائدة من القصّة في قلة الصالحين. قيل: كان جميع المؤمنين به من أهله وغيرهم نيفا وسبعين بين رجال ونساء، فكان معظم حمولة السفينة من الحيوان.

{ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [41]

{ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا } وعدي الفعل بـ (في) جريا على الفصيح، لأنّ إطلاق الركوب عليه مجاز، وإنّما هو جلوس واستقرار، فلا يقال: ركب السفينة. فأرادوا التفرقة بين الركوب الحقيقي والركوب المشابه له.

{ بِسْمِ اللَّهِ } الباء للملابسة، أي قائلين: باسم الله.

{ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا } بضم الميمين فيهما في قراءة الجمهور، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف { مَجراها } فقط بفتح الميم. وهما مصدرا **أجرى السفينة** إذا جعلها جارية، أي **سيّرها بسرعة، وأرساها** إذا جعلها راسية أي **واقفة على الشاطئ**. يقال: رسا إذا ثبت في المكان.

ويجوز أن يكون {مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} في محل نصب بالنيابة عن ظرف الزمان، أي وقت إجرائها ووقت إرسائها.

{ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } تعليل للأمر بالركوب، ففي التعليل بالمغفرة والرحمة رمز إلى أنّ الله وعده بنجاتهم، وذلك من غفرانه ورحمته. وأكد بـ { إنَّ } ولام الابتداء تحقيقا لأتباعه بأن الله منجيهم.

{ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ [42] قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ } [43]

{ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ }

جملة معترضة دعا إلى اعتراضها هنا ذكر { مجراها } إتماما للفائدة، وصفا لعظم اليوم وعجيب صنع الله تعالى في تيسير نجاتهم. وعدل عن الفعل الماضي إلى المضارع لاستحضار الحالة.

الموج: ما يرتفع من الماء على سطحه عند اضطرابه، وتشبيهه بالجبال في ضخامته. وذلك إمّا لكثرة الرياح التي تعلو الماء وإما لدفع دفقات الماء الواردة من السيول والتقاء الأودية الماءَ السابقَ لها، فإن حادث الطوفان ما كان إلّا عن مثل زلازل تفجرت بها مياه الأرض وأمطار جمّة تلتقي سيولها مع مياه العيون

فتختلط وتجتمع وتصب في الماء الذي كان قبلها حتى عم الماء جميع الأرض التي أراد الله إغراق أهلها، كما سيأتي.

{ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ } عطفت على { وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا } لأنّ نداءه ابنه كان قبل جريان السفينة في موج كالجبال، إذ يتعذّر إيقافها بعد جريها، لأنّ الراكبين كلّهم كانوا مستقرين في جوف السفينة.

وابن نوح هذا هو ابن رابع من زوج ثانية لنوح كان اسمها (وَاعلة) غرقت، وأنّها المذكورة في آخر سورة التحريم. قيل كان اسم ابنه (ياما) وقيل اسمه (كنعان) وهو غير كنعان بن حام جدّ الكنعانيين. وقد أهملت التوراة الموجودة الآن ذكر هذا الابن وقضية غرقه وهل كان ذا زوجة أو كان عزبا.

{ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ } حال من { ابْنَهُ } .

المعزل: مكان العزلة أي الانفراد، أي في معزل عن المؤمنين إمّا لأنّه كان لم يؤمن بنوح - عليه السلام - فلم يصدّق بوقوع الطوفان، وإمّا لأنّه ارتدّ فأنكر وقوع الطوفان، فكفر بذلك لتكذيبه الرسول.

{ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا } بيان لجملة { نَادَى }، وهي إرشاد له ورفق به. و**{ بُنَيَّ }** تصغير (ابن) مضافا إلى ياء المتكلّم. وتصغيره هنا تصغير شفقة بحيث يجعل كالصغير في كونه محل الرحمة والشفقة.

{ وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ } فهي معطوفة لإعلامه بأنّ إعراضه عن الركوب يجعله في صف الكفّار، إذ لا يكون إعراضه عن الركوب إلّا أثرا لتكذيبه بوقوع الطوفان.

{ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ } هذا القول كان قبل أن يبلغ الماء أعالي الجبال.

{ آوِي } : أنزل، ومصدره: الأُوِيّ (بضم الهمزة وكسر الواو وتشديد الياء).

{ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ } أي جبل عال.

{ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } وهو الطوفان.

{ إِلَّا مَنْ رَحِمَ } أي من قدّر الله له النجاة من الغرق برحمته.

{ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ } وحيلولة الموج بينهما في آخر المحاورة يشير إلى سرعة فيضان الماء في حين المحاولة.

{ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ } أفاد أنّه غرق وغرق معه من توعّده بالغرق، فهو إيجاز بديع.

{ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } .[44]

{ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي } والقول هنا أمر التكوين. وخطاب الأرض والسماء بطريقة النداء وبالأمر استعارة لتعلّق أمر التكوين بكيفيّات أفعال في ذاتيهما وانفعالهما بذلك، كما يخاطب العاقل بعمل يعمله فيقبله امتثالا وخشية. فالاستعارة هنا في حرف النداء وهي تبعية.

البلع: حقيقته اجتياز الطعام والشراب إلى الحلق. وهو هنا استعارة لإدخال الشيء في باطن شيء بسرعة، ومعنى: بلع الأرض ماءها دخوله في باطنها بسرعة كسرعة ازدراد البالع بحيث لم يكن جفاف الأرض بحرارة شمس أو رياح بل كان بعمل أرضي عاجل، وقد يكون ذلك بإحداث الله زلازل وخسفا انشقت به طبقة الأرض في مواضع كثيرة حتى غارت المياه التي كانت على سطح الأرض.

إقلاع السماء، مستعار لكف نزول المطر منها لأنّه إذا كف نزول المطر لم يخلف الماء الذي غار في الأرض، ولذلك قدم الأمر بالبلع لأنّه السبب الأعظم لغيض الماء.

وفي قران الأرض والسماء محسن الطباق، وفي مقابلة **{ ابْلَعِي }** بـ **{ أَقْلِعِي }** محسن الجناس.

{ وَغِيضَ الْمَاءُ } مغن عن التعرّض إلى كون السماء أقلعت والأرض بلعت، وبني فعل {غِيضَ الْمَاءُ} للنائب لمثل ما بني فعل {وَقِيلَ} باعتبار سبب الغيض، أو لأنّه لا فاعل له حقيقة لأنّ حصوله مسبّب عن سبب.

الغيض: نضوبه في الأرض. والمراد: الماء الذي نشأ بالطوفان زائدا على بحار الأرض وأوديتها.

{ وَقُضِيَ الْأَمْرُ } إتمامه. وبناء الفعل للنائب للعلم بأنّ فاعله ليس غير الله تعالى.

الاستواء: الاستقرار.

الجودي: اسم جبل بين العراق وأرمينا، يقال له اليوم أراراط .

{ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }

{ بُعْداً **}** مصدر (بَعُدَ) على مثال كرُم وفرح، منصوب على المفعولية المطلقة. وهو نائب عن الفعل كما هو الاستعمال في مقام الدعاء ونحوه، كالمدح والذم مثل: تبا له، وسحقا، وسقيا، ورعيا، وشكرا. وهو كناية عن التحقير بلازم كراهية الشيء.

القوم الظالمون: هم الذين كفروا فغرقوا. والقائل قد يكون من قول الله، ويجوز أن يقوله المؤمنون.

{ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ [45] قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ [46] قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [47].

يجوز أن يكون دعاء نوح - عليه السلام - هذا وقع قبل غرق النّاس، أي نادى ربّه أن ينجّي ابنه من الغرق. ويجوز أن يكون بعد غرق من غرقوا، أي نادى ربه أن يغفر لابنه وأن لا يعامله معاملة الكافرين في الآخرة.

{ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ } النداء هنا نداء دعاء فكأنه قيل: ودعا نوح ربه، لأنّ الدعاء يصدر بالنداء غالبا، والتعبير عن الجلالة بوصف الرب مضافا إلى نوح - عليه السلام - تشريف لنوح وإيماء إلى رأفة الله به وأن نهيه الوارد بعده نهي عتاب.

{ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي } بيان للنداء، ومقتضى الظاهر أن لا تعطف بفاء التفريع. وهو خبر مستعمل في الاعتذار والتمهيد لأنّه يريد أن يسأل سؤالا لا يدري قبوله ولكنّه اقتحمه لأنّ المسؤول له من أهله فله عذر الشفقة عليه. وتأكيد الخبر بـ { إنَّ } للاهتمام به.

{ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ } خبر مستعمل في لازم الفائدة. وهو أنّه يعلم أن وعد الله حق. والمراد بالوعد ما في قوله تعالى { إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ } [المؤمنون: 27] إذ أفاد ذلك أن بعض أهله قد سبق من الله تقدير بأنه لا يركب السفينة.

فالمعنى: أنّ نوحا - عليه السلام - لا يجهل أنّ ابنه كافر، ولذلك فسؤال المغفرة له عن علم بأنّه كافر، ولكنّه يطمع لعل الله أن يعفو عنه لأجل قرابته به، فسؤاله له المغفرة بمنزلة الشفاعة له عند الله تعالى، وذلك أخذ بأقصى دواعي الشفقة والرحمة بابنه.

{ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ } أشدّهم حكما. يفيد أنّه لا راد لما حكم به وقضاه، وأنّه لا دالة عليه لأحد من خلقه، ولكنّه مقام تضرّع وسؤال ما ليس بمحال. فكان حال نوح عليه السلام كحال النبيء ﷺ حين قال لأبي طالب لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، قبل أن ينزل قوله تعالى {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} [التوبة: 113].

{ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } نفي أن يكون من أهل دينه واعتقاده، فليس ذلك إبطالا لقول نوح - عليه السلام - {إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي} ولكنه إعلام بأنّ قرابة الدين بالنسبة لأهل الإيمان هي القرابة.

{ **إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** } تعليل لمضمون جملة {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} فـ (إنّ) فيه لمجرّد الاهتمام.

{ **عَمَلٌ** } في قراءة الجمهور (بفتح الميم وتنوين اللام) مصدر أخبر به للمبالغة وبرفع { **غَيْرُ** } على أنّه صفة (عمل). وقرأه الكسائي، ويعقوب { **عَمِلَ** } (بكسر الميم) بصيغة الماضي وبنصب { **غَيْرَ** } على المفعولية لفعل (عمل). ومعنى العمل غير الصالح **الكفر**، وأطلق على الكفر عمل لأنّه عمل القلب، ولأنّه يظهر أثره في عمل صاحبه كامتناع ابن نوح من الركوب الدّال على تكذيبه بوعيد الطوفان.

{ **فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** } نهي عتاب، لأنّه لما قيل له { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } بسبب تعليله بأنه عمل غير صالح، سقط ما مهّد به إجابة سؤاله، فكان حقيقا بأن لا يسأله وأن يتدبر ما أراد أن يسأله من الله.

{ **إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** } موعظة على ترك التثبّت قبل الإقدام.

{ **قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ** } أجاب نوح عليه السلام كلام ربّه بما يدل على التنصّل مما سأل، فاستعاذ أن يسأل ما ليس له به علم.

{ **وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } طلب المغفرة ابتداء لأنّ التخلية مقدّمة على التحلية، ثمّ أعقبها بطلب الرحمة لأنّه إذا كان بمحل الرضى من الله كان أهلا للرحمة.

{ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ }[48]

فصلت الجملة ولم تعطف لوقوعها في سياق المحاورة بين نوح - عليه السلام - وربّه، فإنّ نوحا عليه السلام لما أجاب بقوله { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ } [47] إلى آخره خاطبه ربه إتماما للمحاورة بما يسكّن جأشه.

{ **يَا نُوحُ** } النداء للتنويه به بين الملأ.

الهبوط: النزول. وتقدّم في قوله {اهْبِطُوا مِصْراً} [البقرة:61]. والمراد، النزول من السفينة لأنّها كانت أعلى من الأرض.

{ **اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ** } الباء للمصاحبة، أي اهبط مصحوبا بسلام منّا. ومصاحبة السلام الذي هو التحية مصاحبة مجازية. وخطابه بالسلام حينئذ إيماء إلى أنّه كان في ضيافة الله تعالى، لأنّه كان كافلا له النجاة.

وأصل السلام السلامة، فاستعمل عند اللقاء إيذانا بتأمين المرء ملاقيه وأنّه لا يضمر له سوءا، ثم شاع فصار قولا عند اللقاء للإكرام، ولذلك نهى النبيء ﷺ الذين قالوا: السلام على الله.

{ **مِنَّا** } تأكيد لتوجيه السلام إليه لأنّ (من) ابتدائية، كقوله {سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} [يس: 58]. وذلك كثير

في كلامهم. وهذا التأكيد يراد به زيادة الصلة والإكرام.

البركات: الخيرات النامية، واحدتها بركة، وهي من كلمات التحيّة مستعملة في الدعاء.

وصدور هذا الدعاء من لدنه، سبحانه، قائم مقام إجابة الدعاء فهو إفاضة بركات على نوح - عليه السلام - ومن معه، فحصل بذلك تكريمهم وتأمينهم والإنعام عليهم.

{ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ }

الأمم: جمع أمّة. وهي الجماعة الكثيرة من النّاس التي يجمعها نسب **إلى جدّ** واحد. يقال: أمّة العرب، **أو لغة** مثل أمّة الترك، **أو موطن** مثل أمة أمريكا، **أو دين** مثل الأمّة الإسلامية.

وليس الذين ركبوا في السفينة أمما لقلة عددهم لقوله {وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} [40].

{ مِمَّنْ مَعَكَ } صادقة على الذين ركبوا مع نوح - عليه السلام - في السفينة. ومنهم ابناؤه الثلاثة. فالكلام بشارة لنوح - عليه السلام - ومن معه بأن الله يجعل منهم أمما كثيرة يكونون محل كرامته وبركاته. وفيه إيذان بأن يجعل منهم أمما بخلاف ذلك، ولذلك عطف على هذه الجملة قوله {وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

{ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } استئناف بياني لأنّها تبيين لما أفاده التنكير في قوله {وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ} من الاحتراز عن أمم آخرين. والمقصود: تحذير قوم نوح من اتباع سبيل الذين أغرقوا.

والمقصود من حكاية ذلك في القرآن التعريض بالمشركين من العرب فإنّهم من ذرّيّة نوح ولم يتّبعوا سبيل جدّهم، فأشعروا بأنّهم من الأمم التي أنبأ الله نوحا بأنّه سيمتّعهم ثم يمسّهم عذاب أليم.

{ يَمَسُّهُمْ } إطلاق المسّ على الإصابة القوية تقدّم عند قوله تعالى {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ} [الأنعام:17]. و{يَمَسُّهُمْ مِنَّا } لمقابلة قوله في ضدّه {بِسَلامٍ مِنَّا} ليعلموا أن ما يصيب الأمّة من الأحوال الزائدة على المعتاد في الخير والشرّ هو إعلام من الله بالرضى أو الغضب، لئلا يحسبوا ذلك من سنة ترتّب المسبّبات العادية على أسبابها، إذ من حقّ النّاس أن يتبصّروا في الحوادث ويتوسّموا في جريان أحوالهم على مراد الله تعالى منهم، ويعلموا أنّ الله يخاطبهم بدلالة الكائنات عند انقطاع خطابه إيّاهم على ألسنة الرسل، فإنّ الرّسل يبيّنون لهم طرق الدلالة ويكلون إليهم النظر في وضع المدلولات عند دلالاتها.

{ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } [49]

استئناف أريد منه الامتنان على النبيء ﷺ والموعظة والتسلية. فالامتنان من قوله { مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا }، والموعظة من قوله { فَاصْبِرْ }، والتسلية من قوله { إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ }.

{ **تِلْكَ** } إشارة إلى ما تقدّم من قصّة نوح عليه السلام.

أنباء الغيب : الأخبار المغيّبة عن النّاس أو عن فريق منهم. فهذه الأنباء مغيّبة بالنسبة إلى العرب كلّهم لعدم علمهم بأكثر من مجملاتها.

{ **مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا** } ، فإنّهم لم ينكروا ذلك ولم يدّعوا علمه. على أنّ فيها ما هو غيب بالنسبة إلى جميع الأمم مثل قصة ابن نوح الرابع وعصيانه أباه وإصابته بالغرق، ومثل كلام الرب مع نوح - عليه السلام - عند هبوطه من السفينة، ومثل سخرية قومه به وهو يصنع الفلك، وما دار بين نوح - عليه السلام - وقومه من المحاورة، فإن ذلك كلّه ممّا لم يذكر في كتب أهل الكتاب.

{ **مِنْ قَبْلِ هَذَا** } الإشارة إمّا إلى القرآن، وإمّا إلى الوقت باعتبار ما في هذه القصة من الزيادة على ما ذكر في أمثالها مما تقدّم نزوله عليها.

{ **فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** } ووجه تفريع أمر الرسول بالصبر على هذه القصّة أنّ فيها قياس حاله مع قومه على حال نوح عليه السلام مع قومه، فكما صبر نوح - عليه السلام - فكانت العاقبة له، كذلك تكون العاقبة لك على قومك. أي اصبر لأنّ داعي الصبر قائم وهو أنّ العاقبة الحسنة تكون للمتقين.

العاقبة: الحالة التي تعقب حالة أخرى. وقد شاعت عند الإطلاق في حالة الخير.

{ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ [52] يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ [51] وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}[52].

ووصف هود بأنّه أخو عاد لأنّه كان من نسبهم. وتقدّم ذكر عاد وهود في سورة الأعراف.

{ **قَالَ يَا قَوْمِ** } افتتاح دعوته بنداء قومه لاسترعاء أسماعهم إشارة إلى أهمية ما سيلقى إليهم.

{ **مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } حال من ضمير {اعْبُدُوا} أو من اسم الجلالة. والحال لاستقصاد إبطال شركهم بأنّهم أشركوا غيره في عبادته في حال أنّهم لا إله لهم غيره، أو في حال أنّه لا إله لهم غيره. وذلك تشنيع للشرك.

{ **إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ** } توبيخ وإنكار. أي ما أنتم إلّا كاذبون في ادعاء إلهيّة غير الله تعالى.

{ **يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً** } النداء في أثناء الكلام تكرير للأهمية، يقصد به تهويل الأمر واسترعاء السمع اهتماما بما يستسمعونه. وإن كانت مقولة في وقت آخر، فكونها ابتداء كلام ظاهر.

{ **لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً** } تقدّم في قصة نوح عليه السلام، أي لا أسألكم أجرا على ما قلته لكم.

{ **الَّذِي فَطَرَنِي** } التعبير بالموصول دون الاسم العلم لزيادة تحقيق أنّه لا يسألهم على الإرشاد أجرا، بأنّه يعلم أن الذي خلقه يسوق إليه رزقه.

{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } فاء التفريع عاطفة استفهاما إنكاريا عن عدم تعقّلهم، أي تأمّلهم في دلالة حاله على صدقه فيما يبلّغ، ونصحه لهم فيما يأمرهم. والعقل: العلم.

{ **وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ** }

الاستغفار: طلب المغفرة للذنب، وهو هنا مكنى به عن ترك عقيدة الشرك.

التوبة: الإقلاع عن الذنب في المستقبل والندم على ما سلف منه. وفي ماهية التوبة العزم على عدم العود إلى الذنب، فيؤول إلى الأمر بالدوام على التوحيد ونفي الإشراك.

{ **يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً** }

الإرسال: بعث من مكان بعيد، فأطلق الإرسال على نزول المطر لأنّه حاصل بتقدير الله فشبّه بإرسال شيء من مكان المرسل إلى المبعوث إليه.

السماء: من أسماء المطر تسمية للشيء باسم مصدره. وفي الحديث " خطبنا رسول الله ﷺ على أثر سماء".

{ **مِدْرَاراً** } حال من السماء صيغة مبالغة من الدرور وهو الصبّ، أي **غزيرا**.

جعل جزاءهم على الاستغفار والتوبة إمدادهم بالمطر لأنّ ذلك من أعظم النعم عليهم في الدنيا إذ كانت عاد أهل زرع وكروم فكانوا بحاجة إلى الماء، وكانوا يجعلون السداد لخزن الماء. والأظهر أن الله أمسك عنهم المطر سنين فتناقص نسلهم ورزقهم جزاء على الشرك بعد أن أرسل إليهم هودا - عليه السلام -. فيكون الكلام وعدا وتنبيها على غضب الله عليهم، وقد كانت ديارهم من حضرموت إلى الأحقاف.

{ **وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ** } وكانوا أيضا معجبين بقوة أمّتهم وقالوا {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [فصلت: 15] فلذلك جعل الله لهم جزاء على ترك الشرك زيادة قوّتهم بكثرة العدد وصحة الأجسام وسعة الأرزاق.

{ **وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ** } تحذيرا من الرجوع إلى الشرك. و**التولّي**: الانصراف. وهو هنا مجاز عن الإعراض.

{ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ [53] إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ [54] مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ [55] إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }[56]

{ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ } محاورة منهم لهود - عليه السلام - بجواب عن دعوته، ولذلك جردت الجملة عن العاطف. وافتتاح كلامهم بالنداء يشير إلى الاهتمام بما سيقولونه، وأنّه جدير بأن يتنبّه له لأنّهم نزّلوه منزلة البعيد لغفلته فنادوه، فهو مستعمل في معناه الكنائي أيضا. وقد يكون مرادا منه مع ذلك توبيخه ولومه فيكون كناية ثانية، أو استعمال النداء في حقيقته ومجازه.

{ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ } بهتان لأنّه أتاهم بمعجزات لقوله تعالى {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ} [59] وإن كان القرآن لم يذكر آية معينة لهود عليه السلام. ولعلّ آيته أنّه وعدهم عند بعثته بوفرة الأرزاق والأولاد واطراد الخصب وفرة مطردة لا تنالهم في خلالها نكبة ولا مصيبة بحيث كانت خارقة لعادة النعمة في الأمم.

وفي الحديث الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال: " ما من الأنبياء نبي إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر". أو أرادوا أن البيّنات التي جاءهم بها هود عليه السلام لم تكن طبقا لمقترحاتهم.

{ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ } استئناف بياني، أي نقول إنّك ممسوس من بعض آلهتنا.

الاعتراء: النزول والإصابة. والباء للملابسة، أي أصابك بسوء. ولا شكّ أنّهم يعنون أنّ آلهتهم أصابته بمس.

{ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ }

لما جاءوا في كلامهم برفض ما دعاهم إليه وبجحد آياته وبتصميمهم على ملازمة عبادة أصنامهم وبالتنويه بتصرّف آلهتهم أجابهم هود عليه السلام بأنّه يُشهد الله عليهم أنّه أبلغهم وأنّهم كابروا وجحدوا آياته.

ثم حمّلهم شهادة له بأنّه بريء من شركائهم، مبادرة بإنكار المنكر.

{ مِمَّا تُشْرِكُونَ } الأصنام

{ فَكِيدُونِي جَمِيعاً } فرّع على البراءة، فأمر قومه بأن يكيدوه، وجعل الخطاب لقومه لئلا يكون خطابه لما لا يعقل ولا يسمع، وأدخل في ضمير الكائدين أصنامهم مجاراة لاعتقادهم واستقصاء لتعجيزهم، أي أنتم وأصنامكم.

{ ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ } للتراخي الرتبي. تحدّاهم بأن يكيدوه ثم ارتقى في رتبة التعجيز والاحتقار فنهاهم عن التأخير بكيدهم إيّاه، وذلك نهاية الاستخفاف بأصنامهم وبهم وكناية عن كونهم لا يصلون إلى ذلك.

{ **إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ** } تعليل لمضمون {فَكِيدُونِي} وهو التعجيز والاحتقار. يعني: أنّه واثق بعجزهم عن كيده لأنّه متوكل على الله.

{ **مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** } في محل صفة لاسم الجلالة، أو حال منه، والغرض منها مثل الغرض من صفة الربوبية.

الأخذ: الإمساك. و**الناصية**: ما انسدل على الجبهة من شعر الرأس. والأخذ بالناصية هنا تمثيل للتمكّن، تشبيها بهيئة إمساك الإنسان من ناصيته حيث يكون رأسه بيد آخذه فلا يستطيع انفلاتا.

{ **إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } تعليل لجملة { إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ}، أي توكلت عليه لأنه أهل لتوكلي عليه، لأنّه متّصف بإجراء أفعاله على طريق العدل والتأييد لرسله.

الصراط المستقيم، مستعار للفعل الجاري على مقتضى العدل والحكمة لأنّ العدل يشبه بالاستقامة والسواء.

{ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ } [57]

تفريع على جملة { إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ } [54]. وما بينهما اعتراض أوجبه قصد المبادرة بإبطال باطلهم، لأنّ مضمون هذه الجملة تفصيل لمضمون جملة { إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ } بناء على أنّ هذا من كلام هود عليه السلام .

{ **تَوَلَّوْا** } أصلها (تتولّوا) فحذفت إحدى التاءين اختصارا، فهو مضارع، وهو خطاب هود عليه السلام لقومه، وهو ظاهر إجراء الضمائر على وتيرة واحدة.

التولّي: الإعراض. وتقدّم في قوله تعالى { وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً } [النساء:80].

{ **فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ** } جواب شرط التولّي، مع أنّ الإبلاغ سابق على التولّي المجعول شرطا، لأنّ المقصود بهذا الجواب هو لازم ذلك الإبلاغ، وهو انتفاء تبعة تولّيهم عنه وبراءته من جرمهم لأنّه أدى ما وجب عليه من الإبلاغ. كناية عن الإنذار بتبعة التولّي عليهم ونزول العقاب بهم.

{ **وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ** } أي يزيلكم ويخلفكم بقوم آخرين لا يتولّون عن رسولهم، وهذا كقوله تعالى {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: 38].

{يَسْتَخْلِفُ} بالارتفاع في قراءة الكافة لأنّه معطوف على الجواب مجاز فيه الرفع والجزم. وإنّما كان **الرفع هنا أرجح** لإعطاء الفعل حكم الكلام المستأنف ليكون مقصودا بذاته لا تبعا للجواب، فبذلك يكون مقصودا به إخبارهم لإنذارهم بالاستئصال.

{ **وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً** } كذلك بالارتفاع للمقصد ذاته. والمراد لا تضرّون الله بتولّيكم شيئا.

{ **شَيْئاً** } مصدر مؤكّد لفعل {تَضُرُّونَهُ} المنفي. وتنكيره للتقليل، كما هو شأن تنكير لفظ الشيء غالبا. والمقصود من التأكيد التنصيص على العموم بنفي الضرّ لأنّه نكرة في حيّز النفي، أي فالله يلحق بكم الاستئصال، وهو أعظم الضرّ، ولا تضرّونه أقلّ ضرّ.

{ **إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ** } تعليل .فموقع { إنَّ } فيها موقع فاء التفريع.

الحفيظ: أصله مبالغة الحافظ، وهو هنا كناية عن القدرة والقهر.

{ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } [58]

{ **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا** } استعمال الماضي بمعنى اقتراب المجيء، لأنّ الإنجاء كان قبل حلول العذاب.

{ **أَمْرُنَا** } أطلق على أثر الأمر، وهو ما أمر الله به أمر تكوين، وهو العذاب، أي الريح العظيم..

{ **نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** } وكيفيّة إنجاء هود - عليه السلام - ومن معه تقدّم في [الأعراف:72].

{ **بِرَحْمَةٍ مِنَّا** } الباء للسببية، فكانت رحمة الله بهم سببا في نجاتهم.

{ **وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ** } أي نجّيناهم من عذاب الدنيا برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ في الآخرة. واستعمل الماضي في { وَنَجَّيْنَاهُمْ } في معنى المستقبل لتحقّق الوعد بوقوعه.

الغليظ: حقيقته الخشن ضدّ الرقيق، وهو مستعار للشديد.

{ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ [59] **وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ** }[60].

{ **وَتِلْكَ** } الإشارة إلى حاضر في الذهن بسبب ما أجري عليه من الحديث حتّى صار كأنّه حاضر في الحس والمشاهدة. وهو أيضا للتنبيه على أنّهم جديرون بما يأتي بعد اسم الإشارة من الخبر لأجل تلك الأوصاف المتقدّمة. وتأنيث اسم الإشارة بتأويل الأمة. و{ **عَادٌ** } بيان من اسم الإشارة.

{ **جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ** } خبر عن اسم الإشارة. وهو وما بعده تمهيد لزيادة تسجيل التمهيد بالأجرام السابقة، وهو الذي اقتضاه اسم الإشارة كما تقدم، لأن جميع ذلك من أسباب جمع العذابين لهم.

الجحد: الإنكار الشديد، مثل إنكار الواقعات والمشاهدات. وهذا يدلّ على أنّ هودا أتاهم بآيات فأنكروا دلالتها.

{ **وَعَصَوْا رُسُلَهُ** }، وإنما عصوا رسولا واحدا، وهو هود عليه السلام، لأنّ المراد ذكر إجرامهم، فناسب أن يناط الجرم بعصيان جنس الرّسل، لأنّ تكذيبهم هودا لم يكن خاصا بشخصه لأنهم قالوا له {وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ} ، فكل رسول جاء بأمر ترك عبادة الأصنام فهم مكذّبون به. ومثله قوله تعالى {كَذَّبَتْ عَادٌ

الْمُرْسَلِينَ } [الشعراء: 123].

{ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ }

اتّباع الآمر: طاعة ما يأمرهم به، فالاتّباع تمثيل للعمل بما يملى على المتبع.

الجبّار: المتكبّر. و**العنيد**: مبالغة في المعاندة. فدلّ اتباعهم أمر الجبابرة المعاندين على أنّهم أطاعوا دعاة الكفر والضلال والظلم.

{ **كُلِّ** } من صيغ العموم، فإن أريد كل جبار عنيد من قومهم فالعموم حقيقي، وإن أريد جنس الجبابرة فمستعملة في الكثرة. منه قوله تعالى { يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ } [الحج:27].

{ **وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ** } مستعار لإصابتها إياهم إصابة عاجلة دون تأخير كما يتبع الماشي بمن يلحقه. ومما يزيد هذه الاستعارة حسنا ما فيها من المشاكلة ومن مماثلة العقاب للجرم، لأنّهم اتّبعوا الملعونين فأتبعوا باللعنة.

{ **أُتْبِعُوا** } بني للمجهول إذ لا غرض في بيان الفاعل، ليدل على أنّ إتّباعها لهم كان بأمر فاعل للإشعار بأنها تبعتهم عقابا من الله لا مجرد مصادفة.

اللعنة: الطرد بإهانة وتحقير.

{ **أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ** } مستأنفة ابتدائية افتتحت بحرف التنبيه لتهويل الخبر ومؤكدة بحرف {إن} لإفادة التعليل، تعريضا بالمشركين ليعتبروا بما أصاب عادا.

{ **أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ** } ابتدائية لإنشاء ذم لهم. وفائدة ذكر{ قَوْمِ هُودٍ } الإيماء إلى أنّ له أثرا في الذمّ بإعراضهم عن طاعة رسولهم، فيكون تعريضا بالمشركين من العرب.

{ بُعْداً } تقدم الكلام حولها في قصة نوح - عليه السلام - { وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [44].

{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ }[61]

ذكر ثمود وصالح - عليه السلام - تقدّم في سورة الأعراف. وثمود اسم جدّ سميت به القبيلة، فلذلك منع من الصرف بتأويل القبيلة.

{ **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ** } في موضع التعليل للأمر بعبادة الله ونفي إلهيّة غيره، وكأنّهم كانوا مثل مشركي قريش لا يدعون لأصنامهم خلقا ولا رزقا، فلذلك كانت الحجّة عليهم ناهضة واضحة.

الإنشاء: الإيجاد والإحداث، وتقدّم في قوله تعالى {وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ} [الأنعام:6].

والإنشاء من الأرض، خلق آدم، وإنّما ذكر تعلّق خلقهم بالأرض لأنّهم كانوا أهل غرس وزرع. كما في قوله { أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ } [الشعراء:146 - 148]، ولأنّهم كانوا ينحتون من جبال الأرض بيوتا ويبنون في الأرض قصورا، كما في قوله { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً} [الأعراف: 74]. فكانت لهم منافع من الأرض تناسب نعمة إنشائهم من الأرض. ولذلك عطف عليه { وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا }.

الاستعمار: الإعمار، أي جعلكم عامرينها، فالسين والتاء للمبالغة. ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع.

{ **فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ** } فرّع على التذكير بهذه النعم أمرهم باستغفاره والتوبة إليه، أي طلب مغفرة إجرامهم، والإقلاع عمّا لا يرضاه من الشرك والفساد. ومن تفنّن الأسلوب أن جعلت هذه النعم علّة لأمرهم بعبادة الله وحده بطريق جملة التعليل، وجعلت علّة أيضا للأمر بالاستغفار والتوبة بطريق التفريع.

{ **إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ** } استئناف بياني كأنّهم استعظموا أن يكون جرمهم ممّا يقبل الاستغفار عنه، فأجيبوا بأنّ الله قريب مجيب، وبذلك ظهر أنّ الجملة ليست بتعليل.

القرب: هنا مستعار للرأفة والإكرام، لأنّ البعد يستعار للجفاء والإعراض.

المجيب هنا: مجيب الدعاء، وهو الاستغفار. وإجابة الدعاء: إعطاء السائل مسؤوله.

{ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } [62]

هذا جوابهم عن دعوته البليغة الوجيزة الملأى إرشادا وهديا. وهو جواب ملئ بالضلال والمكابرة وضعف الحجة.

{ **يَا صَالِحُ** } افتتاح الكلام بالنداء لقصد التوبيخ أو الملام والتنبيه، كما تقدّم في قوله {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ} [53]. وقرينة التوبيخ هنا أظهر، وهي قولهم {قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا} فإنه تعريض بخيبة رجائهم فيه فهو تعنيف.

{ **قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا** }

الرجاء: ترقّب الخير، أي مرجوا للخير. و{قَدْ} لتأكيد الخبر. أي والآن وقع اليأس من خيرك. وهذا يفهم منه أنهم يعدون ما دعاهم إليه شرّا، وإنما خاطبوه بمثل هذا لأنّه بعث فيهم وهو شاب، وكان مرجوا لخصال السيادة وحماية العشيرة ونصرة آلهتهم. كذا قال البغوي في تفسير سورة الأعراف.

{ **أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** } الاستفهام للإنكار والتوبيخ. وعبّروا عن أصنامهم بالموصول لما في الصلة من الدلالة على استحقاق تلك الأصنام أن يعبدوها في زعمهم اقتداء بآبائهم لأنّهم أسوة لهم، وذلك مما يزيد الإنكار اتجاها في اعتقادهم.

{ **وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** } فبعد أن ذكروا يأسهم من صلاح حاله ذكروا أنّهم يشكون في صدق أنّه مرسل إليهم، وزادوا ذلك تأكيدا بحرف التأكيد. ومن محاسن النكت هنا إثبات نون "إن" مع نون ضمير الجمع لأن ذلك زيادة إظهار لحرف التوكيد والإظهار ضرب من التحقيق بخلاف ما في سورة إبراهيم [9] من قول الأمّم لرسلهم {وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا} لأن الحكاية فيها عن أمم مختلفة في درجات التكذيب.

المريب: اسم فاعل من أراب إذا أوقع في الريب. يقال: رابه وأرابه بمعنى واحد. ووصف الشك بذلك تأكيد.

{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ }[63]

جواب عن كلامهم فلذلك لم تعطف، وهو الشأن في حكاية المحاورات كما تقدّم. وابتداء الجواب بالنداء لقصد التنبيه إلى ما سيقوله، اهتماما بشأنه. وخاطبهم بوصف القوميّة له للغرض الذي تقدّم في قصة نوح.

{ **أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً** } تقدّم الكلام على نظيرها في قصة نوح.

{ **فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ** } كذلك تقدّم الكلام على نظيرها في قصة نوح { مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ} [30].

{فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ} تفريع على الاستفهام الإنكاري، أي إذ كان ذلك فما دعاؤكم إياي إلّا سعي في خسراني. أي فما يحدث لي إن اتبعتكم وعصيت الله إلّا الخسران.

التخسير: مصدر خسر، إذا جعله خاسرا.

{ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ [64] **فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ** } [65]

{ **يَا قَوْمِ** } إعادة لمثل الغرض المتقدّم في قصة نوح { وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ } [30].

{ **هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ** } الإشارة بهذه إلى الناقة حين شاهدوا انفلاق الصخرة عنها. وإضافة الناقة إلى اسم الجلالة لأنّها خلقت بقدرة الله الخارقة للعادة.

{ **لَكُمْ آيَةً** } حالان من ناقة، وتقدّم نظير هذه الحال في سورة الأعراف.

{ **وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ** } أوصاهم بتجنب الاعتداء عليها لتوقّعه أنّهم يتصدّون لها، من تصلبهم في عنادهم.

{ **فَعَقَرُوهَا** } تقدّم عقرها وتفصيل ذلك في سورة الأعراف.

التمتّع: الانتفاع بالمتاع. وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأعراف:24].

الدار: البلد، وتقدّم في قوله تعالى {فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [الأعراف:78]، وذلك التأجيل استقصاء لهم في الدعوة إلى الحقّ.

المكذوب: الذي يخبر به الكاذب. يقال: كذب الخبر، إذا اختلقه.

{ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ [67] وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ [67] كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ } [68].

تقدّم الكلام على نظائر بعض هذه الآية في قصة هود في سورة الأعراف.

{ **وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ** }، أي نجّينا صالحا عليه السلام ومن معه من عذاب الاستئصال ومن الخزي المكيّف به العذاب، فإن العذاب يكون على كيفيّات بعضها أخزى من بعض. فالمقصود من العطف عطف منّة على منّة.

{ **يَوْمِئِذٍ** } تنوين عوض عن المضاف إليه. والتقدير: يوم إذ جاء أمرنا.

الخزي: الذلّ، وهو ذلّ العذاب.

{ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ** } معترضة. وقد أكّد الخبر بثلاث مؤكدات للاهتمام به.

{ **وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ** } عبّر عن ثمود بالذين ظلموا للإيماء بالموصول إلى علّة ترتّب الحكم، أي لظلمهم، وهو ظلم الشرك. وفيه تعريض بمشركي أهل مكّة بالتحذير من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك لأنّهم ظالمون أيضا.

الصيحة: الصاعقة أصابتهم.

{ **كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا** } كأن لم يقيموا.

{ **بُعْداً** } تقدم الكلام حولها في قصة نوح { وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [44].

{ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ [69] **فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ** [70] **وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ** [71] **قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** [71] **قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ }** [73].

الغرض من هذه القصّة هو الموعظة بمصير قوم لوط إذ عصوا رسول ربّهم فحلّ بهم العذاب ولم تغن عنهم مجادلة إبراهيم. وقدّمت قصّة إبراهيم لذلك، وللتنويه بمقامه عند ربّه على وجه الإدماج.

الرّسل: الملائكة. قال تعالى { جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً } [فاطر:1].

البشرى: اسم. للتبشير والبشارة. وتقدّم عند قوله { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [البقرة :25].

وهذه البشرى هي التي في قوله { فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ } لأنّ بشارة زوجه بابن، بشارة له أيضا.

{ قَالُوا سَلاماً } بيان لـ {الْبُشْرَى}، لأنّ قولهم ذلك مبدأ البشرى، وإن ما اعترض بينها حكاية أحوال.

{ قَالَ سَلامٌ } ورفع المصدر أبلغ من نصبه، فهو أدلّ على الدوام والثبات. ولذلك خالف بينهما للدلالة على أنّ إبراهيم - عليه السلام - ردّ السلام بعبارة أحسن من عبارة الرّسل زيادة في الإكرام.

{ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ } الفاء للدلالة على التعقيب، إسراعا في إكرام الضيف وتعجيل القرى.

اللبث، في المكان يقتضي الانتقال عنه، أي فما أبطأ مجيئه، أي عجّل.

الحنيذ: المشوي، وهو المحنوذ. والشيّ أسرع من الطبخ، فهو أعون على تعجيل إحضار الطعام للضيف.

{ فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً }

{ لا تَصِلُ إِلَيْهِ } أشد في عدم الأخذ. ونكر الشيءَ إذا أنكره أي كرهه.

وإنّما نكرهم لأنّه حسب أنّ إمساكهم عن الأكل لأجل التبرؤ من طعامه، وإنّما يكون ذلك في عادة النّاس في ذلك الزمان إذا كان النازل بالبيت يضمر شرا لمضيفه، لأن أكل طعام القرى كالعهد على السلامة من الأذى، لأنّ الجزاء على الإحسان بالإحسان مركوز في الفطرة، فإذا الكفّ أحد عن تناول الإحسان فذلك لأنّه لا يريد المسالمة ولا يرضى أن يكون كفورا للإحسان. ولذلك عقّب بـ { وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً } (مصدره الإيجاس)، أي أحسّ في نفسه خيفة منهم وأضمر ذلك. وذلك أنّه خشي أن يكونوا مضمرين شرّا له. وكانوا ثلاثة وكان إبراهيم - عليه السلام - وحده.

{ قَالُوا لا تَخَفْ } مفصولة عمّا قبلها، لأنّها أشبهت الجواب، لأنّه لما أوجس منهم خيفة ظهر أثرها على ملامحه، فكان ظهور أثرها بمنزلة قوله إنّي خفت منكم. أو هو جواب كلام مقدّر دلّ عليه قوله { فَأَوْجَسَ

مِنْهُمْ خِيفَةً } ، أي وقال لهم: إنّي خفت منكم، كما حكي في قوله { قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ }[الحجر:52].

{ **إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ** } مكاشفة منهم إيّاه بأنّهم ملائكة. والجملة استئناف مبيّنة لسبب مجيئهم. والحكمة من ذلك كرامة إبراهيم عليه السلام وصدورهم عن علم منه.

{ **أُرْسِلْنَا** } حذف متعلقها، أي بأي شيء، إيجازا لظهوره من هذه القصة وغيرها.

{ **قَوْمِ لُوطٍ** } وعبّر عنهم بطريق الإضافة إذ لم يكن لأولئك الأقوام اسم يجمعهم ولا يرجعون إلى نسب بل كانوا خليطا من فصائل عرفوا بأسماء قراهم، وأشهرها سدوم كما تقدم في الأعراف.

{ **وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ** } ضحكت امرأة إبراهيم - عليه السلام - من تبشير الملائكة إبراهيم - عليه السلام - بغلام، وكان ضحكها ضحك تعجب واستبعاد. وقد وقع في التوراة في الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين: " وقالوا له: أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة. فقالوا: يكون لسارة امرأتك ابن، وكانت سارة سامعة في باب الخيمة فضحكت سارة في باطنها قائلة: أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت؟ "

فلما اقتضى ترتيب المحاورة تقديم جملة { قَالُوا لا تَخَفْ } حكيت قصة البشرى وما تبعها من المحاورة بطريقة الحال، لأنّ الحال تصلح للقبليّة وللمقارنة وللبعديّة، وهي الحال المقدّرة، لأنّ البشرى قد حصلت قبل أن يخبروه بأنّهم أرسلوا إلى قوم لوط كما في قوله { فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ} [الذاريات:28] .

{ **فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ** } لأنّها ما ضحكت إلّا بعد أن بشّرها الملائكة بابن، فلمّا تعجبت من ذلك بشّروها بابن الابن زيادة في البشرى. والتعجيب بأن يولد لها ابن ويعيش وتعيش هي حتى يولد لابنها ابن. وذلك أدخل في العجب.

{ **قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** } صرّحت بتعجّبها الذي كتمته بالضحك.

الويلة: الحادثة الفظيعة والفضيحة. ولعلّها المرّة من الويل. وتستعمل في مقام التعجّب، يقال: يا ويلتي. واتفق القراء على قراءة {يَا وَيْلَتَى} (بفتحة مشبعة في آخره بألف). والألف التي في آخر {يَا وَيْلَتَى} هنا يجوز كونها عوضا عن ياء المتكلم في النداء.

البعل: الزوج. وسيأتي بيانه عند تفسير قوله تعالى { وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ } [النور:31]، فانظره.

{ **إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** } جملة مؤكّدة لصيغة التعجّب فلذلك فصلت عن التي قبلها لكمال الاتصال.

{ **أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** } وجواب الملائكة إيّاها إنكار لتعجّبها، لأنّه تعجّب مراد منه الاستبعاد.

{ **أَمْرِ اللَّهِ** } هو أمر التكوين، أي أتعجبين من قدرة الله على خرق العادات.

{ **رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ** } تعليل لإنكار تعجّبها، لأنّ الإنكار في قوة النفي.

فصار المعنى: لا عجب من أمر الله، لأنّ إعطاءك الولد رحمة من الله وبركة، فلا عجب في تعلّق قدرة الله بها، وأنتم أهلٌ لتلك الرحمة والبركة، فلا عجب في وقوعها عندكم.

{ **الْبَيْتِ** } تعريف حضور، أي بيت إبراهيم عليه السلام.

{ **إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ** } تعليل لتوجّه رحمته وبركاته إليهم بأنّ الله يحمد من يطيعه، وبأنّه مجيد، أي عظيم الشأن لا حد لنعمه فلا يعظم عليه أن يعطيها ولدا. وفي اختيار وصف الحميد من بين الأسماء الحسنى كناية عن رضى الله تعالى على إبراهيم – عليه السلام - وأهله.

{ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ [74] إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ [75] يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } [76].

الروع: مرادف الخيفة.

المجادلة: المحاورة. وقد تقدّمت في قوله { وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ } [النساء:107]. والمجادلة هنا، دعاء ومناجاة سأل بها إبراهيم عليه السلام ربّه العفو عن قوم لوط خشية إهلاك المؤمنين منهم. وقد تكون المجادلة مع الملائكة، وعدّيت إلى ضمير الجلالة لأنّ المقصود من جدال الملائكة التعرض إلى أمر الله بصرف العذاب عن قوم لوط.

{ **فِي قَوْمِ لُوطٍ** } على تقدير مضاف، أي في عقاب قوم لوط. وهذا من تعليق الحكم باسم الذات، كقوله {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ} [المائدة: 3] أي أكلها.

{ **لَحَلِيمٌ** } الموصوف بالحلم وهو صفة تقتضي الصفح واحتمال الأذى.

{ **أَوَّاهٌ** } أصله الذي يكثر التأوّه، وهو قول: أوه. وأوه: اسم فعل نائب مناب أتوجّع، وهو هنا كناية عن شدّة اهتمامه بهموم النّاس.

{ **مُنِيبٌ** } من أناب إذا رجع، وهو مشتق من النوب وهو النزول. وحقيقة الإنابة: الرجوع إلى الشيء بعد مفارقته وتركه. والمراد هنا التوبة من التقصير، أي محاسب نفسه على ما يحذر منه.

{ **يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا** } مقول محذوف دلّ عليه المقام وهو من بديع الإيجاز، وهو وحي من الله إلى إبراهيم عليه السلام، أو جواب الملائكة إبراهيم عليه السلام.

{ **أَمْرُ رَبِّكَ** } قضاؤه، أي أمر تكوينه.

{ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ } [77].

وقد جاءوا لوطا كما جاءوا إبراهيم - عليهما السلام - في صورة البشر، فظنّهم ناسا وخشي أن يعتدي عليهم قومه بعادتهم الشنيعة، فلذلك سيء بهم.

{ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً } ضاق ذرعه بسببهم، أي بسبب مجيئهم.

الذرع: مدّ الذراع فإذا أسند إلى الآدمي فهو تقدير المسافة. استعارة تمثيليّة لحال من لم يجد حيلة في أمر يريد عمله بحال الذي لم يستطع مدّ ذراعه كما يشاء.

{ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ } قاله في نفسه كما يناجي المرء نفسه إذا اشتد عليه أمر.

العصيب: الشديد فيما لا يرضي. يقال: يوم عصيب إذا حدث فيه أمر عظيم من أحوال النّاس أو أحوال الجوّ كشدّة البرد وشدة الحرّ.

ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنّها جاءت على ترتيب حصولها في الوجود، فإنّ أوّل ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يساء به ويتطلّب المخلص منه، فإذا علم أنّه لا مخلص منه ضاق به ذرعا، ثم يصدر تعبيرا عن المعاني وترتيبا عنه كلاما يريح به نفسه.

{ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ }[78]

أي جاءه بعض قومه. وهذا من إسناد الفعل إلى القبيلة إذا فعله بعضهم.

{ يُهْرَعُونَ } (بضم الياء وفتح الراء على صيغة المبني للمفعول) فسّروه بالمشي الشبيه بمشي المدفوع، وهو بين الخبب والجمز، فهو لا يكون إلّا مبنيا للمفعول لأنّ أصله مشي الأسير الذي يسرع به. إلّا أنّ ذلك تنوسي وبقي أهرع بمعنى سار سيرا كسير المدفوع. وفسّره في (الصحاح) و(القاموس) بأنّه الارتعاد من غضب أو خوف. وعلى الوجهين فجملة { يُهْرَعُونَ } حال.

{ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ } طوى القرآن ذكر الغرض الذي جاؤوا لأجله، واكتفى بالإشارة إليه.

{ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ }

افتتاح الكلام بالنداء وبأنّهم قومه ترقيق لنفوسهم عليه، لأنه يعلم تصلبهم في عادتهم.

والإشارة مستعملة في العرض، والتقدير: فخذوهنّ.

{ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ } تعليل للعرض. والمعنى أنّهنّ حلال لكم يحلن بينكم وبين الفاحشة.

أراد نساء من قومه. وهذا معنى ما فسر به مجاهد، وابن جبير، وقتادة. وهذا أحسن المحامل.

وقيل: أراد بنات صلبه، وهو رواية عن قتادة. يجوز أن يكون تصرّفا بوصف النبوّة بالوحي للمصلحة.
{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي** } أمرهم بتقوى الله ، أي خشيته والحذر من سوء المنقلب.
الخزي: الإهانة والمذلّة. وتقدم آنفا. وأراد مذلّته. أي لا تجعلوني مخزيّا عند ضيفي إذ يلحقهم أذى في ضيافتي، لأنّ الضيافة جوار عند رب المنزل، فإذا لحقت الضيف إهانة كانت عارا على رب المنزل.
الضيف: الضائف، النازل في منزل أحد نزولا غير دائم، لأجل مرور في سفر أو إجابة دعوة.
وقد ظنّ لوط - عليه السلام - الملائكة رجالا مارين ببيته عنده للاستراحة والطعام والمبيت.
{ **أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ** } إنكار وتوبيخ لأنّ إهانة الضيف مسبة لا يفعلها إلّا أهل السفاهة. وهذا إغراء لهم على التعقّل ليظهر فيهم من يتفطّن إلى فساد ما هم فيه فينهاهم.

{ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ [79] **قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ** } [80].
أي نحن نعلم أنّك قد علمت ما لنا رغبة في بناتك وإنّك تعلم مرادنا.
الحقّ: ما يحقّ، أي يجب لأحد أو عليه، فالظاهر أنّه أطلق هنا كناية عن عدم التعلّق بالشيء وعن التجافي عنه. وهو إطلاق لم أر مثله، وقد تحيّر المفسرون في تقريره. والمعنى: ما لنا في بناتك رغبة.
{ **لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً** } جواب يائس من ارعوائهم. و{ **لَوْ** } مستعملة في التمنّي، وهذا أقصى ما أمكنه في تغيير هذا المنكر. و{ **بِكُمْ** } الباء للاستعلاء، أي عليكم. يقال: ما لي به قوة وما لي به طاقة. ومنه قوله تعالى { قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ } [البقرة: 249].
والمعنى: ليت لي قوة أدفعكم بها، ويريد بذلك قوة أنصار، لأنّه كان غريبا بينهم.
{ **أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ** } أو أعتصم بما فيه منعة، أي بمكان أو ذي سلطان يمنعني منكم.
الركن: الشقّ من الجبل المتصل بالأرض.

{ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ } [81]
هذا كلام الملائكة للوط عليه السلام كاشفوه بأنّهم ملائكة مرسلون من الله تعالى. وهذا الكلام الذي كلّموا به لوطا عليه السلام وحي أوحاه الله إلى لوط - عليه السلام - بواسطة الملائكة.وابتدأ الملائكة خطابهم لوطا عليه السلام بالتعريف بأنفسهم لتعجيل الطمأنينة إلى نفسه. ثمّ ألحقوا هذا التعريف بالبشارة بقولهم {لَنْ يَصِلُوا

إِلَيْكَ} . وجيء بحرف تأكيد النفي للدلالة على أنّهم خاطبوه بما يزيل الشك من نفسه. وقد صرف الله الكفار عن لوط - عليه السلام - فرجعوا من حيث أتوا.

ووقع في التوراة أنّ الله أعمى أبصار المراودين لوطا - عليه السلام - عن ضيفه حتّى قالوا: إنّ ضيف لوط سحرة فانصرفوا. وذلك ظاهر قوله تعالى { وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ } [القمر:37].

{ **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ** } أمر بالسُرى (بضم السين والقصر)، وهو اسم مصدر للسير في الليل إلى الصباح. وفعله: سرى يقال بدون همزة في أوله ويقال: أسرى بالهمزة.

وقد جمعوه في الأمر مع أهله لأنّه إذا سرى بهم فقد سرى بنفسه.

القِطع (بكسر القاف): الجزء من الليل.

{ **وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ** } معترضة بين المستثنى والمستثنى منه. والالتفات المنهي عنه هو الالتفات إلى المكان المأمور بمغادرته كما دلّت عليه القرينة.

{ **إِلَّا امْرَأَتَكَ** } استثناء من { أَهْلِكَ }، والمعنى: لا تسر بها، أريد أن لا يعلمها بخروجه لأنّها كانت مخلصة لقومها فتخبرهم عن زوجها. وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو برفع {امْرَأَتُكَ}، على أنّه استثناء من {أَحَدٌ} الواقع في سياق النهي. والمعنى انّه نهاهم عن الالتفات فامتثلوا ولم تمتثل امرأته للنهي فالتفتت.

{ **إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ** } استعمال فعل الماضي في معنى الحال، ومقتضى الظاهر أن يقال: ما يصيبهم، فاستعمال فعل الماضي لتقريب زمن الماضي من الحال. أو في معنى الاستقبال تنبيها على تحقّق وقوعه.

{ **إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ** } مستأنفة ابتدائية قطعت عن التي قبلها اهتماما وتهويلا.

الموعد: وقت الوعد. والوعد أعم من الوعيد. والمراد بالموعد هنا موعد العذاب الذي علمه لوط عليه السلام إمّا بوحي سابق، وإمّا بقرينة الحال، وإمّا بإخبار من الملائكة في ذلك المقام، طوته الآية هنا إيجازا.

{ **أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ** } استئناف بياني صدر من الملائكة. والاستفهام تقريري، ولذلك يقع في مثله التقرير على النفي، إرخاء للعنان مع المخاطب المقرّر ليعرف خطأه. وإنّما قالوا ذلك في أوّل الليل.

{ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ** [82] **مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** } [83].

{ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا** } تقدّم الكلام على نظيره [66].

والمعنى أنّ القرية انقلبت عليهم انقلاب خسف حتّى صار عالي البيوت سافلا. أي وسافلها عاليا، وذلك من انقلاب الأرض بهم. وإنّما اقتصر على ذكر جعل العالي سافلا لأنّه أدخل في الإهانة.

السجّيل: فسّر بواد نار في جهنّم يقال: سجّيل باللام، وسجّين بالنون. وهو تشبيه بليغ.
وقد جاء في التوراة: أنّ الله أرسل عليهم كبريتا ونارا من السماء. ولعلّ الخسف فجّر من الأرض براكين قذفت عليهم حجارة معادن محرقة كالكبريت، أو لعلّ بركانا كان قريبا من مدنهم انفجر باضطرابات أرضية ثم زال من ذلك المكان بحوادث تعاقبت في القرون، أو طمى عليه البحر وبقي أثر البحر عليها حتى الآن، وهو المسمى بحيرة لوط أو البحر الميت.
المنضود: الموضوع بعضه على بعض. والمعنى هنا أنّها متتابعة متتالية في النزول ليس بينها فترة. والمراد وصف الحجارة بذلك، إلّا أنّ الحجارة لما جعلت من سجّيل أجري الوصف على سجّيل وهو يفضي إلى وصف الحجارة لأنّها منه.
المسوّمة: التي لها سيما، وهي العلامة. والعلامات توضع لأغراض، منها عدم الاشتباه، ومنها سهولة الإحضار، وهو هنا مكنى به عن المعدّة المهيّئة.
{ **عِنْدَ رَبِّكَ** } تسويمها عند الله هو تقديره إيّاها لهم.
{ **وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** } المعنى وما تلك القرية ببعيد عن المشركين، أي العرب، فمن شاء فليذهب إليها فينظر مصيرها، فالمراد البعد المكاني. ويصلح لأنّ يعود إلى الحجارة، أي وما تلك الحجارة ببعيد، أي أنّ الله قادر على أن يرمي المشركين بمثلها.
{ **بَعِيدٍ** } جرّد عن تاء التأنيث مع كونه خبرا عن الحجارة أو القرية، ومع كون { بَعِيدٍ } هنا بمعنى فاعل لا بمعنى مفعول، فالشأن أن يطابق موصوفه في تأنيثه، ولكن العرب قد يجرون فعيلا الذي بمعنى فاعل مجرى الذي بمعنى مفعول إذا جرى على مؤنث غير حقيقي التأنيث زيادة في التخفيف.

{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ [84] **وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** [85] **بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** } [86].

{ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً** - إلى قوله - **مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } نظير قوله { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً } [61].
أمرهم بثلاثة أمور:
أحدها: إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاح العقول والفكر.

الثاني: وهو شيء من صلاح العمل خصّ بالنهي، لأنّ إقدامهم عليه كان فاشيا فيهم حتّى نسوا ما فيه من قبح وفساد، وهذا هو الكف عن نقص المكيال والميزان.

الثالث: صلاح الأعمال والتصرّفات في العالم بأنّ لا يفسدوا في الأرض.

فابتدأ بالأمر بالتوحيد لأنّه أصل الصلاح ثم أعقبه بالنهي عن مظلمة كانت متفشية فيهم وهي خيانة المكيال والميزان. وقد تقدّم ذلك في سورة الأعراف. وهي مفسدة عظيمة لأنّها تجمع خصلتي السرقة والغدر، لأنّ المكتال مسترسل مستسلم. ونهاهم عن الإفساد في الأرض وعن نقص المكيال والميزان فعزّزه بالأمر بضدّه وهو إيفاؤهما.

{ **إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ** } تعليل للنهي عن نقص المكيال والميزان. أي أنّكم بخير. في معنى الشهادة عليهم بنعمة الله عليهم، فحقّ عليهم شكرها.

الخير: حسن الحالة. ويطلق على المال كقوله { إِنْ تَرَكَ خَيْراً } [البقرة: 180].

والأولى حمله عليه هنا ليكون أدخل في تعليل النهي، أي أنّكم في غنى عن هذا التطفيف بما أوتيتم من النعمة والثروة. وهذا التعليل يقتضي قبح ما يرتكبونه من التطفيف. وهذا حثّ على وسيلة بقاء النعمة.

{ **وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ** } ثم ارتقى في تعليل النهي بأنّه يخاف عليهم عذابا يحلّ بهم إمّا يوم القيامة وإمّا في الدنيا. ولصلوحيته للأمرين أجمله. وهذا تحذير من عواقب كفران النعمة وعصيان واهبها.

{ **وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ** } إعادة النداء لزيادة الاهتمام بالجملة والتنبيه لمضمونها، وهو الأمر بإيفاء المكيال والميزان. وهذا الأمر تأكيد للنهي عن نقصهما. والشيء يؤكّد بنفي ضدّه.

{ **بِالْقِسْطِ** } الباء للملابسة. أي العدل، تعليلا للأمر به، لأنّ العدل معروف حسن. وتنبيها على أنّ ضدّه ظلم وجور وهو قبيح منكر. والقسط تقدم في قوله تعالى { قَائِماً بِالْقِسْطِ } [آل عمران :18].

{ **وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** }

البخس: النقص. وتقدّم في قصّته في سورة الأعراف مفسّرا. وذكر ذلك بعد النهي عن نقص المكيال والميزان تذييل بالتعميم بعد تخصيص. لأنّ التطفيف من بخس النّاس في أشيائهم، وتعدية {تَبْخَسُوا} إلى مفعولين باعتباره ضدّ أعطى فهو من باب كسا.

العَثْيُ (بالياء) من باب سعى ورمى، وبالواو كدعا، هو: **الفساد**. ولذلك فقوله { مُفْسِدِينَ } حال مؤكّدة لعاملها مثل التوكيد اللفظي، مبالغة في النهي عن الفساد.

{ **فِي الْأَرْضِ** } المقصود منه تعميم أماكن الفساد.

وسلك في نهيهم عن الفساد مسلك التدرّج فابتدأه بنهيهم عن نوع من الفساد فاش فيهم وهو التطفيف. ثم ارتقى فنهاهم عن جنس ذلك النوع وهو أكل أموال النّاس. ثم ارتقى فنهاهم عن الجنس الأعلى للفساد الشامل لجميع

أنواع المفاسد وهو الإفساد في الأرض كلّه. وهذا من أساليب الحكمة في تهيئة النفوس بقبول الإرشاد والكمال.

{ **بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ** } وإذ قد كانت غاية المفسد من الإفساد اجتلاب ما فيه نفع عاجل له من نوال ما يحبّه أعقب شعيب موعظته بما أدخره الله من الثواب على امتثال أمره، وهو النفع الباقي هو خير لهم مما يقترفونه من المتاع العاجل.

{ **بَقِيَّت** } كلمة جامعة لمعان في كلام العرب، منها: الدوام، ومؤذنة بضدّه وهو الزوال، فأفادت أن ما يقترفونه متاع زائل، وما يدعوهم إليه حظ باق غير زائل، وبقاؤه دنيوي وأخروي.

فأمّا كونه دنيويا فلأن الكسب الحلال ناشئ عن استحقاق شرعي فطري، فهو حاصل من تراض بين الأمّة فلا يحنق المأخوذ منه على آخذه فيعاديه ويتربص به الدوائر، فبتجنّب ذلك تبقى الأمّة في أمن من توثّب بعضها على بعض. ومن أجل ذلك قرن الأموال بالدماء في خطبة حجّة الوداع إذ قال النبيء صل الله عليه وسلم: " إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام ". فكما أنّ إهراق الدماء بدون حقّ يفضي إلى التقاتل والتفاني بين الأمّة فكذلك انتزاع الأموال بدون وجهها يفضي إلى التواثب والتثاور فتكون معرضة للابتزاز والزوال.

وأيضا لأن نوالها بدون رضى الله عن وسائل أخذها كفران لله يعرّض إلى تسليط عقابه بسلبها من أصحابها.

قال ابن عطاء الله: " من لم يشكر النعم فقد تعرّض لزوالها ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها."

وأمّا كونه أخرويّا فلأنّ نهي الله عنها مقارنا للوعد بالجزاء على تركها، وذلك الجزاء من النعيم الخالد كما في قوله تعالى { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً } [مريم: 76].

على أن اللفظ يتحمّل معنى آخر من الفضل في كلام العرب، وهو معنى الخير والبركة، لأنّه لا يبقى إلّا ما يحتفظ به أصحابه وهو النفائس، ولذلك أطلقت (البقيّة) على الشيء النفيس المبارك كما في قوله تعالى { فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ} [البقرة: 248]، وقوله { فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ} [هود: 116].

وفي كلمة (البقية) معنى آخر وهو الإبقاء عليهم، والعرب يقولون عند طلب الكفّ عن القتال: ابقوا علينا.

ومعنى الآية: إبقاء الله عليكم ونجاتكم من عذاب الاستئصال خيرلكم من هذه الأعراض العاجلة سيّئة العاقبة، فيكون تعريضا بوعيد الاستئصال. وكل هذه المعاني صالحة هنا. ولعلّ كلام شعيب - عليه السلام - قد اشتمل على جميعها فحكاه القرآن بهذه الكلمة الجامعة.

{ **بَقِيَّتُ اللَّهِ** } إضافة إلى اسم الجلالة على المعاني كلّها جمعا وتفريقا، إضافة تشريف وتيمّن.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } إن كنتم مصدّقين بما أرسلت به إليكم، لأنّهم لا يتركون مفاسدهم ويرتكبون ما أمروا به إلّا إذا صدّقوا بأن ذلك من عند الله، فهنالك تكون بقية الله خيرا لهم، فموقع الشرط هو كون البقية خيرا لهم،

أي لا تكون البقية خيرا إلّا للمؤمنين.

{ **وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** } أي افعلوا ذلك باختياركم لأنّه لصلاحكم ولست مكرهكم على فعله.

الحفيظ: المجبر، كقوله { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ} [الشورى: 48]، وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً } [الأنعام:107]. والمقصود من ذلك استنزال طائرهم لئلا يشمئزّوا من الأمر. وهذا استقصاء في الترغيب وحسن الجدال.

{ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ }[87]

كانت الصلاة من عماد الأديان كلّها. وكان المكذّبون الملحدون قد تمالؤوا في كلّ أمّة على إنكارها والاستهزاء بفاعلها { أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [الذاريات: 53]. فلمّا كانت الصلاة أخصّ أعماله المخالفة لمعتادهم جعلوها المشيرة عليه بما بلّغه إليهم من أمور مخالفة لمعتادهم.

{ **أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** } معنى تركها ترك عبادتها.

{ **أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ** } أي أن نترك فعل ما نشاء في أموالنا فنكون طوع أمرك نفعل ما تأمرنا بفعله ونترك ما تأمرنا بتركه. و{ **أو**} هنا للتقسيم، لأنّ منهم من لا يتّجر.

{ **إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** } استئناف تهكّم آخر. وقد جاءت الجملة مؤكدة بحرف (إنّ) ولام القسم وبصيغة القصر والضمير المنفصل، فاشتملت على أربعة مؤكّدات.

الحليم: ذو الحلم أي العقل، والرشيد: الحسن التدبير في المال.

{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [88]

تقدّم نظير الآية في قصّة نوح وقصة صالح - عليهما السلام- .

والمراد بالرزق الحسن هنا مثل المراد من الرحمة في كلام نوح وكلام صالح - عليهما السلام - وهو نعمة النبوءة، وإنّما عبر شعيّب - عليه السلام - عن النبوّة بالرزق على وجه التشبيه مشاكلة لقولهم { أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ} [87]، لأنّ الأموال أرزاق. وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه سياق الكلام، أو يدلّ عليه {إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} . والتقدير: ماذا يسعكم في تكذيبي، أو ماذا ينجيكم من عاقبة تكذيبي. وهو

تحذير لهم على فرض احتمال أن يكون صادقا. أي فالحزم أن تأخذوا بهذا الاحتمال، أو فالحزم أن تنظروا في كنه ما نهيتكم عنه لتعلموا أنّه لصلاحكم.

{ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** } عند جميع المفسّرين من التّابعين فمن بعدهم: أي لم أكن لأنهاكم عن شيء وأنا أفعله. والمقصود: بيان أنّه مأمور بذلك أمرا يعمّ الأمّة وإيّاه وذلك شأن الشرائع، كما قال علماؤنا: إنّ خطاب الأمّة يشمل الرسول عليه الصلاة والسلام ما لم يدل دليل على تخصيصه بخلاف ذلك.

والذي يظهر لي في معنى الآية أنّ المراد من المخالفة المعاكسة والمنازعة، إمّا لأنّه عرف من ملامح تكذيبهم أنّهم توهّموه ساعيا إلى التملّك عليهم والتجبّر، وإمّا لأنّه أراد أن يقلع من نفوسهم خواطر الشرّ قبل أن تهجس فيها. وهذا المحمل في الآية يسمح به استعمال التركيب ومقاصد الرسل، وهو أشمل للمعاني من تفسير المتقدّمين، فلا ينبغي قصر تفسير الآية على ما قالوه لأنه لا يقابل قول قومه { أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ} [87]، فإنّهم ظنوا به أنّه ما قصد إلّا مخالفتهم وتخطئتهم ونفوا أن يكون له قصد صالح فيما دعاهم إليه، فكان مقتضى إبطال ظنّتهم أن ينفي أن يريد مجرد مخالفتهم، بدليل قوله عقبه { إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ }. فالعنى أنه ما يريد مجرّد المخالفة كشأن المنتقدين المتقعّرين، ولكن يخالفهم لمقصد سام وهو إرادة إصلاحهم.

{ **إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ** } بيان لجملة {مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} لأن انتفاء إرادة المخالفة إلى ما نهاهم عنه مجمل فيما يريد إثباته من أضداد المنفي، فبيّنه بأنّ الضدّ المراد إثباته هو الإصلاح في جميع أوقات استطاعته، فالقصر قصر قلب.

{ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ** } لمّا بيّن لهم حقيقة عمله وكان في بيانه ما يجرّ الثناء على نفسه أعقبه بإرجاع الفضل في ذلك إلى الله، فسمّى إرادته الإصلاح توفيقا، وجعله من الله، أي بإرادته وهديه.

التوفيق: جعل الشيء وفقا لآخر، أي طبقا له، ولذلك عرّفوه بأنّه خلق القدرة والداعية إلى الطاعة.

{ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** }

التوكّل: مضى عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159].

الإنابة: تقدّمت آنفا في قوله { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [75].

{ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ [89] **وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ** } [90]

تقدم الكلام على النكتة في إعادة النداء في الكلام الواحد لمخاطب متّحد قريبا.

{ لا يَجْرِمَنَّكُمْ } أي لا يكسبنّكم. وتقدم الكلام حولها عند قوله تعالى {وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ } [المائدة:2].

الشقاق: مصدر شاقه إذا عاداه. وقد مضت عند قوله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [الأنفال:13].

والمعنى: لا تجرّ إليكم عداوتكم إيّاي إصابتكم بمثل ما أصاب قوم نوح إلى آخره. والمقصود نهيهم عن أن يجعلوا الشقاق سببا للإعراض عن النظر في دعوته، فيوقعوا أنفسهم في أن يصيبهم عذاب مثل ما أصاب الأمم قبلهم.

{ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ } والمراد بالبعد بعد الزمن والمكان والنسب، فزمن لوط - عليه السلام - غير بعيد في زمن شعيب - عليه السلام -، والديار قريبة من ديارهم، إذ منازل مدين عند عقبة أيلة مجاورة معان مما يلي الحجاز، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت، وكان مدين بن إبراهيم عليهما السلام وهو جد القبيلة المسماة باسمه، متزوجا بابنة لوط.

{ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ } عطف على جملة { لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي }.

{ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } تعليل للأمر باستغفاره والتوبة إليه، وهو تعليل لما يقتضيه الأمر من رجاء العفو عنهم إذا استغفروا وتابوا.

{ رَبَّكُمْ - رَبِّي } تفنّن في إضافة الرب إلى ضمير نفسه مرة وإلى ضمير قومه أخرى لتذكيرهم بأنّه ربّهم كيلا يستمروا على الإعراض وللتشرف بانتسابه إلى مخلوقيته.

الودود: مثال مبالغة من الودّ وهو المحبة. وتقدم عند قوله تعالى {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا} [النساء:89].

والمعنى: أنّ الله شديد المحبة لمن يتقرّب إليه بالتوبة.

{ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ }[91]

الفقه: الفهم. وتقدّم عند قوله تعالى {فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً } [النساء :78].

ومرادهم من هذا يحتمل أن يكون قصد المباهتة كما حكى الله عن المشركين { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ} [فصلت: 5]، وقوله عن إليهود {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ} [البقرة: 88]. ويجوز أن يكون المراد **ما نتعقّله**، لأنّه عندهم كالمحال لمخالفته ما يألفون، كما حكى الله عن غيرهم بقوله {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ

إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: 5]. وليس المراد عدم فهم كلامه لأنّ شعيبا عليه السلام كان مقوالا فصيحا، ووصفه النبيء ﷺ بأنّه خطيب الأنبياء.

{ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً } أي وإنك فينا لضعيف، أي غير ذي قوة ولا منعة. فالمراد الضعف عن المدافعة إذا راموا أذاه وذلك مما يرى لأنّه ترى دلائله وسماته.

ومن فساد التفاسير تفسير الضعيف بفاقد البصر وأنّه لغة حميرية فركّبوا منه أنّ شعيبا - عليه السلام - كان أعمى. ولم يعرف من الأثر ولا من كتب الأولين ما فيه أنّ شعيبا عليه السلام كان أعمى.

{ وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ } وهو المقصود ممّا مهد إليه من المقدّمات، أي لا يصدّنا عن رجمك شيء إلّا مكان رهطك فينا، لأنّك أوجبت رجمك بطعنك في ديننا.

الرهط، إذا أضيف إلى رجل أريد به القرابة الأدنون لأنّهم لا يكونون كثيرا، فأطلقوا عليهم لفظ الرهط الذي أصله الطائفة القليلة من الثلاثة إلى العشرة، ولم يقولوا قومك، لأنّ قومه قد نبذوه. وكان رهط شعيب عليه السلام من خاصة أهل دين قومه فلذلك وقّروهم بكف الأذى عن قريبهم لأنّهم يكرهون ما يؤذيه لقرابته.

الرجم: القتل بالحجارة رميا، وهو قتلة حقارة وخزي. وفيه دلالة على أنّ حكم من يخلع دينه الرجم في عوائدهم.

{ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ } مؤكدة لمضمون {وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ} لأنّه إذا انتفى كونه قويّا في نفوسهم تعيّن أنّ كفّهم عن رجمه مع استحقاقه إيّاه في اعتقادهم ما كان إلّا لأجل إكرامهم رهطه لا للخوف منهم.

العزّة: القوّة والشدّة والغلبة. والعزيز: وصف منه، وتعديته بحرف (على) لما فيه من معنى الشدّة والوقع على النفس كقوله تعالى {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} [التوبة: 128].

وقصدهم من هذا الكلام تحذيره من الاستمرار على مخالفة رهطه بأنّهم يوشك أن يخلعوه ويبيحوا لهم رجمه.

{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}[92]

لمّا أرادوا بالكلام الذي وجّهوه إليه تحذيره من الاستمرار على مخالفة دينهم، أجابهم بما يفيد أنّه لم يكن قط معوّلا على عزّة رهطه ولكنّه متوكّل على الله الذي هو أعزّ من كل عزيز.

وإعادة النداء للتنبيه لكلامه وأنّه متبصّر فيه. والاستفهام إنكاري، أي الله أعزّ من رهطي، وهو كناية عن اعتزازه بالله لا برهطه فلا يريبه عدم عزّة رهطه عليهم، وهذا تهديد لهم بأنّ الله ناصره.

{ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً } في موضع الحال من اسم الجلالة، أي الله أعز.

الاتخاذ: الجعل، وتقدّم في قوله {أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً} [الأنعام [74].

الظِهريّ (بكسر الظاء): نسبة إلى الظهر على غير قياس، والتغييرات في الكلم لأجل النسبة كثيرة. والمراد بالظهري الكناية عن النسيان، أو الاستعارة لأنّ الشيء الموضوع بالوراء ينسى لقلّة مشاهدته، فهو يشبه الشيء المجعول خلف الظهر في ذلك، فوقع {ظِهْرِيّاً} حالا مؤكّدة للظرف إغراقا في معنى النسيان، لأنّهم اشتغلوا بالأصنام عن معرفة الله أو عن ملاحظة صفاته.

{ **إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** } استئناف، أو تعليل لمفهوم جملة { أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ } الذي هو توكّله عليه واستنصاره به.

المحيط: الموصوف بأنّه فاعل الإحاطة. وأصل الإحاطة: حصار شيء شيئا من جميع جهاته مثل إحاطة الظرف بالمظروف والسوار بالمعصم. ويطلق مجازا في قولهم: أحاط علمه بكذا. والمراد إحاطة علمه. وهذا تعريض بالتهديد، وأن الله يوشك أنّ يعاقبهم على ما علمه من أعمالهم.

{ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ }[93]

{ **اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ** } تقدم تفسير نظيرها في سورة الأنعام [136]. والأمر للتهديد. والمعنى: أي اعملوا ما تحبّون أن تعملوه بي.

{ **سَوْفَ تَعْلَمُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، إذ لمّا فاتحهم بالتهديد كان ذلك ينشئ سؤالا في نفوسهم عمّا ينشأ على هذا التهديد فيجاب بالتهديد بـ {سَوْفَ تَعْلَمُونَ} . ولكونه كذلك كان مساويا للتفريع بالفاء الواقع في آية الأنعام في المآل، ولكنه أبلغ في الدلالة. ففي خطاب شعيب عليه السلام قومه من الشدّة ما ليس في الخطاب المأمور به النبيء ﷺ في سورة الأنعام.

{ **عَذَابٌ يُخْزِيهِ** } العذاب خزي لأنّه إهانة.

الارتقاب: الترقّب، وهو افتعال من رقبه إذا انتظره.

الرقيب هنا، فعيل بمعنى فاعل، أي أنّي معكم راقب، أي كلّ يرتقب ما يجازيه الله به إن كان كاذبا أو مكذّبا.

{ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ [94] **كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ** } [95]

عطف {لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا} هنا وفي قوله في قصّة عاد {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً} [59] بالواو فيهما وعطف نظيراهما في قصّة ثمود { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً } [66] وفي قصّة قوم لوط { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا } [82]، لأنّ قصتي ثمود وقوم لوط كان فيهما تعيين أجل العذاب الذي توعّد به النبيئان قومهما. ففي قصّة ثمود { فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ } [65]، وفي قصّة قوم لوط { إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ } [81]. فكان المقام مقتضيا ترقّب السامع لما حلّ بهم. وليس في قصّة عاد وقصّة مدين تعيين لموعد العذاب ولكن الوعيد فيهما مجمل.

{ **جاء أمرنا** - إلى قوله - **أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ** } تقدّم القول فيها في قصّة ثمود.

{ **بُعْداً** } تقدّم في قصّة نوح في قوله { وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [44].

{ **كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ** } فهو تشبيه البعد الذي هو انقراض مدين بانقراض ثمود. ووجه الشبه التماثل في سبب عقابهم بالاستئصال، وهو عذاب الصيحة.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ [97] **إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ** } [69].

عقّبت قصّة مدين بذكر بعثة موسى - عليه السلام - لقرب ما بين زمنيهما، ولشدّة الصلة بين النبيئين فإنّ موسى بعث في حياة شعيب - عليهما السلام - وقد تزوّج ابنة شعيب.

{ **بِآيَاتِنَا** } الباء للمصاحبة فإنّ ظهور الآيات كان مصاحبا لزمن الإرسال.

السلطان: البرهان المبين، أي المظهر صدق الجائي به وهو الحجّة العقلية أو التأييد الإلهي.

وتقدّم ذكر فرعون وملئه في سورة الأعراف.

{ **إِلَى فِرْعَوْنَ ... أَمْرَ فِرْعَوْنَ ... أَمْرُ فِرْعَوْنَ** } وإظهار اسم فرعون في المرة الثانية دون الضمير والمرة الثالثة للتشهير، والإعلان بذمّه، وهو انتفاء الرشد عن أمره.

الرشيد: فعيل من رشد من باب نصر وفرح، إذا اتصف بإصابة الصواب. يقال: أرشدك الله. والمقصود أن أمر فرعون سفه إذ لا واسطة بين الرشد والسفه.

{ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ [98] وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ } [99].

{ يَقْدُمُ قَوْمَهُ } يجوز أن تكون في موضع الحال من { فِرْعَوْنَ }، ويجوز أن تكون استئنافا بيانيّا.

الإيراد: جعل الشيء واردا، أي قاصدا الماء، والذي يوردهم هو الفارط، ويقال له: الفرط.

الورد (كسر الواو): الماء المورود، وهو فعل بمعنى مفعول، مثل ذبح. استعارة الإيراد إلى التقدّم بالنّاس إلى العذاب، وهي تهكّميّة، لأنّ الإيراد يكون لأجل الانتفاع بالسقي، وأمّا التقدّم بقومه إلى النّار فهو ضدّ ذلك.

{ فَأَوْرَدَهُمُ } بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوع ذلك الإيراد، وإلّا فقرينة قوله {يَوْمَ الْقِيَامَةِ} تدل على أنّه لم يقع في الماضي.

{ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ } في موضع الحال والضمير المخصوص بالمدح المحذوف هو الرابط وهو تجريد للاستعارة، كقوله تعالى {بِئْسَ الشَّرَابُ} [الكهف: 29]، لأنّ الورد المشبّه به لا يكون مذموما.

الإتباع: الإلحاق.

اللعنة: هي لعنة العذاب في الدنيا وفي الآخرة.

{ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } متعلّق بـ {وَأُتْبِعُوا} ، فعلم أنهم أتبعوا لعنة يوم القيامة، لأن اللعنة الأولى قيدت بـ { فِي هَذِهِ }.

{ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ } مستأنفة لإنشاء ذمّ اللعنة. والمخصوص بالذمّ محذوف دلّ عليه ذكر اللعنة، أي بئس الرفد هي.

الرفد (بكسر الراء) اسم على وزن فعل بمعنى مفعول مثل ذبح. أي ما يرفد به، أي يعطى. يقال: رفده إذا أعطاه ما يعينه به من مال ونحوه. وفي حذف المخصوص بالمدح إيجاز ليكون الذم متوجّها لإحدى اللعنتين لا على التعيين لأن كلتيهما بئيس. وإطلاق الرفد على اللعنة استعارة تهكّميّة.

المرفود: حقيقته المعطى شيئا. ووصف الرفد بالمرفود لأنّ كلتا اللعنتين معضودة بأخرى، فشبهت كل واحدة بمن أعطي عطاء فهي مرفودة. وإنما أجري المرفود على التذكير باعتبار أنه أطلق عليه رفد.

{ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ [100] وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } [101]

استئناف للتنويه بشأن الأنباء التي مرّ ذكرها.

الأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر، وتقدّم في قوله { وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ }[الأنعام:34] .

{ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ } حال من اسم الإشارة. وعبّر بالمضارع مع أنّ القصص مضى، لاستحضار حالة هذا القصص البليغ.

{ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ } معترضة، حال من {الْقُرَى}. القائم: الزرع المستقلّ على سوقه. والحصيد: الزرع المحصود. فعيل بمعنى مفعول. والمعنى: منها زرع قائم وزرع حصيد، وهذا تشبيه بليغ للباقي من القرى والعافي. والمراد بالقائم ما كان من القرى التي قصّها الله في القرآن قرى قائما بعضها كآثار بلد فرعون كالأهرام، ومثل آثار نينوى بلد قوم يونس. وأنطاكية قرية المرسلين الثلاثة، وصنعاء بلد قوم تبع. وقرى بائدة مثل ديار عاد، وقرى قوم لوط، وقرية مدين. وليس المراد القرى المذكورة في هذه السورة خاصة. والمقصود من هذه الجملة الاعتبار.

{ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ } ضمير الغيبة عائد إلى {الْقُرَى} باعتبار أهلها لأنّهم المقصود. وإنّما لم يظلمهم الله تعالى لأنّ ما أصابهم به من العذاب جزاء عن سوء أعمالهم فكانوا هم الظالمين أنفسهم إذ جرّوا لأنفسهم العذاب.

{ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ } وفرّع على ظلمهم أنفسهم انتفاء إغناء آلهتهم عنهم شيئا، فهم لمّا عبدوها كانوا يعبدونها للخلاص من طوارق الحدثان ولتكون لهم شفعاء عند الله وكانوا في أمن من أن ينالهم بأس في الدنيا اعتمادا على دفع أصنامهم عنهم فلمّا جاء أمرهم بضدّ ذلك كان ذلك الضدّ مضادا لتأميلهم وتقديرهم.

والغرض من هذا التفريع التعريض بتحذير المشركين من العرب من الاعتماد على نفع الأصنام.

{ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } أي زادتهم أسباب الخسران.

التتبيب: مصدر تبّبه إذا أوقعه في التباب وهو **الخسارة**. وظاهر هذا أنّ أصنامهم زادتهم تتبيبا لمّا جاء أمر الله.

{ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [102]

الإشارة إلى المذكور من استئصال تلك القرى. والتقدير: وكذلك الأخذ الذي أخذنا به تلك القرى. والتشبيه في الكيفيّة والعاقبة.

والمقصود من هذا التذييل تعريض بتهديد مشركي العرب من أهل مكّة وغيرها.

الظلم: الشرك.

{ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } في موضع البيان. وفيه إشارة إلى وجه الشبه.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ [103] وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ } [104].

بيان للتعريض، وتصريح بعد تلويح. والمعنى: وكذلك أخذ ربك فاحذروه واحذروا ما هو أشدّ منه وهو عذاب الآخرة. والإشارة إلى الأخذ المتقدّم. وفي هذا تخلّص إلى موعظة المسلمين والتعريض بمدحهم بأنّ مثلهم من ينتفع بالآيات ويعتبر بالعبر.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً } جعل عذاب الدنيا آية دالة على عذاب الآخرة لأنّ القرى الظالمة توعّدها الله بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فلمّا عاينوا عذاب الدنيا كان تحقّقه أمارة على تحقّق العذاب الآخر.

{ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ } معترضة للتنويه بشأن هذا اليوم. واللام في {مَجْمُوعٌ لَهُ} لام العلّة، أي مجموع النّاس لأجله. ومجيء الخبر جملة اسمية في الإخبار عن اليوم يدلّ على معنى الثبات، أي ثابت جمع الله النّاس لأجل ذلك اليوم.

{ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ } لزيادة التهويل لليوم بأنّه يُشهد. وطوي ذكر الفاعل إذ المراد يشهده الشاهدون. والإخبار عنه بهذا يؤذن بأنّهم يشهدونه شهودا خاصا، وهو شهود الشيء المهول.

ويجوز أن يكون المشهود بمعنى المحقّق، أي مشهود بوقوعه، كما يقال: حقّ مشهود، أي عليه شهود لا يستطاع إنكاره، واضح للعيان.

{ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ } معترضة بين {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ} وبين {يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ} [105]. والمقصود الردّ على المنكرين للبعث، فبيّن الله لهم أنّ تأخيره إلى أجل حدّده الله له من يوم خلق العالم كما حدّد آجال الأحياء.

الأجل: أصله المدّة المنظر إليها في أمر، ويطلق أيضا على نهاية تلك المدّة، وهو المراد هنا بقرينة اللام، كما أريد في قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ } [الأعراف: 34].

المعدود: أصله المحسوب، وأطلق هنا كناية عن المعيّن المضبوط، بحيث لا يتأخّر ولا يتقدّم لأن المعدود يلزمه التعيّن. أو هو كناية عن القرب.

{ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ [105] فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ [106] خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ [107] وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ } [108].

تفصيل لمدلول { ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ }، وبيّنت عظمة ذلك اليوم في الشرّ والخير تبعا لذلك التفصيل. فالمقصد الأوّل من هذه الجملة هو قوله {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} وما بعده، وأمّا ما قبله فتمهيد له أفصح عن عظمة ذلك اليوم. وقد جاء نظم الكلام على تقديم وتأخير اقتضاه وضع الاستطراد بتعظيم هول اليوم، في موضع الكلام المتّصل لأنّه أسعد بتناسب أغراض الكلام، والظروف صالحة لاتصال الكلام كصلاحية الحروف العاطفة وأدوات الشرط.

{ يَوْمَ يَأْتِ } مستعمل في معنى (حين) أو (ساعة)، وهو استعمال شائع في الكلام العربي في لفظ (يوم) و(ليلة) توسّعا بإطلاقهما على جزء من زمانهما.

ومعناه حين يأتي. وضمير {يَأْتِ} عائد إلى { يَوْمٌ مَشْهُودٌ } [103] وهو يوم القيامة. والمراد بإتيانه وقوعه وحلوله كقوله {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ} [الزخرف: 66].

{ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ } مستأنفة ابتدائية. والتقدير: لا تكلّم نفس حين يحلّ اليوم المشهود.

{ إِلَّا بِإِذْنِهِ } الضميرعائد إلى الله تعالى المفهوم من المقام ومن ضمير {نُؤَخِّرُهُ} [104]. والمعنى أنّه لا يتكلّم أحد إلّا بإذن من الله. والمقصود من هذا إبطال اعتقاد أهل الجاهلية أنّ الأصنام لها حقّ الشفاعة عند الله.

{ نَفْسٌ } يعمّ جميع النفوس لوقوعه في سياق النفي، فشمل النفوس البرّة والفاجرة، وشمل كلام الشافع وكلام المجادل عن نفسه.

الشقيّ: فعيل صفة مشبّهة من شقي، إذا تلبّس بالشقاء والشقاوة، أي سوء الحالة وشرّها.

السعيد: ضدّ الشقي، وهو المتلبّس بالسعادة التي هي الأحوال الحسنة الخيّرة.

والمعنى: فمنهم يومئذ من هو في عذاب وشدّة ومنهم من هو في نعمة ورخاء.

{ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا } تفصيل

الزفير: إخراج الأنفاس بدفع وشدّة بسبب ضغط التنفس.

الشهيق: عكسه وهو اجتلاب الهواء إلى الصدر بشدة لقوة الاحتياج إلى التنفس.

{ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ } التأبيد لأنّه جرى مجرى المثل، وإلّا فإنّ السماوات والأرض المعروفة تضمحّل يومئذ، قال تعالى { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ } [إبراهيم: 48]. أو يراد سماوات الآخرة وأرضها.

{ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ } استثناء من الأزمان التي عمّها الظرف، أي إلّا الأزمان التي شاء الله فيها عدم خلودهم، ويستتبع ذلك استثناء بعض الخالدين تبعا للأزمان. وقد تكرّر هذا الاستثناء في الآية مرتين.

فأمّا الأول منهما، فالمقصود أنّ أهل النّار مراتب في طول المدة فمنهم من يعذب ثم يعفى عنه، مثل أهل المعاصي من الموحّدين، كما في الصحيح من حديث أنس: " يدخل ناس جهنّم حتّى إذا صاروا كالحممة أخرجوا وأدخلوا الجنة فيقال: هؤلاء الجهنّميّون ".

ومنهم الخالدون وهم المشركون والكفار.

{ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ } استئناف بياني ناشئ عن الاستثناء. وهذا مظهر من مظاهر التفويض إلى الله.

{ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا } وأمّا الاستثناء الثاني في هذا القول فيحتمل معنيين:

أحدهما: أن يراد إلّا ما شاء ربك في أول أزمنة القيامة، وهي المدّة التي يدخل فيها عصاة المؤمنين غير التائبين في العذاب إلى أن يعفو الله عنهم بفضله بدون شفاعة، أو بشفاعة.

ويحتمل أن يقصد منه التحذير من توهّم استحقاق أحد ذلك النعيم حقّا على الله، بل هو مظهر من مظاهر الفضل والرحمة.

وقد دلّت الوعود الإلهيّة على أنّ الله لا يشاء إخراج أهل الجنّة منها. وأيّا ما كان فهم إذا أدخلوا الجنّة كانوا خالدين فيها فلا ينقطع عنهم نعيمها. وهو معنى قوله {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ }.

المجذوذ: المقطوع.

{ سُعِدُوا } بمعنى أسعدوا. وقيل: سعد متعد في لغة هذيل وتميم، يقولون: سعده الله بمعنى أسعده. وخرج أيضا على أنّ أصله أسعدوا. ومنه قولهم: رجل مسعود.

{ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ }[109]

تفريع على القصص الماضية فإنّها تكسب سامعها يقينا بباطل ما عليه عبدة الأصنام وبخيبة ما أمّلوه فيهم من الشفاعة في الدنيا، وإنّ سابق شقائهم في الدنيا بعذاب الاستئصال يؤذن بسوء حالهم في الآخرة، ففرّع على ذلك نهي السامع أن يشكّ في سوء الشرك وفساده.

{ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ } الخطاب يقصد به أي سامع سواء كان ممن يظنّ به أن يشكّ في ذلك أم لا.

ويجوز أن يكون الخطاب للنبيء ﷺ، ويكون مقصودا به مجرد تحقيق الخبر، فإنّه جرى مجرى المثل في ذلك في كلام العرب مثل كلمة: لا شك، ولا محالة، ولا أعرفنك، ونحوها.

ويجوز أن يكون تثبيتا للنبيء ﷺ على ما يلقاه من قومه من التصلّب في الشرك، أي لا تكن شاكا في أنّك لقيت من قومك من التكذيب مثل ما لقيته الرسل من أممهم فإنّ هؤلاء ما يعبدون إلّا عبادة كما يعبد آباؤهم من قبل متوارثينها عن أسلافهم من الأمم البائدة.

المِرية (بكسر الميم): الشكّ. أصل المراد المجادلة والمدافعة مستعارا من مريت الشاة إذا استخرجت لبنها. ومنه قولهم: لا يجارى ولا يمارى. وفي القرآن { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى } [النجم: 12]. وتقدّم **الامتراء** عند قوله { ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ } [الأنعام:2].

{ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ } الإشارة بهؤلاء إلى مشركي قريش. وقد تتبعت اصطلاح القرآن فوجدته عناهم باسم الإشارة هذا في نحو أحد عشر موضعا وهو مما ألهمت إليه ونبهت عليه عند قوله تعالى { وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41].

{ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ } مستأنفة، تعليلا لانتفاء الشك في عاقبة أمرهم في الدنيا.

ووجه كونه علّة أنّه لمّا كان دينهم عين دين من كان قبلهم من آبائهم، وقد بلغكم ما فعل الله بهم عقابا على دينهم، فأنتم توقنون بأنّ جزاءهم سيكون مماثلا لجزاء أسلافهم، لأنّ حكمة الله تقتضي المساواة في الجزاء على الأعمال المتماثلة.

الآباء: أطلق على الأسلاف، وهم عاد وثمود. وذلك أنّ العرب العدنانيين كانت أمّهم جرهميّة، وهي امرأة إسماعيل، وجرهم من إخوة ثمود، وثمود إخوة لعاد، ولأنّ قريشا كانت أمّهم خزاعية وهي زوج قصي. وعبادة الأصنام في العرب أتاهم بها عمرو بن يحيى، وهو جدّ خزاعة.

وعبّر عن عبادة الآباء بالمضارع للدلالة على استمرارهم على تلك العبادة، أي إلّا كما اعتاد آباؤهم عبادتهم.

{ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ } المعنى: وإنّا لموفوهم نصيبهم من العذاب كما وفّينا أسلافهم.

التوفية: إكمال الشيء غير منقوص.

النصيب: أصله الحظّ. وقد استعمل (موفوهم) و(نصيبهم) هنا استعمالا تهكّميا كأنّ لهم عطاء يسألونه فوفّوه، فوقع قوله { غَيْرَ مَنْقُوصٍ } حالا مؤكدة لتحقيق التوفية زيادة في التهكم.

والمراد نصيبهم من عذاب الآخرة، فإن الله لم يستأصلهم كما استأصل الأمم السابقة ببركة النبيء ﷺ إذ قال: " لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده ".

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ } [110].

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ }.

اعتراض لتثبيت النبيء ﷺ وتسليته بأنّ أهل الكتاب، وهم أحسن حالا من أهل الشرك، قد أوتوا الكتاب فاختلفوا فيه، وهم أهل ملّة واحدة فلا تأس من اختلاف قومك عليك.

{ فَاخْتُلِفَ فِيهِ } أي في الكتاب، وهو التوراة. وبني الفعل للمجهول إذ الغرض لم يكن متعلّقا ببيان المختلفين ولا بذمّهم، بل كان للتحذير من الوقوع في مثله. ومعنى الاختلاف فيه اختلاف أهل التوراة في تقرير بعضها وإبطال بعض، وفي إظهار بعضها وإخفاء بعض مثل حكم الرجم، وفي تأويل البعض على هواهم، وفي إلحاق أشياء بالكتاب على أنّها منه. فهذا من شأنه أن يقع من بعضهم لا من جميعهم فيقتضي الاختلاف بينهم بين مثبت وناف. وهذا الاختلاف بأنواعه وأحواله يرجع إلى الاختلاف في شيء من الكتاب. فجمعت هذه المعاني جمعا بديعا في تعدية الاختلاف بحرف (في) الدالة على الظرفية المجازية وهي كالملابسة، أي فاختلف اختلافا يلابسه، أي يلابس الكتاب.

{ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } أي ولولا ما سبق من حكمة الله أن يؤخّر عنهم العذاب لقضي بينهم، أي لقضى الله بينهم، فأهلك المشركين والمخالفين ونصر المؤمنين.

أي فعليكم بالحذر من الاختلاف في كتابكم فإنّكم إن اختلفتم بقيتم في شك ولحقكم جزاء أعمالكم.

{ الكلمة } هي إرادة الله الأزليّة وسنّته في خلقه. وهي أنّه وكّل النّاس إلى إرشاد الرّسل للدعوة إلى الله، وإلى النظر في الآيات، ثمّ إلى بذل الاجتهاد التام في إصابة الحقّ، والسعي إلى الاتفاق ونبذ الخلاف بصرف الأفهام السديدة إلى المعاني، وبالمراجعة فيما بينهم، والتبصّر في الحق، والإنصاف في الجدل والاستدلال، وأن يجعلوا الحق غايتهم والاجتهاد دأبهم.

{ سَبَقَتْ } ووصفها بالسبق لأنّها أزليّة، باعتبار تعلّق العلم بوقوعها، وبأنّها ترجع إلى سنة كلّيّة تقرّرت من

قبل.

{ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } قضاء استئصال المُبْطل واستبقاء المُحقّ، كما قضى الله بين الرّسل والمكذّبين، ولكن إرادة الله اقتضت خلاف ذلك بالنسبة إلى فهم الأمّة كتابها.

{ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ } أي أنّ المشركين لفي شك من توفية نصيبهم لأنّهم لا يؤمنون بالبعث.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة {فَاخْتُلِفَ فِيهِ} ، أي فاختلف فيه أهل الكتاب، أي اختلف أهل الكتاب في كتابهم وإنّهم لفي شك.

{ مِنْهُ } يجوز أن يعود إلى توراة. ويجوز أن يكون ضمير عائدا إلى القرآن.

المريب: الموقع في الشكّ.

{ وَإِنَّ كُلّاً لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [111]

تذييل للأخبار السابقة، والواو اعتراضية. أي كلّ المذكورين آنفا من أهل القرى، ومن المشركين المعرّض بهم، ومن المختلفين في الكتاب من أتباع موسى - عليه السلام- .

ومعنى الكثرة في هذه الآية الكناية عن عدم إفلات فريق من المختلفين في الكتاب من إلحاق الجزاء عن عمله به.

والمعنى: وإن جميعهم للاقون جزاء أعمالهم لا يفلت منهم أحد، وإنّ توفية الله إياهم أعمالهم حقّقه الله ولم يسامح فيه. فهذا التخريج هو أولى الوجوه التي خرجت عليها هذه القراءة وهو مروي عن الفرّاء وتبعه المهدوي ونصر الشيرازي النحوي، ومشى عليه البيضاوي.

وتوفية أعمالهم بمعنى توفية جزاء الأعمال، أي إعطاء الجزاء وافيا من الخير على عمل الخير ومن السوء على عمل السوء.

{ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } استئناف وتعليل للتوفية لأنّ إحاطة العلم بأعمالهم مع إرادة جزائهم توجب أن يكون الجزاء مطابقا للعمل تمام المطابقة. وذلك محقّق التوفية.

{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [112]

{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ }

ترتّب عن التسلية التي تضمّنها قوله { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ } [110] وعن التثبيت المفاد بقوله { فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ } [109] الحضّ على الدوام على التمسّك بالإسلام على وجه قويم.

وعبّر عن ذلك بالاستقامة لإفادة الدوام على العمل بتعاليم الإسلام، دواما جماعه الاستقامة عليه والحذر من تغييره.

ولمّا كان الاختلاف في كتاب موسى عليه السلام إنما جاء من أهل الكتاب عطف على أمر النبيء صلى الله عليه وسلم بالاستقامة على كتابه أمر المؤمنين بتلك الاستقامة أيضا، لأن الاعوجاج من دواعي الاختلاف في الكتاب بنهوض فرق من الأمة إلى تبديله لمجاراة أهوائهم، ولأنّ مخالفة الأمّة عمدا إلى أحكام كتابها إن هو إلّا ضرب من ضروب الاختلاف فيه، لأنّه اختلافها على أحكامه. وفي الحديث: " فإنّما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم" ، فلا جرم أن كانت الاستقامة حائلا دون ذلك، إذ الاستقامة هي العمل بكمال الشريعة بحيث لا ينحرف عنها قيد شبر. ومتعلّقها العمل بالشريعة بعد الإيمان لأنّ الإيمان أصل فلا تتعلق به الاستقامة. وقد أشار إلى صحّة هذا المعنى قول النبيء ﷺ لأبي عمرة الثقفي لمّا قال له: " يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك. قال: قل آمنت بالله ثم استقم ". فجعل الاستقامة شيئا بعد الإيمان.

ووجّه الأمر إلى النبيء ﷺ تنويها ليبنى عليه قوله {كَمَا أُمِرْتَ} فيشير إلى أنّه المتلقّي للأوامر الشرعية ابتداء. وهذا تنويه له بمقام رسالته، ثم أعلم بخطاب أمته بذلك بقوله {وَمَنْ تَابَ مَعَكَ}، وهم المؤمنون، لأن الإيمان توبة من الشرك.

قال ابن عباس: " ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه. ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب " شيبتي هود وأخواتها ". وسئل عما في هود فقال: قوله {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ }.

{ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } الخطاب موجّه إلى المؤمنين.

الطغيان: أصله التعاظم والجراءة وقلّة الاكتراث، وتقدّم في قوله {وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [البقرة:15]. والمراد هنا الجراءة على مخالفة ما أمروا به. فنهى الله المسلمين عن مخالفة أحكام كتابه.

وقد شمل الطغيان أصول المفاسد، فكانت الآية جامعة لإقامة المصالح ودرء المفاسد، فكان النهي عنه جامعا لأحوال مصادر الفساد من نفس المفسد وبقي ما يخشى عليه من عدوى فساد خليطه فهو المنهى عنه بقوله بعد هذا { وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ } [113]. وعن الحسن البصري: جعل الله الدين بين لاءين {وَلا تَطْغَوْا} {وَلا تَرْكَنُوا}.

{ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } استئناف لتحذير من أخفى الطغيان بأنّ الله مطّلع على كل عمل يعمله المسلمون، ولذلك اختير وصف {بَصِيرٌ} من بين بقية الأسماء الحسنى لدلالة مادته على العلم البين ودلالة صيغته على قوته.

{ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ}[113]

الركون: الميل والموافقة. ولعلّه مشتق من الرُكْن (بضم فسكون) وهو الجنب، لأنّ المائل يدني جنبه إلى الشيء الممال إليه. وهو هنا مستعار للموافق، فبعد أن نهاهم عن الطغيان نهاهم عن التقارب من المشركين لئلا يضلّوهم ويزلّوهم عن الإسلام.

{ الَّذِينَ ظَلَمُوا } هم المشركون. وهذه الآية أصل في سد ذرائع الفساد المحقّقة أو المظنونة.

المسّ: مستعمل في الإصابة. والمراد: نار العذاب في جهنّم.

{ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ } حال، أي لا تجدون من يسعى لما ينفعكم.

{ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ } للتراخي الرتبي، أي ولا تجدون من ينصركم، أي من يخفّف عنكم مسّ عذاب النّار أو يخرجكم منها.

{ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}[114]

انتقل من خطاب المؤمنين إلى خطاب النبيء ﷺ وهذا الخطاب يتناول جميع الأمّة بقرينة أنّ المأمور به من الواجبات على جميع المسلمين، لا سيما وقد ذكر معه ما يناسب الأوقات المعيّنة للصلوات الخمس، وذلك ما اقتضاه حديث أبي اليسر الآتي.

طرف الشيء: منتهاه من أوله أو من آخره، فالتثنية صريحة في أن المراد أوّل النهار وآخره.

{ النَّهَارِ } : ما بين الفجر إلى غروب الشمس، سمّي نهارا لأنّ الضياء ينهر فيه، أي يبرز كما يبرز النهر. والأمر بالإقامة يؤذن بأنّه عمل واجب لأنّ الإقامة إيقاع العمل على ما يستحقّه، فتقتضي أنّ المراد بالصلاة هنا الصلاة المفروضة، فالطرفان ظرفان لإقامة الصلاة المفروضة، فعلم أنّ المأمور إيقاع صلاة في أوّل النّهار وهي الصبح وصلاة في آخره وهي العصر وقيل المغرب.

{ زُلَفاً }، جمع زلفة مثل غرفة وغرف، وهي الساعة القريبة من أختها، فعلم أنّ المأمور إيقاع الصلاة في زلف من الليل، ولمّا لم تعيّن الصلوات المأمور بإقامتها في هذه المدة من الزمان كان ذلك مجملا فبيّنته السنّة والعمل المتواتر بخمس صلوات هي الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وكان ذلك بيانا لآيات كثيرة في القرآن كانت مجملة في تعيين أوقات الصلوات مثل قوله تعالى { أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً} [الإسراء: 78].

والمقصود أن تكون الصلاة أوّل أعمال المسلم إذا أصبح وهي صلاة الصبح وآخر أعماله إذا أمسى وهي صلاة العشاء لتكون السيّئات الحاصلة فيما بين ذلك ممحوّة بالحسنات الحافة بها. وهذا مشير إلى حكمة كراهة الحديث بعد صلاة العشاء. وقد ثبت وجوبهما بأدلة أخر وليس في هذه الآية ما يقتضي حصر الوجوب في المذكور فيها.

{ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** } مسوقة مساق التعليل للأمر بإقامة الصلوات، وتأكيد الجملة بحرف { **إِنَّ** } للاهتمام وتحقيق الخبر.

وإذهاب السيئات يشمل إذهاب وقوعها بأن يصير انسياق النفس إلى ترك السيئات سهلا وهيّنا. ويشمل أيضا محو إثمها إذا وقعت، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلّها فضلا من الله على عباده الصالحين.

ومحمل السيئات هنا على السيئات الصغائر التي هي من اللمم حملا لمطلق هذه الآية على مقيّد آية { الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ} [النجم: 32] وقوله تعالى {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [النساء:31]، فيحصل من مجموع الآيات أنّ اجتناب الفواحش جعله الله سببا لغفران الصغائر أو أنّ الإتيان بالحسنات يذهب أثر السيئات الصغائر، وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [النساء 31].

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: " أنّ رجلا أصاب من امرأة قبلة حرام فأتى النبيء ﷺ فذكر ذلك فأنزلت عليه {وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ} . فقال الرجل: ألي هذه؟ قال: لمن عمل بها من أمتي ".

والظاهر أن المروي في هذه الآية هو الذي حمل ابن عباس وقتادة على القول بأن هذه الآية مدنية دون بقية هذه السورة لأنّه وقع عند البخاري والترمذي قوله: " فأنزلت عليه " فإن كان كذلك كما ذكره الراوي فهذه الآية ألحقت بهذه السورة في هذا المكان لمناسبة وقوع قوله {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} [112] قبلها وقوله {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [115] بعدها.

وأما الذين رجّحوا أن السورة كلّها مكّية فقالوا: إن الآية نزلت في الأمر بإقامة الصلوات وإن النبيء صلى الله عليه وسلم أخبر بها الذي سأله عن القبلة الحرام وقد جاء تائبا. ويؤيد ذلك ما في رواية الترمذي عن علقمة والأسود عن ابن مسعود قوله: فتلا عليه رسول الله ﷺ {وَأَقِمِ الصَّلاةَ} ، ولم يقولا: فأنزل عليه.

{ **ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ** } أي تذكرة للذي شأنه أن يذّكر ولم يكن شأنه الإعراض عن طلب الرشد والخير.

{ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }[115]

سيقت مساق التثبيت من جرّاء تأخير عقاب الذين كذبوا. ومناسبة وقوع الأمر بالصبر عقب الأمر بالاستقامة والنهي عن الركون إلى الذين ظلموا، أنّ المأمورات لا تخلو عن مشقّة عظيمة ومخالفة لهوى كثير من النفوس، فناسب أن يكون الأمر بالصبر بعد ذلك ليكون الصبر على الجميع كلّ بما يناسبه.

وتوجيه الخطاب إلى النبيء ﷺ تنويه به. والمقصود هو وأمته.

وسمّي الثواب أجرا لوقوعه جزاء على الأعمال وموعودا به فأشبه الأجر.

{ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ }[116]

هذا قوي الاتصال بقوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ} [102] فيجوز أن يكون تفريعا عليه ويكون ما بينهما اعتراضا دعا إليه الانتقال الاستطرادي في معان متماسكة. والمعنى فهلّا كان في تلك الأمم أصحاب بقيّة من خير فنهوا قومهم عن الفساد لما حلّ بهم ما حلّ. وذلك إرشاد إلى وجوب النهي عن المنكر.

ويجوز أن يكون تفريعا على قوله تعالى {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} [112] والآية تفريع على الأمر بالاستقامة والنهي عن الطغيان وعن الركون إلى الذين ظلموا، إذ المعنى: ولا تكونوا كالأمم من قبلكم إذ عدموا من ينهاهم عن الفساد في الأرض وينهاهم عن تكذيب الرّسل فأسرفوا في غلوائهم حتّى حلّ عليهم غضب الله إلّا قليلا منهم، فإن تركتم ما أمرتم به كان حالكم كحالهم، ولأجل هذا المعنى أتي بفاء التفريع. كأنّه قيل: وإن كلّا لما ليوفّينّهم ربك أعمالهم فلولا كان منهم بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلى آخره، أي فاحذروا أن تكونوا كما كانوا فيصيبكم ما أصابهم، وكونوا مستقيمين ولا تطغوا ولا تركنوا إلى الظالمين وأقيموا الصلاة، فغيّر نظم الكلام إلى هذا الأسلوب الذي في الآية لتفنّن فوائده ودقائقه واستقلال أغراضه مع كونها آيلة إلى غرض يعمّمها. وهذا من أبدع أساليب الإعجاز الذي هو كرد العجز على الصدر من غير تكلف ولا ظهور قصد. ويقرب من هذا المعنى قول النبيء ﷺ: "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم. "

لَوْلا، حرف تحضيض بمعنى "هلا". وتحضيض الفائت لا يقصد منه إلّا تحذير غيره من أن يقع فيما وقعوا فيه والعبرة بما أصابهم.

القرون: الأمم. وتقدّم في أوّل الأنعام.

البقية: الفضل والخير. وأطلق على الفضل البقيّة كناية غلبت فسارت مسرى الأمثال، لأنّ شأن الشيء النفيس أنّ صاحبه لا يفرّط فيه. وبقيّة النّاس: سادتهم وأهل الفضل منهم. والمعنى هنا: أولو فضل ودين وعلم بالشريعة. فليس المراد الرّسل ولكن أريد أتباع الرّسل وحملة الشرائع ينهون قومهم عن الفساد في الأرض.

الفساد: المعاصي واختلال الأحوال.

وفي هذا تنويه بأصحاب النبيء ﷺ فإنّهم أولو بقيّة من قريش يدعونهم إلى إيمان حتّى آمن كلّهم، وأولو بقية بين غيرهم من الأمم الذين اختلطوا بهم يدعونهم إلى الإيمان والاستقامة بعد الدخول فيه ويعلّمون الدين، كما قال تعالى فيهم {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: 110].

{ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ } استثناء منقطع من {أُولُو بَقِيَّةٍ}، وهو في معنى الاستدراك لأنّ معنى التحضيض متوجّه إلى القرون الذين لم يكن فيهم أولو بقية فهم الذين ينعى عليهم فقدان ذلك الصنف منهم. وهؤلاء القرون ليس منهم من يستثنى إذ كلّهم غير ناجين من عواقب الفساد، ولكن لمّا كان معنى التحضيض قد يوهم أن جميع القرون التي كانت قبل المسلمين قد عدموا أولي بقيّة مع أنّ بعض القرون فيهم أولو بقيّة كان الموقع للاستدراك لرفع هذا الإيهام، فصار المستثنى غير داخل في المذكور من قبل، فلذلك كان منقطعا، وعلامة انقطاعه انتصابه لأنّ نصب المستثنى بعد النفي إذا كان المستثنى منه غير منصوب أمارة على اعتبار الانقطاع إذ هو الأفصح. وهل يجيء أفصح كلام إلّا على أفصح إعراب، ولو كان معتبرا اتصاله لجاء مرفوعا على البدلية من المذكور قبله.

(من) بيان للقليل، لأن الذين أنجاهم الله من القرون هم القليل الذين ينهون عن الفساد، وهم أتباع الرسل. وفي البيان إشارة إلى أنّ نهيهم عن الفساد هو سبب إنجاء تلك القرون لأنّ النهي سبب السبب، إذ النهي يسبب الإقلاع عن المعاصي الذي هو سبب النجاة.

{ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ } تصريح بمفهوم الاستثناء وتبيين لإجماله. والمعنى: وأكثرهم لم ينهوا عن الفساد ولم ينتهوا هم ولا قومهم واتّبعوا ما أترفوا فيه، تفصيلا لمفهوم الاستثناء. واتباع ما أترفوا فيه هو الانقطاع له والإقبال عليه إقبال المتّبع على متبوعه.

أترفوا: أعطوا الترف، وهو السعة والنعيم الذي سهّله الله لهم فالله هو الذي أترفهم فلم يشكروه.

وفي الآية عبرة وموعظة للعصاة من المسلمين لأنّهم لا يخلون من ظلم أنفسهم.

{ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ } أي في اتباع الترف فلم يكونوا شاكرين. وفي الكلام إيجاز حذف آخر، والتقدير: فحقّ عليهم هلاك المجرمين.

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ }[117]

عطف على { وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ } [116] لما يؤذن به مضمون الجملة المعطوف عليها من تعرّض المجرمين لحلول العقاب بهم بناء على وصفهم بالظلم والإجرام، فعقّب ذلك بأنّ نزول العذاب ممن نزل به منهم لم يكن ظلما من الله تعالى ولكنّهم جرّوا لأنفسهم الهلاك بما أفسدوا في الأرض والله لا يحب الفساد.

{ الْقُرَى } أهلها، على طريقة المجاز المرسل كقوله {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف: 82].

{ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } حال من {الْقُرَى}، فالله تعالى لا يهلك قوما ظالما لهم ولكن يهلك قوما ظالمين أنفسهم.

{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ [118] إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [119].

لمّا كان النعي على الأمم الذين لم يقع فيهم من ينهون عن الفساد فاتّبعوا الإجرام، وكان الإخبار عن إهلاكهم بأنّه ليس ظلما من الله وأنّهم لو كانوا مصلحين لما أهلكوا، لمّا كان ذلك كلّه قد يثير توهّم أنّ تعاصي الأمم عمّا أراد الله منهم خروج عن قبضة القدرة الإلهية أعقب ذلك بما يرفع هذا التوهّم بأنّ الله قادر أن يجعلهم أمّة واحدة متّفقة على الحقّ مستمرة عليه كما أمرهم أن يكونوا.

ولكن الحكمة التي أقيم عليها نظام هذا العالم اقتضت أن يكون نظام عقول البشر قابلا للتطوّح بهم في مسلك الضلالة أو في مسلك الهدى على مبلغ استقامة التفكير والنظر، والسلامة من حُجُب الضلالة، وأنّ الله تعالى لمّا خلق العقول صالحة لذلك جعل منها قبول الحقّ بحسب الفطرة التي هي سلامة العقول من عوارض الجهالة والضلال وهي الفطرة الكاملة المشار إليها بقوله تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} ، وتقدم الكلام عليها في سورة البقرة [213]. لم يدخرهم إرشادا أو نصحا بواسطة الرسل ودعاة الخير وملقّنيه من أتباع الرسل، وهم أولو البقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض، فمن النّاس مهتد وكثير منهم فاسقون. ولو شاء لخلق العقول البشرية على إلهام متّحد لا تعدوه كما خلق إدراك الحيوانات العجم على نظام لا تتخطاه من أوّل النشأة إلى انقضاء العالم، فنجد حال البعير والشاة في زمن آدم عليه السلام كحالهما في زماننا هذا، وكذلك يكون إلى انقراض العالم، فلا شك أنّ حكمة الله اقتضت هذا النظام في العقل الإنساني لأنّ ذلك أوفى بإقامة مراد الله تعالى من مساعي البشر في هذه الحياة الدنيا الزائلة المخلوطة، لينتقلوا منها إلى عالم الحياة الأبديّة الخالصة إن خيرا فخير وإن شرّا فشر، فلو خلق الإنسان كذلك لما كان العمل الصالح مقتضيا ثواب النعيم ولا كان الفساد مقتضيا عقاب الجحيم، فلا جرم أنّ الله خلق البشر على نظام من شأنه طريان الاختلاف بينهم

في الأمور، ومنها أمر الصلاح والفساد في الأرض وهو أهمها وأعظمها ليتفاوت النّاس في مدارج الارتقاء ويسموا إلى مراتب الزلفى فتتميّز أفراد هذا النوع في كلّ أنحاء الحياة حتّى يعدّ الواحد بألف { لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ } [الأنفال: 37].

والتقدير: ولو شاء ربك أن يجعل النّاس أمّة واحدة لجعلهم كذلك.

الأمّة: الطائفة من النّاس الذين اتّحدوا في أمر من عظائم أمور الحياة كالموطن واللغة والنسب والدين. فتفسر الأمّة في كل مقام بما تدلّ عليه إضافتها إلى شيء من أسباب تكوينها كما يقال: الأمّة الإسلامية.

ومعنى كونها واحدة أن يكون البشر كلّهم متّفقين على اتّباع دين الحقّ كما يدل عليه السياق، فآل المعنى إلى: لو شاء ربك لجعل النّاس أهل ملّة واحدة فكانوا أمّة واحدة من حيث الدين الخالص.

{ **وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ** } عقّب العموم باستثناء من ثبتوا على الدين الحقّ ولم يخالفوه، أي فعصمهم من الاختلاف.

وفهم من هذا أن الاختلاف المذموم المحذّر منه هو الاختلاف في أصول الدين الذي يترتب عليه اعتبار المخالف خارجا عن الدين وإن كان يزعم أنه من متبعيه، فإذا طرأ هذا الاختلاف وجب على الأمة قصمه وبذل الوسع في إزالته من بينهم بكل وسيلة من وسائل الحق والعدل بالإرشاد والمجادلة الحسنة والمناظرة، فإن لم ينجع ذلك فبالقتال. وهذه الآية تحذير شديد من ذلك الاختلاف.

{ **وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** } تأكيد بمضمون {وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}. واللام للتعليل لأنّه لمّا خلقهم على جبلّة قاضية باختلاف الآراء والنزعات وكان مريدا لمقتضى تلك الجبلّة وعالما به كما بيّنّاه آنفا كان الاختلاف علّة غائية لخلقهم، والعلة الغائية لا يلزمها القصر عليها بل يكفي أنّها غاية الفعل، وقد تكون معها غايات كثيرة أخرى فلا ينافي ما هنا قوله { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات: 56] لأنّ القصر هنالك إضافي، أي إلّا بحالة أن يعبدوني لا يشركوا، والقصر الإضافي لا ينافي وجود أحوال أخرى غير ما قصد الرد عليه بالقصر كما هو بيّن لمن مارس أساليب البلاغة العربية.

{ **وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** } وتمام كلمة الرب مجاز في الصدق والتحقّق، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً } [الأنعام:115]، فالمختلفون هم نصيب جهنّم. فكلمة الله: تقديره وإرادته. أطلق عليها {كلمة} مجازا لأنّها سبب في صدور كلمة (كن) وهي أمر التكوين.

{ **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ** } تفسير للكلمة. ويجوز أن تكون الكلمة كلاما خاطب به الملائكة قبل خلق النّاس.

{ **مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** } تبعيض، أي لأملأن جهنم من الفريقين. و{ أَجْمَعِينَ } تأكيد لشمول تثنية كلا النوعين لا لشمول جميع الأفراد لمنافاته لمعنى التبعيض الذي أفادته {مِنَ}.

{ وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }[120]

هذا تذييل وحوصلة لما تقدّم من أنباء القرى وأنباء الرسل. وهذا تهيئة لاختتام السورة وفذلكة لما سيق فيها من القصص والمواعظ.

القصص: يأتي بيانه عند قوله تعالى {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} [يوسف:3].

التثبيت: حقيقته التسكين في المكان بحيث ينتفي الاضطراب والتزلزل. مستعار للتقرير.

الفؤاد: أطلق على الإدراك كما هو الشائع في كلام العرب.

وتثبيت فؤاد الرسول ﷺ زيادة يقينه ومعلوماته بما وعده الله لأنّ كلّ ما يعاد ذكره من قصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم يزيده تذكّرا وعلما بأنّ حاله جار على سنن الأنبياء، وتجدّد تسلية على ما يلقاه من قومه من التكذيب وذلك يزيده صبرا، والصبر تثبيت الفؤاد.

وأنّ تماثل أحوال الأمم تلقاء دعوة أنبيائها مع اختلاف العصور يزيده علما بأنّ مراتب العقول البشرية متفاوتة، وأن قبول الهدي هو منتهى ارتقاء العقل، فيعلم أن الاختلاف شنشنة قديمة في البشر، وأن المصارعة بين الحق والباطل شأن قديم، وهي من النواميس التي جبل عليها النظام البشري، فلا يحزنه مخالفة قومه عليه، ويزيده علما بسموّ أتباعه الذين قبلوا هداه، واعتصموا من دينه بعراه.

{ فِي هَذِهِ } الإشارة إلى السورة وروي عن ابن عباس، فيقتضي أنّ هذه السورة كانت أوفى بأنباء الرسل من السور النازلة قبلها وبهذا يجري على قول من يقول: إنها نزلت قبل سورة يونس. والأظهر أن تكون الإشارة إلى الآيات التي قبلها وهي { فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ- إلى قوله - مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [116- 119]. فتكون هذه الآيات الثلاث أوّل ما نزل في شأن النهي عن المنكر. على أن قوله { وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ } ليس صريحا في أنّه لم يجيء مثله قبل هذه الآيات، فتأمّل.

الموعظة: اسم مصدر الوعظ، وهو التذكير بما يصد المرء عن عمل مضرّ.

الذكرى: مجرّد التذكير بما ينفع. فهذه موعظة للمسلمين ليحذروا ذلك وتذكيرا بأحوال الأمم ليقيسوا عليها ويتبصّروا في أحوالها. وتنكير {مَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى} للتعظيم.

{ وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ [121] **وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ }**[122]

أمر بأن يخاطب الذين لا يؤمنون بما فيها خطاب الآيس من انتفاعهم بالذكرى الذي لا يعبأ بإعراضهم ولا يصدّه عن دعوته إلى الحقّ تألّبهم على باطلهم ومقاومتهم الحقّ. وهذا القول مأمور أن يقوله على لسانه

ولسان المؤمنين.

{ **اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ** } هو نظير ما حكي عن شعيب - عليه السلام - في هذه السورة آنفا.

{ **إِنَّا عَامِلُونَ** } و { **إِنَّا مُنْتَظِرُونَ** } الضمائر للنبي والمؤمنين الذين معه.

وفي أمر الله ورسوله بأن يقول ذلك على لسان المؤمنين شهادة من الله بصدق إيمانهم. وفيه التفويض إلى رأس الأمّة بأن يقطع أمرا عن أمّته ثقة بأنّهم لا يردّون فعله.

{ **وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ** } تهديد ووعيد.

{ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [123]

كلام جامع وهو للسورة مؤذن بختامها، فهو من براعة المقطع. والواو عاطفة كلاما على كلام، أو واو الاعتراض في آخر الكلام ومثله كثير.

{ **لِلَّهِ** } اللام للملك وهو ملك إحاطة العلم، أي لله ما غاب عن علم الناس في السماوات والأرض. وهذا كلام يجمع بشارة المؤمنين بما وعدوا من النعيم المغيّب عنهم، ونذارة المشركين بما توعّدوا به من العذاب المغيب عنهم في الدنيا والآخرة. وتقديم المجرورين لإفادة الاختصاص، أي الله لا غيره يملك غيب السماوات والأرض، لأنّ ذلك مما لا يشاركه فيه أحد. وإلى الله لا إلى غيره يرجع الأمر كلّه، وهو تعريض بفساد آراء الذين عبدوا غيره، لأنّ من لم يكن كذلك لا يستحق أن يعبد، ومن كان كذلك كان حقيقا بأن يفرد بالعبادة.

{ **وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ** } أنّ أمر التدبير والنصر والخذلان وغير ذلك يرجع إلى الله، أي إلى علمه وقدرته.

{ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** } لأن الله هو الحقيق بأن يعبد وأن يتوكل عليه في كل مهم. وهو تعريض بالتخطئة للذين عبدوا غيره وتوكلوا على شفاعة الآلهة ونفعها. ويتضمن أمر النبيء عليه الصلاة والسلام بالدوام على العبادة والتوكل.

{ **وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** } فذلكة جامعة، فهو تذييل لما تقدّم. فإنّ عدم غفلته عن أي عمل أنّه يعطي كلّ عامل جزاء عمله. ولذلك علّق وصف الغافل بالعمل ولم يعلّق بالذوات نحو: بغافل عنكم، إيماء إلى أن على العمل جزاء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يوسف

الاسم الوحيد لهذه السورة اسم (سورة يوسف)، فقد ذكر ابن حجر في كتاب (الإصابة) في ترجمة رافع بن مالك الزرقي عن ابن إسحاق أنّ أبا رافع بن مالك أوّل من قدم المدينة بسورة يوسف، يعني بعد أن بايع النبيء ﷺ يوم العقبة.

ووجه تسميتها ظاهر لأنّها قصّت قصّة يوسف - عليه السلام - كلّها، ولم تذكر قصته في غيرها. ولم يذكر اسمه في غيرها إلّا في سورة الأنعام وغافر.

وهي مكّيّة على القول الذي لا ينبغي الالتفات إلى غيره. نزلت بعد سورة هود، وقبل سورة الحجر.

وهي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السور على قول الجمهور.

ولم تذكر قصة نبي في القرآن بمثل ما ذكرت قصة يوسف - عليه السلام – في هذه السورة من الإطناب.

وعدد آيها مائة وإحدى عشرة آية باتفاق أصحاب العدد في الأمصار.

أغراض السورة

روى الواحدي والطبري، يزيد أحدهما على الآخر، عن سعد بن أبي وقاص أنّه قال: أنزل القرآن فتلاه رسول الله -ﷺ- على أصحابه زمانا، فقالوا (أي المسلمون بمكة) : يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله { الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [سورة يوسف:1، 2].

بيان قصة يوسف - عليه السلام - مع إخوته، وما لقيه في حياته، وما في ذلك من العبر من نواح مختلفة.

وفيها إثبات أنّ بعض المرائي قد يكون إنباء بأمر مغيب، وذلك من أصول النبوءات.

وأنّ تعبير الرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالحي عباده.

وتحاسد القرابة بينهم.

ولطف الله بمن يصطفيه من عباده.

والعبرة بحسن العواقب، والوفاء، والأمانة، والصدق، والتوبة.

وسكنى إسرائيل وبنيه بأرض مصر.

وتسلية النبيء ﷺ بما لقيه يعقوب ويوسف عليهما السلام من آلهم من الأذى. وقد لقي النبيء ﷺ من آله أشدّ ما لقيه من كفّار قومه، مثل عمّه أبي لهب، والنضر بن الحارث، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وإن كان هذا قد أسلم بعد وحسن إسلامه. فإنّ وقع أذى الأقارب في النفوس أشدّ من وقع أذى البعداء، كما

قال طرفة: وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

وفيها العبرة بصبر الأنبياء مثل يعقوب ويوسف عليهم السلام على البلوى. وكيف تكون لهم العاقبة.

وفيها من عبر تاريخ الأمم والحضارة القديمة وقوانينها ونظام حكوماتها وعقوباتها وتجارتها.

وإنّ في هذه السورة **أسلوبا خاصا** من أساليب إعجاز القرآن وهو الإعجاز في أسلوب القصص الذي كان خاصة أهل مكّة يعجبون مما يتلقّونه منه من بين أقاصيص العجم والروم، فقد كان النضر بن الحارث وغيره يفتنون قريشا بأنّ ما يقوله القرآن في شأن الأمم هو أساطير الأوّلين اكتتبها محمد ﷺ.

وكان النضر يتردّد على الحيرة فتعلم أحاديث (رستم) و(اسفنديار) من أبطال فارس، فكان يحدّث قريشا بذلك ويقول لهم: أنا والله أحسن حديثا من محمد فهلّم أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدّثهم بأخبار الفرس، فكان ما في بعضها من التطويل على عادة أهل الأخبار من الفرس يموّه به عليهم بأنّه أشبع للسامع، فجاءت هذه السورة على أسلوب استيعاب القصّة تحدّيا لهم بالمعارضة.

على أنّها مع ذلك قد طوت كثيرا من القصة من كل ما ليس له كبير أثر في العبرة.

{ ألر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } [1]

{ **ألر** } تقدّم الكلام على الحروف المقطّعة في أوّل سورة البقرة.

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ** } الكلام عليها مضى في سورة يونس.

{ **الْمُبِينِ** } ووصف في طالعة سورة يونس بـ {الْحَكِيمِ} لأنّ ذكر وصف إبانته هنا أنسب، إذ كانت القصّة التي تضمنتها هذه السورة مفصّلة ومبيّنة لأهمّ ما جرى في مدة يوسف -عليه السلام- بمصر. فقصّة يوسف -عليه السلام- لم تكن معروفة للعرب قبل نزول القرآن إجمالا ولا تفصيلا، بخلاف قصص الأنبياء: هود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب -عليهم السلام أجمعين- إذ كانت معروفة لديهم إجمالا، فلذلك كان القرآن مبيّنا إياها ومفصلا. ونزولها قبل اختلاط النبيء ﷺ باليهود في المدينة معجزة عظيمة من إعلام الله تعالى إيّاه بعلوم الأولين، وبذلك ساوى الصحابة علماء بني إسرائيل في علم تاريخ الأديان والأنبياء وذلك من أهم ما يعلمه المشرعون.

المبين: اسم فاعل من أبان المتعدّي. والمراد: الإبانة التامة باللفظ والمعنى.

{ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [2]

استئناف يفيد تعليل الإبانة من جهتي لفظه ومعناه، فإنّ كونه قرآنا يدل على إبانة المعاني، لأنّه ما جعل مقروءا إلّا لما في تراكيبه من المعاني المفيدة للقارئ.

وكونه عربيا يفيد إبانة ألفاظه المعاني المقصودة للذين خوطبوا به ابتداء، وهم العرب، إذ لم يكونوا يتبيّنون شيئا من الأمم التي حولهم لأنّ كتبهم كانت باللغات غير العربية.

والتأكيد بـ (إن) متوجه إلى خبرها وهو فعل {أَنْزَلْنَاهُ} ردا على الذين أنكروا أن يكون منزلا من عند الله.

{ قُرْآناً } حال، أي كتابا يقرأ، أي منظّما على أسلوب معدّ لأن يقرأ لا كأسلوب الرسائل والخطب أو الأشعار، بل هو أسلوب كتاب نافع نفعا مستمرّا يقرأه النّاس.

{ عَرَبِيّاً } صفة، فهو كتاب بالعربية ليس كالكتب السالفة فإنّه لم يسبقه كتاب بلغة العرب.

{ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } تعليل، أي رجاء حصول العلم لكم من لفظه ومعناه، لأنّكم عرب فنزوله بلغتكم مشتملا على ما فيه نفعكم، وعبر عن العلم بالعقل للإشارة إلى أن دلالة القرآن على هذا العلم قد بلغت في الوضوح حد أن ينزل من لم يحصل له العلم منها منزلة من لا عقل له، وأنهم ما داموا معرضين عنه فهم في عداد غير العقلاء.

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ}[3]

بدل اشتمال، لأنّ أحسن القصص ممّا يشتمل عليه إنزال القرآن. وكون القصص من عند الله يتنزّل منزلة الاشتمال من جملة تأكيد إنزاله من عند الله.

{ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ } يتضمّن رابطا بين جملة البدل والجملة المبدل منها. وتقديم الضمير على الخبر الفعلي يفيد الاختصاص، أي نحن نقصّ لا غيرنا، ردّا على من يطعن من المشركين في القرآن.

{ نَقُصُّ } نخبر الأخبار السالفة. وهو منقول من قصّ الأثر إذا تتبّع مواقع الأقدام ليتعرّف منتهى سير صاحبها. ومصدره القصّ بالإدغام، والقصص بالفك. قال تعالى {فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً} [الكهف:64]. وذلك أنّ حكاية أخبار الماضين تشبه اتباع خطاهم، ألا ترى أنّهم سمّوا الأعمال سيرة وهي في الأصل هيئة السير، وقالوا: سار فلان سيرة فلان، أي فعل مثل فعله، وقد فرّقوا بين هذا الإطلاق المجازي وبين قصّ الأثر فخصوا المجازي بالصدر المفكك وغلبوا المصدر المدغم على المعنى الحقيقي.

{ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } وجعل هذا القصص أحسن القصص لأنّه وارد من العليم الحكيم، فهو يوحي ما يعلم أنّه أحسن نفعا للسامعين في أبدع الألفاظ والتراكيب، فيحصل منه غذاء العقل والروح، وابتهاج النفس والذوق

ممّا لا تأتي بمثله عقول البشر.

{ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } في موضع الحال من كاف الخطاب. والضمير في { قَبْلِهِ } عائد إلى القرآن. والمراد من قبل نزوله بقرينة السياق.

الغفلة: انتفاء العلم لعدم توجّه الذهن إلى المعلوم. والمعنى المقصود من الغفلة ظاهر. ونكتة جعله من الغافلين دون أن يوصف وحده بالغفلة للإشارة إلى تفضيله بالقرآن على كلّ من لم ينتفع بالقرآن فدخل في هذا الفضل أصحابه والمسلمون على تفاوت مراتبهم في العلم.

والمقصود التعريض بالمشركين المعرضين عن هدى القرآن. عن أبي موسى الأشعري قال: قال النبيء ﷺ: " مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأَصابَتْ مِنْها طائِفَةً أُخْرَى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بهِ " [متفق عليه]

{ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}[4]

يوسف: اسم عبراني تقدّم ذكره عند قوله تعالى { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ } [الأنعام:83]. وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق من زوجه (راحيل). وهو أحد الأسباط الذين تقدّم ذكرهم في سورة البقرة.

وكان يوسف أحب أبناء يعقوب - عليهما السلام – إليه، وكان ذلك سبب غيرة إخوته منه فكادوا له مكيدة، فسألوا أباهم أن يتركه يخرج معهم. فأخرجوه معهم بعلّة اللعب والتفسّح، وألقوه في جبّ، وأخبروا أباهم أنّهم فقدوه، وأنّهم وجدوا قميصه ملوثا بالدم، وأروه قميصه بعد أن لطّخوه بدم، والتقطه من البئر **سيارة من العرب الإسماعيليين** كانوا سائرين في طريقهم إلى مصر، وباعوه كرقيق في سوق عاصمة مصر السفلى التي كانت يومئذ في حكم أمّة من الكنعانيين يعرفون بالعمالقة أو (الهكصوص). وذلك في زمن الملك (**أبو فيس**) أو (ابيبي). ويقرب أن يكون ذلك في حدود سنة تسع وعشرين وسبعمائة وألف قبل المسيح عليه السلام (1729 ق م). فاشتراه (**فوطيفار**) رئيس شرطة فرعون الملقب في القرآن **بالعزيز**، أي رئيس المدينة. وحدثت مكيدة له من زوج سيّده ألقي بسببها في السجن. وبسبب رؤيا رآها الملك وعبّرها يوسف - عليه السلام - وهو في السجن، قرّبه الملك إليه زلفى، وأولاه على جميع أرض مصر، وهو لقب العزيز وسماه (**صفنات فعنيج**)، وزوجه (**أسنات**) بنت أحد الكهنة وعمره يومئذ ثلاثون سنة. وفي مدّة حكمه جلب

أباه وأقاربه من البرّيّة إلى أرض مصر، فذلك سبب استيطان بني إسرائيل أرض مصر. وتوفي بمصر في حدود سنة خمس وثلاثين وستمائة وألف قبل ميلاد عيسى عليه السلام (1635 ق م). وحنّط على الطريقة المصرية. ووضع في تابوت، وأوصى قبل موته بأنّهم إذا خرجوا من مصر يرفعون جسده معهم. ولمّا خرج بنو إسرائيل من مصر رفعوا تابوت يوسف - عليه السلام - معهم ونقلوه معهم في رحلتهم إلى أن دفنوه في (شكيم) في مدة يوشع بن نون.

{ **يَا أَبَتِ** } تاء خاصة بكلمة الأب وكلمة الأم في النداء خاصة على نية الإضافة إلى المتكلم، فمفادها: يا أبي، ولا يكاد العرب يقولون: يا أبي. وورد في سلام ابن عمر على النبيء ﷺ وصاحبه حين وقف على قبورهم المنورة. والنداء في الآية مع كون المنادى حاضرا كناية عن الاهتمام أو استعارة له.

الكوكب: النجم، تقدّم عند قوله تعالى { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً } [الأنعام:76].

{ **رَأَيْتُهُمْ** } مؤكّدة لجملة { رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً } ، جيء بها على الاستعمال في حكاية المرائي الحلميّة أن يعاد فعل الرؤية تأكيدا لفظيا أو استئنافا بيانيا، كأنّ سامع الرؤيا يستزيد الرائي اخبارا عما رأى.

وفي البخاري عن أبي موسى الاشعري أنّ النبيء ﷺ قال: " رَأَيْتُ في المَنامِ أنِّي أُهاجِرُ مِن مَكَّةَ إلى أرْضٍ بها نَخْلٌ، فَذَهَبَ وهَلِي إلى أنَّها اليَمامَةُ أوْ هَجَرُ، فإذا هي المَدِينَةُ يَثْرِبُ، ورَأَيْتُ في رُؤْيايَ هذِه أنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا، فانْقَطَعَ صَدْرُهُ فإذا هو ما أُصِيبَ مِنَ المُؤْمِنِينَ يَومَ أُحُدٍ، ثُمَّ هَزَزْتُهُ بأُخْرَى فَعادَ أحْسَنَ ما كانَ فإذا هو ما جاءَ اللَّهُ به مِنَ الفَتْحِ، واجْتِماعِ المُؤْمِنِينَ ورَأَيْتُ فيها بَقَرًا، واللَّهُ خَيْرٌ فإذا هُمُ المُؤْمِنُونَ يَومَ أُحُدٍ، وإذا الخَيْرُ ما جاءَ اللَّهُ به مِنَ الخَيْرِ وثَوابِ الصِّدْقِ، الذي آتانا اللَّهُ بَعْدَ يَومِ بَدْرٍ".

{ **رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** } استعمل ضمير جمع المذكر للكواكب والشمس والقمر، لأنّ كون ذلك للعقلاء غالب لا مطّرد، كما قال تعالى في الأصنام { وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ } [الأعراف:198]، وقال {يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا } [النمل:18]. وتقديم المجرور على عامله للاهتمام.

وابتداء قصة يوسف - عليه السلام - بذكر رؤياه إشارة إلى أنّ الله هيأ نفسه للنبوّة فابتدأه بالرؤيا الصادقة كما جاء في حديث عائشة: " أَوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ في النَّوْمِ، فَكانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ..." [البخاري].

فذكر هذه الرؤيا في صدر القصة كالمقدّمة والتمهيد للقصة المقصودة. وجعل الله تلك الرؤيا تنبيها ليوسف - عليه السلام - بعلو شأنه ليتذكّرها كلما حلت به ضائقة فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبة.

وكانوا يعدّون الرؤيا من طرق الإنباء بالغيب، إذا سلمت من الاختلاط وكان مزاج الرائي غير منحرف ولا مضطرب، وكان الرائي قد اعتاد وقوع تأويل رؤياه، وهو شيء ورثوه من صفاء نفوس أسلافهم إبراهيم وإسحاق - عليه السلام -، فقد كانوا آل بيت نبوّة وصفاء سريرة. وفي البخاري عن أبي هريرة : " لَمْ يَبْقَ

مِنَ النُّبُوَّةِ إلَّا المُبَشِّراتُ. قالوا: وما المُبَشِّراتُ؟ قالَ: الرُّؤْيا الصَّالِحَةُ ".

والاعتداد بالرؤيا من قديم أمور النبوّة. وقد جاء في التوراة أنّ الله خاطب إبراهيم -عليه السلام - في رؤيا رآها وبشّره بأنّه يهبه نسلا كثيرا، ويعطيه الأرض التي هو سائر فيها [الإصحاح 15 / سفر التكوين].

أمّا العرب فإنّهم وإن لم يرد في كلامهم شيء يفيد اعتدادهم بالأحلام، ولكن ذكر ابن إسحاق رؤيا عبد المطلب وهو قائم في الحجر أنّه أتاه آت فأمره بحفر بئر زمزم فوصف له مكانها، وكانت جرهم ردموها عند خروجهم من مكة. وذكر ابن إسحاق رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أن: " راكبا أقبل على بعير فوقف بالأبطح ثم صرخ: يا آل غدر اخرجوا إلى مصارعكم في ثلاث "، فكانت وقعة بدر عقبها بثلاث ليال.

والرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض أصفيائه الذين زكت نفوسهم فتتصل نفوسهم بتعلّقات من علم الله وتعلّقات من إرادته وقدرته وأمره التكويني، فتنكشف بها الأشياء المغيّبة بالزمان قبل وقوعها، أو المغيبة بالمكان قبل اطلاع النّاس عليها اطلاعا عاديا. ولذلك قال النبيء ﷺ: " الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ". [متفق عليه]

مراتب الرؤيا:

منها: أن تُرى صور أفعال تتحقّق أمثالها في الوجود، مثل رؤيا النبيء ﷺ أنّه يهاجر من مكة إلى أرض ذات نخل، وظنّه أنّ تلك الأرض اليمامة فظهر أنّها المدينة، ولا شكّ أنّه لما رأى المدينة وجدها مطابقة للصورة التي رآها. ومثل رؤياه امرأة في سَرَقَة من حرير فقيل له اكتشفها فهي زوجك فكشف فإذا هي عائشة، فعلم أن سيتزوجها. وهذا النوع نادر وحالة الكشف فيه قويّة.

ومنها: أن ترى صور تكون رموزا للحقائق التي ستحصل أو التي حصلت في الواقع، وتلك من قبيل مكاشفة النفس للمعاني والمواهي وتشكيل المخيلة تلك الحقائق في أشكال محسوسة هي من مظاهر تلك المعاني، وهو ضرب من ضروب التشبيه والتمثيل الذي تخترعه ألباب الخطباء والشعراء، إلّا أنّ هذا تخترعه الألباب في حالة هدو الدماغ من الشواغل الشاغلة، فيكون أتقن وأصدق. وهذا أكثر أنواع المرائي. ومنه رؤيا النبيء ﷺ أنّه يشرب من قدح لبن رأى الريّ في أظفاره ثم أعطى فضله عمربن الخطاب رضي الله عنه. وتعبيره ذلك بأنّه العلم.

وكذلك رؤيا امرأة سوداء ناشرة شعرها خارجة من المدينة إلى الجحفة، فعبّرها بالحمّى تنتقل من المدينة إلى الجحفة، ورئي عبد الله بن سلام أنه في روضة، وأنّ فيها عمودا، وأنّ فيه عروة، وأنّه أخذ بتلك العروة فارتقى إلى أعلى العمود، فعبره النبيء ﷺ بأنّه لا يزال آخذا بالإيمان الذي هو العروة الوثقى، وأنّ الروضة هي الجنّة، فقد تطابق التمثيل النومي مع التمثيل المتعارف في قوله تعالى { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ

فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } [سورة البقرة:256]، وفي قول النبيء ﷺ: " ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ". وسيأتي تأويل هذه الرؤيا عند قوله تعالى {وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل} [100].

{ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [5]

والنداء مع حضور المخاطب مستعمل في طلب إحضار الذهن اهتماما بالغرض المخاطب فيه.

{ بُنَيَّ } (بكسر الياء المشدّدة) تصغير ابن مع إضافته إلى ياء المتكلّم. وهذا التصغير كناية عن تحبيب وشفقة. نزل الكبير منزلة الصغير لأنّ شأن الصغير أن يُحبّ ويشفق عليه. وفي ذلك كناية عن إمحاض النصح له.

القصّ: حكاية الرؤيا. يقال: قصّ الرؤيا إذا حكاها وأخبر بها. وهو جاء من القصص كما علمت آنفا.

الرؤيا: (بألف التأنيث): رؤية الصور في النوم، فرّقوا بينها وبين رؤية اليقظة باختلاف علامتي التأنيث.

وقد علم يعقوب - عليه السلام - أنّ إخوة يوسف - عليه السلام - العشرة كانوا يغارون منه لفرط فضله عليهم خُلقا وخَلقا، وعلم أنّهم يعبرون الرؤيا إجمالا وتفصيلا، وعلم أنّ تلك الرؤيا تؤذن برفعة ينالها يوسف - عليه السلام - على إخوته الذين هم أحد عشر، فخشي إن قصّها عليهم أن تشتدّ بهم الغيرة إلى حدّ الحسد.

{ كَيْداً }: إخفاء عمل يضرّ المكيد. وتقدّم عند قوله تعالى { وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } [الأعراف:183].

وتنوين {كَيْداً} للتعظيم والتهويل، زيادة في تحذيره من قصّ الرؤيا عليهم.

وقصد يعقوب - عليه السلام - من ذلك نجاة ابنه من أضرار تلحقه، وليس قصده إبطال ما دلّت عليه الرؤيا فإنّه يقع بعد أضرار ومشاق.

وقول يعقوب - عليه السلام - هذا لابنه تحذير له مع ثقته بأنّ التحذير لا يثير في نفسه كراهة لإخوته لأنّه وثق منه بكمال العقل، وصفاء السريرة، ومكارم الخلق. ومن كان حاله هكذا كان سمحا، عاذرا، معرضا عن الزلّات، عالما بأثر الصبر في رفعة الشأن.

{ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ } ليعلم أنّه ما حذّره إلّا من نزغ الشيطان في نفوس إخوته. واقعة موقع التعليل للنهي عن قصّ الرؤيا على إخوته. وعداوة الشيطان لجنس الإنسان تحمله على أن يدفعهم إلى إضرار بعضهم ببعض.

وظاهر الآية أنّ يوسف - عليه السلام - لم يقص رؤياه على إخوته وهو المناسب لكماله الذي يبعثه على طاعة أمر أبيه. ووقع في الإسرائيليات أنّه قصّها عليهم فحسدوه.

{ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [6]

عطف هذا الكلام على تحذيره من قصّ الرؤيا على إخوته إعلاما له بعلوّ قدره ومستقبل كماله، كي يزيد تملّيا من سموّ الأخلاق فيتسع صدره لاحتمال أذى إخوته، وصفحا عن غيرتهم منه وحسدهم إيّاه ليتمحضّ تحذيره للصلاح، وتنتفي عنه مفسدة إثارة البغضاء ونحوها، حكمة نبويّة عظيمة وطبّا روحانيّا ناجعا.

{ وَكَذَلِكَ } الإشارة إلى ما دلّت عليه الرؤيا من العناية الربّانيّة به، أي ومثل ذلك الاجتباء يجتبيك ربّك في المستقبل.

الاجتباء: الاختيار والاصطفاء. وتقدّم في قوله تعالى { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ } [الأنعام:87]، أي اختياره من بين إخوته، أو من بين كثير من خلقه. وقد علم يعقوب - عليه السلام - ذلك بتعبير الرؤيا ودلالتها على رفعة شأنه في المستقبل، فتلك إذا ضمّت إلى ما هو عليه من الفضائل آلت إلى اجتباء الله إيّاه، وذلك يؤذن بنبوّته. وإنّما علم يعقوب - عليه السلام - أنّ رفعة يوسف - عليه السلام - في مستقبله رفعة إلهية لأنّه علم أنّ نعم الله تعالى متناسبة، فلمّا كان ما ابتدأه من النعم اجتباء وكمالا نفسيّا تعيّن أن يكون ما يلحق بها من نوعها. فلذلك علم يعقوب - عليه السلام - أن الله سيعلّم يوسف - عليه السلام - من تأويل الأحاديث.

التأويل: إرجاع الشيء إلى حقيقته ودليله. وتقدّم عند قوله تعالى {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران:7].

{ الْأَحَادِيثِ }: يصحّ أن يكون جمع حديث بمعنى الشيء الحادث، فتأويل الأحاديث: إرجاع الحوادث إلى عللها وأسبابها بإدراك حقائقها على التمام، وهو المعني بالحكمة. ويصحّ أن يكون الأحاديث جمع حديث بمعنى الخبر المتحدّث به، فالتأويل تعبير الرؤيا. سمّيت أحاديث لأنّ المَرائي يتحدّث بها الراؤون وعلى هذا المعنى حملها بعض المفسرين. ولعلّ كلا المعنيين مراد بناء على صحّة استعمال المشترك في معنييه وهو الأصح. أو يكون اختيار هذا اللفظ إيجازا معجزا، إذ يكون قد حكي به كلام طويل صدر من يعقوب - عليه السلام - بلغته يعبر عن تأويل الأشياء بجميع تلك المعاني.

{ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ } وإتمام النعمة عليه هو إعطاؤه أفضل النعم وهي نعمة النبوّة، أو هو ضميمة الملك إلى النبوّة والرّسالة، فيكون المراد إتمام نعمة الاجتباء الأخروي بنعمة المجد الدنيوي.

{ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ } وعلم يعقوب - عليه السلام - ذلك من دلالة الرؤيا على سجود الكواكب والنيرين له. فالمراد من آل يعقوب خاصتهم وهم أبناؤه وزوجه (وهي خالة يوسف عليه السلام) . وإن كان المراد بإتمام

النعمة ليوسف - عليه السلام - إعطاء الملك فإتمامها على آل يعقوب هو أن زادهم على ما أعطاهم من الفضل نعمة قرابة الملك، فيصحّ حينئذ أن يكون المراد من آله جميع قرابته.

{ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ } تذكير له بنعم سابقة، وليس ممّا دلت عليه الرؤيا. ثم إن كان المراد من إتمام النعمة النبوّة فالتشبيه تام، وإن كان المراد من إتمام النعمة الملك فالتشبيه في إتمام النعمة على الإطلاق. وجعل إبراهيم وإسحاق - عليهما السلام - أبوين له لأنّ لهما ولادة عليه، فهما أبواه الأعليان بقرينة المقام كقول النبيء ﷺ: " أنا ابن عبد المطلب ".

{ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } تذييل بتمجيد هذه النعم، وأنّها كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بالنفوس الصالحة لهذه الفضائل لأنّه خلقها لقبول ذلك فعلمه بها سابق، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة.

و{إِنَّ} للاهتمام لا للتأكيد إذ لا يشك يوسف - عليه السلام - في علم الله وحكمته. والاهتمام ذريعة إلى إفادة التعليل. والتفريع في ذلك تعريض بالثناء على يوسف - عليه السلام - وتأهله لمثل تلك الفضائل.

{ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ } [7]

جملة ابتدائية، وهي مبدأ القصص المقصود، إذ كان ما قبله كالمقدّمة له المنبئة بنباهة شأن صاحب القصّة.

أي لقد كان شأن يوسف - عليه السلام - وإخوته مقارنا لدلائل عظيمة من العبر والمواعظ.

الآيات: الدلائل على ما تتطلب معرفته من الأمور الخفيّة. والآيات حقيقة في آيات الطريق، وهي علامات يجعلونها في المفاوز تكون بادية لا تغمرها الرمال لتكون مرشدة للسائرين، ثم أطلقت على حجج الصدق، وأدلّة المعلومات الدقيقة. وجمع الآيات هنا مراعى فيه تعدّدها وتعدّد أنواعها، ففي قصّة يوسف عليه السلام دلائل على ما للصبر وحسن الطويّة من عواقب الخير والنصر، أو على ما للحسد والإضرار بالنّاس من الخيبة والاندحار والهبوط.

وفيها من الدلائل على صدق النبيء ﷺ وأنّ القرآن وحي من الله، إذ جاء في هذه السورة ما لا يعلمه إلّا أحبار أهل الكتاب دون قراءة ولا كتاب وذلك من المعجزات. وفي بلاغة نظمها وفصاحتها من الإعجاز ما هو دليل على أنّ هذا الكلام من صنع الله ألقاه إلى رسوله ﷺ معجزة له على قومه أهل الفصاحة والبلاغة.

السائلون: من يتوقّع منه السؤال عن المواعظ والحكم كقوله تعالى {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ} [فصلت: 10]. ومثل هذا يستعمل في كلام العرب للتشويق، والحثّ على تطلّب الخبر والقصّة.

وقيل المراد بهم اليهود إذ سأل فريق منهم النبيء ﷺ عن ذلك. وهذا لا يستقيم لأنّ السورة مكّيّة ولم يكن لليهود مخالطة للمسلمين بمكة.

{ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [8]

عبرة من عبر الأخلاق التي تنشأ من حسد الإخوة والأقرباء، وعبرة من المجازفة في تغليطهم أباهم، واستخفافهم برأيه غرورا منهم، وغفلة عن مراتب موجبات ميل الأب إلى بعض أبنائه. وتلك الآيات قائمة في الحكاية عن ذلك الزمن. وهذا القول المحكي عنهم قول تآمر وتحاور.

{ لَيُوسُفُ } افتتاح المقول بلام الابتداء المفيدة للتوكيد لقصد تحقيق الخبر. والمراد توكيد لازم الخبر، إذ لم يكن فيهم من يشك في أنّ يوسف - عليه السلام - وأخاه أحبّ إلى أبيهم من بقيّتهم ولكنّهم لم يكونوا سواء في الحسد لهما والغيرة من تفضيل أبيهم إيّاهما على بقيّتهم، فأراد بعضهم إقناع بعض بذلك ليتمالؤوا على الكيد ليوسف - عليه السلام – وأخيه. فقائل الكلام بعض إخوته، أي جماعة منهم.

{ وَأَخُوهُ } أريد به (**بنيامين**) وإنّما خصّوه بالإخوة لأنّه كان شقيقه، أمهما (**راحيل بنت لابان**)، وكان بقية إخوته إخوة للأب، أم بعضهم (ليئة بنت لابان)، وأم بعضهم (بلهة) جارية (ليئة) وهبتها لزوجها.

ودعواهم أنّ يوسف - عليه السلام - وأخاه أحبّ إلى يعقوب - عليه السلام - منهم يجوز أن تكون دعوى باطلة أثار اعتقادها في نفوسهم شدّة الغيرة من أفضليّة يوسف - عليه السلام - وأخيه عليهم في الكمالات وربما سمعوا ثناء أبيهم على يوسف - عليه السلام - وأخيه في أعمال تصدر منهما أو شاهدوه يأخذ بإشارتهما أو رأوا منه شفقة عليهما لصغرهما ووفاة أمّهما فتوهّموا من ذلك أنّه أشدّ حبّا إيّاهما منهم توهّما باطلا. ويجوز أن تكون دعواهم مطابقة للواقع وتكون زيادة محبته إيّاهما أمرا لا يملك صرفه عن نفسه لأنّه وجدان ولكنّه لم يكن يؤثرهما عليهم في المعاملات والأمور الظاهريّة ويكون أبناؤه قد علموا فرط محبّة أبيهم إيّاهما من التوسّم والقرائن لا من تفضيلهما في المعاملة. فلا يكون يعقوب - عليه السلام - مؤاخذا بشيء يفضي إلى التباغض بين الإخوة.

{ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ } في موضع الحال من {أَحَبُّ} ، أي ونحن أكثر عددا. والمقصود من الحال التعجّب من تفضيلهما في الحبّ في حال أنّ رجاء انتفاعه من إخوتهما أشدّ من رجائه منهما، بناء على ما هو الشائع عند عامة أهل البدو من الاعتزاز بالكثرة.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة { لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا }، والمقصود لازم الخبر وهو تجرئة بعضهم بعضا عن إتيان العمل الذي سيغريهم به في قولهم { اقْتُلُوا يُوسُفَ } [9]، أي أنّا لا يعجزنا الكيد ليوسف - عليه السلام - وأخيه فإنّا عصبة.

العصبة: اسم جمع لا واحد له من لفظه، مثل أسماء الجماعات، ويقال: العصابة. قال جمهور اللغويين: تطلق العصبة على الجماعة من عشرة إلى أربعين. وعن ابن عباس أنّها من ثلاثة إلى عشرة، وذهب إليه بعض

أهل اللغة. وكان أبناء يعقوب - عليه السلام - اثنى عشر، وهم الأسباط. وقد تقدم الكلام عليهم عند قوله تعالى { أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ } [البقرة:140].

{ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } تعليلا للتعجّب أو للإغراء وتفريعا عليه.

{ الضلال } إخطاء مسلك الصواب. وإنّما أرادوا أخطأ التدبير للعيش لا الخطأ في الدين والاعتقاد. والتخطئة في أحوال الدنيا لا تنافي الاعتراف للمخطئ بالنبوءة.

{ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ } [9]

جملة مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ الكلام المتقدّم يثير سؤالا في نفوس السامعين عن غرض القائلين مما قالوه فهذا المقصود للقائلين. وإنّما جعلوا له الكلام السابق كالمقدّمة لتتأثر نفوس السامعين فإذا ألقي إليها المطلوب كانت سريعة الامتثال إليه. أرادوا ارتكاب شيء يفرّق بين يوسف وأبيه - عليهما السلام -.

وهذه آية من عبر الأخلاق السيّئة وهي التخلّص من مزاحمة الفاضل بفضله لمن هو دونه فيه أو مساويه بإعدام صاحب الفضل وهي أكبر جريمة لاشتمالها على الحسد والإضرار بالغير، وانتهاك ما أمر الله بحفظه، وهم قد كانوا أهل دين ومن بيت نبوّة، وقد أصلح الله حالهم من بعد وأثنى عليهم وسمّاهم الأسباط.

{ يَخْلُ } في جواب الأمر، أي إن فعلتم ذلك يخل لكم وجه أبيكم. و**الخلو**: حقيقته الفراغ.

{ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ } أي من بعد يوسف - عليه السلام -.

وإنما لم يدبّروا شيئا في إعدام أخي يوسف - عليه السلام - شفقة عليه لصغره.

وهذا الأمر صدر من قائله وسامعيه منهم قبل اتّصافهم بالنبوّة أو بالولاية لأنّ فيه ارتكاب كبيرة القتل أو التعذيب والاعتداء، وكبيرة العقوق.

{ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } [10]

وهذا القائل أحد الإخوة ولذلك وصف بأنّه منهم. والعدول عن اسمه العلم إلى التنكير والوصفيّة لعدم الجدوى في معرفة شخصه وإنّما المهم أنّه من جماعتهم، وتجنّبا لما في اسمه العلم من الثقل اللفظي الذي لا داعي إلى ارتكابه. والذي في سفر التكوين من التوراة أنّه (راوبين) صدّهم عن قتله وأن (يهوذا) دلّ عليه السيارة كما في الإصحاح (37). وعادة القرآن أنّ لا يذكر إلّا اسم المقصود من القصّة دون أسماء الذين شملتهم، مثل قوله { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ } [سورة غافر: 28].

الإلقاء: الرمي.

الغيابات: جمع غيابة، وهي ما غاب عن البصر. فيقال: غيابة الجب وغيابة القبر، والمراد قعر الجبّ.

الجبّ: البئر التي تحفر ولا تطوى.

فلعلهم كانوا قد عهدوا جبابا كائنة على أبعاد متناسبة في طرق أسفارهم يأوون إلى قربها في مراحلهم لسقي رواحلهم وشربهم، وقد توخوا أن تكون طرائقهم عليها، وأحسب أنّها كانت ينصبّ إليها ماء السيول، وأنّها لم تكن بعيدة القعر حيث علموا أنّ إلقاءه في الجبّ لا يهشم عظامه ولا ماء فيه فيغرقه.

{ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ } إظهار أنّ ما أشار به القائل من إلقاء يوسف - عليه السلام - في غيابة جب هو أمثل مما أشار به الآخرون من قتله أو تركه بفيفاء مهلكة لأنّه يحصل به إبعاد يوسف - عليه السلام - عن أبيه إبعادا لا يرجى بعده تلاقيهما، دون إلحاق ضرّ الإعدام بيوسف - عليه السلام -، فإن التقاط السيارة إيّاه أبقى له وأدخل في الغرض من المقصود لهم وهو إبعاده، لأنّه إذا التقطه السيارة أخذوه عندهم أو باعوه.

الالتقاط: تناول شيء من الأرض أو الطريق، واستعير لأخذ شيء مضاع.

السيّارة: الجماعة الموصوفة بحالة السير وكثرته، فتأنيثه لتأويله بالجماعة التي تسير مثل الفلاحة والبحارة. والتعريف فيه تعريف العهد الذهني لأنّهم علموا أنّ الطريق لا تخلو من قوافل بين الشام ومصر للتجارة.

{ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } أي إن كنتم فاعلين إبعاده عن أبيه فألقوه في غيابات الجب ولا تقتلوه.

فكان هذا القائل أمثل الإخوة رأيا وأقربهم إلى التقوى، وقد علموا أنّ السيارة يقصدون إلى جميع الجباب للاستقاء، لأنّها كانت محتفرة على مسافات مراحل السفر. وفي هذا الرأي عبرة في الاقتصاد من الانتقام والاكتفاء بما يحصل به الغرض دون إفراط.

{ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ [11] أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [12].

استئناف بياني لأنّ سوق القصة يستدعي تساؤل السامع عمّا جرى بعد إشارة أخيهم عليهم، وهل رجعوا عمّا بيتوا وصمّموا على ما أشار به أخوهم. ولعلّ يعقوب - عليه السلام - كان لا يأذن ليوسف - عليه السلام - بالخروج مع إخوته للرعي أو للسبق خوفا عليه من أن يصيبه سوء من كيدهم أو من غيرهم، ولم يكن يصرّح لهم بأنّه لا يأمنهم عليه ولكن حاله في منعه من الخروج كحال من لا يأمنهم عليه فنزّلوه منزلة من لا يأمنهم، وأتوا بالاستفهام المستعمل في الإنكار على نفي الائتمان.

وفي التوراة أنّ يعقوب - عليه السلام - أرسله إلى إخوته وكانوا قد خرجوا يرعون، وإذا لم يكن تحريفا فلعلّ

يعقوب - عليه السلام - بعد أن امتنع من خروج يوسف - عليه السلام - معهم سمح له بذلك، أو بعد أن سمع لومهم عليه سمح له بذلك.

{ **وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ** } جملة معترضة بين { مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا } و { أَرْسِلْهُ }. والمعنى هنا: أنّهم يعملون ما فيه نفع ليوسف - عليه السلام- . والنصح عمل أو قول فيه نفع للمنصوح.

{ **يَرْتَعْ** } مضارع ارتعى وهو افتعال من الرعي للمبالغة فيه. فهو حقيقة في أكل المواشي والبهائم واستعير في كلامهم للأكل الكثير لأنّ النّاس إذا خرجوا إلى الرياض والأرياف للعب والسبق تقوى شهوة الأكل فيهم فيأكلون أكلا ذريعا فلذلك شبّه أكلهم بأكل الأنعام. وإنّما ذكروا ذلك لأنّه يسر أباهم أن يكونوا فرحين.

اللعب: فعل أو كلام يقصد منه الاستجمام ودفع السآمة. وهو مباح في الشرائع كلّها إذا لم يصر دأبا.

{ **وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** } التأكيد فيهما للتحقيق تنزيلا لأبيهم منزلة الشاك في أنّهم يحفظونه وينصحونه، كما نزّلوه منزلة من لا يأمنهم عليه من حيث إنّه كان لا يأذن له بالخروج معهم للرعي ونحوه.

وتقديم {له} يجوز أن يكون لأجل الرعاية للفاصلة والاهتمام بشأن يوسف - عليه السلام - في ظاهر الأمر، ويجوز أن يكون للقصر الادعائي، جعلوا أنفسهم لفرط عنايتهم به بمنزلة من لا يحفظ غيره ولا ينصح غيره.

{ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ [13] قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ } [14]

{ **قَالَ** } فصل جملة جار على طريقة المحاورة.

أظهر لهم سبب امتناعه من خروج يوسف - عليه السلام - معهم إلى الريف بأنّه يحزنه لبعده عنه أيّاما، وبأنّه يخشى عليه الذئاب، إذ كان يوسف - عليه السلام - حينئذ غلاما، وكان قد ربّي في دعة فلم يكن مرنا بمقاومة الوحوش، والذئاب تجترئ على الذي تحسّ منه ضعفا في دفاعها.

والذئب: حيوان من الفصيلة الكلبيّة، وهو كلب بري وحشي.

{ **لَيَحْزُنُنِي** } تأكيد الجملة بحرف التأكيد لقطع إلحاحهم بتحقيق أنّ حزنه لفراقه ثابت، تنزيلا لهم منزلة من ينكر ذلك، إذ رأى إلحاحهم. ويسري التأكيد إلى جملة { وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ } .

{ **لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ** } أبوا إلّا المراجعة، أرادوا تأكيد الجواب باللام. والمراد الكناية عن عدم تفريطهم فيه وعن حفظهم إيّاه، لأنّ المرء لا يرضى أن يوصف بالخسران.

الخسران: انتفاء النفع المرجو من الرجال، استعاروا له انتفاء نفع التاجر من تجره، وهو خيبة مذمومة، أي إنّا إذن لمسلوبون من صفات الفتوّة من قوة ومقدرة ويقظة. فكونهم عصبة يحول دون تواطيهم على ما يوجب الخسران لجميعهم.

{ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [15]

{ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ } تفريع حكاية الذهاب به والعزم على إلقائه في الجبّ على حكاية المحاورة بين يعقوب - عليه السلام - وبنيه في محاولة الخروج بيوسف - عليه السلام - إلى البادية يؤذن بجمل محذوفة فيها ذكر أنّهم ألحّوا على يعقوب - عليه السلام - حتّى أقنعوه فأذن ليوسف - عليه السلام - بالخروج معهم، وهو إيجاز. والمعنى: فلمّا أجابهم يعقوب - عليه السلام - إلى ما طلبوا ذهبوا به وبلغوا المكان الذي فيه الجبّ. وجواب **{ لمّا }** محذوف، والتقدير: جعلوه في الجب. ومثله كثير في القرآن. وهو من الإيجاز الخاص بالقرآن فهو تقليل في اللفظ لظهور المعنى.

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ } الضمير عائد إلى يوسف - عليه السلام - في قول أكثر المفسرين مقتصرين عليه. وذكر ابن عطية أنّه قيل الضمير عائد إلى يعقوب - عليه السلام- .

{ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا } بيان، وأكّدت باللام ونون التوكيد لتحقيق مضمونها سواء كان منها الإخبار عن المستقبل أو الأمر في الحال. فعلى الأوّل فهذا الوحي يحتمل أن يكون إلهاما ألقاه الله في نفس يوسف - عليه السلام - حين كيدهم له، ويحتمل أنّه وحي بواسطة الملك فيكون إرهاصا ليوسف - عليه السلام - قبل النبوّة رحمة من الله ليزيل عنه كربه، فأعلمه بما يدلّ على أن الله سيخلّصه من هذه المصيبة وتكون له العاقبة على الذين كادوا له، وإيذان بأنّه سيؤانسه في وحشة الجبّ بالوحي والبشارة، وبأنّه سينبي في المستقبل إخوته بما فعلوه معه كما تؤذن به نون التوكيد إذا اقترنت بالجملة الخبرية، وذلك يستلزم نجاته وتمكّنه من إخوته.

{ بِأَمْرِهِمْ }: بفعلهم العظيم في الإساءة.

{ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } في موضع الحال، أي لتخبرنّهم بما فعلوا بك وهم لا يشعرون أنّك أخوهم، وذلك إخبار بما وقع بعد سنين مما حكي في هذه السورة بقوله تعالى {قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ} [89].

وعلى احتمال عود ضمير { إِلَيْهِ } على يعقوب - عليه السلام - فالوحي هو إلقاء الله إليه ذلك بواسطة الملك.

واتفق واصفو الجبّ على أنه بين (بانياس) و(طبرية). وأنّه على اثني عشر ميلا من طبرية مما يلي دمشق، وأنّه قرب قرية يقال لها (سنجل أو سنجيل). وجب يوسف معروف بين طبرية وصفد، بنيت عليه قبة في زمن الدولة الأيوبية بحسب التوسم وهي قائمة إلى الآن.

{ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ [16] قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ [17] وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } [18].

العشاء: وقت غيبوبة الشفق الباقي من بقايا شعاع الشمس بعد غروبها.

البكاء: خروج الدموع من العينين عند الحزن والأسف والقهر. وقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي. وإنّما اصطنعوا البكاء تمويها على أبيهم لئلّا يظنّ بهم أنّهم اغتالوا يوسف عليه السلام.

جاءت امرأة إلى شريح تخاصم في شيء وكانت مبطلة فجعلت تبكي، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها، فقيل له: أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف - عليه السلام - أباهم عشاء يبكون وهم ظلمة كذبة.

الاستباق: افتعال من السبق وهو هنا بمعنى التسابق. والمراد: الاستباق بالجري على الأرجل، وذلك من مرح الشباب ولعبهم.

المتاع: ما ينتفع به. وتقدّم في قوله تعالى {لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ} [النساء :102]. والمراد به هنا ثقلهم من الثياب والآنية والزاد.

{ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ } المراد بالذئب جمع من الذئاب على ما عرفت آنفا عند قوله {وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ} [13]. بحيث لم يترك الذئاب منه، ولذلك لم يقولوا فدفنّاه.

{ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا } خبر مستعمل في لازم الفائدة. تعريض بأنّهم صادقون فيما ادّعوه لأنّهم يعلمون أباهم لا يصدّقهم فيه، فلم يكونوا طامعين بتصديقه إيّاهم.

{ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } في موضع الحال فالواو واو الحال. {وَلَوْ} اتصالية، وهي تفيد أنّ مضمون ما بعدها هو أبعد الأحوال عن تحقّق مضمون ما قبلها في ذلك الحال. والتقدير: وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين في نفس الأمر، أي نحن نعلم انتفاء إيمانك لنا في الحالين فلا نطمع أن نموّه عليك.

{ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ } في موضع الحال. ووصف الدم بالكذب وصف بالمصدر، والمصدر هنا بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق، أي مكذوب كونه دم يوسف - عليه السلام -. ولا شك في أنّهم لم يتركوا كيفيّة من كيفيات تمويه الدم وحالة القميص بحال قميص من يأكله الذئب من آثار تخريق وتمزيق ممّا

لا تخلو عنه حالة افتراس الذئب، وأنّهم أفطن من أن يفوتهم ذلك وهم عصبة لا يعزب عن مجموعهم مثل ذلك. فما قاله بعض أصحاب التفسير من أنّ يعقوب - عليه السلام - قال لأبنائه: ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق قميصه، فذلك من تظرّفات القصص.

{ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ }

حرف الإضراب إبطال لدعواهم أن الذئّب أكله فقد صرّح لهم بكذبهم.

التسويل: التسهيل وتزيين النفس ما تحرص على حصوله.

{ أَمْراً } الإبهام يحتمل عدة أشياء مما يمكن أن يؤذوا به يوسف - عليه السلام - ؛ من قتل، أو بيع، أو تغريب، لأنّه لم يعلم تعيين ما فعلوه.

{ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ } اصبر صبرا جميلا. عدل به عن النصب إلى الرفع للدلالة على الثبات والدوام، كما تقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ } [هود:69].

{ جَمِيلٌ } يحتمل أن يكون وصفا كاشفا إذ الصبر كلّه حسن دون الجزع.

{ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } عطف على جملة {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} فتكون محتملة للمعنيين المذكورين من إنشاء الاستعانة أو الإخبار بحصول استعانته بالله على تحمّل الصبر على ذلك، أو أراد الاستعانة بالله ليوسف - عليه السلام - على الخلاص ممّا أحاط به.

{ مَا تَصِفُونَ } التعبير في غاية البلاغة لأنه كان واثقا بأنّهم كاذبون في الصفة وواثقا بأنّهم ألحقوا بيوسف - عليه السلام - ضرّا فلمّا لم يتعيّن عنده المصاب أجمل التعبير عنه إجمالا.

وإنما فوض يعقوب - عليه السلام - الأمر إلى الله ولم يسع للكشف عن مصير يوسف - عليه السلام - لأنّه علم تعذّر ذلك عليه لكبر سنّه، ولأنّه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك.

{ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } [19]

عطف قصّة على قصّة. وهذا رجوع إلى ما جرى في شأن يوسف - عليه السلام - والمعنى: وجاءت الجبّ.

الوارد: الذي يرد الماء ليستقي للقوم.

الإدلاء: إرسال الدلو في البئر لنزع الماء.

الدلو: ظرف كبير من جلد مخيط له خرطوم في أسفله يكون مطويّا على ظاهر الظرف بسبب شده بحبل مقارن للحبل المعلقة فيه الدلو. والدلو مؤنثة.

{ **قَالَ يَا بُشْرَى** } مستأنفة استئنافا بيانيا. و**البشرى**: تقدّمت في قوله تعالى { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } [يونس:64]. ونداء البشرى مجاز. والمعنى: أنّه فرح وابتهج بالعثور على غلام.

{ **هَذَا غُلامٌ** } اسم الإشارة عائد إلى ذات يوسف - عليه السلام - خاطب الوارد بقية السيارة. والمعنى: وجدت في البئر غلاما، فهو لقطة، فيكون عبدا لمن التقطه، وذلك سبب ابتهاجه.

الغلام: من سنه بين العشر والعشرين. وكان سنّ يوسف - عليه السلام - يومئذ سبع عشرة سنة.

وكان هؤلاء السيارة من الإسماعيلين كما في التوراة، أي أبناء إسماعيل ابن إبراهيم. وقيل: كانوا من أهل مدين وكان مجيئهم الجبّ للاستقاء منها، ولم يشعر بهم إخوة يوسف إذ كانوا قد ابتعدوا عن الجبّ.

{ **أَسَرُّوهُ** } الضمير للسيّارة لا محالة، أي أخفوا يوسف – عليه السلام - أي خبر التقاطه خشية أن يكون من ولدان بعض الأحياء القريبة من الماء قد تردى في الجبّ، فإذا علم أهله بخبره طلبوه وانتزعوه منهم لأنّهم توسّموا منه مخائل أبناء البيوت.

البضاعة: عروض التجارة ومتاعها، أي عزموا على بيعه.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** } معترضة، أي والله عليم بما يعملون من استرقاق من ليس لهم حقّ في استرقاقه. وفي عثور السيارة على الجبّ الذي فيه يوسف - عليه السلام - آية من لطف الله به.

{ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ } [20]

{ **شَرَوْهُ** } باعوه. يقال: شرى كما يقال: باع، ويقال: اشترى كما يقال: ابتاع. ومثلهما رهن وارتهن، وكرى واكترى. والأصل في ذلك وأمثاله أنّ الفعل للحدث والافتعال لمطاوعة الحدث.

البخس: أصله مصدر بخسه إذا نقصه عن قيمة شيئه. وهو هنا بمعنى المبخوس. وتقدّم فعل البخس عند قوله تعالى { وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً } [البقرة:282].

{ **دَرَاهِمَ** } بدل من {ثَمَنٍ} وهي جمع درهم، وهو المسكوك. وهو معرب عن الفارسية كما في (صحاح الجوهري) . وقد أغفله الذين جمعوا ما هو معرب في القرآن كالسيوطي في (الإتقان).

{ **مَعْدُودَةٍ** } كناية عن كونها قليلة لأنّ الشيء القليل يسهل عدّه، فإذا كثر صار تقديره بالوزن أو الكيل. وضمائر الجمع كلّها للسيّارة على أصحّ التفاسير.

الزهادة: قلّة الرغبة في حصول الشيء الذي من شأنه أن يرغب فيه، أو قلّة الرغبة في عوضه كما هنا، أي كان السيّارة غير راغبين في إغلاء ثمن يوسف عليه السلام. ولعلّ سبب ذلك قلّة معرفتهم بالأسعار.

{ **مِنَ الزَّاهِدِينَ** } أشدّ مبالغة ممّا لو أخبر بكانوا فيه زاهدين، لأنّ جعلهم من فريق زاهدين ينبي بأنّهم جروا

في زهدهم في أمثاله على سنن أمثالهم البسطاء الذين لا يقدرون قدر نفائس الأمور.

{ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [21]

{ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً }.

{ الَّذِي اشْتَرَاهُ } مراد منه الذي دفع الثمن فملكه وإن كان لم يتول الاشتراء بنفسه، فإن فعل الاشتراء لا يدلّ إلّا على دفع العوض، ولذلك يكتب الموثّقون في مثل هذا أنّ شراءه لفلان.

والذي اشترى يوسف - عليه السلام - رجل اسمه **(فوطيفار)** رئيس شرطة ملك مصر، وهو والي مدينة مصر، ولقب في هذه السورة بالعزيز، وسيأتي.

ومدينة مصر هي **(منفيس)** ويقال (منف) وهي قاعدة مصر السفلى التي يحكمها قبائل من الكنعانيين عرفوا عند القبط باسم **(الهيكسوس)** أي الرعاة. وكانت مصر العليا المعروفة اليوم بالصعيد تحت حكم فراعنة القبط. وكانت مدينتها **ثيبة** أو **طيبة**، وهي اليوم خراب وموضعها يسمى الأقصر، جمع قصر، لأنّ بها أطلال القصور القديمة، أي الهياكل. وكانت حكومة مصر العليا أيامئذ مستضعفة لغلبة الكنعانيين على معظم القطر.

وامرأته تسمى في كتب العرب **(زَلِيخَا)** - بفتح الزاي وكسر اللام وقصر آخره - وسماها اليهود (راعيل).

فيكون اشتراه ليهبه لها لتتخذه ولدا. وهذا يقتضي أنّهما لم يكن لهما ولد.

امرأته: معناه زوجه، فإن الزوجة يطلق عليها اسم المرأة ويراد منه معنى الزوجة. وقد تقدّم عند قوله تعالى {وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ} [هود:71].

المثوى: حقيقته المحلّ الذي يثوي المرء، أي يرجع إليه. وتقدّم عند قوله {قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ} [الأنعام:128].

وهو هنا كناية عن حال الإقامة عندهما، لأنّ المرء يثوي إلى منزل إقامته. فالمعنى: اجعلي إقامته عندك كريمة. أراد أن يجعل الإحسان إليه سببا في اجتلاب محبّته إياهما ونصحه لهما فينفعهما، أو يتخذانه ولدا فيبرّ بهما وذلك أشد تقريبا. ولعلّه كان آيسا من ولادة زوجه. وإنّما قال ذلك لحسن تفرّسه في ملامح يوسف - عليه السلام - المؤذنة بالكمال.

{ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ }.

{ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ } تنويها بأنّ ذلك التمكين بلغ غاية ما يطلب من نوعه، والتمكين في الأرض هنا مراد

به ابتداؤه وتقدير أوّل أجزائه، فيوسف - عليه السلام - بحلوله محلّ العناية من عزيز مصر قد خط له مستقبل تمكينه من الأرض.

{ **وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ** } لأنّ الله لمّا قدّر في سابق علمه أن يجعل يوسف - عليه السلام - عالما بتأويل الرؤيا وأن يجعله نبيّا أنجاه من الهلاك، ومكّن له في الأرض تهيئة لأسباب مراد الله.

وتقدّم معنى تأويل الأحاديث آنفا عند ذكر قول أبيه له { وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ } [6] أي تعبير الرؤيا.

{ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ** } معترضة في آخر الكلام. والمعنى والله متمِّم ما قدّره، ولذلك عقّبه بالاستدراك بقوله { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } استدراكا على ما يقتضيه هذا الحكم من كونه حقيقة ثابتة شأنها أن لا تُجهل لأنّ عليها شواهد من أحوال الحدثان، ولكن أكثر النّاس لا يعلمون ذلك مع ظهوره.

{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } [22]

هذا إخبار عن اصطفاء يوسف - عليه السلام - للنبوّة. ذكر هنا في ذكر مبدإ حلوله بمصر لمناسبة ذكر منّة الله عليه بتمكينه في الأرض وتعليمه تأويل الأحاديث.

الأشُد: القوّة. وفسّر ببلوغه ما بين خمس وثلاثين سنة إلى أربعين.

{ **حُكْماً** } الحكم والحكمة مترادفان، وهو: علم حقائق الأشياء والعمل بالصالح واجتناب ضدّه. وأريد به هنا النبوّة كما في قوله تعالى في ذكر داود وسليمان عليهما السلام { وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً } [الأنبياء: 79].

{ **وَعِلْماً** } علم زائد على النبوة.والتنكير للنوعية، أو للتعظيم. والمراد: علم تعبير الرؤيا، كما سيأتي في قوله تعالى عنه { ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي } [37].

{ **وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** } إيماء إلى أن إحسانه هو سبب جزائه بتلك النعمة.

{ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ [23] وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ [24] وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [25] قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ [26] وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ [27] فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ [28] يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ } [29]

عطف قصّة على قصّة، فلا يلزم أن تكون هذه القصة حاصلة في الوجود بعد التي قبلها. وقد كان هذا الحادث قبل إيتائه النبوّة لأنّ إيتاء النبوّة غلب أن يكون في سن الأربعين. والأظهر أنّه أوتي النبوّة والرسالة بعد دخول أهله إلى مصر وبعد وفاة أبيه. وقد تعرّضت الآيات لتقرير ثبات يوسف - عليه السلام - على العفاف والوفاء وكرم الخلق.

المراودة: مشتقّة من راد يرود، إذا جاء وذهب. شبّه حال المحاول أحدا على فعل شيء مكرّرا ذلك بحال من يذهب ويجيء في المعاودة إلى الشيء المذهوب عنه، فأطلق راود **بمعنى حاول**.

وصيغة المفاعلة مستعملة في التكرير. وقيل: المفاعلة تقديرية، بأن اعتبر العمل من جانب والممانعة من الجانب الآخر من العمل بمنزلة مقابلة العمل بمثله.

{ **عَنْ نَفْسِهِ** } للمجاوزة، أي بأن يجعل نفسه لها. والظاهر أنّ هذا التركيب من مبتكرات القرآن، فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة، قاله ابن عطية، أي فالنفس أريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد.

ووقع في قول أبي هريرة أنّ النبيء ﷺ يراود عمّه أبا طالب على الإسلام. وفي حديث الإسراء " فقال له موسى: " قد راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ".

{ **الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا** } لقصد ما تؤذن به الصلّة من تقرير عصمة يوسف - عليه السلام -، لأنّ كونه في بيتها من شأنه أن يطوّعه لمرادها. و{ بَيْتِهَا } بيت سكناها الذي تبيت فيه. ويجوز أن يكون المراد بالبيت المنزل كله، وهو قصر العزيز. ومنه قولهم: ربة البيت، أي زوجة صاحب الدار.

غلّق الأبواب: جعل كل باب سادا للفرجة التي هو بها. والتضعيف لإفادة شدّة الفعل وقوّته، أي أغلقت إغلاقا محكما.

{ **هَيْتَ** } اسم فعل أمر بمعنى **بادر**. قيل أصلها من اللغة الحورانية، وهي نبطية. وقيل: من اللغة العبرانية.

ويظهر أنّها طلبت منه أمرا كان غير بدع في قصورهم بأن تستمع المرأة بعبدها كما يستمتع الرجل بأمته، ولذلك لم تتقدم إليه من قبل بترغيب بل ابتدأته بالتمكين من نفسها.

{ **مَعَاذَ اللَّهِ** } مصدر أضيف إلى اسم الجلالة إضافة المصدر إلى معموله. وأصله: أعوذ عوذا بالله، أي أعتصم به ممّا تحاولين. وسيأتي بيانه عند قوله { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ }.

{ **إِنَّهُ رَبِّي** } يجوز أن يعود ضمير إلى اسم الجلالة، ويكون {رَبِّي} بمعنى خالقي. ويجوز أن يعود إلى معلوم من المقام وهو زوجها الذي لا يرضى بأن يمسّها غيره، فهو معلوم بدلالة العرف، ويكون {رَبِّي} بمعنى سيدي ومالكي.

وهذا من الكلام الموجه توجيها بليغا حكي به كلام يوسف عليه السلام، إمّا لأن يوسف - عليه السلام - أتى بمثل هذا التركيب في لغة القبط، وإمّا لأنه أتى بتركيبين عذرين لامتناعه فحكاهما القرآن بطريقة الإيجاز والتوجيه. وأيّاما كان فالكلام تعليل لامتناعه وتعريض بها في خيانة عهدها.

وفي هذا الكلام عبرة عظيمة من العفاف والتقوى وعصمة الأنبياء قبل النبوة من الكبائر.

{ **أَحْسَنَ مَثْوَايَ** } تأكد وتعليل، أي جعل آخرتي حسنى، إذ أنقذني من الهلاك، أو أكرم كفالتي.

{ **إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** } تعليل ثان للامتناع. أشار إلى أن إجابتها لما راودته ظلم، لأنّ فيها ظلم كليهما نفسه بارتكاب معصية ممّا اتفقت الأديان على أنّها كبيرة، وظلم سيّده الذي آمنه على بيته وآمنها على نفسها إذ اتّخذها زوجا وأحصنها.

{ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيّا. والمقصود: أنّها كانت جادة فيما راودته لا مختبرة. والمقصود من ذكر همّها به التمهيد إلى ذكر انتفاء همّه بها لبيان الفرق بين حاليهما في الدين فإنّه معصوم.

الهمّ: العزم على الفعل. وأكّد همّها بـ { قَدْ } ولام القسم ليفيد أنّها عزمت عزما محقّقا.

{ **لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ** } لمّا أردفت جملة { وهَمَّ بِهَا } بجملة شرط { لَوْلاَ } المتمحّض لكونه من أحوال يوسف - عليه السلام - وحده لا من أحوال امرأة العزيز تعيّن أنّه لا علاقة بين الجملتين، فتعيّن أنّ الثانية مستقلّة لاختصاص شرطها بحال المسند إليه فيها. فالتقدير: ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، فقدّم الجواب على شرطه للاهتمام به. فيحسن الوقف على قوله { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ } ليظهر معنى الابتداء بجملة {وهمّ بها} واضحا. وبذلك يظهر أنّ يوسف - عليه السلام - لم يخالطه همّ بامرأة العزيز لأنّ الله عصمه من الهمّ بالمعصية بما أراه من البرهان.

وقال جماعة: همّ يوسف بأن يجيبها لما دعته إليه ثمّ ارعوى وانكفّ على ذلك لمّا رأى برهان ربّه. قاله ابن عبّاس، وقتادة، وابن أبي مليكة، وثعلب. وبيان هذا أنّه انصرف عمّا همّ به بحفظ الله أو بعصمته، والهمّ بالسيّئة مع الكفّ عن إيقاعها ليس بكبيرة فلا ينافي عصمة الأنبياء من الكبائر قبل النبوّة على قول من رأى

عصمتهم منها قبل النبوّة، وهو قول الجمهور، وفيه خلاف، ولذلك جوّز ابن عباس ذلك على يوسف.

الرؤية: هنا علميّة لأنّ البرهان من المعاني التي لا ترى بالبصر.

البرهان: الحجّة. وهذا البرهان من جملته صرفه عن الهمّ بها، ولولا ذلك لكان حال البشريّة لا يسلم من الهمّ بمطاوعتها في تلك الحالة لتوفر دواعي الهمّ من حسنها، ورغبتها فيه، واغتباط أمثاله بطاعتها، والقرب منها. ودواعي الشباب المسوّلة لذلك، فكان برهان الله هو الحائل بينه وبين الهمّ بها دون شيء آخر.

واختلف المفسرون في ما هو هذا البرهان، فمنهم من يشير إلى أنه حجّة نظرية قبّحت له هذا الفعل، وقيل: هو وحي إلهي، وقيل: حفظ إلهي، وقيل: مشاهدات تمثّلت له.

{ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ } الإشارة إلى شيء مفهوم ممّا قبله يتضمّنه قوله {رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ}، أي أريناه ذلك الرأي لنصرف عنه السوء.

الصرف: نقل الشيء من مكان إلى مكان، وهو هنا مجاز عن الحفظ من حلول الشيء بالمحلّ الذي من شأنه أن يحلّ فيه. عبّر به عن **العصمة** من شيء يوشك أن يلابس شيئا. والتعبير عن العصمة بالصرف يشير إلى أنّ أسباب حصول السوء والفحشاء موجودة ولكنّ الله صرفهما عنه.

السوء: القبيح، وهو خيانة من ائتمنه. و**الفحشاء**: المعصية، وهي الزنى. ومعنى صرفهما عنه صرف ملابسته إيّاهما.

{ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } تعليل لحكمة صرفه عن السوء والفحشاء الصرف الخارق للعادة.

الاستباق: افتعال من السبق. وتقدّم آنفا، وهو هنا إشارة إلى تكلّفهما السبق، أي أنّ كلّ واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب. وانتصب {البَابَ} على نزع الخافض، أو على تضمين {اسْتَبَقَا} معنى ابتدرا. وذلك أن يوسف - عليه السلام - فرّ من مراودتها إلى الباب يريد فتحه والخروج وهي تريد أن تسبقه إلى الباب لتمنعه من فتحه.

{ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ } في موضع الحال. و { قدّت } أي قطعت، أي قطعت منه قدّا، وذلك قبل الاستباق لا محالة. لأنه لو كان تمزيق القميص في حال الاستباق لم تكن فيه قرينة على صدق يوسف - عليه السلام - أنّها راودته، إذ لا يدلّ التمزيق في حال الاستباق على أكثر من أن يوسف - عليه السلام - سبقها مسرعا إلى الباب، فدلّ على أنّها أمسكته من قميصه حين أعرض عنها تريد إكراهه على ما راودته فجذب نفسه فتخرّق القميص من شدة الجذبة. وكان قطع القميص من دبر لأنّه كان موليا عنها معرضا فأمسكته منه لردّه عن إعراضه.

{ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ } وصادف أن ألفيا سيّدها، أي زوجها، وهو العزيز، عند الباب الخارجي يريد الدخول إلى البيت. وإطلاق السيد على الزوج قيل: إنّ القرآن حكى به عادة القبط حينئذ، كانوا يدعون الزوج

سيّدا. والظاهر أنّه لم يكن ذلك مستعملا في عادة العرب، فالتعبير به هنا من دقائق التاريخ مثل قوله {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} [76]. ولعلّ الزواج في مصر في ذلك العهد كان بطريق الملك غالبا.

الإلفاء: وجدان شيء من غير سعي لوجدانه، فالأكثر أن يكون مفاجئا، أو حاصلا عن جهل، كقوله تعالى {قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} [البقرة:170].

{ **قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } مستأنفة بيانيا. وابتدرته بالكلام إمعانا في البهتان بحيث لم تتلعثم، وأفرغت الكلام في قالب كلّي ليأخذ صيغة القانون، وليكون قاعدة لا يعرف المقصود منها فلا يسع المخاطب إلّا الإقرار لها. ولعلّها كانت تخشى أن تكون محبّة العزيز ليوسف - عليه السلام - مانعة له من عقابه. وكانت تريد بذلك أن لا يشعر زوجها بأنّها تهوى يوسف - عليه السلام -.

{ **أَنْ يُسْجَنَ** } كان الحبس عقابا قديما في ذلك العصر، واستمر إلى زمن موسى عليه السلام، فقد قال فرعون لموسى عليه السلام { لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ }.

{ **عَذَابٌ أَلِيمٌ** } أما العذاب فهو أنواع، وهو عقاب أقدم في اصطلاح البشر. ومنه الضرب والإيلام بالنار وبقطع الأعضاء. وسيأتي ذكر السجن في هذه السورة مرارا.

ومخالفة التعبير بين {أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ} دون أن يقول: إلّا السجن أو عذاب، لأنّ لفظ السجن يطلق على البيت الذي يوضع فيه المسجون، فقوله {أَنْ يُسْجَنَ} أوضح في تسلّط معنى الفعل عليه.

{ **قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي** } من قول يوسف - عليه السلام - وفصلت لأنّها جاءت على طريقة المحاورة مع كلامها. وتقديم المبتدأ على خبره الذي هو فعل يفيد القصر، وهو قصر قلب للردّ عليها.

{ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ [26] وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } كان مع العزيز رجل من أهل امرأته، وهو الذي شهد وكان فطنا عارفا بوجوه الدلالة. وسمّي قوله شهادة لأنّه يؤول إلى إظهار الحقّ في إثبات اعتداء يوسف - عليه السلام - على سيّدته أو دحضه. وهذا من القضاء بالقرينة البيّنة. ولا شكّ أنّ الاستدلال بكيفيّة تمزيق القميص نشأ عن ذكر امرأة العزيز وقوع تمزيق القميص تحاول أن تجعله حجة على أنّها أمسكته لتعاقبه، ولولا ذلك ما خطر ببال المشاهد أنّ تمزيقا وقع وإلّا فمن أين علم الشاهد تمزيق القميص. والظاهر أنّ الشاهد كان يظن صدقها فأراد أن يقيم دليلا على صدقها فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف - عليه السلام- .

وزيادة {وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} بعد {فَصَدَقَتْ} ، وزيادة {وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ} بعد {فَكَذَبَتْ} تأكيد لزيادة تقرير الحق كما هو شأن الأحكام.

{ **فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** } الذي رأى قميصه قدّ من دبر وقال: إنّه من كيدكن، هو العزيز لا محالة. وقد استبان لديه براءة يوسف - عليه السلام - من الاعتداء على المرأة

فاكتفى بلوم زوجه بأنّ ادعاءها عليه من كيد النساء.

الكيد: فعل شيء في صورة غير المقصودة للتوصّل إلى مقصود.

{ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ } ثم أمر يوسف - عليه السلام - بالإعراض عمّا رمته به، أي عدم مؤاخذتها بذلك، وبالكف عن إعادة الخوض فيه. وأمر زوجه بالاستغفار من ذنبها، أي في اتهامها يوسف - عليه السلام - بالجرأة والاعتداء عليها.

قال المفسرون: وكان العزيز قليل الغيرة. وقيل: كان حليما عاقلا. ولعلّه كان مولعا بها، أو كانت شبهة الملك تخفّف مؤاخذة المرأة بمراودة مملوكها. وهو الذي يؤذن به حال مراودتها يوسف - عليه السلام - حين بادرته بقولها {هِيتَ لَكَ} كما تقدم آنفا.

الخاطئ: فاعل الخطيئة، وهي الجريمة. وجعلها من زمرة الذين خطئوا تخفيفا في مؤاخذتها. وصيغة جمع المذكر تغليب.

وهذا الأسلوب من الخطاب يسمى بالإقبال، وقد يسمّى بالالتفات بالمعنى اللغوي عند الالتفات البلاغي، وهو عزيز في الكلام البليغ. قال المرزوقي في (شرح الحماسة): والعرب تجمع في الخطاب والإخبار بين عدة، ثم تقبل أو تلتفت من بينهم إلى واحد لكونه أكبرهم أو أحسنهم سماعا وأخصهم بالحال.

{ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }[30]

{ وَقَالَ نِسْوَةٌ } الفعل المسند إلى ألفاظ الجموع غير الجمع المذكر السالم يجوز تجريده من التاء باعتبار الجمع، وقرنه بالتاء باعتبار الجماعة مثل { وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ } [سورة يوسف: 19].

النسوة: اسم جمع امرأة لا مفرد له، وهو اسم جمع قلّة مثله نساء.

{ فِي الْمَدِينَةِ } صفة لنسوة. والمقصود من ذكر هذه الصفة أنّهنّ كنّ متفرّقات في ديار من المدينة. وهذه المدينة هي قاعدة مصر السفلى وهي مدينة **(منفيس)** حيث كان قصر العزيز. وقيل: إنّ امرأة العزيز باحت بالسر لبعض خلائلها فأفشينه كأنّها أرادت التشاور معهن، أو أرادت الارتياح بالحديث إليهنّ.

{ تُرَاوِدُ } صيغة المضارع مع كون المراودة مضت لقصد استحضار الحالة العجيبة وذلك للإنكار عليها في أنفسهن ولومها على صنيعها.

الفتى: الذي في سن الشباب، ويكنى به عن المملوك وعن الخادم كما يكنى بالغلام والجارية وهو المراد هنا.

{ فَتَاهَا } لأنّه غلام زوجها فهو غلام لها بالتبع ما دامت زوجة لمالكه.

{ **قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً** } في موضع التعليل. و **شغف**: فعل مشتقّ من اسم جامد، وهو الشِغاف (بكسر الشين المعجمة) وهو غلاف القلب. وأصله شغفها حبّه، أي أصاب حبّه شغافها، أي اخترق الشغاف فبلغ القلب، **كناية عن التمكّن**.

{ **إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } استئناف ابتدائي لإظهار اللوم والإنكار عليها. والتأكيد بـ (إن) واللام لتحقيق اعتقادهن ذلك.

الضلال: مخالفة طريق الصواب، أي هي مفتونة العقل بحبّ هذا الفتى، وليس المراد الضلال الديني.

{ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ [31] قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلِيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ } [32].

{ **سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ** } حقّ (سمع) أن يعدّى إلى المسموع بنفسه، فتعديته بالباء هنا إمّا لأنّه ضمّن معنى أُخبرت. وإمّا أن تكون الباء مزيدة للتوكيد مثل قوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة: 6].

وأطلق على كلامهن اسم المكر، قيل: لأنهن أردن بذلك أن يبلغ قولهنّ إليها فيغريها بعرضها يوسف - عليه السلام - عليهن فيرين جماله لأنّهنّ أحببن أن يرينه. وقيل: لأنّهنّ قلنه خفية فأشبه المكر، ويجوز أن يكون أطلق على قولهن اسم المكر لأنّهنّ قلنه في صورة الإنكار وهن يضمرن حسدها على اقتناء مثله، إذ يجوز أن يكون الشغف بالعبد غير منكر.

{ **وَأَعْتَدَتْ** } أصله أعددت، أبدلت الدال الأولى تاء، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً} [النساء:37].

المتكأ: محل الاتكاء. والاتكاء: جلسة قريبة من الاضطجاع على الجنب مع انتصاب قليل في النصف الأعلى. وإنّما يكون الاتكاء إذا أريد إطالة المكث والاستراحة، أي أحضرت لهنّ نمارق يتكئن عليها لتناول طعام. وكان أهل الترف يأكلون متكئين كما كانت عادة للرومان، ولم تزل أسرّة اتكائهم موجودة في ديار الآثار. وقال النبيء ﷺ: " أمّا أنا فلا آكل متكئا ".

{ **آتَتْ** } أمرت خدمها بالإيتاء.

السكين: آلة قطع اللحم وغيره. وأعطت كل واحدة سكينا لقشر الثمار.

{ **اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ** } يقتضي أنّه كان في بيت آخر وكان لا يدخل عليها إلّا بإذنها .وعدّي فعل الخروج بحرف

(على) لأنّه ضمّن معنى (أُدخل) لأنّ المقصود دخوله عليهنّ لا مجرد خروجه من البيت الذي هو فيه.

{ **أَكْبَرْنَهُ** } أعظمنه، أي أعظمن جماله وشمائله. وأطلق الكبر على عظيم الصفات تشبيها لوفرة الصفات بعظم الذات.

{ **وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ** } أي أجرين السكاكين على أيديهن يحسبن أنّهنّ يقطعن الفواكه، من الذهول. وأريد بالقطع الجرح، أطلق عليه القطع مجازا للمبالغة في شدّته حتّى كأنّه قطع قطعة من لحم اليد.

{ **حَاشَ لِلَّهِ** } تركيب عربي جرى مجرى المثل يراد منه إبطال شيء عن شيء وبراءته منه. وأصل (حاشا) فعل يدل على المباعدة عن شيء. وقد يوصل به اسم الجلالة فيصير كاليمين على النفي يقال: حاشا الله، أي أحاشيه عن أن يكذب، كما يقال: لا أقسم. حكي بهذا التركيب كلام قالته النسوة يدلّ على هذا المعنى في لغة القبط حكاية بالمعنى.

{ **مَا هَذَا بَشَراً** } مبالغة في فَوْته محاسن البشر، فمعناه التفضيل في محاسن البشر.

{ **إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ** } ثم شبّهنه بواحد من الملائكة بطريقة حصره في جنس الملائكة تشبيها بليغا مؤكّدا. وكان القبط يعتقدون وجود موجودات علوية هي من جنس الأرواح العلوية، ويعبّرون عنها بالآلهة أو قضاة يوم الجزاء، ويجعلون لها صورا، ولعلّهم كانوا يتوخّون أن تكون ذواتا حسنة. ومنها ما هي مدافعة عن الميت يوم الجزاء. فأطلق في الآية اسم الملك على ما كانت حقيقته مماثلة لحقيقة مسمّى الملك في اللغة العربية تقريبا لأفهام السامعين.

{ **قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ** } فاء الفصيحة، أي إن كان هذا كما زعمتنّ ملكا فهو الذي بلغكن خبره فلمتنني فيه. وهنالك مضاف محذوف، والتقدير: في شأنه أو في محبّته.

والإشارة ليوسف عليه السلام، إذ كنّ لم يرينه قبل. والتعبير عنه بالموصولية لعدم علم النسوة بشيء عنه غير تلك الصلة، وقد باحت لهنّ بأنّها راودته لأنّها رأت منهنّ الافتنان به فعلمت أنّهنّ قد عذرنها. والظاهر أنّهنّ كنّ خلائل لها فلم تكتم عنهنّ أمرها.

استعصم: مبالغة في عصم نفسه، فالسين والتاء للمبالغة. فالمعنى: أنه امتنع امتناع معصوم، أي جاعلا المراودة خطيئة عصم نفسه منها.

{ **وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلِيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ** } ولم تزل مصمّمة على مراودته تصريحا بفرط حبّها إيّاه، واستشماخا بعظمتها، وأن لا يعصي أمرها، فأكدت حصول سجنه بنوني التوكيد، وقد قالت ذلك بمسمع منه إرهابا له.

الصاغر: الذليل. وتركيب {مِنَ الصَّاغِرِينَ} أقوى في معنى الوصف بالصغار من أن يقال: وليكونن صاغرا.

{ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ [33] فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [34]

استئناف بياني، لأنّ ما حكي قبله مقام شدّة من شأنه أن يسأل سامعه عن حال تلقي يوسف - عليه السلام - فيه لكلام امرأة العزيز.

وهذا الكلام مناجاة لربّه الذي هو شاهدهم، فالظاهر أنّه قال هذا القول في نفسه. ويحتمل أنّه جهر به في ملئهن تأييسا لهن من أن يفعل ما تأمره به.

فلمّا علم أنّه لا محيص من أحد الأمرين صار السجن محبوبا إليه باعتبار أنّه يخلّصه من الوقوع في الحرام. فالإخبار بأن السجن أحب إليه من الاستمتاع بالمرأة مستعمل في إنشاء الرضى بالسجن في مرضاة الله تعالى والتباعد عن محارمه.

{ يَدْعُونَنِي } أسند الفعل إلى ضمير جمع النساء مع أنّ التي دعته امرأة واحدة، إمّا لأنّ تلك الدعوة من رغبات صنف النساء فيكون على وزان جمع الضمير في {كَيْدَهُنَّ}، وإمّا لأنّ النسوة اللاتي جمعتهنّ امرأة العزيز لمّا سمعن كلامها تمالأن على لوم يوسف - عليه السلام - وتحريضه على إجابة الداعية، وتحذيره من وعيدها بالسجن.

{ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ } التجاء إلى الله وملازمة للأدب نحو ربّه بالتبرؤ من الحول والقوّة والخشية من تقلّب القلب ومن الفتنة بالميل إلى اللذّة الحرام. فالخبر مستعمل في الدعاء، ولذلك فرّع عنه جملة { فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ }.

{ أَصْبُ } أمِلْ. والصبو: الميل إلى المحبوب.

الجاهلون: سفهاء الأحلام، فالجهل هنا مقابل الحلم.

{ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ } العطف بفاء التعقيب إشارة إلى أنّ الله عجّل إجابة دعائه.

استجاب: مبالغة في أجاب، كما تقدم في قوله { فَاسْتَعْصَمَ } [32].

وصرف كيدهنّ عنه صرف أثره، وذلك بأن ثبّته على العصمة فلم ينخدع لكيدها ولا لكيد خلائلها.

{ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } في موضع العلّة، أي أجاب دعاءه بدون مهلة لأنّه سريع الإجابة وعليم بالضمائر الخالصة. فالسمع مستعمل في إجابة المطلوب، يقال: سمع الله لمن حمده. وتأكيده بضمير الفصل لتحقيق ذلك المعنى.

{ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ }[35]

وإنّما بدا لهم أن يسجنوا يوسف - عليه السلام - حين شاعت القالة عن امرأة العزيز في شأنه فكان ذلك عقب انصراف النسوة، لأنّها خشيت إن هنّ انصرفن أن تشيع القالة في شأنها وشأن براءة يوسف - عليه السلام - فرامت أن تغطّي ذلك بسجن يوسف - عليه السلام - حتّى يظهر في صورة المجرمين بإرادته السوء بامرأة العزيز، وهي ترمي بذلك إلى تطويعه لها. ولعلّها أرادت أن توهم النّاس بأنّ مراودته إيّاها وقعت يوم ذلك المجمع، وأن توهم أنّهنّ شواهد.

{ لَهُمْ } الضمير لجماعة العزيز من مشير وآمر.

الآيات: دلائل صدق يوسف - عليه السلام - وكذب امرأة العزيز.

{ لَيَسْجُنُنَّهُ } جواب قسم محذوف، وهي متعلّقة فعل { بَدَا }. والتقدير: بدا لهم ما يدل عليه هذا القسم، أي بدا لهم تأكيد أن يسجنوه.

الحين: زمن غير محدود، فإن كان {حَتَّى حِينٍ} من كلامهم كان المعنى: أنّهم أمروا بسجنه سجنا غير مؤجّل المدّة. وإن كان من الحكاية كان القرآن قد أبهم المدّة، إذ لا يتعلّق فيها الغرض من القصّة.

{ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ }[36]

وهذان الفتيان هما ساقي الملك وخبّازه غضب عليهما الملك فأمر بسجنهما. قيل: اتهما بتسميم الملك في الشراب والطعام.

{ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } وهذان الفتيان توسما من يوسف - عليه السلام - كمال العقل والفهم فظنّا أنّه يحسن تعبير الرؤيا ولم يكونا علما منه ذلك من قبل. أي المحسنين التعبير، أو المحسنين الفهم. وكان تعبير الرؤيا من فنون علمائهم فلذلك أيّد الله به يوسف - عليه السلام - بينهم.

الإحسان: الإتقان، يقال: هو لا يحسن القراءة، أي لا يتقنها. ومن عادة المساجين حكاية المرائي التي يرونها، لفقدانهم الأخبار التي هي وسائل المحادثة والمحاورة، ولأنّهم يتفاءلون بما عسى أن يبشّرهم بالخلاص.

العصر: الضغط باليد أو بحجر أو نحوه على شيء فيه رطوبة لإخراج ما فيه من المائع.

الخبز: دقيق البرّ أو الشعير أو نحوهما يعجن بالماء ويوضع قرب النّار حتى ينضج، ويسمّى رغيفا أيضا.

{ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ [37] **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ }** [38].

{ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا } جواب عن كلامهما ففصلت على أسلوب حكاية جمل التحاور.

أراد بهذا الجواب أن يفترض إقبالهما عليه وملازمة الحديث معه إذ هما يترقّبان تعبيره الرؤيا فيدمج في ذلك دعوتهما إلى الإيمان الصحيح مع الوعد بأنّه يعبّر لهما رؤياهما غير بعيد، وجعل لذلك وقتا معلوما لهم، وهو وقت إحضار طعام المساجين.

الرزق: حقيقته ما به النفع، ويطلق على الطعام كقوله { وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً } [آل عمران:37]، وقوله {أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } [الأعراف:50]، وقوله { وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً } [مريم: 62].

ويطلق على الإنفاق المتعارف كقوله { وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ } [النساء: 5]. ومن هنا يطلق على العطاء، يقال: رزق الجند كذا كلّ يوم.

{ بِتَأْوِيلِهِ } ضمير عائد إلى المرئي أو المنام. ولا ينبغي أن يعود إلى **{ طَعَامٌ }** إذ لا يحسن إطلاق التأويل عن الأنباء بأسماء أصناف الطعام، خلافا لما سلكه جمهور المفسّرين.

{ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ } أي لا يأتي الطعام المعتاد إلّا في حال أني قد نبأتكما بتأويل رؤياكما.

{ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي } استئناف بياني، لأنّ وعده بتأويل الرؤيا في وقت قريب يثير عجب السائلين عن قوّة علمه وعن الطريقة التي حصل بها هذا العلم، فيجيب بأنّ ذلك ممّا علّمه الله تخلّصا إلى دعوتهما للإيمان بإله واحد. وكان القبط مشركين يدينون بتعدد الآلهة.

والقول إيذان بأنّه علّمه علوما أخرى، وهي علوم الشريعة والحكمة والاقتصاد والأمانة كما قال { اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [55].

{ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } مزيد بيان، أخبر بأنّ سبب عناية الله به أنّه انفرد في ذلك المكان بتوحيد الله وترك ملّه أهل المدينة، فأراد الله اختياره لهديهم، ويجوز كون الجملة تعليلا.

الترك: عدم الأخذ للشيء مع إمكانه. أشار به إلى أنّه لم يتّبع ملّة القبط مع حلوله بينهم.

الملة: الدين، تقدّم في قوله { دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [الأنعام:161].

وأراد بالقوم الذين لا يؤمنون بالله، ما يشمل الكنعانيين الذين نشأ فيهم والقبط الذين شبّ بينهم. أو أراد الكنعانيين خاصة، وهم الذين نشأ فيهم تعريضا بالقبط الذين ماثلوهم في الإشراك. وأراد بهذا أن لا يواجههم

بالتشنيع استنزالا لطائر نفورهم من موعظته.

{ هُمْ كَافِرُونَ } زيادة ضمير الفصل أراد به تخصيص قوم منهم بذلك وهم الكنعانيون، لأنّهم كانوا ينكرون البعث مثل كفّار العرب. وأراد بذلك إخراج القبط لأنّ القبط وإن كانوا مشركين فقد كانوا يثبتون بعث الأرواح والجزاء.

{ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } ذكر آباءه تعليما بفضلهم، وإظهارا لسابقية الصلاح فيه، وأنّه متسلسل من آبائه. ولذلك قال النبيء ﷺ لمّا سئل عن أكرم الناس: " يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي". وهذه السلسلة في النبوّة لم تجتمع لأحد غير يوسف - عليه السلام -.

{ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } صار التوحيد كالسجيّة لهم عرف بها أسلافهم بين الأمم، وعرّفهم بها لنفسه في هذه الفرصة. ولا يخفى ما تقتضيه صيغة الجحود من مبالغة انتفاء الوصف على الموصوف، كما تقدّم في قوله تعالى { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ } [آل عمران:79].

{ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا } زيادة في البيان لقصد الترغيب في اتّباع دين التوحيد بأنّه فضل.

{ وَعَلَى النَّاسِ } أي الذين يتّبعونهم، وهو المقصود من الترغيب بالجملة.

{ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ } الاستدراك للتصريح بأنّ حال المخاطبين في إشراكهم حال من يكفر نعمة الله، لأنّ إرسال الهداة نعمة ينبغي أن ينظر النّاس فيها فيعلموا أنّ ما يدعونهم إليه خير وإنقاذ لهم من الانحطاط في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولأنّ الإعراض عن النظر في أدلة صدق الرسل كفر بنعمة العقل والنظر.

{ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [39] مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [40].

أراد بالكلام الذي كلّمهما به تقريرهما بإبطال دينهما، فالاستفهام تقريري. وقد رتّب لهما الاستدلال بوجه خطابي قريب من أفهام العامة، إذ فرض لهما إلها واحدا متفرّدا بالإلهيّة كما هو حال ملّته التي أخبرهم بها. وفرض لهما آلهة متفرقين كل إله منهم إنّما يتصرّف في أشياء معينة من أنواع الموجودات تحت سلطانه لا يعدوها إلى ما هو من نطاق سلطان غيره منهم، وذلك حال ملّة القبط. ليصل بذلك إلى إقناعهما بأنّ حال المنفرد بالإلهية أعظم وأغنى، فيرجعان عن اعتقاد تعدّد الآلهة. ليستنزل بذلك طائر نظرهما واستدلالهما حتّى ينجلي لهما فساد اعتقاد تعدّد الآلهة، كما يومئ إليه وصف التفرّق بالنسبة للتعدّد، ووصف القهّار

بالنسبة للوحدانيّة.

وكانت ديانة القبط في سائر العصور التي حفظها التاريخ وشهدت بها الآثار ديانة شرك، أي تعدّد الآلهة. وبالرغم على ما يحاوله بعض المؤرخين المصريين والإفرنج من إثبات اعتراف القبط بإله واحد وتأويلهم لهم تعدد الآلهة بأنها رموز للعناصر فإنّهم لم يستطيعوا أن يثبتوا إلّا أنّ هذا الإله هو معطي التصرف للآلهة الأخرى. وذلك هو شأن سائر أديان الشرك، فإنّ الشرك ينشأ عن مثل ذلك الخيال فيصبح تعدّد آلهة. والأمم الجاهلة تتخيّل هذه الاعتقادات من تخيّلات نظام ملوكها وسلاطينها وهو النظام الإقطاعي القديم.

نعم إن القبط بنوا تعدد الآلهة على تعدد القوى والعناصر وبعض الكواكب ذات القوى. ومثلهم الإغريق فهم في ذلك أحسن حالا من مشركي العرب الذين ألهوا الحجارة، وقصارى ما قسّموه في عبادتها أن جعلوا بعضها آلهة لبعض القبائل. وأحسن حالا من الصابئة الكلدان والآشوريين الذين جعلوا الآلهة رموزا للنجوم والكواكب.

وكانت آلهة القبط نحوا من ثلاثين ربا أكبرها عندهم (**آمون رع**) ومن أعظم آلهتهم ثلاثة أخر وهي: **[أوزوريس - أزيس - هوروس]**. فلله بلاغة القرآن إذ عبّر عن تعددها بالتفرّق {أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ} [39].

{ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } انتقل إلى إبطال وجود تلك الآلهة على الحقيقة. فهي أسماء لا مسمّيات لها.

{ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ } والمقصود من ذلك الرد على آبائهم، سدّا لمنافذ الاحتجاج لأحقيّتها بأنّ تلك الآلهة معبودات آبائهم، وإدماجا لتلقين المعذرة لهما ليسهل لهما الإقلاع عن عبادة آلهة متعدّدة.

{ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ } إبطال لجميع التصرّفات المزعومة لآلهتهم بأنّها لا حكم لها.

{ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } انتقال من أدلة إثبات انفراد الله تعالى بالإلهية إلى التعليم بامتثال أمره ونهيه، لأنّ ذلك نتيجة لإثبات الإلهية والوحدانية له. فهي بيان من حيث ما فيها من معنى الحكم.

{ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } خلاصة لما تقدّم من الاستدلال، أي ذلك الدين لا غيره مما أنتم عليه وغيركم.

{ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } [41]

افتتح خطابهما بالنداء اهتماما بما يلقيه إليهما من التعبير.

ثم إذا كان الكلام المحكي عن يوسف - عليه السلام - في الآية صدر منه على نحو النظم الذي نظم به في

الآية، وهو الظاهر، كان جمع التأويل في عبارة واحدة مجملة، لأن في تأويل إحدى الرؤيين ما يسوء صاحبها، قصدا لتلقيه ما يسوء بعد تأمّل قليل كيلا يفجأه من أول الكلام، فإنّه بعد التأمّل يعلم أنّ الذي يسقي ربه خمرا هو رائي عصر الخمر، وأنّ الذي تأكل الطير من رأسه هو رائي أكل الطير من خبز على رأسه. وإذا كان نظم الآية على غير ما صدر من يوسف - عليه السلام - كان في الآية إيجاز لحكاية كلام يوسف.

{ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } تحقيق لما دلّت عليه الرؤيا، وأنّ تعبيرها هو ما أخبرهما به فإنّهما يستفتيان في دلالة الرؤيا على ما سيكون في شأن سجنهما، لأنّ ذلك أكبر همّهما.

الاستفتاء: مصدر استفتى إذا طلب الإفتاء. وهو: الإخبار بإزالة مشكل، أو إرشاد إلى إزالة حيرة. وفعله أفتى ملازم للهمز ولم يسمع له فعل مجرّد، فدل ذلك على أن همزه في الأصل مجتلب لمعنى، قالوا: أصل اشتقاق أفتى من الفتى وهو الشاب، فكأن الذي يفتيه يقوي نهجه ببيانه فيصير بقوة بيانه فتيا أي قويا. واسم الخبر الصادر من المفتي: فتوى (بفتح الفاء وبضمّها مع الواو مقصورا، وبضم الفاء مع الياء مقصورا).

{ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ }[42]

قال يوسف - عليه السلام - للذي ظن نجاته وهو الساقي. والظنّ هنا مستعمل في القريب من القطع لأنّه لا يشك في صحّة تعبيره الرؤيا. وأراد بذكره ذكر قضيّته ومظلمته، أي اذكرني لربك، أي سيدك، ملك مصر.

{ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ } أي أنسى الشيطان الذي نجا أن يذكره لربه. ويحتمل أن يعود الضميران إلى يوسف - عليه السلام - أنساه الشيطان ذكر الله، فالذكر الثاني غير الذكر الأول. ولعلّ كلا الاحتمالين مراد، وهو من بديع الإيجاز. وذلك أن نسيان يوسف - عليه السلام - أن يسأل الله إلهام الملك تذكّر شأنه كان من إلقاء الشيطان في أمنيّته، وكان ذلك سببا إلهيا في نسيان الساقي تذكير الملك، وكان ذلك عتابا إلهيا ليوسف - عليه السلام - على اشتغاله بعون العباد دون استعانة ربّه على خلاصه.

البضع: من الثلاث إلى التسع.

{ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ [43] **قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ** [44] **وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ }** [45].

هذا عطف جزء من قصّة على جزء منها تكملة لوصف خلاص يوسف - عليه السلام - من السجن.

{ **الْمَلِكُ** } التعريف للعهد، أي ملك مصر. وسمّاه القرآن هنا ملكا ولم يسمّه فرعون لأنّ هذا الملك لم يكن من الفراعنة، ملوك مصر القبط، وإنّما كان ملكا لمصر أيّام حكمها الهكسوس، وهم العمالقة، وهم من الكنعانيين، أو من العرب، ويعبّر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة، أي البدو. وقد ملكوا بمصر(من 1900 إلى 1525 ق م). وكان عصرهم فيما بين مدة العائلة الثالثة عشرة والعائلة الثامنة عشرة من ملوك القبط، إذ كانت عائلات ملوك القبط قد بقي لها حكم في مصر العليا في مدينة طيبة كما تقدم عند قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ} [21]. وكان ملكهم في تلك المدّة ضعيفا لأنّ السيادة كانت لملوك مصر السفلى. ويقدّر المؤرخون أن ملك مصر السفلى في زمن يوسف - عليه السلام - كان في مدة العائلة السابعة عشرة.

فالتعبير عنه بالملك في القرآن دون التعبير بفرعون مع أنّه عبّر عن ملك مصر في زمن موسى - عليه السلام - بلقب فرعون هو من دقائق إعجاز القرآن العلمي. وقد وقع في التوراة إذ عبّر فيها عن ملك مصر في زمن يوسف - عليه السلام - فرعون وما هو بفرعون، لأنّ أمّته ما كانت تتكلم بالقبطية وإنّما كانت لغتهم كنعانية قريبة من الآرامية والعربية، فيكون زمن يوسف - عليه السلام - في آخر أزمان حكم ملوك الرعاة على اختلاف شديد في ذلك.

{ **سِمَانٍ** } جمع سمينة وسمين، مثل كِرام.

{ **عِجَافٌ** } جمع عجفاء. والقياس في جمع عجفاء عجف لكنّه صيغ هنا بوزن فعال لأجل المزاوجة لمقارنه وهو {سِمَانٍ}. والعجفاء: ذات العَجَف (بفتحتين) وهو **الهزال الشديد**.

{ **سَبْعَ سُنْبُلاتٍ** } السنبلة تقدّمت في قوله تعالى { كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ } [البقرة:261].

الملأ: أعيان النّاس. تقدّم عند قوله تعالى { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ } [الأعراف:60].

الإفتاء: الإخبار بالفتوى. وتقدّمت آنفا عند قوله { قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } [41].

وكان تعبير الرؤيا مما يشتغلون به. وكان الكهنة منهم يعدّونه من علومهم، ولهم قواعد في حل رموز ما يراه النائم. وقد وجدت في آثار القبط أوراق من البردي فيها ضوابط وقواعد لتعبير الرؤى، فإن استفتاء صاحبي السجن يوسف - عليه السلام - في رؤييهما ينبئ بأنّ ذلك شائع فيهم، وسؤال الملك أهل ملئه تعبير رؤياه ينبئ عن احتواء ذلك الملأ على من يُظنّ بهم علم تعبير الرؤيا، ولا يخلو ملأ الملك من حضور كهّان من شأنهم تعبير الرؤيا. وفي التوراة: " فأرسل ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها وقص عليهم حلمه فلم يكن من يعبره له " (الإصحاح41 من سفر التكوين).

الأضغاث: جمع ضِغث (بكسر الضاد المعجمة) وهو: ما جمع في حزمة واحدة من أخلاط النبات وأعواد الشجر. و**الأحلام**: جمع حُلُم (بضمتين) وهو ما يراه النائم في نومه.

والتقدير: هذه الرؤيا أضغاث أحلام. شبهت تلك الرؤيا بالأضغاث في اختلاطها وعدم تناسقها لذلك لا تفهم.
{ **وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** } فلما ظهر عَوْصُ تعبير هذا الحلم تذكّر ساقي الملك ما جرى له مع يوسف - عليه السلام – فقال: { أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ }.
{ **وَادَّكَرَ**} بالدال المهملة أصله (**اذتكر**)، وهو افتعال من الذكر، قلبت تاء الافتعال دالا لثقلها ولتقارب مخرجيهما ثم قلبت الذال ليتأتى إدغامها في الدال لأن الدال أخف من الذال. وهذا أفصح الإبدال في ادّكر.
{ **بَعْدَ أُمَّةٍ** } بعد زمن مضى على نسيانه وصاية يوسف عليه السلام. و**الأمة**: أطلقت هنا على **المدّة الطويلة**، وأصل إطلاق الأمّة على المدّة الطويلة هو أنّها زمن ينقرض في مثله جيل، والجيل يسمى أمّة، كما في قوله تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } [آل عمران: 110] على قول من حمله على الصحابة.
وإطلاقه في هذه الآية مبالغة في زمن نسيان الساقي. وفي التوراة كانت مدة نسيانه سنتين.
{ **أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ** } ابتداء كلامه بضميره وجعله مسندا إليه وخبره فعْليّ لقصد استجلاب تعجّب الملك من أن يكون الساقي ينبئ بتأويل رؤيا عَوِصَت على علماء بلاط الملك.
{ **أُنَبِّئُكُمْ – فَأَرْسِلُونِ**} وضمائر الجمع مخاطب بها الملك على وجه التعظيم.
ولم يسم لهم المرسل إليه لأنّه أراد أن يفاجئهم بخبر يوسف - عليه السلام – بعد حصول تعبيره ليكون أوقع، إذ ليس مثله مظنّة أن يكون بين المساجين.

{ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ }[46]

حذف من الكلام ذكر إرساله ومشيه ووصوله، إذ لا غرض فيه من القصّة. وهذا من بديع الإيجاز.
{ **الصِّدِّيقُ** } أصله صفة مبالغة مشتقّة من الصدق، كما تقدم عند قوله تعالى { وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ } [المائدة:75].
وغلب استعمال وصف الصّدّيق استعمال اللقب الجامع لمعاني الكمال واستقامة السلوك في طاعة الله تعالى، لأنّ تلك المعاني لا تجتمع إلّا لمن قوي صدقه في الوفاء بعهد الدين. وهذا ما يشهد به استعمال القرآن في آيات كثيرة مثل قوله { فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النبيئينَ وَالصِّدِّيقِينَ } [النساء: 69].
وكان لقبا لأبي بكر، لقّبه به النبيء ﷺ، ومن أجل ذلك أجمع أصحاب رسول الله ﷺ ومنهم علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - على أنّ أبا بكر - رضي الله عنه - أفضل الأمّة بعد النبيء ﷺ. وقد جمع الله هذا الوصف مع صفة النبوّة في قوله { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً } [مريم:56].

فهذا الذي استفتى يوسف - عليه السلام - في رؤيا الملك وصف في كلامه يوسف - عليه السلام - بمعنى يدل عليه وصف الصّدّيق في اللسان العربي، وإنّما وصفه به عن خبرة وتجربة اكتسبها من مخالطة يوسف - عليه السلام - في السجن.

فضُمّ ما ذكرناه هنا إلى ما تقدّم عند قوله تعالى {وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ} [المائدة:75]، وإلى قوله { مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النبيءينَ وَالصِّدِّيقِينَ} [النساء:69].

وإعادة العبارات المحكية عن الملك بعينها إشارة إلى أنّه بلّغ السؤال كما تلقاه، وذلك تمام أمانة الناقل.

{ **النَّاسِ** } هنا هم الملك وأهل مجلسه، لأنّ تأويل تلك الرؤيا يهمّهم جميعا ليعلم الملك تأويل رؤياه ويعلم أهل مجلسه أنّ ما عجزوا عن تأويله قد علمه من هو أعلم منهم. وهذا وجه قوله { **لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ** }.

{ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ [47] ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ [48] ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ } [49]

عبّر الرؤيا بجميع ما دلّت عليه، فالبقرات لسنين الزراعة، لأنّ البقرة تتخذ للإثمار. والسمن رمز للخصب. والعجف رمز للقحط. والسنبلات رمز للأقوات، فالسنبلات الخضر رمز لطعام ينتفع به، وكونها سبعا رمز للانتفاع به في السبع السنين، فكل سنبلة رمز لطعام سنة. والسنبلات اليابسات رمز لما يدّخر، وكونها سبعا رمز لادخارها في سبع سنين، لأن البقرات العجاف أكلت البقرات السمان، وتأويل ذلك: أنّ سني الجدب أتت على ما أثمرته سنو الخصب.

كانت رؤيا الملك لطفا من الله بالأمّة التي آوت يوسف عليه السلام، ووحيا أوحاه الله إلى يوسف - عليه السلام - بواسطة رؤيا الملك، كما أوحى إلى سليمان - عليه السلام - بواسطة الطير. ولعلّ الملك قد استعدّ للصلاح والإيمان.

{ **تَزْرَعُونَ** } خبر عمّا يكون من عملهم، وذلك أنّ الزرع عادتهم، فذكّره إيّاه تمهيد للكلام الآتي.

الدأب: العادة والاستمرار عليها. وتقدّم في قوله { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ } [آل عمران:11].

الشداد: وصف لسني الجدب، لأنّ الجدب حاصل فيها، فوصفها بالشدّة على طريقة المجاز العقلي.

الإحصان: الإحراز والادّخار، أي الوضع في الحصن وهو المطمور.

والمعنى: أن تلك السنين المجدبة يفنى فيها ما ادّخر لها إلّا قليلا منه. وهذا تحريض على استكثار الادخار.

{ **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** } بشارة وإدّخار لمسرّة الأمل بعد الكلام

المؤيّس، وهو من لازم انتهاء مدّة الشدّة، ومن سنن الله تعالى في حصول اليسر بعد العسر.
{ **يُغَاثُ** } معناه يعطون الغيث، وهو المطر. و**العصر**: عصر الأعناب خمورا.

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } [50]

أبى يوسف - عليه السلام - الخروج من السجن قبل أن تثبت براءته ممّا رمي به في بيت العزيز، فإنّ تبرئة العرض من التهم الباطلة مقصد شرعي، وليكون حضوره لدى الملك مرموقا بعين لا تنظر إليه بشائبة.
{ **فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ** } جعل طريق تقرير براءته مفتتحة بالسؤال عن الخبر لإعادة ذكره من أوّله. وهذه حكمة عظيمة تحقّ بأن يؤتسى بها. وهي تطلّب المسجون باطلا أن يبقى في السجن حتّى تتبين براءته من السبب الذي سجن لأجله، وهي راجعة إلى التحلّي بالصبر حتّى يظهر النصر.
وجعل السؤال عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز تسهيلا للكشف عن أمرها، لأنّ ذكرها مع مكانة زوجها من الملك ربّما يصرف الملك عن الكشف، رعيا للعزيز، ولأنّ النسوة كن شواهد على إقرار امرأة العزيز بأنّها راودت يوسف - عليه السلام - عن نفسه. فلا جرم كان طلب الكشف عن أولئك النسوة منتهى الحكمة في البحث وغاية الإيجاز في الخطاب.
{ **إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** } من كلام يوسف - عليه السلام -. وهي تذييل وتعريض بأنّ الكشف المطلوب سينجلي عن براءته وظهور كيد الكائدات له ثقة بالله ربه أنّه ناصره.
وإضافة كيد إلى ضمير النسوة مع أنّه واقع من بعضهن، وهي امرأة العزيز، للإبهام المعين على التبيان.

{ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ }[51]

وقوع هذا بعد جملة { ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ } إلى آخرها مؤذن بكلام محذوف، تقديره: فرجع فأخبر الملك فأحضر الملك النسوة اللائي كانت جمعتهن امرأة العزيز فقال لهن {مَا خَطْبُكُنَّ} إلى آخره.
الخطب: الشأن المهم من حالة أو حادثة. قيل: سمّي خطبا لأنّه يقتضي أن يخاطب المرء صاحبه بالتساؤل عنه. وقيل: هو مأخوذ من الخطبة. أي يخطب فيه. وإنّما تكون الخطبة في أمر عظيم.
{ **إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ** } وأسندت المراودة إلى ضمير النسوة لوقوعها من بعضهنّ غير معين، أو لأنّ القالة التي شاعت في المدينة كانت مخلوطة ظنّا أنّ المراودة وقعت في مجلس المتكأ.

{ **قُلْنَ** } مفصولة لأجل كونها حكاية جواب عن كلام الملك. أي قالت النسوة عدا امرأة العزيز.

{ **حَاشَ لِلَّهِ** } مبالغة في النفي والتنزيه. والمقصود: التبرؤ ممّا نسب إليهنّ من المراودة.

{ **مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ** } مبيّنة لإجمال النفي الذي في {حَاشَ لِلَّهِ}. وهي جامعة لنفي مراودتهنّ إيّاه ومراودته إيّاهنّ لأنّ الحالتين من أحوال السوء.

{ **قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ** } هذا يدلّ على كلام محذوف وهو أنّ امرأة العزيز كانت من جملة النسوة اللائي أحضرهن الملك. شملها كلام الملك، فإنّ المراودة إنّما وقعت من امرأة العزيز دون النسوة اللاتي أعدّت لهن متكئا، ففي الكلام إيجاز حذف.

{ **حَصْحَصَ الحَقُّ** }: ثبت واستقر. وهو براءة يوسف - عليه السلام - مما رمته به امرأة العزيز. وإنّما ثبت حينئذ لأنّه كان محل قيل وقال وشك، فزال ذلك باعترافها بما وقع. والتعبير بالماضي مع أنّه لم يثبت إلّا من إقرارها الذي لم يسبق، لأنّه قريب الوقوع فهو لتقريب زمن الحال من الماضي.

{ **أَنَا رَاوَدْتُهُ** } تقديم المسند إليه على المسند الفعلي للقصر، إبطال أن يكون النسوة راودنه. فهذا إقرار منها على نفسها، وشهادة لغيرها بالبراءة.

{ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ } [52]

ظاهر نظم الكلام أنّ الجملة من قول امرأة العزيز، وعلى ذلك حمله الأقلّ من المفسرين، وعزاه ابن عطيّة إلى فرقة من أهل التأويل، ونسب إلى الجبائي، واختاره الماوردي، وهو في موقع العلّة لما تضمّنته جملة {أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ} وما عطف عليها من إقرار ببراءة يوسف - عليه السلام - بما كانت رمته به.

الخيانة: هي تهمته بمحاولة السوء معها كذبا، لأنّ الكذب ضدّ أمانة القول بالحقّ.

{ **بِالْغَيْبِ** } تمدّحت بعدم الخيانة على أبلغ وجه إذ نفت الخيانة في المغيب وهو حائل بينه وبين دفاعه عن نفسه، وحالة المغيب أمكن لمزيد الخيانة، لأنّ الحاضر قد يتفطن لقصد الخائن فيدفع خيانته بالحجّة.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** } عطف على {لِيَعْلَمَ} وهو علة ثانية لإصداعها بالحقّ، أي ولأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين.

{ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } [53]

ظاهر ترتيب الكلام أنّ هذا من كلام امرأة العزيز، مضت في بقية إقرارها. أي ما أبرئ نفسي من محاولة هذا الإثم لأنّ النفس أمّارة بالسوء وقد أمرتني بالسوء ولكنّه لم يقع.

{ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** } تعليل. أي لا أدّعي براءة نفسي من ارتكاب الذنب، لأنّ النفوس كثيرة الأمر بالسوء.

{ **إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي** } استثناء من عموم الأزمان، أي أزمان وقوع السوء، إلّا وقت رحمة الله عبده، أي رحمته بأن يقيّض له ما يصرفه عن فعل السوء، أو يقيض حائر بينه وبين فعل السوء.

{ **إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل يراد به الثناء على الله بأنّه شديد المغفرة لمن أذنب، وشديد الرحمة لعبده إذا أراد صرفه عن الذنب.

وهذا يقتضي أنّ قومها يؤمنون بالله ويحرّمون الحرام، وذلك لا ينافي أنّهم كانوا مشركين فإنّ المشركين من العرب كانوا يؤمنون بالله أيضا، وكانوا يعرفون البرّ والذنب.

وقيل: هذا الكلام كلام يوسف - عليه السلام –، وبذلك فسّرها مجاهد وقتادة وأبو صالح وابن جريج والحسن والضحاك والسدي وابن جبير، واقتصر عليه الطبري. لأنّ معنى هذه الجملة أليق بأن يكون من كلام يوسف - عليه السلام - لأنّ من شأنه أن يصدر عن قلب مليء بالمعرفة.

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ [54] قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [55]

{ **أَسْتَخْلِصْهُ** } السين والتاء في للمبالغة. والمعنى أجعله خالصا لنفسي، وهذا كناية عن شدّة اتصاله به والعمل معه. وقد دلّ الملكَ على استحقاق يوسف - عليه السلام - تقريبه منه ما ظهر من حكمته وعلمه. وصبره على تحمّل المشاق، وحسن خلقه. ونزاهته، فكل ذلك أوجب اصطفاءه.

{ **فَلَمَّا كَلَّمَهُ** } فالمكلّم هو يوسف - عليه السلام – كلّم الملك كلاما أعجب الملك بما فيه من حكمة وأدب.

{ **قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ** } جواب (لمّا). والقائل هو الملك لا محالة.

المكين: صفة مشبّهة من مكُن (بضم الكاف) إذا صار ذا مكانة، وهي المرتبة العظيمة، وهي مشتقة من المكان.

الأمين: فعيل بمعنى مفعول، أي مأمون على شيء. أي موثوق به في حفظه.

وهذا التنويه بشأنه والثناء عليه تعريض بأنّه يريد الاستعانة به في أمور مملكته وبأن يقترح عليه ما يرجوا من خير، فلذلك أجابه بقوله:

{ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** } حكاية جوابه كلام الملك، ولذلك فصلت على طريقة

المحاورات. أي اجعلني متصرّفا في خزائن الأرض.

{ **خَزَائِنِ** } جمع خِزانة، أي البيت الذي يختزن فيه الحبوب والأموال.

{ **الْأَرْضِ** } تعريف العهد، أي أرض مصر.

لم يسأل مالا لنفسه ولا عرضا من متاع الدنيا، ولكن سأل أن يولّيه خزائن المملكة ليحفظ الأموال ويعدل في توزيعها ويرفق بالأمّة.

{ **إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** } تعليل، فإنّه علم أنّه اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في النّاس بله كلتيهما، وهما: الحفظ لما يليه، والعلم بتدبير ما يتولّاه، ليعلم الملك أنّ مكانته لديه وائتمانه إيّاه قد صادفا محلّهما وأهلهما، وأنّه حقيق بهما لأنّه متّصف بما يفي بواجبهما، وذلك صفة الحفظ المحقّق للائتمان، وصفة العلم المحقّق للمكانة. وفي هذا تعريف بفضله ليهتدي النّاس إلى اتباعه. وهذا من قبيل الحسبة.

وهذه الآية أصل لوجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمّة إذا علم أنّه لا يصلح له غيره لأنّ ذلك من النصح للأمّة، وخاصة إذا لم يكن ممّن يتهم على إيثار منفعة نفسه على مصلحة الأمّة. وقد علم يوسف - عليه السلام - أنه أفضل النّاس هنالك، لأنّه كان المؤمن الوحيد في ذلك القطر، فهو لإيمانه بالله يبثّ أصول الفضائل التي تقتضيها شريعة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

وهذا لا يعارض ما جاء في (صحيح مسلم) عن عبد الرحمان بن سمرة قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا عبد الرحمان لا تسأل الإمارة فإنّك إن أعطيتها عن مسألة وكّلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها ". لأنّ عبد الرحمان بن سمرة لم يكن منفردا بالفضل من بين أمثاله ولا راجحا على جميعهم.

ومن هذه الآية أخذ فقهاء المذهب جواز طلب القضاء لمن يعلم أنّه أهل وأنّه إن لم يول ضاعت الحقوق. قال المازري: " يجب على من هو أهل الاجتهاد والعدالة السعي في طلب القضاء إن علم أنّه إن لم يله ضاعت الحقوق أو وليه من لا يحلّ أن يولّى.

وقال عياض في كتاب الإمارة من (شرح صحيح مسلم)، ما ظاهره الاتفاق على جواز الطلب في هذه الحالة، وظاهر كلام ابن رشد في (المقدّمات) حرمة الطلب مطلقا. قال ابن مرزوق: وإنما رأيت مثل ما نقل المازري أو قريبا منه للغزالي في "الوجيز".

{ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [56] وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } [57].

{ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ } تقدم تفسيرها آنفا.

التبوؤ: اتخاذ مكان للبوء، أي الرجوع، فمعنى التبوؤ النزول والإقامة. وتقدّم في قوله تعالى {أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً} [يونس:87].

{ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ } كناية عن تصرّفه في جميع مملكة مصر فهو عند حلوله بمكان من المملكة لو شاء أن يحلّ بغيره لفعل. يجوز أن تكون حالا من يوسف، ويجوز أن تكون بيانا لـ {مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ }.

وقرأ الجمهور {حَيْثُ يَشَاءُ} - بياء الغيبة - وقرأ ابن كثير {حَيْثُ نَشَاءُ} - بنون العظمة - أي حيث يشاء الله، أي حيث نأمره أو نلهمه. والمعنى متّحد لأنّه لا يشاء إلّا ما شاءه الله.

{ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ } إلى آخرها تذييل لمناسبة عمومه لخصوص ما أصاب يوسف - عليه السلام - من الرحمة في أحواله في الدنيا وما كان له من مواقف الإحسان التي كان ما أعطيه من النعم وشرف المنزلة جزاء لها في الدنيا، لأنّ الله لا يضيع أجر المحسنين. ولأجره في الآخرة خير من ذلك له ولكل من آمن واتقى.

والتعبير في جانب الإيمان بصيغة الماضي وفي جانب التقوى بصيغة المضارع، لأن الإيمان عقد القلب الجازم فهو حاصل دفعة واحدة، وأمّا التقوى فهي متجدّدة بتجدد أسباب الأمر والنهي واختلاف الأعمال والأزمان.

{ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ [58] وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ [59] فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ } [60].

طوى القرآن أخَرة أمر امرأة العزيز وحلول سني الخصب والادخار ثم اعتراء سني القحط لقلّة جدوى ذلك كلّه في الغرض الذي نزلت السورة لأجله، وهو إظهار ما يلقاه الأنبياء من ذويهم وكيف تكون لهم عاقبة النصر والحسنى، ولأنّه معلوم حصوله، ولذلك انتقلت القصّة إلى ما فيها من مصير إخوة يوسف - عليه السلام - في حاجة إلى نعمته، ومن جمع الله بينه وبين أخيه الذي يحبّه، ثم بينه وبين أبويه، ثم مظاهر عفوه عن إخوته وصلته رحمه، لأنّ لذلك كلّه أثرا في معرفة فضائله.

وكان مجيء إخوة يوسف - عليه السلام - إلى مصر للميرة عند حلول القحط بأرض مصر وما جاورها من

بلاد فلسطين، منازل آل يوسف - عليه السلام -، وكان مجيئهم في السنة الثالثة من سني القحط. وإنّما جاء إخوته عدا بنيامين لصغره، وإنّما رحلوا للميرة كلّهم لعل ذلك لأنّ التزويد من الطعام كان بتقدير يراعي فيه عدد الممتارين، وأيضا ليكونوا جماعة لا يطمع فيهم قطّاع الطريق، وكان الذين جاءوا عشرة.

ودخولهم عليه يدلّ على أنّه كان يراقب أمر بيع الطعام بحضوره ويأذن به في مجلسه خشية إضاعة الأقوات لأنّ بها حياة الأمّة.

وعرف يوسف - عليه السلام - إخوته بعد مضي سنين على فراقهم لقوة فراسته.

{ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ } وقع الإخبار عنهم بالجملة الاسميّة للدلالة على أنّ عدم معرفتهم به أمر ثابت متمكّن منهم، وكان الإخبار عن معرفته إيّاهم بالجملة الفعلية المفيدة للتجدّد للدلالة على أنّ معرفته إيّاهم حصلت بحدثان رؤيته إيّاهم دون توسّم وتأمل. وتقديم المجرور بلام التقوية للرعاية على الفاصلة، وللاهتمام بتعلّق نكرتهم إيّاه، للتنبيه على أنّ ذلك من صنع الله تعالى، وإلّا فإن شمائل يوسف - عليه السلام - ليست مما شأنه أن يجهل وينسى.

الجهاز: (بفتح الجيم وكسرها) ما يحتاج إليه المسافر. والتجهيز: إعطاء الجهاز.

{ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ } يقتضي وقوع حديث منهم عن أنّ لهم أخا من أبيهم لم يحضر معهم، وإلّا لكان إنباء يوسف - عليه السلام - لهم بهذا يشعرهم أنّه يكلمهم عارف بهم وهو لا يريد أن يكشف ذلك لهم.

{ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ } ترغّب لهم في العودة إليه، وقد علم أنّهم مضطرّون إلى العودة إليه لعدم كفاية الميرة التي امتاروها لعائلة ذات عدد من النّاس مثلهم.

{ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ } دلّ على أنّه كان ينزل الممتارين في ضيافته. وهذه الجملة كناية عن الوعد بأن يوفي لهم الكيل ويكرم ضيافتهم إن أتوا بأخيهم.

{ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي } أي لا يكال لكم، كناية عن منعهم من ابتياع الطعام.

{ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ }[61]

وعد بأن يبذلوا قصارى جهدهم في الإتيان بأخيهم وإشعار بصعوبة ذلك. فمعنى **{سَنُرَاوِدُ}** سنحاول أن لا يشحّ به، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ } [24].

{ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ } عطف على الوعد بتحقيق الموعود به، فهو فعل ما أمرهم به، وأكدوا ذلك بالجملة الاسمية وحرف التأكيد

{ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }[62]

قرأ الجمهور { **لفتيته** } بوزن فعلة جمع تكسير فتى مثل أخ وإخوة. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف { **لِفِتْيَانِهِ** } بوزن إخوان. والأوّل صيغة قلة والثاني صيغة كثرة. وعدد الفتيان لا يختلف.

الفتى: من كان في مبدإ الشباب، ومؤنثه فتاة، ويطلق على الخادم تلطّفا، لأنهم كانوا يستخفّون بالشباب في الخدمة، وكانوا أكثر ما يستخدمون العبيد.

البضاعة: المال او المتاع المعدّ للتجارة. والمراد بها هنا الدراهم التي ابتاعوا بها الطعام كما في التوراة.

{ **لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا** } رجاء أن يعرفوا أنّها عين بضاعتهم إمّا بكونها مسكوك سكة بلادهم وإما بمعرفة الصرر التي كانت مصرورة فيها كما في التوراة، أي يعرفون أنّها وضعت هنالك قصدا عطيّة من عزيز مصر.

الرحال: جمع رحل، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب، ولذا سمّي البعير راحلة.

الانقلاب: الرجوع.

{ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } لأنّه لمّا أمرهم بالرجوع استشعر بنفاذ رأيه أنّهم قد يكونون غير واجدين بضاعة ليبتاعوا بها الميرة، لأنّه رأى مخايل الضيق عليهم.

{ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [63] **قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** } [64].

{ **مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ** } حيل بيننا وبين الكيل في المستقبل، لأنّ رجوعهم بالطعام المعبّر عنه بالجهاز أنّ المنع من الكيل يقع في المستقبل.

الكيل: مصدر صالح لمعنى الفاعلية والمفعولية، وهو هنا بمعنى الإسناد إلى الفاعل، أي لن نكيل، فالممنوع هو ابتداء الكيل منهم. فتعيّن أنّهم حكوا القصّة لأبيهم مفصّلة واختصرها القرآن لظهور المراد.

{ **وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** } أكّدوا حفظه بالجملة الاسمية الدالة على الثبات وبحرف التوكيد.

{ **قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** } الاستفهام إنكاري فيه معنى النفي، فهو يستفهم عن وجه التأكيد في قولهم {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}. والمقصود من الجملة على احتمالها هو التفريع الذي في قوله {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً}، أي خير حفظا منكم، فإن حفظه الله سلم وإن لم

يحفظه لم يسلم كما لم يسلم أخوه من قبل حين أمنتكم عليه.
وهم قد اقتنعوا بجوابه وعلموا منه أنّه مرسل معهم أخاهم، ولذلك لم يراجعوه في شأنه.
قرأه حمزة والكسائي، وحفص { **حَافِظاً** } على أنّه حال من اسم الجلالة وهي حال لازمة. و **{حفظا}** مصدر منصوب على التمييز في قراءة الجمهور.

{ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ } [65]

{ **مَتَاعَهُمْ** } أصل المتاع ما يتمتّع به من العروض والثياب. وتقدّم عند قوله تعالى { لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ } [النساء:102].
{ **مَا نَبْغِي** } يجوز أن يكون للاستفهام الإنكاري بتنزيل المخاطب منزلة من يتطلّب منهم تحصيل بغية فينكرون أن تكون لهم بغية أخرى، أي **ماذا نطلب بعد هذا**. ويجوز كون {مَا} نافية، والمعنى واحد لأنّ الاستفهام الإنكاري في معنى النفي.
{ **هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا** } مبنية لجملة {مَا نَبْغِي} على الاحتمالين. وإنما علموا أنها ردت إليهم بقرينة وضعها في العدل بعد وضع الطعام وهم قد كانوا دفعوها إلى الكيّالين، أو بقرينة ما شاهدوا في يوسف - عليه السلام - من العطف عليهم، والوعد بالخير إن هم أتوا بأخيهم.
{ **وَنَمِيرُ أَهْلَنَا** } أي نأتيهم بالميرة. و**الميرة** (بكسر الميم بعدها ياء ساكنة): الطعام المجلوب.
{ **وَنَحْفَظُ أَخَانَا** } ذكروا ذلك تطمينا لخاطر أبيهم.
{ **وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ** } زيادة في إظهار حرصهم على سلامة أخيهم لأنّ في سلامته فائدة لهم بازدياد كيل بعير. لأن يوسف - عليه السلام - لا يعطي الممتار أكثر من حمل بعير من الطعام، فإذا كان أخوهم معهم أعطاه حمل بعير في عداد الإخوة. وبه تظهر المناسبة بين هذه الجملة والتي قبلها. وهذه الجمل مرتّبة ترتيبا بديعا لأنّ بعضها متولّد عن بعض.
{ **ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ** } الإشارة إلى الطعام الذي في متاعهم. وإطلاق الكيل عليه من إطلاق المصدر على المفعول بقرينة الإشارة.

{ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } [66]

{ تُؤْتُونِ مَوْثِقاً } اشتهر الإيتاء والإعطاء وما يراد بهما في إنشاء الحلف ليطمئن بصدق الحالف غيره وهو المحلوف له. وفي حديث الحشر " فيعطي الله من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره ". كما أطلق فعل الأخذ على تلقّي المحلوف له، قال تعالى { وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً } [النساء: 21].

ولعلّ سبب إطلاق فعل الإعطاء أنّ الحالف كان في العصور القديمة يعطي المحلوف له شيئا تذكرة لليمين مثل سوطه أو خاتمه، أو أنّهم كانوا يضعون عند صاحب الحقّ ضمانا يكون رهينة عنده. وقد اشتهر ضدّ ذلك في إبطال التوثيق يقال: ردّ عليه حلفه.

الموثق: أصله مصدر ميمي للتوثيق، أطلق هنا على المفعول وهو ما به التوثيق، يعني **اليمين**.

ومعنى ذلك أن يجعلوا الله شاهدا عليهم فيما وعدوا به. وذلك أن يقولوا: لك ميثاق الله أو عهد الله أو نحو ذلك، وبهذا يضاف الميثاق والعهد إلى اسم الجلالة كأنّ الحالف استودع الله ما به التوثّق للمحلوف له.

{ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ } جواب لقسم محذوف دلّ عليه **{مَوْثِقاً}**. وهو حكاية لقول يقوله أبناؤه المطلوب منهم إيقاعه.

{ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ } استثناء من عموم أحوال، و**الإحاطة**: الأخذ بأسر أو هلاك ممّا هو خارج عن قدرتهم، وأصله إحاطة الجيش في الحرب، فاستعمل مجازا في الحالة التي لا يستطاع التغلب عليها.

{ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } تذكير لهم بأنّ الله رقيب على ما وقع بينهم. وهذا توكيد للحلف.

الوكيل: فعيل بمعنى مفعول، أي موكول إليه.

{ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } [67]

{ وَقَالَ } للإشارة إلى اختلاف زمن القولين، لأنّه اطمأن لرعايتهم ابنه وظهرت له المصلحة في سفرهم للإمتار.

{ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ } صادر في وقت إزماعهم الرحيل.

الأبواب: أبواب المدينة. وكانت مدينة منفيس من أعظم مدن العالم فهي ذات أبواب. وإنّما نهاهم أن يدخلوها من باب واحد خشية أن يسترعي عددهم أبصار أهل المدينة وحرّاسها، وأزياؤهم أزياء الغرباء عن أهل المدينة، أن يوجسوا منهم خيفة من تجسّس أو سرقة، فربما سجنوهم أو رصدوا الأعين إليهم.

المتفرقة: أراد بها المتعدّدة لأنّه جعلها في مقابلة الواحد. ووجه العدول عن المتعددة إلى المتفرقة الإيماء إلى علّة الأمر وهي إخفاء كونهم جماعة واحدة.

{ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } معترضة في آخر الكلام، أي وما أغني عنكم بوصيّتي هذه شيئا. أراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدّبا مع واضع الأسباب ومقدّر الألطاف في رعاية الحالين، لأنّا لا نستطيع أن نطّلع على مراد الله في الأعمال فعلينا أن نتعرّفها بعلاماتها ولا يكون ذلك إلّا بالسعي لها.

الإغناء: هنا مشتق من الغَناء (بفتح الغين وبالمد) وهو الإجزاء والاضطلاع وكفاية المهم. وأصله مرادف الغِنى (بكسر الغين و القصر) وهما معا ضد الفقر. وشاع هذا الاستعمال المجازي حتّى غلب على هذا الفعل، فلذلك كثر في الكلام تخصيص الغَناء بالفتح والمد بهذا المعنى، وتخصيص الغنى - بالكسر والقصر - في معنى ضد الفقر ونحوه. وهي تفرقة حسنة من دقائق استعمالهم في تصاريف المترادفات.

{ مِنْ شَيْءٍ } نائب مناب شيئا، وزيدت (من) لتوكيد عموم شيء في سياق النفي.

{ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ } في موضع التعليل لمضمون {وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}.

الحكم: هنا التصرّف والتقدير، ومعنى الحصر أنّه لا يتم إلّا ما أراده الله. وليس للعبد أن ينازع مراد الله في نفس الأمر ولكن واجبه أن يتطلّب الأمور من أسبابها لأن الله أمر بذلك.

{ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } ليبيّن لهم أنّ وصيّته بأخذ الأسباب مع التنبيه على الاعتماد على الله هو معنى التوكّل الذي يضلّ في فهمه كثير من النّاس اقتصارا وإنكارا.

{ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [68]

أغنت عن جمل كثيرة، وهي أنّهم ارتحلوا ودخلوا من حيث أمرهم أبوهم، ولمّا دخلوا من حيث أمرهم سلموا ممّا كان يخافه عليهم. وما كان دخولهم من حيث أمرهم يغني عنهم من الله من شيء لو قدّر الله أن يحاط بهم، فالكلام إيجاز.

{ قَضَاهَا } أنفذها. يقال: قضى حاجة لنفسه، إذا أنفذ ما أضمره في نفسه، أي نصيحة لأبنائه أداها لهم ولم يدّخرها عنهم، ليطمئن قلبه بأنه لم يترك شيئا يظنّه نافعا لهم إلّا أبلغه إليهم.

الحاجة: الأمر المرغوب فيه. سمّي حاجة لأنّه محتاج إليه، فهي من التسمية باسم المصدر. والحاجة التي في نفس يعقوب - عليه السلام - هي حرصه على تنبيههم للأخطار التي تعرض لأمثالهم في مثل هذه الرحلة إذا دخلوا من باب واحد. وتعليمهم الأخذ بالأسباب مع التوكّل على الله.

{ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ } معترضة، وهو ثناء على يعقوب - عليه السلام - بالعلم والتدبير، وأنّ ما أسداه

من النصح لهم هو من العلم الذي آتاه الله وهو من علم النبوّة.
{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** } استدراك. والمعنى أنّ الله أمر يعقوب - عليه السلام - بأخذ أسباب الاحتياط والنصيحة مع علمه بأنّ ذلك لا يغني عنهم من الله من شيء قدّره لهم، فإنّ مراد الله تعالى خفيّ عن النّاس، وقد أمر بسلوك الأسباب المعتادة. وعلّم يعقوب - عليه السلام - ذلك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون تطلب الأمرين فيهملون أحدهما. فمنهم من يهمل معرفة أنّ الأسباب الظاهرية لا تدفع أمرا قدّره الله وعلم أنّه واقع، ومنهم من يهمل الأسباب وهو لا يعلم أن الله أراد في بعض الأحوال عدم تأثيرها.
ويفسر هذا المعنى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمّا أمر المسلمين بالقفول عن (عَمواس) لمّا بلغه ظهور الطاعون بها وقال له أبو عبيدة: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر - رضي الله عنه -: " لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، ألسنا نفر من قدر الله إلى قدر الله...".

{ **وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } [69]

الإيواء: الإرجاع. وتقدّم في قوله تعالى {أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ} [يونس:8]. وأطلق الإيواء هنا مجازا على الإدناء و**التقريب**، كأنّه إرجاع إلى مأوى، وإنّما أدناه ليتمكّن من الإسرار إليه بقوله { إِنِّي أَنَا أَخُوكَ }.
{ **قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ** } كلّمه بكلمة مختصرة بليغة إذ أفاده أنّه هو أخوه الذي ظنّه أكله الذئب.
{ **فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** }. والابتئاس: مطاوعة الإبئاس، أي جعل أحد بائسا، أي صاحب بؤس.
البؤس: الخزن والكدر. والنهي عن الابتئاس مقتض الكفّ عنه، أي أزل عنك الحزن.
{ **كَانُوا يَعْمَلُونَ** } راجعان إلى إخوتهما بقرينة المقام، وأراد بذلك ما كان يجده أخوه (بنيامين) من الحزن لهلاك أخيه الشقيق وفظاظة اخوته وغيرتهم منه.

{ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ [70] قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ [71] قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ [72] قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ [73] قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ [74] قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } [75].

{ جَعَلَ السِّقَايَةَ } إسناد جعل السقاية إلى ضمير يوسف مجاز عقلي، وإنّما هو آمر بالجعل والذين جعلوا السقاية هم العبيد الموكلون بالكيل.

السقاية: إناء كبير يسقى به الماء والخمر.

الصواع: لغة في الصاع، وهو وعاء للكيل يقدر بوزن رطل وربع أو وثلث. فتسمية هذا الإناء سقاية وتسميته صواعا جارية على ذلك. وفي التوراة سمّي طاسا، ووصف بأنّه من فضة.

وإضافة الصواع إلى الملك لتشريفه، وتهويل سرقته. ويجوز أن يكون أطلق الملك على يوسف - عليه السلام - تعظيما له.

التأذين: النداء المكرّر. وتقدّم عند قوله تعالى { فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ } [الأعراف:44].

العير: اسم للحمولة من إبل وحمير وما عليها من أحمال وما معها من ركّابها، فهو اسم لمجموع هذه الثلاثة.

وأسندت السرقة إلى جميعهم جريا على المعتاد من مؤاخذة الجماعة بجرم الواحد منهم.

{ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ } حال من ضمير { قَالُوا }. ومرجع ضمير { أَقْبَلُوا } عائد إلى فتيان يوسف - عليه السلام - أي وقد أقبل عليهم فتيان يوسف - عليه السلام- . وجعلوا جعلا لمن يأتي بالصواع.

{ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ } قاله واحد من المقبلين، وهو كبيرهم. و**الزعيم**: الكفيل.

وهذه الآية قد جعلها الفقهاء أصلا لمشروعية الجعل والكفالة. وفيه نظر، لأنّ يوسف - عليه السلام - لم يكن يومئذ ذا شرع حتّى يُستأنس للأخذ بـ (أن شرع من قبلنا شرع لنا) إذا حكاه كلام الله أو رسوله. ولو قدّر أنّ يوسف - عليه السلام - كان يومئذ نبيّا فلا يثبت أنّه رسول بشرع، إذ لم يثبت أنّه بعث إلى قوم فرعون، ولم يكن ليوسف - عليه السلام - أتباع في مصر قبل ورود أبيه واخوته وأهلهم. فهذا مأخذ ضعيف.

{ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ } (التاء) حرف قسم على المختار. أكّدوا براءتهم بالقسم لأنّهم كانوا وفدوا على مصر مرّة سابقة.

{ مَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ } تحكيم، لأنّهم لا يسعهم إلّا أن يعيّنوا جزاء يؤخذون به. أي ما جزاء سارقه إن تبيّن كذبكم بوجود الصواع في رحالكم.

{ **جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ** } {جَزَاؤُهُ} الأول مبتدأ، و(من) يجوز أن تكون شرطيّة وهي مبتدأ ثان وأنّ جملة { وُجِدَ فِي رَحْلِهِ } جملة الشرط، وجملة { فَهُوَ جَزَاؤُهُ } جواب الشرط، و(الفاء) رابطة للجواب، والجملة المركبة من الشرط وجوابه خبر عن المبتدإ الأول.

ويجوز أن تكون {من} موصولة مبتدأ ثانيا، وجملة {وُجِدَ فِي رَحْلِهِ} صلة الموصول. والمعنى أن من وجد في رحله الصواع هو جزاء السرقة. وهذا معلوم من السياق، لأنّ السرقة لا تبلغ عقوبتها حدّ القتل.

ويظهر أنّ ذلك كان حكما مشهورا بين الأمم أن يسترق السارق. وهو قريب من استرقاق المغلوب في القتال.

{ **كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** } بقيّة كلام إخوة يوسف - عليه السلام - أي كذلك حكم قومنا في جزاء السارق.

{ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } [76]

أوعية: جمع وعاء، وهو الظرف، مشتق من الوعي وهو الحفظ. والابتداء بأوعية غير أخيه لإبعاد أن يكون الذي يوجد في وعائه هو المقصود من أوّل الأمر.

{ **كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ** }

الكيد: فعل يتوصّل بظاهره إلى مقصد خفي. وهنا هو إلهام يوسف - عليه السلام - لهذه الحيلة المحكمة في وضع الصواع وتفتيشه، وإلهام إخوته إلى ذلك الحكم المُصْمَت. وأسند الكيد إلى الله لأنّه ملهمه فهو مسببه. وجعل الكيد لأجل يوسف - عليه السلام - لأنّه لفائدته.

{ **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** } بيان للكيد باعتبار جميع ما فيه من وضع السقاية ومن حكم إخوته على أنفسهم بما يلائم مرغوب يوسف - عليه السلام - من إبقاء أخيه عنده، ولولا ذلك لما كانت شريعة القبط تخوّله ذلك، فقد قيل: إن شرعهم في جزاء السارق أن يؤخذ منه الشيء ويضرب ويغرم ضعفي المسروق أو ضعفي قيمته. ومثله ما كان في شرع الرومان من استرقاق المدين، فتعين أن المراد بالدين الشريعة لا مطلق السلطان.

{ **نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ** } تذييل لقصّة أخذ يوسف - عليه السلام - أخاه لأنّ فيها رفع درجة يوسف - عليه السلام - في الحال بالتدبير الحكيم من وقت مناجاته أخاه إلى وقت استخراج السقاية من رحله. ورفع درجة أخيه في الحال بإلحاقه ليوسف - عليه السلام - في العيش الرفيه والكمال بتلقي الحكمة من فيه. ورفع درجات إخوته وأبيه في الاستقبال بسبب رفع درجة يوسف - عليه السلام - وحنوّه عليهم. فالدرجات مستعارة لقوة الشرف من استعارة المحسوس للمعقول.

{ **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** } تذييل ثان، وفيها شاهد لتفاوت النّاس في العلم المؤذن بأن علم الذي خلق لهم العلم لا ينحصر مداه، وأنّه فوق كل نهاية من علم النّاس. والفوقية مجاز في شرف الحال، لأنّ الشرف يشبّه بالارتفاع.

{ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ }[77]

لمّا بهتوا بوجود الصّواع في رحل أخيهم اعتراهم ما يعتري المبهوت فاعتذروا عن دعواهم تنزّههم عن السرقة { وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ } [73]. عذرا بانّ أخاهم قد تسرّبت إليه خصلة السرقة من غير جانب أبيهم فزعموا أنّ أخاه الذي أُشيع فقده كان سرق من قبل. وقد علم فتيان يوسف - عليه السلام - أنّ المتّهم أخ من أم أخرى. فهذا اعتذار بتعريض بجانب أم إخوتهم وهي زوجة أبيهم وهي (**راحيل ابنة لابان**) خال يعقوب - عليه السلام - . وكان ليعقوب - عليه السلام - أربع زوجات:

1/ **راحيل**، وهذه أم يوسف - عليه السلام – وبنيامين.

و2/ **لينة**، بنت لابان أخت راحيل وهي أم روبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وبساكر، وزبولون.

3/ **بلهة**، جارية راحيل وهي أم دانا، ونفتالي.

4/ **زُلفة**، جارية راحيل أيضا وهي أم جاد، وأشير.

{ **قَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ** } بهتانا ونفيا للمعرّة عن أنفسهم. وليس ليوسف - عليه السلام – سرقة من قبل، ولم يكن إخوة يوسف –عليه السلام- يومئذ أنبياء. وكان هذا الكلام بمسمع من يوسف - عليه السلام -.

{ **فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا** } يجوز أن يعود الضمير البارز إلى جملة { قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ }، ويكون المعنى أنّه تحمّلها ولم يظهر غضبا منها، وأعرض عن زجرهم وعقابهم مع أنّها طعن فيه وكذب. وإلى هذا التفسير ينحو أبو علي الفارسي وأبو حيان. ويكون { قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً } كلاما مستأنفا حكاية لما أجابهم به يوسف - عليه السلام - صراحة على طريقة حكاية المحاورة.

ويجوز أن يكون ضمير الغيبة في {فَأَسَرَّهَا} عائد إلى ما بعده { قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً }. وبهذا فسر الزجّاج والزمخشري، أي قال في نفسه، وهو يشبه ضمير الشأن والقصة. والإسرار، على هذا الوجه، مستعمل في حقيقته، وهو إخفاء الكلام عن أن يسمعه سامع.

{ **وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ** } قيل هي توكيد لجملة {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ}. وشأن التوكيد أن لا يعطف. ووجه عطفها ما فيها من المغايرة للتي قبلها بزيادة قيد لهم المشعر بأنّه أبدى لأخيه أنّهم كاذبون. ويجوز أن يكون المراد لم يبد لهم

غضبا ولا عقابا كما تقدم مبالغة في كظم غيظه، فيكون في الكلام تقدير مضاف مناسب، أي لم يبد أثرها.
{ **شَرٌّ** } اسم تفضيل، وأصله أشرّ.
{ **مَكَاناً** } تمييز لنسبة الأشرّ. وأطلق المكان على الحالة على وجه الاستعارة، والحالة هي السرقة، وإطلاق المكان والمكانة على الحالة شائع. وهو تشبيه الاتصاف بوصف ما بالحلول في مكان.
{ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ** } وهو كلام جامع، أي الله أعلم بصدقكم فيما وصفتم أو بكذبكم.

{ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [78] قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ } [79].
{ **يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ** } نادوا بوصف العزيز إمّا لأن كل رئيس ولاية مهمّة يدعى بما يرادف العزيز فيكون يوسف - عليه السلام - عزيزا، كما أن رئيس الشرطة يدعى العزيز كما في قوله { امْرَأَتُ الْعَزِيزِ } [30]. وإمّا لأن يوسف ضُمت إليه ولاية العزيز الذي اشتراه فجمع التصرفات، وراجعوه في أخذ أخيهم.
{ **إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً** } وصفوا أباهم بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه، وهي: حنان الأبوّة، وصفة الشيخوخة، واستحقاقه جبر خاطره لأنّه كبير قومه، أو لأنّه انتهى في الكبر إلى أقصاه، فالأوصاف مسوقة للحثّ على سراح الابن.
{ **فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ** } المكان: أصله محل الكون، أي ما يستقر فيه الجسم، وهو هنا مجاز في العوض، لأنّ العوض يضعه آخذه في مكان الشيء المعوّض عنه كما في الحديث: " هذه مكان حجّتك ".
{ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** } تعليل لإجابة المطلوب لا للطلب. والتقدير: فلا ترد سؤالنا لأنّا نراك من المحسنين فمثلك لا يصدر منه ما يسوء أبا شيخا كبيرا.
{ **مَعَاذَ اللَّهِ** } مصدر ميمي اسم للعوذ، وهو اللجأ إلى مكان للتحصّن. وانتصب هذا المصدر على المفعولية المطلقة نائبا عن فعله المحذوف. والتقدير: أعوذ بالله معاذا، فلما حذف الفعل جعل الاسم المجرور بباء التعدية متصلا بالمصدر بطريق الإضافة فقيل: معاذ الله، كما قالوا: سبحان الله، عوضا عن أسبح الله.
{ **أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ** } المستعاذ منه. والمعنى: أي نلجأ إلى الله أن يعصمنا من أخذ من لا حقّ لنا في أخذه، أي أن يعصمنا من الظلم، لأنّ أخذ من وجد المتاع عنده صار حقّا عليه بحكمه على نفسه. وأمّا أخذ غيره فلا يسوغ.

{ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ [80] **ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ** [81] **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** }[82].

{ **اسْتَيْأَسُوا** } بمعنى يئسوا فالسين والتاء للتأكيد. واليأس منه: اليأس من إطلاقة أخاهم.

{ **خَلَصُوا نَجِيّاً** } اعتزلوا وانفردوا. واصله من الخلوص وهو الصفاء من الأخلاط. ومنه قول عبد الرحمان بن عوف لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما في آخر حجّة حجّها حيث عزم عمر رضي الله عنه على أن يخطب في الناس فيحذّرهم من قوم يريدون المزاحمة في الخلافة بغير حق: " يا أمير المؤمنين إنّ الموسم يجمع رعاع النّاس فأمهل حتّى تقدم المدينة فتخلص بأهل الفقه...".

النجي: اسم من المناجاة، وانتصابه على الحال. والتناجي: **المحادثة سرا**، أي متناجين.

{ **قَالَ كَبِيرُهُمْ** } بدل اشتمال من جملة {خَلَصُوا نَجِيّاً} ، لأنّ المناجاة تشتمل على أقوال كثيرة منها قول كبيرهم هذا، وكبيرهم هو أكبرهم سنّا وهو (**روبين**) بكر يعقوب - عليه السلام- .

{ **أَلَمْ تَعْلَمُوا** } الاستفهام تقريري مستعمل في التذكير بعدم اطمئنان أبيهم بحفظهم لابنه.

{ **وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ** } جملة معترضة، أي تفريطكم في يوسف - عليه السلام - كان من قبل الموثق، أي فهو غير مصدقكم فيما تخبرون به من اخذ بنيامين في سرقة الصّواع.

{ **فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي** } كعلامة عند يعقوب - عليه السلام - يعرف بها صدقهم في سبب تخلّف بنيامين، إذ لا يرضى لنفسه أن يبقى غريبا لولا خوفه من أبيه، ولا يرضى بقية أشقائه أن يكيدوا له كما يكيدون لغير الشقيق.

{ **أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي** } اللام للأجل، أي يحكم الله بما فيه نفعي. والمراد بالحكم **التقدير**.

{ **وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** } تذييل. الذي حكمه لا جور فيه، أو الذي حكمه لا يستطيع أحد نقضه، وفيه معنى الثناء، للتعريض بالسؤال، أن يقدّر له ما فيه رأفة في رد غربته.

وعدم التعرّض لقول صدر من **(بنيامين)** يدافع به عن نفسه يدلّ على أنّه لازم السكوت لأنّه كان مطّلعا على مراد يوسف - عليه السلام - من استبقائه عنده.

{ **ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا**...} ثم لقّنهم ما يقولون لأبيهم.

{ **وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ** } احتراس من تحقّق كونه سرق، وهو إمّا لقصد التلطّف مع أبيهم في نسبة ابنه إلى السرقة، وإمّا لأنّهم علموا من أمانة أخيهم ما خالجهم به الشكّ في وقوع السرقة منه.

{ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا** } مجاز عن سؤال أهلها. والمراد بها مدينة مصر. والمدينة والقرية مترادفتان. وقد خصّت المدينة في العرف بالقرية الكبيرة.

{ **وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا** } المراد رفاقهم في عيرهم القادمين إلى مصر من أرض كنعان.

{ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } [83]

جعلت الجملة في صورة الجواب عن الكلام الذي لقّنه أخوهم على طريقة الإيجاز. والتقدير: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا ذلك الكلام الذي لقّنه إيّاهم (روبين) فقال أبوهم: { **بَلْ سَوَّلَتْ** ... }.

و تهمته أبناءه بأن يكونوا تمالؤوا على أخيهم بنيامين فهو ظن مستند إلى القياس على ما سبق من أمرهم في قضية يوسف - عليه السلام -.

{ **عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً** } وهذا كشف منه إذ لم ييأس من حياة يوسف - عليه السلام- .

{ **إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** } تعليل لرجائه من الله بأنّ الله عليم فلا تخفى عليه مواقعهم المتفرّقة. حكيم فهو قادر على إيجاد أسباب جمعهم بعد التفرّق.

{ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ [84] قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ [85] قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [86] يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [87].

انتقال إلى حكاية حال يعقوب - عليه السلام - في انفراده عن أبنائه ومناجاته نفسه، فالتولّي حاصل عقب المحاورة.

{ **تَوَلَّى** } انصرف، وهو انصراف غضب. ولمّا كان التولّي يقتضي الاختلاء بنفسه ذُكر من أحواله تجدّد أسفه على يوسف - عليه السلام -.

{ **يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ** } والأسف: أشد الحزن، أَسِف كحزن. ونداء الأسف مجاز. نزل الأسف منزلة من يعقل فيقول له: احضر فهذا أوان حضورك. والألف عوض عن ياء المتكلّم فإنّها في النداء تبدّل ألفا.

وإنّما ذكر القرآن تحسّره على يوسف - عليه السلام - ولم يذكر تحسّره على ابنيه الآخرين لأنّ ذلك التحسّر هو الذي يتعلّق بهذه القصّة، فلا يقتضي ذكره أنّ يعقوب - عليه السلام - لم يتحسّر قطّ إلّا على يوسف.

{ **وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** } قيل ابيضاض العينين: ضعف البصر. وظاهره أنه تبدل لون سوادهما من الهزال. وعندي أن ابيضاض العينين كناية عن عدم الإبصار، وأنّ الحزن هو السبب لعدم الإبصار كما هو الظاهر.

الكظيم: مبالغة للكاظم. والكظم: الإمساك النفساني، أي كاظم للحزن لا يظهره بين النّاس، ويبكي في خلوته.

{ **قَالُوا تَاللَّهِ** } محاورة بنيه إيّاه عندما سمعوا قوله { يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ }. والتاء حرف قسم، وهي عوض عن واو القسم. وجواب القسم هو { **تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ** }. المقصود من هذا اليمين الإشفاق عليه بأنّه صائر إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه مصيبة يوسف - عليه السلام -، وجواب القسم هنا فيه حرف النفي مقدّر بقرينة عدم قرنه بنون التوكيد، لأنّه لو كان مثبتا لوجب قرنه بنون التوكيد فحذف حرف النفي هنا.

{ **تَفْتَأُ** } تفتر. يقال: فتئ من باب علم. إذا فتر عن الشيء. والمعنى: لا تفتر تذكر يوسف.

{ **حَرَضاً** } مصدر، وهو شدّة المرض المفضي إلى الهلاك. وفي جعلهم الغاية الحرض أو الهلاك تعريض بأنّه يذكر أمرا لا طمع في تداركه.

{ **قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } أجابهم بانّ ذكره يوسف - عليه السلام - موجّه إلى الله دعاء بان يردّه عليه، لأنّه كان يعلم أن يوسف لم يهلك ولكنّه بأرض غربة مجهولة، وعلم ذلك بوحي أو بفراسة صادقة.

البثّ: الهمّ الشديد، وهو التفكير في الشيء المسيء. و**الحزن**: الأسف على فائت.

فبين الهم والحزن العموم والخصوص الوجهي، وقد اجتمعا ليعقوب - عليه السلام -، لأنّه كان مهتمّا بالتفكير في مصير يوسف - عليه السلام - وما يعترضه من الكرب في غربته وكان آسفا على فراقه.

{ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } لينبّههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية ليعلموا أنّهم دون مرتبة أن يعلّموه أو يلوموه. وفي هذا تعريض بردّ تعريضهم بأنّه يطمع في المحال.

{ **يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، صرّح لهم بشيء ممّا يعلمه وكاشفهم بما يحقّق كذبهم. حين أذنه الله بذلك عند تقدير انتهاء البلوى.

التحسّس: (بالحاء المهملة) شدّة التطلّب والتعرّف، وهو أعم من التجسّس (بالجيم) فهو التطلب مع اختفاء وتستر.

{ **وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ** } الرَوْح (بفتح الراء): النفَس (بفتح الفاء) استعير لكشف الكرب، لأنّ الكرب والهمّ يطلق عليهما الغمّ وضيق النفس وضيق الصدر، بكذلك يطلق التنفّس والتروّح على ضدّ ذلك، ومنه استعارة قولهم: تنفّس الصبح إذا زالت ظلمة الليل.

{ **إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** } تعليل للنهي عن اليأس. والمعنى: لا تيأسوا من الظفر

بيوسف - عليه السلام -. فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيأ لها أسبابها، ومن كان يؤمن بأن الله واسع القدرة لا يُحيل مثل ذلك، فحقّه أن يأخذ في سببه ويعتمد على الله في تيسيره، وأمّا القوم الكافرون بالله فهم يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة وينكرون غيرها.

{ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ } [88]

الفاء عاطفة على كلام مقدّر دل عليه المقام، أي فارتحلوا إلى مصر بقصد استطلاق بنيامين من عزيز مصر ثم بالتعرّض إلى التحسّس من يوسف - عليه السلام - فوصلوا مصر، فدخلوا على يوسف. وقد تقدّم آنفا وجه دعائهم يوسف - عليه السلام - بوصف العزيز.

{ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ } أرادوا بمس الضرّ إصابته. وتقدّم عند قوله {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ} [الأنعام:17].

{ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ } البضاعة القليلة التي لا يُرغب فيها، فكأن صاحبها يزجيها، أي يدفعها بكلفة ليقبلها المدفوعة إليه. والمراد بها مال قليل للامتيار.

{ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا } طلبوا التصدّق منه تعريضا بإطلاق أخيهم لأنّ ذلك فضل منه إذ صار مملوكا له كما تقدّم.

{ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ } تعليل لاستدعائهم التصدّق عليهم.

{ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ [89] **قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** [90] **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ** [91] **قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** [92] **اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ }** [93]

{ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ } الاستفهام مستعمل في التوبيخ، فهو توبيخ على ما يعلمونه محقّقا من أفعالهم مع يوسف - عليه السلام - وأخيه، وهي بالنسبة ليوسف - عليه السلام - واضحة، وأمّا بالنسبة إلى بنيامين فهي ما كانوا يعاملونه به من الإهانة التي تنافيها الأخوّة، ولذلك جعل ذلك الزمن زمن جهالتهم بقوله **{ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ}**.

وإنما كاشفهم بحاله الآن لأنّ الاطلاع على حاله يقتضي استجلاب أبيه وأهله إلى السكنى بأرض ولايته، وذلك كان متوقّفا على أشياء لعلّها لم تتهيأ إلّا حينئذ، فقد صار يوسف - عليه السلام - جدّ مكين.

ولا تعرف أسماء ملوك مصر في هذا الزمن الذي كان فيه يوسف - عليه السلام - لأنّ المملكة أيامئذ كانت منقسمة إلى مملكتين: إحداهما ملوكها من القبط وهم الملوك، والمملكة الثانية ملوكها من الهكسوس، ويقال لهم العمالقة أو الرعاة وهم عرب. ودام هذا الانقسام (511 سنة) من سنة 2214 ق م إلى سنة 1703ق م.

{ **أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ** } يدلّ على أنّهم استشعروا من كلامه ثمّ من ملامحه ثمّ من تفهّم قول أبيهم.

{ **وَهَذَا أَخِي** } خبر مستعمل في التعجيب من جمع الله بينهما بعد طول الفرقة.

{ **إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } تعليل لجملة {مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا}. فيوسف -عليه السلام- اتقى الله وصبر، وبينيامين صبر ولم يعص الله فكان تقيّا. أراد يوسف - عليه السلام - تعليمهم وسائل التعرّض إلى نعم الله تعالى، وحثّهم على التقوى والتخلّق بالصبر، تعريضا بأنّهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه ولم يصبروا على إيثار أبيهم إيّاهما عليهم. وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته.

{ **المحسنين** } وضع للظاهر موضع المضمر إذ مقتضى الظاهر أن يقال: فإن الله لا يضيع أجرهم. فعدل عنه إلى المحسنين للدلالة على أن ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم ليكون كالتذييل، ويدخل في عمومه هو وأخوه. ثم إن هذا في مقام التحدّث بالنعمة وإظهار الموعظة، وهو سائغ للأنبياء، لأنّه من التبليغ كقول النبيء ﷺ: " إنّي لأتقاكم لله وأعلمكم به".

{ **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا** } و**الإيثار**: التفضيل بالعطاء. وصيغة اليمين مستعملة في لازم الفائدة، وهي علمهم ويقينهم بأنّ ما ناله هو تفضيل من الله، وأنّهم عرفوا مرتبته.

{ **وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ** }. اعترفوا بذنبهم. و**الخاطئ**: فاعل الخطيئة، أي الجريمة، أي نفعت فيهم الموعظة.

{ **قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ** } ولذلك أعلمهم بأن الذنب قد غفر فرفع عنهم الذم.

التثريب: التوبيخ والتقريع. والظاهر أن منتهى الجملة هو قوله {عَلَيْكُمُ}.

{ **الْيَوْمَ** } من تمام الجملة ولكنّه متعلق بفعل { يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ }، أعلمهم بأنّ الله يغفر لهم في تلك الساعة.

{ **اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا** } الأظهر أنّه جعل إرسال قميصه علامة على صدق إخوته فيما يبلّغونه إلى أبيهم من أمر يوسف - عليه السلام – بجلبه، فإن قمصان الملوك والكبراء تنسج إليهم خصيصا ولا توجد أمثالها عند النّاس، وكان الملوك يخلعونها على خاصّتهم، فجعل يوسف - عليه السلام - إرسال قميصه علامة لأبيه على صدق إخوته أنّهم جاءوا من عند يوسف - عليه السلام - بخبر صدق.

ومن البعيد ما قيل: إن القميص كان قميص إبراهيم - عليه السلام - مع أن قميص يوسف قد جاء به إخوته إلى أبيهم حين جاءوا عليه بدم كذب.

{ **فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً** } وأمّا إلقاء القميص على وجه أبيه فلقصد المفاجأة بالبشرى. وأمّا كونه يصير بصيرا فحصل ليوسف - عليه السلام - بالوحي فبشرهم به من ذلك الحين.

{ **وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ** } لقصد صلة أرحام عشيرته. قال المفسّرون: وكانت عشيرة يعقوب -عليه السلام- ستا وسبعين نفسا بين رجال ونساء.

{ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ [94] **قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ** [95] **فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** [96] **قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ** [97] **قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** }[98].

ووجدان يعقوب ريح يوسف - عليه السلام - إلهام خارق للعادة جعله الله بشارة له. وهو داخل في قوله تعالى { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً }. [الشورى:51]

الريح: الرائحة، وهي ما يعبق من طيب، تدركه حاسة الشمّ.

{ **لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ** } وجواب {لَوْلا} محذوف دل عليه التأكيد، أي لولا أن تفندوني لتحققتم ذلك.

التفنيد: النسبة للفَنَد (بفتحتين)، وهو اختلال العقل من الخوف. وحذفت ياء المتكلم تخفيفا بعد نون الوقاية وبقيت الكسرة.

{ **تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ** } قاله الحاضرون من أهله ولم يسبق ذكرهم، وليسوا أبناءه لأنّهم كانوا سائرين في طريقهم إليه.

الضلال: البعد عن الطريق الموصلة. أرادوا طمعه في لقاء يوسف - عليه السلام -، ووصفوا ذلك بالقديم لطول مدّته، وكانت مدّة غيبة يوسف عن أبيه عليهما السلام اثنين وعشرين سنة. وكان خطابهم إيّاه بهذا مشتملا على شيء من الخشونة، إذ لم يكن أدب عشيرته منافيا لذلك في عرفهم.

{ **فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ** } وفائدة التأكيد في هذه الآية تحقيق هذه الكرامة الحاصلة ليعقوب - عليه السلام - لأنّها خارق عادة، ولذلك لم يؤت ب {أَنْ} في نظائر هذه الآية ممّا لم يكن فيه داع للتأكيد.

البشير: فعيل بمعنى مفعل، أي المبشّر. وهذا البشير هو يهوذا بن يعقوب - عليه السلام - تقدّم بين يديّ العير ليكون أوّل من يخبر أباه بخبر يوسف - عليه السلام -

وارتدّ: رجع، وهو افتعال مطاوع ردّه، أي ردّ الله إليه قوّة بصره، كرامة له وليوسف عليهما السلام وخارقة للعادة.

{ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }

جواب للبشارة لأنها تضمنت القول. ولذلك جاء فعل {قَالَ} مفصولا غير معطوف لأنه على طريقة المحاورات، وكان بقية أبنائه قد دخلوا فبين لهم مجمل كلامه.

{ اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا } توبة واعتراف بالذنب، فسألوا أباهم أن يطلب لهم المغفرة من الله.

{ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي } وإنّما وعدهم بالاستغفار في المستقبل للدلالة على أنّه يلازم الاستغفار لهم في أزمنة المستقبل. ويعلم منه أنّه استغفر لهم في الحال بدلالة الفحوى، ولكنّه أراد أن ينبّههم إلى عظم الذنب وعظمة الله تعالى وأنه سيكرر الاستغفار لهم.

{ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } في موضع التعليل، وأكّد بضمير الفصل لتقوية الخبر.

{ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ [99] وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } [100].

طوى ذكر سفرهم من بلادهم إلى دخولهم على يوسف - عليه السلام - إذ ليس فيه من العبر شيء.

وأبواه أحدهما يعقوب - عليه السلام - وأما الآخر فالصحيح أن أم يوسف - عليه السلام - وهي (راحيل) توفيت قبل ذلك حين ولدت بنيامين، ولذلك قال جمهور المفسرين: أطلق الأبوان على الأب وزوج الأب وهي (ليئة) خالة يوسف - عليه السلام - وهي التي تولت تربيته، على طريقة التغليب والتنزيل.

{ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ } جملة دعائية، فالأمر في {ادْخُلُوا} للدعاء كالذي في قوله تعالى { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ } [الأعراف: 49].

الأمن: حالة اطمئنان النفس وراحة البال وانتفاء الخوف من كل ما يخاف منه، وهو يجمع جميع الأحوال الصالحة للإنسان من الصحة والرزق ونحو ذلك، ولذلك قالوا في دعوة إبراهيم - عليه السلام - { رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً } إنّه جمع في هذه الجملة جميع ما يطلب لخير البلد.

{ إِنْ شَاءَ اللَّهُ } تأدب مع الله كالاحتراس في الدعاء الوارد بصيغة الأمر وهو لمجرد التيمّن، فوقوعه في الوعد والعزم والدعاء بمنزلة وقوع التسمية في أوّل الكلام، وليس هو من الاستثناء الوارد النهي عنه في الحديث: أن لا يقول اغفر لي إن شئت.

{ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً** } والذين خرّوا سجّدا هم أبواه وإخوته.

العرش: سرير للقعود فيكون مرتفعا على سوق، وفيه سعة تمكّن الجالس من الاتكاء.

السجود: وضع الجبهة على الأرض تعظيما للذات او لصورتها أو لذكرها.

الخرور: الهُويّ والسقوط من علو إلى الأرض.

وكان السجود تحية الملوك وأضرابهم، ولم يكن يومئذ ممنوعا في الشرائع وإنّما منعه الإسلام لغير الله تحقيقا لمعنى مساواة النّاس في العبودية والمخلوقية. ولذلك فلا يعد قبوله السجود من أبيه عقوقا لأنّه لا غضاضة عليهما منه إذ هو عادتهم.

{ **قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً** } أي ولم يجعلها باطلا من أضعاث الأحلام .

{ **أَحْسَنَ بِي** } أحسن إليّ. يقال: أحسن به وأحسن إليه.

{ **وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ** } المجيء نعمة، فأسنده إلى الله تعالى وهو مجيئهم بقصد الاستيطان حيث هو.

البدو: ضد الحضر، سمي بدوا لأنّ سكّانه بادون، أي ظاهرون لكل وارد، إذ لا تحجبهم جدران ولا تغلق عليهم أبواب.

{ **مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي** }، أشار إلى مصائبه السابقة من الإبقاء في الجبّ، ومشاهدة مكر إخوته به. وقد ألمّ به إجمالا اقتصارا على شكر النعمة وإعراضا عن التذكير بتلك الحوادث المكدّرة للصلة بينه وبين إخوته، فمر بها مر الكرام وباعدها عنهم بقدر الإمكان إذ ناطها بنزغ الشيطان.

النزغ: مجاز في إدخال الفساد في النفس. شبه بنزغ الراكب الدابة وهو نخسها. وتقدّم عند قوله تعالى { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ } [الأعراف:200].

{ **إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا لقصد الاهتمام بها وتعليم مضمونها.

اللطف: تدبير الملائم. وهو يتعدّى باللام على تقدير لطيف لأجل ما يشاء اللطف به، ويتعدى بالباء { اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ} [الشورى: 19]. وتقدّم تحقيق معنى اللطف عند قوله { وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام:103].

{ **إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** } مستأنفة أيضا أو تعليل، وحرف التوكيد للاهتمام. وتوسيط ضمير الفصل للتقوية.

{ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ }[101]

أعقب ذكر نعمة الله عليه بتوجهه إلى مناجاة ربه بالاعتراف بأعظم نعم الدنيا والنعمة العظمى في الآخرة،

فذكر ثلاث نعم: اثنتان دنيويتان وهما: نعمة الولاية على الأرض ونعمة العلم، والثالثة أخروية وهي نعمة الدين الحق المعبر عنه بالإسلام.

{ **آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ** } وجعل الذي أوتيه بعضا من الملك ومن التأويل لأنّ ما أوتيه بعض من جنس الملك وبعض من التأويل، إشعارا بأنّ ذلك في جانب ملك الله وفي جانب علمه شيء قليل.

{ **فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } نداء محذوف حرف ندائه. و**الفاطر**: الخالق. وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الأنعام:14].

{ **أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ** } من قبيل الخبر في إنشاء الدعاء. فالمعنى: كن وليي في الدنيا والآخرة.

الوليّ: الناصر.

{ **تَوَفَّنِي مُسْلِماً** } طلب توفّيه على الدين الحق يقتضي أنّه متصف بالدين الحقّ المعبّر عنه بالإسلام من الآن، فهو يسأل الدوام عليه إلى الوفاة.

المسلم: الذي اتصف بالإسلام، وهو الدين الكامل، وهو ما تعبد الله به الأنبياء والرسل عليهم السلام. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران:102].

الإلحاق: حقيقته جعل الشيء لاحقا، أي مدركا من سبقه في السير. وأطلق هنا مجازا على المزيد في عداد قوم.

الصالحون: المتّصفون بالصلاح، وهو التزام الطاعة. وأراد بهم الأنبياء. فإن كان يوسف - عليه السلام - يومئذ نبيا فدعاؤه لطلب الدوام على ذلك، وإن كان نُبّئ فيما بعد فهو دعاء بحصوله، وقد صار نبيئا بعد ورسولا.

{ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ } [102]

تذييل للقصّة عند انتهائها. والإشارة إلى ما ذكر من الحوادث، أي ذلك المذكور.

الغيب: ما غاب عن علم الناس، وأصله مصدر غاب فسمي به الشيء الذي لا يشاهد.

والضمائر عائدة إلى كل من صدر منه ذلك في هذه القصة من الرجال والنساء على طريقة التغليب، يشمل إخوة يوسف - عليه السلام - والسيارة، وامرأة العزيز، ونسوتها.

{ **أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ** } تفسيره مثل قوله { وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ } [15].

وهذه الجملة استخلاص لمواضع العبرة من القصّة. وفيها منّة على النبيء ﷺ، وتعريض للمشركين بتنبيههم لإعجاز القرآن من الجانب العلمي، فإنّ صدور ذلك من النبيء ﷺ الأمّيّ آية كبرى على أنّه وحي من الله

تعالى.

{ **وَهُمْ يَمْكُرُونَ** } حال من ضمير {أَجْمَعُوا} ، وأتي بصيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة.

{ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ [103] وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ }[104].

انتقال من سوق هذه القصّة إلى العبرة بتصميم المشركين على التكذيب بعد هذه الدلائل البيّنة، فالواو للعطف على { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ } [102] باعتبار إفادتها أنّ هذا القرآن وحي من الله وأنّه حقيق بأن يكون داعيا سامعيه إلى الإيمان بالنبيء ﷺ. ولمّا كان ذلك من شأنه أن يكون مطعما في إيمانهم عقب بإعلام النبيء ﷺ بأنّ أكثرهم لا يؤمنون.

{ **النَّاسِ** } يجوز حمله على جميع جنس النّاس، ويجوز أن يراد به ناس معيّنون وهم القوم الذين دعاهم النبيء ﷺ بمكة وما حولها، فيكون عموما عرفيا.

{ **وَلَوْ حَرَصْتَ** } في موضع الحال معترضة بين اسم {مَا} وخبرها.

الحرص: شّدة الطلب لتحصيل شيء ومعاودته. وتقدّم في قوله تعالى { حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ } [براءة:128].

{ **وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ** } معطوفة على جملة {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ}، أي لا يسوءك عدم إيمانهم فلست تبتغي أن يكون إيمانهم جزاء على التبليغ بل إيمانهم لفائدتهم، كقوله { قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ } [الحجرات:17].

وضمير الجمع عائد إلى النّاس، أي الذين أرسل إليهم النبيء ﷺ.

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** } بمنزلة التعليل والقصر إضافي، أي ما هو إلّا ذكر للعالمين، لا لتحصيل الأجر.

{ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ [105] وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } [106].

أي ليس إعراضهم عن آية حصول العلم للأمّيّ بما في الكتب السالفة فحسب بل هم معرضون عن آيات كثيرة في السماوات والأرض.

{ **كَأَيِّنْ** } اسم يدل على كثرة العدد المبهم يبيّنه تمييز مجرور بـ {مِنْ}. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} [آل عمران:146].

الآية: العلامة. والمراد هنا الدّالة على وحدانية الله تعالى بقرينة ذكر الإشراك بعدها.

{ **يَمُرُّونَ عَلَيْهَا** } يرونها، والمرور مجاز مكنّى به عن التحقق والمشاهدة إذ لا يصحّ حمل المرور على

المعنى الحقيقي بالنسبة لآيات السماوات، فالمرور هنا كالذي في قوله تعالى { وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً } [الفرقان: 72].

{ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } في موضع الحال من ضمير {يَمُرُّونَ} أي وما يؤمن أكثر النّاس إلّا وهم مشركون. والمراد أهل الشرك من العرب. وهذا إبطال لما يزعمونه من الاعتراف بأنّ الله خالقهم، وبأنّ إيمانهم بالله كالعدم لأنّهم لا يؤمنون بوجود الله إلّا في تشريكهم معه غيره في الإلهية.

والمقصود من هذا تشنيع حالهم.

{ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ }[107]

تفظيع حالهم وجرأتهم على خالقهم والاستمرار على ذلك دون إقلاع. فكأنهم في إعراضهم عن توقّع حصول غضب الله بهم آمنون أن تأتيهم غاشية من عذابه في الدنيا أو تأتيهم الساعة بغتة فتحول بينهم وبين التوبة ويصيرون إلى العذاب الخالد. والاستفهام مستعمل في التوبيخ.

{ غَاشِيَةٌ } الغشي والغشيان: الإحاطة من كل جانب { وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ } [لقمان: 32].

الغاشية: الحادثة التي تحيط بالنّاس. والعرب يؤنّثون هذه الحوادث مثل الطامة والصاخة والداهية والمصيبة والكارثة والحادثة والواقعة والحاقة.

البغتة: الفجأة. وتقدّمت عند قوله تعالى { حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً } [الأنعام:31].

{ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [108]

استئناف ابتدائي للانتقال من الاعتبار بدلالة نزول هذه القصّة للنبي ﷺ الأمّيّ على صدق نبوءته وصدقه فيما جاء به من التوحيد إلى الاعتبار بجميع ما جاء به من هذه الشريعة عن الله تعالى، وهو المعبّر عنه بالسبيل على وجه الاستعارة . وهي استعارة متكرّرة في القرآن وفي كلام العرب.

السبيل: يؤنّث كما في هذه الآية، ويذكّر أيضا كما في قوله تعالى { وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً } [الأعراف [146]. والإشارة إلى الشريعة بتنزيل المعقول منزلة المحسوس لبلوغه من الوضوح للعقول حدّا لا يخفى فيه إلّا عمن لا يعدّ مدركا.

{ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ }

البصيرة: الحجّة الواضحة، والمعنى: أدعو إلى الله ببصيرة متمكنا منها. ووصف الحجّة ببصيرة مجاز

عقلي. والبصير: صاحب الحجّة لأنّه بها صار بصيرا بالحقيقة. ومثله وصف الآية بمبصرة في قوله: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً} [سورة النمل: 13]. وبعكسه يوصف الخفاء بالعمى كقوله { وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ } [هود: 28].

وفي الآية دلالة على أنّ أصحاب النبيء ﷺ والمؤمنين الذين آمنوا به مأمورون بأن يدعوا إلى الإيمان بما يستطيعون. وقد قاموا بذلك بوسائل بثّ القرآن وأركان الإسلام والجهاد في سبيل الله. وقد كانت الدعوة إلى الإسلام في صدر زمان البعثة المحمّديّة واجبا على الأعيان لقول النبيء ﷺ: " بلغوا عني ولو آية " أي بقدر الاستطاعة. ثم لمّا ظهر الإسلام وبلغت دعوته الأسماع صارت الدعوة إليه واجبا على الكفاية كما دل عليه قوله تعالى { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ } [آل عمران [104].

سبحان: مصدر التسبيح جاء بدلا عن الفعل للمبالغة. والتقدير: وأسبح الله سبحانا، أي أدعو الناس إلى توحيده وطاعته وأنزهه عن النقائص التي يشرك بها المشركون من ادعاء الشركاء، والولد، والصاحبة.

{ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } بمنزلة التذييل لما قبلها لأنّها تعم ما تضمنته.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ [109] **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ }** [110].

هاتان الآيتان متصل معناهما بما تضمّنه قوله تعالى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ - إلى قوله - قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي} [102- 108]، فإنّ تلك الآي تضمّنت الحجّة على صدق الرسول ﷺ فيما جاءهم به، وضمنت أن الذين أشركوا غير مصدّقينه عنادا وإعراضا عن آيات الصدق. فالمعنى أنّ إرسال الرسل عليهم السلام سنّة إلهية قديمة فلماذا يجعل المشركون نبوءتك أمرا مستحيلا فلا يصدقون بها مع ما قارنها من آيات الصدق.

{ إِلَّا رِجَالاً } أي إنسان أو شخص. فليس المراد الاحتراز عن المرأة. واختير هنا دون غيره لمطابقته الواقع فإن الله لم يرسل رسلا من النساء لحكمة قبول قيادتهم في نفوس الأقوام إذ المرأة مستضعفة عند الرجال دون العكس.

فالقصر إضافي، أي لم يكن الرسل عليهم السلام قبلك ملائكة أو ملوكا من ملوك المدن الكبيرة فلا دلالة في الآية على نفي إرسال رسول من أهل البادية مثل خالد بن سنان العبسي، ويعقوب - عليه السلام - حين كان ساكنا في البدو كما تقدّم.

{ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } الاستفهام إنكاري، فإن مجموع المتحدّث عنهم ساروا في الأرض فرأوا عاقبة المكذّبين مثل عاد وثمود. وهذا التفريع اعتراض بالوعيد والتهديد.

{ **وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ** } خبر، وهو اعتراض بالتبشير وحسن العاقبة للرّسل عليهم السلام ومن آمن بهم وهم الذين اتقوا، وهو تعريض بسلامة عاقبة المتّقين في الدنيا، وتعريض أيضا بأنّ دار الآخرة أشد أيضا على الذين من قبلهم من العاقبة التي كانت في الدنيا، فحصل إيجاز بحذف جملتين.

{ **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا** } ابتدائية، حجّة على المكذّبين، فتقدير المعنى: وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالا يوحى إليهم فكذّبوا المرسل إليهم واستمروا على التكذيب حتى إذا استيئس الرسل.

{ **اسْتَيْأَسَ** } مبالغة في يئس، كما تقدّم آنفا في قوله { وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ } [87].

{ **جَاءَهُمْ نَصْرُنَا** } جواب {إِذَا} لأنّ هذا الترتيب في المعنى هو المقصود من جلب {إِذَا} في مثل هذا التركيب.

{ **فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** } تفريع على { جَاءَهُمْ نَصْرُنَا } لأنّ نصر الرّسل عليهم السلام هو تأييدهم بعقاب الذين كذّبوهم بنزول العذاب وهو البأس، فينجي الله الذين آمنوا ولا يرد البأس عن القوم المجرمين.

البأس: هو عذاب المجرمين الذي هو نصر الرسل عليهم السلام. و**القوم المجرمون**: الذين كذبوا الرسل.

{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [111]

هذا من ردّ العجز على الصدر فهي مرتبطة بجملة { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ } [102] وهي تتنزّل منها منزلة البيان لما تضمّنه معنى الإشارة في قوله {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ} من التعجيب، وما تضمنه معنى {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ } من الاستدلال على أنّه وحي من الله مع دلالة الأمّيّة.

أولو الألباب: أصحاب العقول.

العبرة: اسم مصدر للاعتبار، وهو التوصّل بمعرفة المشاهد المعلوم إلى معرفة الغائب. وتطلق العبرة على ما يحصل به الاعتبار.

{ **مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى** } إلى آخرها تعليل لجملة { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ }، أي لأنّ ذلك القصص خبر صدق مطابق للواقع وما هو بقصة مخترعة. ووجه التعليل أنّ الاعتبار بالقصّة لا يحصل إلّا إذا كانت خبرا

عن أمر وقع.

وهذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى في أول السورة { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } [3] فكما سمّاه الله أحسن القصص في أول السورة نفى عنه الافتراء في هذه الآية تعريضا بالنضر ابن الحارث وأضرابه.

الافتراء: تقدّم في قوله { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [المائدة:103].

{ **الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** } الكتب الإلهية السابقة.

التفصيل: التبيين.

{ **كُلِّ شَيْءٍ** } الأشياء الكثيرة مما يرجع إلى الاعتبار بالقصص. وإطلاق الكلّ على الكثرة مضى عند قوله تعالى { وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها } [الأنعام:31].

{ **وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } العبر الباعثة على الإيمان والتقوى بمشاهدة ما جاء من الأدلة في أثناء القصص على أن المتصرّف هو الله تعالى، وعلى أنّ التقوى هي أساس الخير في الدنيا والآخرة، وكذلك الرحمة فإنّ في قصص أهل الفضل دلالة على رحمة الله لهم وعنايته بهم، وذلك رحمة للمؤمنين لأنّهم باعتبارهم بها يأتون ويذرون، فتصلح أحوالهم ويكونون في اطمئنان بال، وذلك رحمة من الله بهم في حياتهم وسبب لرحمته إيّاهم في الآخرة كما قال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل: 97].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرّعْد

هكذا سمّيت من عهد السلف. وذلك يدلّ على أنّها مسمّاة بذلك من عهد النبيء ﷺ إذ لم يختلفوا في اسمها. وإنّما سمّيت بإضافتها إلى الرعد لورود ذكر الرعّد فيها بقوله تعالى { وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ} [13]. فسمّيت بذلك لأن الرعد لم يذكر في سورة مثل هذه السورة. وإنّما ذكر الرعد في سورة البقرة وهي نزلت بالمدينة وإذا كانت آيات {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً - إلى قوله - وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ } [12] مما نزل بالمدينة، كما سيأتي، تعيّن أنّ ذلك نزل قبل نزول سورة البقرة.

وهذه السورة مكّية في قول مجاهد وروايته عن ابن عباس ورواية علي بن أبي طلحة وسعيد بن جبير عنه وهو قول قتادة. وعن أبي بشر قال: سألت سعيد ابن جبير عن قوله تعالى { وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } [43] أهو عبد الله بن سلام؟ فقال: كيف وهذه سورة مكّية، وعن ابن جريج وقتادة في رواية عنه وعن ابن عباس أيضا: أنّها مدنية، وهو عن عكرمة والحسن البصري، وعن عطاء عن ابن عباس. وجمع السيوطي وغيره بين الروايات بأنّها مكّية إلّا آيات منها نزلت بالمدينة يعني قوله { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً - إلى قوله - شَدِيدُ الْمِحَالِ } وقوله { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } [43].

قال ابن عطيّة: والظاهر أن المدني فيها كثير، وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة فهو مدني.

وأقول أشبه آياتها بأن يكون مدنيّا قوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } [41] كما ستعلمه، وقوله تعالى { كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ - إلى - وَإِلَيْهِ مَتَابِ} [30]، فقد قال مقاتل وابن جريج: نزلت في صلح الحديبية كما سيأتي عند تفسيرها.

ومعانيها جارية على أسلوب معاني القرآن المكّي من الاستدلال على الوحدانية وتفريع المشركين وتهديدهم. والأسباب التي أثارت القول بأنّها مدنية أخبار واهية، وسنذكرها في مواضعها من هذا التفسير. ولا مانع من أن تكون مكّية ومنها آيات نزلت بالمدينة وألحقت بها، فإنّ ذلك في بعض سور القرآن.

فالذين قالوا: هي مكّية لم يذكروا موقعها من ترتيب المكّيّات سوى أنّهم ذكروها بعد سورة يوسف وذكروا بعدها سورة إبراهيم. والذين جعلوها مدنية عدوها في النزول بعد سورة القتال (محمد) وقبل سورة الرحمان وعدوها سابعة وتسعين في عداد النزول. وإذ قد كانت سورة القتال نزلت عام الحديبية أو عام الفتح تكون سورة الرعد بعدها.

وعدّت آياتها ثلاثا وأربعين من الكوفيين وأربعا وأربعين في عدد المدنيين وخمسا وأربعين عند الشام.

أغراض السورة

أقيمت هذه السورة على أساس إثبات صدق الرّسول ﷺ فيما أوحي إليه من إفراد الله بالإلهيّة والبعث وإبطال أقوال المكذّبين، فلذلك تكرّرت حكاية أقوالهم خمس مرّات موزّعة على السورة بدءا ونهاية.

ومهّد لذلك بالتنويه بالقرآن وأنّه منزّل من الله، والاستدلال على تفرّده تعالى بالإلهية بدلائل خلق العالمين ونظامهما الدال على انفراده بتمام العلم والقدرة وإدماج الامتنان لما في ذلك من النعم على النّاس.

ثم انتقل إلى أقوال أهل الشرك ومزاعمهم في إنكار البعث. وتهديدهم أن يحلّ بهم ما حلّ بأمثالهم.

والتذكير بنعم الله على الناس.

وإثبات أن الله هو المستحق للعبادة دون آلهتهم.

وأنّ الله العالم بالخفايا وأنّ الأصنام لا تعلم شيئا ولا تُنعم بنعمة.

والتهديد بالحوادث الجوّيّة أن يكون منها عذاب للمكذّبين كما حلّ بالأمم قبلهم.

والتخويف من يوم الجزاء.

والتذكير بأنّ الدنيا ليست دار قرار.

وبيان مكابرة المشركين في اقتراحهم مجيء الآيات على نحو مقترحاتهم.

ومقابلة ذلك بيقين المؤمنين. وما أعدّ الله لهم من الخير.

وأنّ الرسول ﷺ ما لقي من قومه إلّا كما لقي الرّسل عليهم السلام من قبله.

والثناء على فريق من أهل الكتب يؤمنون بأن القرآن منزل من عند الله.

والإشارة إلى حقيقة القدر ومظاهر المحو والإثبات.

وما تخلّل ذلك من المواعظ والعبر والأمثال.

{ ألمر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ } [1]

تقدّم الكلام على نظائر { **ألمر** } ممّا وقع في أوائل بعض السور من الحروف المقطعة.

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ** } تقدّم نظيره من طالعة سورة يونس. والمشار إليه هو ما سبق نزوله من القرآن قبل هذه الآية أخبر عنها بأنّها آيات، أي دلائل إعجاز، ولذلك أشير إليه باسم إشارة المؤنث مراعاة لتأنيث الخبر.

{ **وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ** } يجوز أن يكون عطفا على { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ } للتعريف بأنّها آيات منزلة من عند الله.

وأخبر عن الذي أنزل بأنه الحق بصيغة القصر، أي هو الحق لا غيره من الكتب. فالمقصود الرد على المشركين الذين زعموه كأساطير الأولين.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** } راجع إلى ما أفاده القصر من إبطال مساواة غيره له في الحقيّة إبطالا يقتضي ارتفاع النزاع في أحقيته، أي ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بما دلت الأدلة على الإيمان به، فمن أجل هذا الخلق الذميم فيهم يستمر النزاع منهم في كونه حقا.

وابتداء السورة بهذا تنويه بما في القرآن تهيئة السامع للتأمل مما سيرد عليه من الكلام.

{ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } [2]

{ **اللَّهُ** } الافتتاح باسم الجلالة دون الضمير الذي يعود إلى { رَبِّكَ } [1] ليكون الخبر المقصود جاريا على معيّن لا يحتمل غيره، إبلاغا في قطع شائبة الإشراك.

{ **الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** } خبر وجُعل اسم موصول لكون الصلة معلومة الدلالة على أنّ من تثبت له هو المتوحّد بالربوبيّة، ولأنه مسلّم له ذلك.

السماوات: تقدّمت مرارا، وهي الكواكب السيارة وطبقات الجو التي تسبح فيها.

رفعها: خلقها مرتفعة، فليس المراد أنّه رفعها بعد أن كانت منخفضة.

العمد: جمع عماد ، والعامد: ما تقام عليه القبة والبيت.

{ **تَرَوْنَهَا** } في موضع الحال من {السَّمَاوَاتِ} ، أي لا شبهة في كونها بغير عمد.

{ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** } تقدّم القول في نظيرها في سورة الأعراف وفي سورة يونس.

{ **وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى** } تقدّم الكلام حول معناها في قوله تعالى { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ} [الأعراف:54].

الجري: السير السريع. وسير الشمس والقمر والنجوم في مسافات شاسعة، فهو أسرع التنقّلات في بابها وذلك سيرها في مداراتها.

الأجل: هو المدّة التي قدّرها الله لدوام سيرها، وهي مدة بقاء النظام الشمسي الذي إذا اختل انتثرت العوالم وقامت القيامة.

المسمّى: أصله المعروف باسمه، وهو هنا كناية عن المعيّن المحدّد.

{ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } في موضع الحال من اسم الجلالة.

{ يُدَبِّرُ } تقدّم عند قوله { وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ } [يونس:3].

تفصيل الآيات: تقدّم عند قوله { أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ } [هود:1].

ووجه الجمع بينهما هنا أنّ تدبير الأمر يشمل تقدير الخلق الأوّل والثاني، فهو إشارة إلى التصرّف بالتكوين للعقول والعوالم، وتفصيل الآيات مشير إلى التصرّف بإقامة الأدلة والبراهين، وشأن مجموع الأمرين أن يفيد اهتداء النّاس إلى اليقين بأنّ بعد هذه الحياة حياة أخرى، لأنّ النظر بالعقل في المصنوعات وتدبيرها يهدي إلى ذلك، وتفصيل الآيات والأدلة ينبّه العقول ويعينها على ذلك الاهتداء ويقرّبه.

وصيغ { يُدَبِّرُ - يُفَصِّلُ } بالمضارع عكس قوله { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ } لأنّ التدبير والتفصيل متجدّد متكرّر بتجدّد تعلّق القدرة بالمقدورات. وأمّا رفع السماوات وتسخير الشمس والقمر فقد تمّ واستقر دفعة.

{ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [3].

عطف على { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ }، فبين الجملتين شبه التّضاد، اشتملت الأولى على ذكر العوالم العلوية وأحوالها، واشتملت الثانية على ذكر العوالم السفليّة. والمعنى: أنّه خالق جميع العوالم وأعراضها.

المدّ: البسط والسعة، ومنه: ظل مديد. ومنه مدّ البحر وجزره. والمعنى: خلق الأرض ممدودة متّسعة للسير والزرع، لأنّه لو خلقها أسنمة من حجر أو جبالا شاهقة متلاصقة لما تيسّر للأحياء التي عليها الانتفاع بها والسير من مكان إلى آخر في طلب الرزق وغيره. وليس المراد أنّها كانت غير ممدودة فمدّها. فهذه خلقة دالة على القدرة وعلى اللطف بعباده، فهي آية ومنّة.

الرواسي: جمع رَاسٍ. وهو الثابت المستقرّ، أي جبالا رواسي. وقد حذف موصوفه لظهوره فهو كقوله { وَلَهُ الْجَوَارِ} ، أي السفن الجارية. والاستدلال بخلق الجبال على عظيم القدرة لما في خلقها من العظمة المشاهدة بخلاف المعادن والتراب فهي خفيّة.

الأنهار: جمع نهر، وهو الوادي العظيم. وتقدّم في قوله { إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ } [البقرة: 249]

{ **وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } عطف على {أَنْهَاراً}، و{من} هذه تُحمل على التبعيض لأنّ حقائق الأجناس لا تنحصر، والموجود منها ما هو إلّا بعض جزئيّات الماهية، لأنّ منها جزئيّات انقضت ومنها جزئيّات ستوجد.

والمراد أشجارها، وإنّما ذكرت {الثَّمَرَاتِ} لأنّها في موقع منّة مع العبرة. فينبغي الوقف على {وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} ، وبذلك انتهى تعداد المخلوقات المتصلة بالأرض. وهذا أحسن تفسيرا.

وقيل إن قوله {وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} ابتداء كلام تتعلق بـ { جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } وبهذا فسّر أكثر المفسّرين. ويبعده أنّه لا نكتة في تقديم الجار والمجرور على عامله على ذلك التقدير. لأنّ جميع المذكور محل اهتمام فلا خصوصية للثمرات هنا، ولأنّ الثمرات لا يتحقّق فيها وجود أزواج ولا كون الزوجين اثنين. وأيضا فيه فوات المنّة بخلق الحيوان وتناسله مع أنّ منه معظم نفعهم ومعاشهم. ومما يقرّب ذلك قوله تعالى في نحو هذا المعنى { أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً} [النبأ: 6-8]. والمعروف أنّ الزوجين هما الذكر والأنثى قال تعالى { فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى } [القيامة:39].

{ **جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ** } الظاهر أنّها جملة مستأنفة للاهتمام بهذا الجنس من المخلوقات وهو جنس الحيوان المخلوق صنفين ذكرا وأنثى أحدهما زوج مع الآخر، وشاع إطلاق الزوج على الذكر والأنثى من الحيوان. والتنكير للتنويع، أي جعل زوجين من كل نوع.

{ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } حال من ضمير {جعل}. وجيء فيه بالمضارع لما يدلّ عليه من التجدّد، لأنّ جعل الأشياء المتقدّم ذكرها جعل ثابت مستمر، وأمّا إغشاء الليل والنّهار فهو أمر متجدّد كل يوم وليلة. وهذا استدلال بأعراض أحوال الأرض. وذكره مع آيات العالم السفلي في غاية الدقّة العلمية، لأنّ الليل والنهار من أعراض الكرة الأرضيّة بحسب اتجاهها إلى الشمس وليسا من أحوال السماوات، إذ الشمس والكواكب لا يتغيّر حالها بضياء وظلمة.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } الإشارة إلى ما تقدّم. وجعل الأشياء المذكورات ظروفا لـ { آياتٍ } لأنّ كل واحدة من الأمور المذكورة تتضمّن آيات عظيمة يجلوها النظر الصحيح والتفكير المجرّد عن الأوهام. ولذلك أجرى صفة التفكير على لفظ قوم إشارة إلى أن التفكير المتكرّر المتجدّد هو صفة راسخة فيهم بحيث جعلت من مقوّماتهم، أي من جبلّتهم.

التفكير: تقدم عند قوله تعالى { أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ } [الأنعام:50].

{ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [4]

لله بلاغة القرآن في تغيير الأسلوب عند الانتقال إلى ذكر النعم الدالة على قدرة الله تعالى فيما ألهم النّاس من العمل في الأرض بفلحها وزرعها وغرسها والقيام عليها، فجاء ذلك معطوفا على الأشياء التي أسند جعلها إلى الله تعالى، ولكنّه لم يسند إلى الله حتّى بلغ إلى قوله { وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ }، لأنّ ذلك بأسرار أودعها الله تعالى فيها هي موجب تفاضلها. وأمثال هذه العبر ولفت النظر ممّا انفرد به القرآن من بين سائر الكتب.

{ الْأَرْضِ } أعيد الاسم الظاهر دون ضميرها الذي هو المقتضى ليستقلّ الكلام ويتجدّد الأسلوب.

القطع: جمع قِطعة (بكسر القاف)، وهي الجزء من الشيء تشبيها لها بما يقتطع. وليس وصف القطع متجاورات مقصودا بالذات في هذا المقام إذ ليس هو محل العبرة بالآيات، بل المقصود وصف محذوف دلّ عليه السياق تقديره: مختلفات الألوان والمنابت. وإنّما وصفت متجاورات لأنّ اختلاف الألوان والمنابت مع التجاور أشدّ دلالة على القدرة العظيمة.

الزرع والنخيل: تقدّما في قوله { وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ } [الأنعام:141] .

وقرأ الجمهور { وزرع النخيل } بالجر عطفا على { أَعْنَابٍ } ، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب بالرفع عطفا على {جَنَّاتٍ}. والمعنى واحد لأنّ الزرع الذي في الجنات مساو للذي في غيرها فاكتفى به قضاء لحق الإيجاز. وكذلك على قراءة الرفع هو يغني عن ذكر الزرع الذي في الجنّات، والنخل لا يكون إلّا في جنّات.

صنوان: جمع صِنو (بكسر الصاد) في الأفصح فيهما وهي لغة الحجاز، وبضمها فيها أيضا وهي لغة تميم وقيس. والصنو: **النخلة المجتمعة مع نخلة أخرى نابتتين في أصل واحد** أو نخلات. وهذه الزنة نادرة في صيغ أو الجموع في العربية لم يحفظ منها إلّا خمسة جموع: [صنو وصنوان / قنو وقنوان / زيد وزيدان / شقذ (بذال معجمة اسم الحرباء) وشقذان / وحش (معنى بستان) وحشان].

السقي: إعطاء المشروب. والمراد بالماء هنا ماء المطر وماء الأنهار وهو واحد بالنسبة للمسقي ببعضه.

التفضيل: منه الأفضل، وعبرة به وبضدّه، وكناية عن الاختلاف.

الأُكل: (بضم الهمزة وسكون الكاف) هو المأكول. ويجوز في اللغة ضمّ الكاف.

والمعنى، أنّ اختلاف طعومه وتفاضلها مع كون الأصل واحد والغذاء بالماء واحد ما هو إلّا لقوى خفيّة أودعها الله فيها فجاءت آثارها مختلفة.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } مجيء التذييل. والإشارة إلى جميع المذكور، وقد جعل جميع المذكور بمنزلة الظرف للآيات. وجعلت دلالته على انفراده تعالى بالإلهية دلالات كثيرة إذ في كل شيء منها آية تدلّ على ذلك. ووصفت الآيات بأنّها من اختصاص الذين يعقلون تعريضا بأنّ من لم تقنعهم تلك الآيات منزّلون منزلة من لا يعقل. وزيد في الدلالة على أنّ العقل سجيّة للذين انتفعوا بتلك الآيات بإجراء وصف العقل على كلمة قوم إيماء إلى أنّ العقل من مقومات قوميّتهم كما بيناه في الآية قبلها.

{ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [5]

لمّا قُضي حقّ الاستدلال على الوحدانيّة نُقل الكلام إلى الردّ على منكري البعث وهو غرض مستقلّ مقصود من هذه السورة، بمناسبة التدليل على عظيم القدرة، فصيغ بصيغة التعجيب من إنكار منكري البعث، لأنّ الأدلة السالفة لم تبق عذرا لهم في ذلك، فصار في إنكارهم محلّ عجب المتعجّب. فيجوز أن يكون الخطاب موجّها إلى النبيء ﷺ، وهو المناسب بما وقع بعده من قوله { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } [6] وما بعده من الخطاب الذي لا يصلح لغير النبيء ﷺ. ويجوز أن يكون الخطاب هنا لغير معيّن.

{ **أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً** } استفهام إنكاري، لأنّهم موقنون بأنّهم لا يكونون في خلق جديد بعد أن يكونوا ترابا. والقول المحكي عنهم هو في معنى الاستفهام عن مجموع أمرين وهما كونهم: ترابا، وتجديد خلقهم ثانية. والمقصود من ذلك العجب والإستحالة.

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ** } الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة من الخبر لأجل ما سبق من قولهم { أإذا كنا ترابا إنا لفي خلق جديد } بعد أن رأوا دلائل الخلق الأول، فحقّ عليهم بقولهم ذلك حكمان: أحدهما أنّهم كفروا بربهم لأنّ قولهم ذلك لا يقوله إلّا كافر بالله، وثانيهما استحقاقهم العذاب.

{ **وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ** } مفتتحة باسم الإشارة لمثل الغرض الذي افتتحت به الجملة قبلها فإنّ مضمون الجملتين اللتين قبلها يحقّق أنهم أحرياء بوضع الأغلال في أعناقهم وذلك جزاء الإهانة.

الأغلال: جمع غُلّ (بضم الغين)، وهو القيد الذي يوضع في العنق، وهو أشد التقييد. قال تعالى { إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ } [غافر: 71].

والجملة وعيد بسوقهم إلى الحساب سوق المذلّة والقهر، وكانوا يضعون الأغلال للأسرى المثقلين.

{ **وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } مزيد بيان و تخويف، وإعادة اسم الإشارة ثلاثا للتهويل.

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } [6]

عطف على {وَإِنْ تَعْجَبْ} لأنّ كلتا الجملتين حكاية لغريب أحوالهم في المكابرة والعناد والاستخفاف بالوعيد. فابتدأ بذكر تكذيبهم بوعيد الآخرة لإنكارهم البعث، ثم عطف عليه تكذيبهم بوعيد الدنيا لتكذيبهم الرّسول ﷺ . وفي الاستخفاف بوعيد نزول العذاب وعدّهم إيّاه مستحيلا في حال أنّهم شاهدوا آثار العذاب النازل بالأمم قبلهم، وما ذلك إلّا لذهولهم عن قدرة الله تعالى التي سبقت الكلام للاستدلال عليها والتفريع عنها.

السيّئة: الحالة السيّئة. وهي هنا المصيبة التي تسوء من تحلّ به. و**الحسنة** ضدّها.

فسؤالهم سؤال تعجيز وتهكّم.

{ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ } في موضع الحال. وهو محل زيادة التعجيب لأنّ ذلك قد يعذرون فيه لو كانوا لم يروا أثار الأمم المعذّبة مثل عاد وثمود.

المَثُلات (بفتح الميم وضم المثلثة): جمع **مَثُلة** (بفتح الميم وضم الثاء)، و**مُثْلة** (بضم الميم وسكون الثاء)، وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثالا تمثّل به العقوبات.

{ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ } وهذا كشف لغرورهم بتأخير العذاب عنهم لأنّهم لمّا استهزأوا بالنبيء ﷺ وتعرّضوا لسؤال حلول العذاب بهم ورأوا أنّه لم يعجّل لهم حلوله اعترتهم ضراوة بالتكذيب وحسبوا تأخير العذاب عجزا من المتوعِّد وكذّبوا النبيء ﷺ، وهم يجهلون أنّ الله حليم يمهل عباده لعلهم يرجعون. فالمغفرة هنا مستعملة في المغفرة المؤقّتة، وهي التجاوز عن ضراوة تكذيبهم وتأخير العذاب إلى أجل، كما قال تعالى { وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [النحل:34].

وسياق الآية على أنّ المراد بالمغفرة هنا التجاوز عن المشركين في الدنيا بتأخير العقاب لهم إلى اجل أراده الله أو إلى يوم الحساب.

{ عَلَى ظُلْمِهِمْ } محمل الظلم على ما هو المشهور في اصطلاح القرآن من إطلاقه على **الشرك**. ويجوز أن يحمل الظلم على ارتكاب الذنوب بقرينة السياق.

{ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } احتراس لئلّا يحسبوا أنّ المغفرة المذكورة مغفرة دائمة تعريضا بانّ العقاب حال بهم من بعد.

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }[7]

وهذه حالة من أعجوباتهم وهي عدم اعتدادهم بالآيات التي تأيّد بها محمد ﷺ وأعظمها آيات القرآن، فلا يزالون يسألون آية. ومرادهم بالآية في هذا خارقُ عادة على حساب ما يقترحون، فهي مخالفة لما تقدّم في قوله {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } لأنّ تلك في تعجيل ما توعّدهم به، وما هنا في مجيء آية تؤيّده، كقولهم {لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ} [الأنعام: 8].

الذين كفروا: هم عين أصحاب ضمير { يَسْتَعْجِلُونَكَ } وإنّما عدل عن ضميرهم إلى اسم الموصول لزيادة تسجيل الكفر عليهم، ولما يومئ إليه الموصول من تعليل صدور قولهم ذلك. وصيغة المضارع تدلّ على تجدّد ذلك وتكرّره.

{ لَوْلا } حرف تحْضيض. يموّهون بالتحْضيض أنّهم حريصون وراغبون في نزول آية غير القرآن ليؤمنوا، وهم كاذبون في ذلك إذ لو أوتوا آية كما يقترحون لكفروا بها، كما قال تعالى { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ } [الإسراء:59].

{ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ }، وقد ردّ الله اقتراحهم من أصله فقصر النبيء ﷺ على صفة الإنذار وهو قصر إضافي، أي أنت منذر لا موجد خوارقّ عادة. وبهذا يظهر وجه قصره على الإنذار دون البشارة لأنّه قصر إضافي بالنسبة لأحواله نحو المشركين.

{ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ } تذييل بالأعمّ. أي إنّما أنت منذر لهؤلاء لهدايتهم. ولكلّ قوم هاد أرسله الله ينذرهم لعلّهم يهتدون. فما كنت بدعا من الرّسل وما كان للرّسل من قبلك آيات على مقترح أقوامهم بل كانت آياتهم بحسب ما أراد الله أن يظهره على أيديهم. على أنّ معجزات الرّسل تأتي على حسب ما يلائم حال المرسل إليهم.

ولمّا كان الذين ظهرت بينهم دعوة محمد ﷺ عربا أهل فصاحة وبلاغة جعل الله معجزته العظمى القرآن بلسان عربي مبين. وإلى هذا المعنى يشير قول النبيء ﷺ في الحديث الصحيح: " ما من الأنبياء نبيء إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنّما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ فارجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ".

وبهذا العموم الحاصل بالتذييل والشامل للرّسول ﷺ صار المعنى إنّما أنت منذر لقومك هاد إيّاهم إلى الحق. فإن الإنذار والهدي متلازمان فما من إنذار إلّا وهو هداية وما من هداية إلّا وفيها إنذار، والهداية أعمّ من الإنذار. ففي هذا احتباك بديع.

{ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ [8] عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ }[9]

استئناف ابتدائي. فلمّا قامت البراهين العديدة بالآيات السابقة على وحدانيّة الله تعالى بالخلق والتدبير وعلى عظيم قدرته التي أودع بها في المخلوقات دقائق الخلقة، انتقل الكلام إلى إثبات العلم له تعالى علما عاما بدقائق الأشياء وعظائمها، ولذلك جاء افتتاحه على الأسلوب الذي افتتح به الغرض السابق بأن ابتدئ باسم الجلالة كما ابتدئ به هنالك في قوله { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } [2].

وجعلت هذه الجملة في هذا الموقع لأنّ لها مناسبة بقولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ }، فإنّ ما ذكر فيها من علم الله وعظيم صنعه صالح لأن يكون دليلا على أنّه لا يعجزه الإتيان بما اقترحوا من ألايات، ولكن بعثة الرّسول ليس المقصد منها المنازعات بل هي دعوة للنظر في الأدلة.

وإذ قد كان خلق الله العوالم وغيرها معلوما لدى المشركين ولكن الإقبال على عبادة الأصنام يذهلهم عن تذكّره كانوا غير محتاجين لأكثر من التذكير بذلك وبالتنبيه إلى ما قد يخفى من دقائق التكوين، كقوله آنفا {بِغَيْرِ عَمَدٍ} [2] وقوله { وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ } [4].

{ اللَّهُ يَعْلَمُ } صيغ الإخبار عن الخلق في آية {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ} [2] بطريقة الموصول للعلم بثبوت مضمون الصلة للمخبر عنه. وجيء في تلك الصلة بالفعل الماضي فقال { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ } كما أشرنا إليه آنفا. فأمّا هنا فصيغ الخبر بصيغة المضارع المفيد للتجدّد والتكرير لإفادة أنّ ذلك العلم متكرّر متجدّد التعلّق بمقتضى أحوال المعلومات المتنوّعة والمتكاثرة على نحو ما قرر في قوله { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ } [2].

{ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ } وذكر من معلومات الله ما لا نزاع في أنّه لا يعلمه أحد من الخلق يومئذ، فما تحمل كل أنثى هي أجنة الإنسان والحيوان. ولذلك جيء بفعل الحمل دون الحبل لاختصاص الحبل بحمل المرأة.

{ مَا } موصولة، وعمومها يقتضي علم الله بحال الحمل الموجود من ذكورة وأنوثة، وتمام ونقص، وحسن وقبح، وطول وقصر، ولون.

تغيض: تنقص. والظاهر أنّه كناية عن العلوق لأنّ غيض الرحم انحباس دم الحيض عنها، و**ازديادها**: فيضان الحيض منها. ويجوز أن يكون الغيض مستعارا لعدم التعدّد والازدياد: التعدّد، أي ما يكون في الأرحام من جنين واحد أو عدّة أجنّة وذلك في الإنسان والحيوان.

{ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ }

المقدار: مصدر ميمي بقرينة الباء، أي بتقدير، ومعناه: **التحديد والضبط**. والمعنى أنّه يعلم كلّ شيء علما مفصّلا لا شيوع فيه ولا إبهام. وفي هذا ردّ على الفلاسفة غير المسلمين القائلين أن واجب الوجود يعلم الكلّيّات ولا يعلم الجزئيّات، فرارا من تعلّق العلم بالحوادث. وقد أبطل مذهبهم علماء الكلام بما ليس فوقه مرام. وهذه قضية كلّيّة أثبتت عموم علمه تعالى بعد أن وقع إثبات العموم بطريقة التمثيل بعلمه بالجزئيات الخفية في قوله {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى }.

{ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ } تذييل وفذلكة لتعميم العلم بالخفيّات والظواهر وهما قسما الموجودات.

{ الْغَيْبِ } تقدّم في صدر سورة البقرة [4]. و**{ الشَّهَادَةِ }** هنا مصدر بمعنى المفعول، أي الأشياء المشهودة، وهي الظاهرة المحسوسة. فالمقصود من { الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } تعميم الموجودات.

الكبير: مجاز في العظمة، إذ قد شاع استعمال أسماء الكثرة وألفاظ الكبر في العظمة تشبيها للمعقول بالمحسوس وشاع ذلك حتّى صار كالحقيقة.

المتعالي: المترفّع. وصيغت الصفة بصيغة التفاعل للدلالة على أنّ العلو صفة ذاتيّة له لا من غيره، أي الرفيع رفعة واجبة له عقلا. والمراد بالرفعة هنا المجاز عن العزّة التّامة بحيث لا يستطيع موجود أن يغلبه أو يكرهه، أو المنزه عن النقائص كقوله عزّ وجلّ { تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [النحل: 3].

{ الْمُتَعَالِ } حذف الياء لمراعاة الفواصل الساكنة.

{ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ } [10]

استئناف بياني لأنّ مضمونها بمنزلة النتيجة لعموم علم الله تعالى بالخفيّات والظواهر. وعدل عن الغيبة المتّبعة في الضمائر فيما تقدّم إلى الخطاب هنا، لأنّه تعليم يصلح للمؤمنين والكافرين.

وفي الآية تعريض بالتهديد للمشركين المتآمرين على النبيء ﷺ.

{ سَوَاءٌ } اسم بمعنى مستو. وإنّما يقع معناه بين شيئين فصاعدا. واستعمل سواء في الكلام ملازما حالة واحدة فيقال: هما سواء وهم سواء، قال تعالى { فأنتم فيه سواء }.

الاستخفاء: هنا الخفاء. فالسين والتاء للمبالغة في الفعل.

السارب: اسم فاعل من سرب إذا **ذهب في السَرْب** (بفتح السين وسكون الراء) وهو الطريق. وهذا من الأفعال المشتقّة من الأسماء الجامدة. وذكر الاستخفاء مع الليل لكونه أشدّ خفاء. وذكر السروب مع النهار لكونه أشد ظهورا. والمعنى: أنّ هذين الصنفين سواء لدى علم الله تعالى.

{ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } [11]

{ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ }

متّصلة بقوله {مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ }. أي لكلّ من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار معقّبات يحفظونه من غوائل تلك الأوقات.

{ مُعَقِّبَاتٌ } جمع معقّبة (بفتح العين وتشديد القاف مكسورة) اسم فاعل عقبه إذا تبعه. وصيغة التفعيل فيه للمبالغة في العقب. يقال: عقبه إذا اتبعه واشتقاقه من العقب (بفتح فكسر) وهو اسم لمؤخّر الرجل فهو فعل مشتق من الاسم الجامد لأنّ الذي يتبع غيره كأنّه يطأ على عقبه، والمراد: **ملائكة معقّبات**. والواحد معقّب. وإنّما جمع مؤنث بتأويل الجماعات.

الحفظ: المراقبة، ومنه سمي الرقيب حفيظا، والمعنى: يراقبون كلّ أحد في أحواله من إسرار وإعلان، وسكون وحركة، قال تعالى { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ } [الانفطار:10].

{ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ } مستعمل في معنى الإحاطة من الجهات كلّها.

{ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } صفة {مُعَقِّبَاتٌ} ، أي جماعات من جند الله وأمره.

{ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ }

جملة معترضة بين الجمل المتقدّمة المسوقة للاستدلال على عظيم قدرة الله تعالى وعلمه بمصنوعاته وبين التذكير بقوّة قدرته وبين جملة { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً}، والمقصود تحذيرهم من الإصرار على الشرك بتحذيرهم من حلول العقاب في الدنيا في مقابلة استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، ذلك أنّهم كانوا في نعمة من العيش فبطروا النعمة وقابلوا دعوة الرسول ﷺ بالهزء وعاملوا المؤمنين بالتحقير، فذكّرهم الله بنعمته عليهم ونبههم إلى أنّ زوالها لا يكون إلّا بسبب أعمالهم السيئة.

التغيير: التبديل بالمغاير، فلا جرم أنّه تهديد لأولي النعمة من المشركين بأنّهم قد تعرّضوا لتغييرها، أي حالة نعمة، لأنّها محلّ التحذير من التغيير.

{ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ } تصريح بمفهوم الغاية المستفاد من { حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } تأكيدا للتحذير، لأنّ المقام، لكونه مقام خوف ووجل، يقتضي التصريح دون التعريض ولا ما يقرب منه، أي إذا أراد الله أن يغيّر ما بقوم حين يغيّرون ما بأنفسهم لا يرد إرادته شيء. وذلك تحذير من الغرور.

{ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } زيادة في التحذير من الغرور لئلّا يحسبوا أنّ أصنامهم شفعاؤهم عند الله.

الوالي: الذي يلي أمر أحد، أي يشتغل بأمره اشتغال تدبير ونفع، مشتق من ولي إذا قرب.

{ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ [12] وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ } [13].

استئناف ابتدائي على أسلوب تعداد الحجج الواحدة تلوى الأخرى، فلأجل أسلوب التعداد، إذ كان كالتكرير، لم يعطف. وقد أعرب هذا عن مظهر من مظاهر قدرة الله وعجيب صنعه. وفيه من المناسبة للإنذار أنّه مثال لتصرّف الله بالإنعام والانتقام في تصرّف واحد مع تذكيرهم بالنعمة التي هم فيها. وكل ذلك مناسب لمقاصد الآيات الماضية، فكانت هذه الجملة جديرة بالاستقلال وأن يجاء بها مستأنفة لتكون مستقلة في عداد الجمل المستقلّة الواردة في غرض السورة.

وجاء هنا بطريق الخطاب على أسلوب قوله { سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ }، لأنّ الخوف والطمع يصدران من المؤمنين ويهدّد بهما الكفرة.

وافتتحت الجملة بضمير الجلالة دون اسم الجلالة المفتتح به في الجمل السابقة، فجاءت على أسلوب مختلف. وأحسب أنّ ذلك مراعاة لكون هاته الجملة مفرّعة عن أغراض الجمل السابقة، فإنّ جمل فواتح الأغراض افتتحت بالاسم العلم كقوله {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ} [2] وقوله {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى} [8] وقوله {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ} [11]، وجمل التفاريع افتتحت بالضمائر كقوله { يدبر الأمر } وقوله { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ} [3].

{ خَوْفاً وَطَمَعاً } مصدران بمعنى التخويف والإطماع، فهما في محل المفعول لأجله لظهور المراد.

وجعل البرق آية نذارة وبشارة معا لأنّهم كانوا يَسِمون البرق فيتوسّمون الغيث وكانوا يخشون صواعقه.

إنشاء السحاب: تكوينه من عدم بإثارة الأبخرة التي تتجمّع سحابا.

السحاب: اسم جمع لسحابة. و**الثقال**: جمع ثقيلة. والسحاب يكون ثقيلا بمقدار ما فيه من البخار. وعلامة ثقله قربه من الأرض وبطء تنقّله بالرياح. والخفيف منه يُسمّى جهاما.

{ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ } مجاز عقلي. ولك أن تجعله استعارة مكنية بأن شبّه الرعد بآدمي يسبح الله تعالى. ولمّا كان الرعد صوتا عظيما جعل ذكره عبرة للسامعين لدلالة الرعد بلوازم عقلية على أن الله منزّه عما يقوله المشركون من ادعاء الشركاء، وكان شان تلك الدلالة أن تبعث الناظر فيها على تنزيه الله عن الشريك جعل صوت الرعد دليلا على تنزيه الله تعالى.

{ **بِحَمْدِهِ** } الباء للملابسة، أي ينزّه الله تنزيها ملابسا لحمده من حيث إنّه دال على اقتراب نزول الغيث وهو نعمة تستوجب الحمد. فالقول في ملابسة الرعد للحمد مساو للقول في إسناد التسبيح إلى الرعد. فالملابسة مجازية عقلية أو استعارة مكنية.

{ **وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ** } عطف على الرعد، أي وتسبّح الملائكة من خيفته، أي من خوف الله، أي الخوف ممّا لا يرضى به، وهو التقصير في تنزيهه.

وهذا اعتراض بين تعداد المواعظ لمناسبة التعريض بالمشركين، أي أنّ التنزيه الذي دلّت عليه آيات الجو يقوم به الملائكة، فالله غني عن تنزيهكم إيّاه، كقوله { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ } [الزمر:7].

{ **وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ** } اقتصر في العبرة بالصواعق على الإنذار بها لأنّها لا نعمة فيها لأنّ النعمة حاصلة بالسحاب وأمّا الرعد فآلة من آلات التخويف والإنذار، كما قال في قوله { أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ } [البقرة: 19].

وكان العرب يخافون الصواعق. ولقّبوا خويلد بن نفيل الصعق لأنّه أصابته صاعقة أحرقته.

ومن هذا القبيل قول النبيء ﷺ أنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوّف الله بهما عباده، أي بكسوفهما، فاقتصر في آيتهما على الإنذار إذ لا يترقّب الناس من كسوفهما نفعا.

{ **وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ** } في موضع الحال لأنّه من متمّمات التعجّب، فضمائر الغيبة كلّها عائدة إلى الكفار الذين تقدّم ذكرهم في صدر السورة، وقد أعيد الأسلوب هنا إلى ضمائر الغيبة لانقضاء الكلام على ما يصلح لموعظة المؤمنين والكافرين فتمحّض تخويف الكافرين.

المجادلة: المخاصمة والمراجعة بالقول. وتقدّم في قوله تعالى { وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ } [النساء:107]. وقد فهم أن مفعول { يُجَادِلُونَ } هو النبيء ﷺ والمسلمون. فالتقدير: يجادلونك أو يجادلونكم.

{ **فِي اللَّهِ** } تعليق اسم الجلالة المجرور بفعل { يُجَادِلُونَ } يتعيّن أن يكون على تقدير مضاف تدلّ عليه القرينة، أي في توحيد الله أو في قدرته على البعث.

المِحال: (بكسر الميم) يحتمل هنا معنيين:

لأنّه إن كانت الميم فيه أصليّة فهو فِعال بمعنى الكيد وفعله مَحَل، ومنه قولهم تمحّل إذا تحيّل. أي جعل جدالهم في الله جدال كيد، لأنّهم يبرزونه في صورة الاستفهام في نحو قولهم {مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} فقوبل بـ {شَدِيدُ الْمِحَالِ} على طريقة المشاكلة، أي وهو شديد المحال لا يغلبونه، ونظيره { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [آل عمران: 54].

وإن كانت الميم زائدة فهو مفعل من الحول بمعنى القوّة، وعلى هذا فإبدال الواو ألفا على غير قياس لأنّه لا

موجب للقلب لأن ما قبل الواو ساكن سكونا حيا، فلعلهم قلبوها ألفا للتفرقة بينه وبين محول بمعنى صبي ذي حول، أي سنة.

وقال نفطويه: هو من ماحل عن أمره، أي جادل. والمعنى: وهو شديد المجادلة، أي **قويّ الحجّة**.

{ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ } [14]

استئناف ابتدائي بمنزلة النتيجة ونهوض المدلّل عليه بالآيات السالفة التي هي براهين الانفراد بالخلق الأوّل، ثم الخلق الثاني، وبالقدرة التّامة التي لا تدانيها قدرة قدير، وبالعلم العام، فلا جرم أن يكون صاحب تلك الصفات هو المعبود بالحق وأن عبادة غيره ضلال.

الدعوة: طلب الإقبال، وكثر إطلاقها على طلب الإقبال للنجدة أو للبذل، وذلك متعيّن فيها إذا أطلقت في جانب الله لاستحالة الإقبال الحقيقي، فالمراد طلب الإغاثة أو النعمة.

{ دَعْوَةُ الْحَقِّ } إمّا من إضافة الموصوف إلى الصفّة إن كان الحقّ بمعنى مصادفة الواقع، أي الدعوة التي تصادف الواقع، أي استحقاقه إياها، وإمّا من إضافة الشيء إلى منشئه، أي الدعوة الصادرة عن حقّ وهو ضد الباطل، فإن دعاء الله يصدر عن اعتقاد الوحدانية وهو الحقّ، وعبادة الأصنام تصدر عن اعتقاد الشرك وهو الباطل. والمقصود بيان عدم استحقاق الأصنام أن يدعوها الداعون. واسم الموصول صادق على الأصنام. وضمير {يَدْعُونَ} للمشركين.

الاستجابة: إجابة نداء المنادي ودعوة الداعي، فالسين والتاء لقوّة الفعل.

{ بِشَيْءٍ } لما أريد هنا نفي إجداء دعائهم الأصنام جعل نفي الإجابة متعديا بالباء إلى انتفاء أقل ما يجيب به المسؤول وهو الواعد بالعطاء أو الاعتذار عنه، فهم عاجزون عن ذلك وأعجز عمّا فوقه. والتنكير للتحقير.

{ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ } الاستثناء من عموم أحوال الداعين والمستجيبين والدعوة والاستجابة، لأنّه تشبيه هيئة فهو يسري إلى جميع أجزائها فلك أن تقدّر الكلام: إلّا كداع باسط أو إلّا كحال باسط. والمعنى: لا يستجيبونهم في حال من أحوال الدعاء. وهذا الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده فيؤول إلى نفي الاستجابة في سائر الأحوال بطريق التمليح والكناية.

{ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ } من يغترف ماء بكفين مبسوطتين غير مقبوضتين إذ الماء لا يستقر فيهما. وهذا كما يقال: هو كالقابض على الماء، في تمثيل إضاعة المطلوب.

والكلام تمثيليّة. شبه حال المشركين في دعائهم الأصنام وجلب نفعهم وعدم استجابة الأصنام لهم بشيء بحال

الظمآن يبسط كفيه يبتغي أن يرتفع الماء في كفيه المبسوطتين إلى فمه ليرويه وما هو ببالغ إلى فمه بذلك الطلب فيذهب سعيه وتعبه باطلا.

{ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ } عطف على جملة {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ} لاستيعاب حال المدعو وحال الداعي. فبيّنت الجملة السابقة حال عجز المدعوّ عن الإجابة وأعقبت بالتمثيل المشتمل على كناية وتمليح. واشتمل ذلك أيضا بالكناية على خيبة الداعي. وبيّنت هذه الجملة الثانية حال خيبة الداعي بالتصريح عقب تبيينه بالكناية. فباختلاف الغرض والأسلوب حَسُن العطف، وبالمآل حصل توكيد الجملة الأولى وتقريرها وكانت الثانية كالفذلكة لتفصيل الجملة الأولى.

الضلال: التلف والضياع. و**{ فِي }** للظرفية المجازية للدلالة على التمكّن في الوصف، أي إلّا ضائع ضياعا شديدا.

{ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ }[15]

عدل عن ضمير الجلالة إلى اسمه تعالى العلم تبعا للأسلوب السابق في افتتاح الأغراض الأصليّة.

{ مَنْ } تفيد عموم عرفي يراد به الكثرة الكاثرة.

{ طَوْعاً وَكَرْهاً } المقصود تقسيم أحوال الساجدين. والمراد بالطوع الانسياق من النفس تقرّبا وزلفى لمحض التعظيم ومحبة الله. وبالكره الاضطرار عند الشدّة والحاجة كما في قوله تعالى { ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ } [النحل: 53]. وليس المراد من الكره الضغط والإلجاء كما فسّر به بعضهم فهو بعيد عن الغرض كما سيأتي.

الظلال: جمع ظلّ، وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور. والضمير راجع إلى { مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} مخصوص بالصالح له من الأجسام الكثيفة ذات الظل تخصيصا بالعقل والعادة. أي يسجد من في السماوات والأرض وتسجد ظِلالهم.

الغدوّ: الزمان الذي يغدو فيه النّاس، أي يخرجون إلى حوائجهم. إمّا مصدرا على تقدير مضاف. أي وقت الغدو، وإما جمع غدوة، فقد حكي جمعها على غدوّ، وتقدّم آخر سورة الأعراف.

الآصال: جمع أصيل، وهو وقت الشمس في آخر المساء. والمقصود من ذكرهما استيعاب أجزاء أزمنة الظل.

ومعنى سجود الظلال أن الله خلقها من أعراض الأجسام الأرضية، فهي مرتبطة بنظام انعكاس أشعة الشمس عليها وانتهاء الأشعة إلى صلابة وجه الأرض حتّى تكون الظلال واقعة على الأرض وقوع الساجد.

والغرض من هذا الاستدلال الرمزي التنبيه لدقائق الصنع الإلهي، كيف جاء على نظام مطّرد دال بعضه على بعض، كما قيل: وفي كل شيء له آية تدلّ ... على أنه الواحد

وهذه الآية موضع سجود من سجود القرآن، وهي السجدة الثانية في ترتيب المصحف باتفاق الفقهاء. ومن حكمة السجود عند قراءتها أن يضع المسلم نفسه في عداد ما يسجد لله طوعا بإيقاعه السجود. وهذا اعتراف فعلي بالعبودية لله تعالى.

{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } [16]

{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرّاً } لمّا نهضت الأدلة الصريحة بمظاهر الموجودات المتنوّعة على انفراده بالإلهيّة من قوله { الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها } [2] وقوله { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ } [3] وقوله { اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى } [8] وقوله { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ } [12]، وبما فيها من دلالة رمزيّة دقيقة من قوله { لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ }[14] وقوله { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ } [15] إلى آخرها، لا جرم تهيّأ المقام لتقرير المشركين تقريرا لا يجدون معه عن الإقرار مندوحة، ثم لتقريعهم على الإشراك تقريعا لا يسعهم إلّا تجرّع مرارته، لذلك استؤنف الكلام وافتتح بالأمر بالقول تنويها بوضوح الحجّة.

ولكون الاستفهام غير حقيقي جاء جوابه من قبل المستفهِم. وهذا كثير في القرآن وهو من بديع أساليبه. فالاستفهام تقرير وتوبيخ وتسفيه لرأيهم بناء على الإقرار المسلّم. وفيه استدلال آخر على عدم أهليّة أصنامهم للإلهية، فإنّ اتّخاذهم أولياء من دونه معلوم لا يحتاج إلى الاستفهام عنه.

{ لا يَمْلِكُونَ } صفة لـ { أَوْلِيَاءَ }. والمقصود منها تنبيه السامعين للنظر في تلك الصفة فإنّهم إن تدبّروا علموها وعلموا أنّ من كانت تلك صفته فليس بأهل لأن يعبد. ومعنى الملك هنا القدرة كما في قوله { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً} [المائدة: 76]. وفي الحديث: " أوَ أمْلِك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ".

{ نَفْعاً وَلا ضَرّاً } عطف الضرّ على النفع استقصاء في عجزهم.

{ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ }

إعادة الأمر بالقول للاهتمام الخاص بهذا الكلام، لأنّ ما قبله إبطال لاستحقاق آلهتهم العبادة. وهذا إظهار لمزيّة المؤمنين بالله على أهل الشرك، ذلك أنّ قوله { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ } تضمّن أنّ

الرسول ﷺ دعا إلى إفراد الله بالربوبيّة وأنّ المخاطبين أثبتوا الربوبيّة للأصنام فكان حالهم وحاله كحال الأعمى والبصير وحال الظلمات والنور.

ونفي التسوية بين الحالين يتضمّن تشبيها بالحالين وهذا من صيغ التشبيه البليغ. و{ أَمْ } للإضراب الانتقالي في التشبيه، فهي لتشبيه آخر بمنزلة (أَو).

{ **الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ** } جمع الظلمات وإفراد النور تقدّم عند قوله تعالى { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } [الأنعام:1].

واختير التشبيه في المتقابلات العمى والبصر، والظلمة والنور، لتمام المناسبة لأنّ حال المشركين أصحاب العمى كحال الظلمة في انعدام إدراك المبصرات، وحال المؤمنين كحال البصر في العلم وكحال النور في الإفاضة والإرشاد.

{ **أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** }.

{ أَمْ } للإضراب الانتقالي في الاستفهام، فالكلام بعدها استفهام حذفت أداته لدلالة (أم) عليها. والتقدير: أم جعلوا لله شركاء. والتفت عن الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم لما مضى من ذكر ضلالهم.

والاستفهام مستعمل في التهكّم والتغليط. فالمعنى: لو جعلوا لله شركاء يخلقون كما يخلق الله لكانت لهم شبهة في الاغترار واتّخاذهم آلهة، أي فلا عذر لهم في عبادتهم.

{ **كَخَلْقِهِ** } في معنى المفعول المطلق، أي خلقوا خلقا مثل ما خلق الله. والخلق في الموضعين مصدر.

{ **فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ** } التقدير: فتشابه خلقهم عليهم. والوصفان هما مصبّ التهكّم والتغليط.

{ **قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** } فذلكة لما تقدّم ونتيجة له، فإنّه لمّا جاء الاستفهام التوبيخي في { قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } وفي { أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ } كان بحيث ينتج أنّ أولئك الذين اتخذوهم شركاء والذين تبيّن قصورهم عن أن يملكوا لأنفسهم نفعا أوضرّا، وأنهم لا يخلقون كخلق الله، إن هم إلّا مخلوقات لله تعالى، وأنّ الله خالق كل شيء، وأنّ الله هو المتوحّد بالخلق، القهّار لكلّ شيء دونه.

القهر: الغلبة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } [الأنعام:18].

{ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ } [17]

استئناف ابتدائي أفاد تسجيل حرمان المشركين من الانتفاع بدلائل الاهتداء. وجيء في هذا التسجيل بطريقة ضرب المثل بحالي فريقين في تلقي شيء واحد انتفع فريق بما فيه من منافع وتعلّق فريق بما فيه من مضار.

وجيء في ذلك التمثيل بحالة فيها دلالة على بديع تصرف الله تعالى ليحصل التخلّص من ذكر دلائل القدرة إلى ذكر عبر الموعظة.

شبّه إنزال القرآن الذي به الهدى من السماء بإنزال الماء الذي به النفع والحياة. وشبه ورود القرآن على أسماع النّاس بالسيل يمرّ على مختلف الجهات فهو يمرّ على التلال والجبال فلا يستقرّ فيها ولكنه يمضي إلى الأودية والوهاد فيأخذ منه كلّ بقدر سعته. وتلك السيول في حال نزولها تحمل في أعاليها زبدا، وهو رغوة الماء التي تربو وتطفو على سطح الماء، فيذهب الزبد غير منتفع به ويبقى الماء الخالص الصافي ينتفع به النّاس للشراب والسقي.

ثم شبهت هيئة نزول الآيات وما تحتوي عليه من إيقاظ النظر فيها فينتفع به من دخل الإيمان قلوبهم على مقادير قوّة إيمانهم وعملهم، ويمرّ على قلوب قوم لا يشعرون به، وهم المنكرون المعرضون، ويخالط قلوب قوم فيتأملونه فيأخذون منه ما يثير لهم شبهات وإلحادا، كقوله تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} [آل عمران: 7]. شبه ذلك كلّه بهيئة نزول الماء فانحداره على الجبال والتلال وسيلانه في الأودية على اختلاف مقاديرها، ثم ما يدفع من نفسه زبدا لا ينتفع به ثم لم يلبث الزبد أن ذهب وفني والماء بقي في الأرض للنفع.

وعلى نحو هذا التمثيل وتفسيره جاء ما يبيّنه من التمثيل الذي في قول النبيء ﷺ: " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقيّة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها النّاس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنّما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ".

الأودية: جمع الوادي، وهو الحفير المتّسع الممتد من الأرض الذي يجري فيه السيل.

القَدَر (بفتحتين): التقدير، فقوله: {بِقَدَرِهَا} في موضع الحال من {أَوْدِيَةٌ} ، وذكره لأنّه من مواضع العبرة، وهو أن كانت أخاديد الأودية على قدر ما تحتمله من السيول بحيث لا تفيض عليها، وهو غالب أحوال الأودية. وهذا الحال مقصود في التمثيل لأنّه حال انصراف الماء لنفع لا ضرّ معه، لأنّ من السيول جواحف تجرف الزرع والبيوت والأنعام.

وأيضا هو دال على تفاوت الأودية في مقادير المياه. ولذلك حظّ من التشبيه، وهو اختلاف النّاس في قابلية الانتفاع بما نزل من عند الله كاختلاف الأودية في قبول الماء على حسب ما يسيل إليها من مصاب السيول.

{ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ } معترضة بين جملة { فَاحْتَمَلَ } وجملة {فَأَمَّا الزَّبَدُ}. وهذا تمثيل آخر ورد استطرادا عقب ذكر نظيره يفيد تقريب التمثيل لقوم لم يشاهدوا سيول الأودية

من سكان القرى مثل أهل مكّة وهم المقصود، فقد كان لهم في مكة صوّاغون، فقرّب إليهم تمثيل عدم انتفاعهم بما انتفع به غيرهم بمثل ما يُصهر من الذهب والفضة في البواتق فإنه يقذف زبدا ينتفي عنه، وهو الخبث وهو غير صالح لشيء في حين صلاح معدنه، لاتّخاذه حلية أو متعاعا. وفي الحديث: " كما ينفي الكير خبث الحديد ". فالكلام من قبيل تعدّد التشبيه القريب.

وعدل عن تسمية الذهب والفضّة إلى الموصوليّة بقوله تعالى { وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ } لأنّها أخصر وأجمع. ولأن في العدول عن ذكر اسم الذهب والفضّة إعراضا يؤذن بقلّة الاكتراث بهما، ترفّعا عن ولع النّاس بهما فإن اسميهما قد اقترنا بالتعظيم في عرف النّاس.

الحلية: ما يتحلّى به، أي يتزيّن وهو المصوغ.

المتاع: ما يتمتّع به وينتفع، وذلك المسكوك الذي يتعامل به النّاس من الذهب والفضة.

{ **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ** } معترضة. هي فذلكة التمثيل ببيان الغرض منه، أي مثل هذه الحالة يكون ضرب مثل للحقّ والباطل.

{ **يَضْرِبُ** } يبيّن ويمثّل. وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً } [البقرة:26]. وحذف المضاف لدلالة فعل { يَضْرِبُ } عليه. والتقدير: يضرب الله مثل الحقّ والباطل.

وقد علم أنّ الزبد مثل للباطل وأنّ الماء مثل للحقّ، فارتقى عند ذلك إلى ما في المثلين من صفتي البقاء والزوال ليتوصّل بذلك إلى البشارة والنذارة لأهل الحقّ وأهل الباطل بأنّ الفريق الأول هو الباقي الدائم، وأنّ الفريق الثاني زائل بائد، كقوله { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ} [الأنبياء:105، 106]، فصار التشبيه تعريضا وكناية عن البشارة والنذارة.

{ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ** } معطوفة على { فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً} مفرعة على التمثيل.

{ **فَأَمَّا** } تصدّرت للتوكيد وصرف ذهن السامع إلى الكلام لما فيه من خفي البشارة والنذارة، ولأنّه تمام التمثيل. والتقدير: فذهب الزبد جفاء ومكث ما ينفع النّاس في الأرض.

الجفاء: الطريح المرمي. وهذا وعيد للمشركين بأنّهم سيبيدون بالقتل ويبقى المؤمنون.

{ **مَا يَنْفَعُ النَّاسَ** } عبر به عن الماء للإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو البقاء في الأرض، تعريضا للمشركين بأن يعرضوا أحوالهم على مضمون هذه الصلة ليعلموا أنّهم ليسوا ممن ينفع النّاس، وهذه الصلة موازنة للوصف في قوله تعالى { أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } [الأنبياء:105].

{ **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** } مستأنفة تذييليّة لما في لفظ { الْأَمْثَالَ } من العموم. فهو أعمّ من جملة { كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ } لدلالتها على صنف من المثل دون جميع أصنافه، فلمّا أعقب بمثل آخر وهو

{فأما الزبد فيذهب جفاء } جيء بالتنبيه إلى الفائدة العامة من ضرب الأمثال.
والإشارة للتنويه بذلك المثل وتنبيه الأفهام إلى حكمته وحكمة التمثيل، وما فيه من المواعظ والعبر، وما جمعه من التمثيل والكناية التعريضية، وإلى بلاغة القرآن وإعجازه، وذلك تبهيج للمؤمنين وتحد للمشركين، وليعلم أنّ جملة { فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً } لم يؤت بها لمجرّد تشخيص دقائق القدرة الإلهيّة والصنع البديع بل ولضرب المثل.

{ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ }[18]

زيادة تنبيه للتمثيل وللغرض منه مع ما في ذلك من جزاء الفريقين لأنّ المؤمنين استجابوا لله بما عقلوا الأمثال فجوزوا بالحسنى، وأمّا المشركون فاعرضوا ولم يعقلوا الأمثال، فكان جزاؤهم عذابا عظيما وهو سوء الحساب الذي عاقبته المصير إلى جهنم.
{ **اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ** } استجابوا لدعوته بما تضمنه المثل السابق وغيره.
{ **لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا / وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ** } في العدول إلى الموصولين وصلتيهما إيماء إلى أنّ الصلتين سببان لما حصل للفريقين. وتقديم المسند في قوله { لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى} لأنّه الأهم، لأنّ الغرض التنويه بشان الذين استجابوا مع جعل الحسنى في مرتبة المسند إليه، وفي ذلك تنويه بها أيضا. وأمّا الخبر عن وعيد الذين لم يستجيبوا فقد أجري على أصل نظم الكلام في التقديم والتأخير لقلة الاكتراث بهم.
{ **أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ** } أتي باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة من الخبر بسبب ما قبل اسم الإشارة من الصلة.
{ **سُوءُ الْحِسَابِ** } ما يحفّ بالحساب من إغلاظ وإهانة للمحاسب، وأمّا أصل الحساب فهو حسن لأنّه عدل.

{ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [19]

تفريع على { لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى } [13]. فالكلام لنفي استواء المؤمن والكافر في صورة الاستفهام تنبيها على غفلة الضالين عن عدم الاستواء، كقوله { أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ} [السجدة: 18].
{ **كَمَنْ هُوَ أَعْمَى** } استعير لمن لا يعلم أن القرآن حقّ اسم الأعمى لأنّه انتفى علمه بشيء ظاهر بيّن، فأشبه الأعمى. فالكاف للتشابه مستعمل في التماثل. ولهذه الجملة في المعنى اتصال بقوله في أول السورة { وَالَّذِي

أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ - إلى - لا يُؤْمِنُونَ} [1].

{ **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ** } تعليل للإنكار الذي هو بمعنى الانتفاء، بأنّ سبب عدم علمهم بالحقّ أنّهم ليسوا أهلا للتذكّر، لأنّ التذكّر من شعار أولي الألباب، أي العقول. فهو تعريض بالمشركين بأنّهم لا عقول لهم إذ انتفت عنهم فائدة عقولهم.

{ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ [20] وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ [21] وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ } [22].

{ **الَّذِينَ يُوفُونَ** } يجوز أن يكون ابتداء كلام فهو استئناف ابتدائي جاء لمناسبة ما أفادت الجملة التي قبلها من إنكار الاستواء بين فريقين، ولذلك ذكر في هذه الجمل حال فريقين في المحامد والمساوي ليظهر أنّ نفي التسوية بينهما في الجملة السابقة المراد به تفضيل أحد الفريقين على الآخر هو نفي مؤيّد بالحجّة، وبذلك يصير موقع هذه الجملة مفيدا تعليلا لنفي التسوية والتفضيل.

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ** } اسم الإشارة للتنبيه على أنّ المشار إليهم جديرون بما بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف التي قبله.

وقد ظهر بهذه الجملة كلّها وبموقعها تفضيل الذين يعلمون أنّ ما أنزل حقّ، بما لهم من صفات الكمال الموجبة للفضل في الدنيا وحسن المصير في الآخرة، وبما لأضدادهم من ضد ذلك في قوله { وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ - إلى قوله - وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [25].

الوفاء بالعهد: أنّ يحقّق المرء ما عاهد على أن يعمله. ومعنى **العهد**: الوعد الموثّق بإظهار العزم على تحقيقه من يمين أو تأكيد.

{ **الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ** } المراد به الإيمان الذي أخذه الله على الخلق المشار إليه بقوله { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى } [الأعراف:172]، وأيضا بقوله تعالى { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي } [يس:60-61]، وذلك عهد الله لهم بأن يعبدوه ولا يعبدوا غيره. لأنّه بذلك العهد قد أودع الله في فطرة العقول السليمة دلائل الوحدانيّة لمن تأمّل وأسلم للدليل، ولكن المشركين أعرضوا وكابروا ذلك العهد القائم في الفطرة، فلا جرم أن كان الإشراك إبطالا للعهد ونقضا له، ولذلك عطفت { وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ } على { يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ }.

{ **الْمِيثَاقَ** } تعريف الجنس فيستغرق جميع المواثيق وبذلك يكون أعمّ من عهد الله فيشمل المواثيق الحاصلة

بين النّاس من عهود وأيمان. وباعتبار هذا العموم حصلت مغايرة ما بينه وبين عهد الله. وتلك هي مسوّغة العطف.

والميثاق والعهد مترادفان. والإيفاء ونفي النقض متحدا المعنى. وابتدئ من الصفات بهذه الخصلة لأنّها تنبئ عن الإيمان والإيمان أصل الخيرات وطريقها. وهذه الصلات صفات لأولي الألباب فعطفها من باب عطف الصفات للموصوف الاحد، وليس من عطف الأصناف.

{ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ } ما يصدق على الفريق الذين يوفون بعهد الله. ومناسبة عطفه أنّ وصل ما أمر الله به أن يوصل أثر من آثار الوفاء بعهد الله وهو عهد الطاعة.

الوصل: ضمّ شيء لشيء، وضده القطع. ويطلق مجازا على القرب وضده الهجر. واشتهر مجازا أيضا في الإحسان والإكرام ومنه قولهم، صلة الرحم، أي الإحسان لأجل الرحم.

{ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ } عام في جميع الأواصر والعلائق التي أمر الله بالمودة والإحسان لأصحابها، فمنها آصرة الإيمان، ومنها آصرة القرابة وهي صلة الرحم. وقد اتفق المفسّرون على أنها مراد الله هنا، وقد تقدم مثله عند قوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} [البقرة:26، 27].

وإنما أطنب في التعبير عنها بطريقة اسم الموصول { مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ } لما في الصلة من التعريض بأنّ واصلها آت بما يرضي الله، لينتقل من ذلك إلى التعريض بالمشركين الذين قطعوا أواصر القرابة بينهم وبين رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين، وأساءوا إليهم في كلّ حال وكتبوا صحيفة القطعية مع بني هاشم. وفيها الثناء على المؤمنين بأنّهم يصلون الأرحام ولم يقطعوا أرحام قومهم المشركين إلّا عندما حاربوهم وناوؤهم.

الخشية: خوف بتعظيم المخوف منه. وتطلق أيضا على مطلق الخوف.

الخوف: ظنّ وقوع المضرّة من شيء. وتقدّم في قوله { إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ } [البقرة :229].

{ سُوءَ الْحِسَابِ } ما يحفّ به مما يسوء المحاسب، وقد تقدّم آنفا.

{ الَّذِينَ يُوفُونَ / وَالَّذِينَ يَصِلُونَ} جاءت الصلات وما عطف عليهما بصيغة المضارع في تلك الأفعال الخمسة لإفادة التجدّد كناية عن الاستمرار.

{ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً } جاءت الصلة وما عطف عليها بصيغة الماضي لإفادة تحقّق هذه الأفعال الثلاثة لهم وتمكّنها من أنفسهم، تنويها بها لأنّها أصول لفضائل الأعمال.

فأمّا **الصبر**، فلأنّه ملاك استقامة الأعمال ومصدرها فإذا تخلّق به المؤمن صدرت عنه الحسنات والفضائل

بسهولة، ولذلك قال تعالى { إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [العصر:2 - 3].

وأمّا **الصلاة** فلأنّها عماد الدين وفيها ما في الصبر من الخاصيّة، لقوله تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ} [البقرة: 45].

وأمّا **الإنفاق** فأصله الزكاة، وهي مقارنة للصلاة كلمّا ذكرت، ولها الحظ الأوفى من اعتناء الدين بها. ومنها النفقات والعطايا كلها، وهي أهم الأعمال، لأنّ بذل المال يشقّ على النفوس، فكان له من الأهمية ما جعله ثانيا للصلاة.

{ **ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ** } مفعول لأجله لـ { صَبَرُوا }. و**الابتغاء**: الطلب. ومعنى ابتغاء وجه الله ابتغاء رضاه كأنّه فعل فعلا يطلب به إقباله عند لقائه. وتقدّم في قوله { وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ } [البقرة :272]. والمعنى أنّهم صبروا لأجل أنّ الصبر مأمور به من الله لا لغرض آخر كالرياء.

السر والعلانيّة: تقدّم ذكرهما في قوله { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً } [البقرة:274].

{ **وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ** } ثم أعيد أسلوب التعبير بالمضارع في المعطوف على الصلة لاقتضاء المقام إفادة التجدّد، إيماء إلى أنّ تجدّد هذا الدرء مما يُحرص عليه لأنّ النّاس عرضة للسيئات على تفاوت، فوصف لهم دواء ذلك بأن يدفعوا السّيّئات بالحسنات.

الدرء: الدفع والطرد. وهو هنا مستعار لإزالة أثر الشيء فيكون بعد حصول المدفوع وقبل حصوله بأن يعدّ ما يمنع حصوله. فيصدق ذلك بأن يتبع السيّئة إذا صدرت منه بفعل الحسنات فإن ذلك كطرد السيئة. قال النبيء ﷺ: " يا معاذ اتق الله حيث كنت وأتبع السيّئة الحسنة تمحها ". وخاصة فيما بينه وبين ربه.

ويصدق بان لا يقابل من فعل معه سيئة بمثلها بل يقابل ذلك بالإحسان، قال تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت: 34] وذلك بأن يصل من قطعه ويعطي من حرمه ويعفو عمن ظلمه. وذلك فيما بين الأفراد، وكذلك بين الجماعات إذا لم يفض إلى استمرار الضرّ. قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } [الأنفال: 3]. ويصدق بالعدول عن فعل السيّئة بعد العزم فإنّ ذلك العدول حسنة درأت السيئة المعزوم عليها. قال النبيء ﷺ : " من همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له حسنة ".

فقد جمع { يَدْرَأُونَ } جميع هذه المعاني، ولهذا لم يعقّب بما يقتضي أن المراد معاملة المسيء بالإحسان كما أتبع في قوله { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [فصلت 34]. وكما في قوله { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ } [المؤمنون:96].

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**} خبر عن { الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ }. ودلّ اسم الإشارة على أنّ المشار إليهم جديرون بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة لأجل ما وصف به المشار إليهم من الأوصاف.

العقبى: العاقبة. وهي الشيء الذي يعقب، أي يقع عقب شيء آخر. وقد اشتهر استعمالها في آخرة الخير، قال تعالى { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [القصص:83]. وأمّا قوله { وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ } [35] فهو مشاكلة كما سيأتي في آخر السورة. وانظر ما ذكرته في تفسير قوله تعالى { وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ } [القصص:37] فقد زدته بيانا.

{ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ [23] سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } [24]

{ جَنَّاتِ عَدْنٍ } بدل من {عُقْبَى الدَّارِ}. و**العدن**: الاستقرار. وتقدّم في قوله { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ } [براءة :72].

{ يَدْخُلُونَهَا } لاستحضار الحالة البهيجة. والجملة حال من {جَنَّاتِ} أو من ضمير {لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ}.

{ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ } واو المعيّة وذلك زيادة الإكرام بأن جعل أصولهم وفروعهم وأزواجهم المتأهّلين لدخول الجنّة لصلاحهم في الدرجة التي هم فيها، فمن كانت مرتبته دون مراتبهم لحق بهم، ومن كانت مرتبته فوق مراتبهم لحقوا هم به، فلهم الفضل في الحالين. وهذا كعكسه في قوله تعالى { احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ } [الصافات: 22]، لأنّ مشاهدة عذاب الأقارب عذاب مضاعف.

وفي هذه الآية بشرى لمن كان له سلف صالح أو خلف صالح أو زوج صالح ممن تحقّقت فيهم هذه الصلات أنّه إذا صار إلى الجنّة لحق بصالح أصوله أو فروعه أو زوجه. وما ذكر الله هذا إلّا لهذه البشرى كما في قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الطور:21]. والآباء يشمل الأمّهات على طريقة التغليب كما قالوا: الأبوين.

{ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ } عطف على {يَدْخُلُونَهَا} فهي في موقع الحال. وهذا من كرامتهم والتنويه بهم، فإنّ تردّد رسل الله عليهم مظهر من مظاهر إكرامه. و**{ مِنْ كُلِّ بَابٍ }** كناية عن كثرة غشيان الملائكة إيّاهم.

{ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ } مقول قول محذوف لأنّ هذا لا يكون إلّا كلاما من الداخلين. والتقدير: نالكم هذا التكريم بالسلام بسبب صبركم. ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف مستفاد من المقام، أي هذا النعيم المشاهد بما صبرتم. والمراد: الصبر على مشاق التكاليف وعلى ما جاهدوا بأموالهم وأنفسهم.

{ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } تفريع ثناء على حسن عاقبتهم، والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة مقام الخطاب عليه. والتقدير: فنعم عقبى الدار دار عقباكم. وتقدّم معنى { عُقْبَى الدَّارِ } آنفا.

{ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } [25].

هذا شرح حال أضداد الذين يوفون بعهد الله، وهو ينظر إلى شرح مجمل قوله { كَمَنْ هُوَ أَعْمَى } [19].

نقض العهد: إبطاله وعدم الوفاء به.

{ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ } زيادة في تشنيع النقض، أي من بعد توثيق العهد وتأكيده. وتقدّم نظير هذه الآية عند قوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ } [البقرة:26-27].

{ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } خبرعن { والذين ينقضون }، وهي مقابل جملة { أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ }. والبعد عن الرحمة والخزي وإضافة سوء الدار كإضافة عقبى الدار. والسوء ضد العقبى كما تقدم.

{ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ }[26]

هذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا جوابا عمّا يهجس في نفوس السامعين من المؤمنين والكافرين من سماع قوله { أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } المفيد أنّهم مغضوب عليهم، فأمّا المؤمنون فيقولون: كيف بسط الله الرزق لهم في الدنيا فازدادوا به طغيانا وكفرا، وأمّا الكافرون فيسخرون من الوعيد مزدهين بما لهم من نعمة. فأجيب الفريقان بأنّ الله يشاء بسط الرزق لبعض عباده ونقصه لبعض آخر لحكمة متّصلة بأسباب العيش في الدنيا.

{ اللَّهُ يَبْسُطُ } أفاد تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي تقوية للحكم وتأكيدا، لأنّ المقصود أن يعلمه النّاس ولفت العقول إليه على رأي السكّاكي في أمثاله. وليس المقام مقام إفادة الحصر كما درج عليه (الكشّاف).

البسط: مستعار للكثرة وللدوام.

القدر: كناية عن القلّة.

ولما كان المقصود الأول من هذا الكلام تعليم المسلمين كان الكلام موجها إليهم.

{ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا } جيء في جانب الكافرين بضمير الغيبة إشارة إلى أنّهم أقل من أن يفهموا هذه الدقائق لعنْجهيّة نفوسهم، فهم فرحوا بما لهم في الحياة الدنيا وغفلوا عن الآخرة، فالفرح المذكور فرح بطر وطغيان كما في قوله تعالى { ذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } [القصص: 76].

{ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ }

والمراد بالحياة الدنيا وبالآخرة نعيمهما بقرينة السياق، فالكلام من إضافة الحكم إلى الذات والمراد أحوالها. أي إذا نسبت أحوال الحياة الدنيا بأحوال الآخرة ظهر أنّ أحوال الدنيا متاع قليل.

المتاع: ما يُتمتع به وينقضي. وتنكيره للتقليل كقوله تعالى{ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران: 196-197].

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ }[27]

هذه الجملة تكرير لنظيرتها السابقة { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ } [7]. فأعيدت تلك الجملة إعادة الخطيب كلمة من خطبته ليأتي بما بقي عليه في ذلك الغرض بعد أن يفصل بما اقتضى المقام الفصل به ثم يتفرّغ إلى ما تركه من قبل. فإنّه بعد أن بيّنت الآيات السابقة أنّ الله قادر على أن يعجّل لهم العذاب ولكن حكمته اقتضت عدم التنازل ليتحدّى عبيده، فتبيّن ذلك كلّه كمال التبيين. وكلّ ذلك لاحق بقوله { وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [5]، وعود إلى المهمّ من غرض التنويه بآية القرآن ودلالته على صدق الرسول ﷺ، ولهذا أطيل الكلام على هدي القرآن عقب هذه الجملة.

{ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ } موقع الخبر المستعمل في تعجيب الرسول ﷺ من شدّة ضلالهم. وتحت هذا التعجيب معان أخرى:

أحدهما: أنّ آيات صدق النبيء ﷺ واضحة لولا أنّ عقولهم لم تدركها لفساد إدراكهم.

الثاني: أنّ الآيات الواضحة الحسيّة قد جاءت لأمم أخرى فرأوها ولم يؤمنوا. كما قال تعالى { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا } [الإسراء: 59].

الثالث: أنّ لعدم إيمانهم أسبابا خفيّة يعلمها الله قد أبهمت بالتعليق على المشيئة في قوله { يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ } منها ما يومئ إليه قوله في مقابله { وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ }. وذلك أنّهم تكبّروا وأعرضوا حين سمعوا الدعوة إلى التوحيد فلم يتأمّلوا، وقد ألقيت إليهم الأدلة القاطعة فأعرضوا عنها ولو أنابوا وأذعنوا لهداهم الله ولكنهم نفروا.

الإنابة: حقيقتها الرجوع. وأطلقت هنا على الاعتراف بالحقّ عند ظهور دلائله، لأنّ النفس تنفر من الحقّ ابتداء ثم ترجع إليه، فالإنابة هنا ضد النفور.

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [28] الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ }[29]

استئناف اعتراضي مناسبته المضادة لحال الذين أضلّهم الله، والبيان لحال الذين هداهم، مع التنبيه على أنّ مثال الذين ضلّوا هو عدم اطمئنان قلوبهم لذكر الله، وهو القرآن، لأنّ قولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } يتضمّن أنّهم لم يعدّوا القرآن آية من الله. ثم التصريح بجنس عاقبة هؤلاء، والتعريض بضدّ ذلك لأولئك.

الاطمئنان: السكون، واستعير هنا لليقين وعدم الشك، لأنّ الشك يستعار له الاضطراب.

{ ذكر الله } يجوز أن يراد به خشية الله ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه. ويجوز أن يراد به القرآن قال تعالى { وإنّه لذكر لك ولقومك } [الزخرف:44]، وهو المناسب هنا، لقولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } لأنّهم لم يكتفوا بالقرآن آية على صدق الرسول ﷺ. وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: 22]. والذكر من أسماء القرآن.

ويجوز أن يراد ذكر الله باللسان فإن إجراءه على اللسان ينبّه القلوب إلى مراقبته. وهذا وصف لحسن حال المؤمنين ومقايسته بسوء حالة الكافرين الذين غمر الشك قلوبهم.

{ تَطْمَئِنُّ } اختير المضارع في مرّتين لدلالته على تجدّد الاطمئنان واستمراره وأنّه لا يتخلله شكّ ولا تردّد.

{ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ } افتتحت بحرف التنبيه اهتماما بمضمونها. وهي بمنزلة التذييل لما في تعريف { الْقُلُوبُ } من التعميم. وفيه إثارة الباقين على الكفر على أن يتّسموا بسمة المؤمنين من التدبّر في القرآن لتطمئن قلوبهم.

طوبى: مصدر من طاب طيبا إذا حسن. وهي بوزن البشرى والزلفى، قلبت ياؤها واوا لمناسبة الضمّة، أي لهم الخير الكامل لأنّهم اطمأنت قلوبهم بالذكر. فهم في طيب حال: في الدنيا بالاطمئنان، وفي الآخرة بالنعيم الدائم، وهو حسن المئاب وهو مرجعهم في آخر أمرهم.

{ وَحُسْنُ مَآبٍ } وإطلاق المآب عليه باعتبار أنّه آخر أمرهم وقرارهم، كما أنّ قرار المرء بيته يرجع إليه بعد الانتشار منه. على أنّه يناسب ما تقرر أنّ الأرواح من أمر الله، أي من عالم الملكوت وهو عالم الخلد فمصيرها إلى الخلد رجوع إلى عالمها الأوّل. وهذا مقابل قوله في المشركين { وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ }.

{ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } [30]

هذا جواب عن قولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } لأن الجواب السابق بقوله { قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ} جواب بالإعراض عن جهالتهم والتعجّب من ضلالهم وما هنا هو الجواب الراد لقولهم.

{ **كَذَلِكَ** } افتتاحها باسم الإشارة تأكيد للمشار إليه وهو التعجّب من ضلالتهم إذ عموا عن صفة الرّسالة.
والمشار إليه: الإرسال المأخوذ من فعل { **أَرْسَلْنَاكَ** } ، أي مثل الإرسال البيّن أرسلناك، فالمشبّه به عين المشبّه.
{ **فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** } إرسال الرسل من قبله إلى أمم يقتضي مرسلين، أي ما كانت رسالتك إلّا مثل رسالة الرّسل من قبلك، كقوله تعالى { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ } [الأحقاف: 9]، لإبطال توهّم المشركين أنّ النبيء ﷺ لمّا لم يأتهم بما سألوه فهو غير مرسل من الله.
{ **فِي أُمَّةٍ** } هي أمة الدعوة { فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ }.
{ **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ** } تقدّم في سورة آل عمران عند قوله { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ }. ويتضمّن التعريض بالوعيد بمثل مصير الأمم الخالية التي كذّبت رسلها.
{ **لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ** } تضمن لام التعليل أنّ الإرسال لأجل الإرشاد والهداية بما أمر الله، لا لأجل الانتصاب لخوارق العادات.
التلاوة: القراءة. فالمقصود لتقرأ عليهم القرآن.
وفيه إيماء إلى أن القرآن هو معجزته لأنّه ذكره في مقابلة إرسال الرّسل الأوّلين ومقابلة قوله { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } [7]. وقد جاء ذلك صريحا في قوله { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ } [العنكبوت: 51]. وقول النبيء ﷺ: " ما من الأنبياء نبيء إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ ".
{ **وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ** } أي أرسلناك بأوضح الهداية وهم مستمرون على الكفر، فالضمير عائد إلى المشركين المفهومين من المقام لا إلى { أُمَّةٍ } لأنّ الأمّة منها مؤمنون.
والتعبير بالمضارع في { **يَكْفُرُونَ** } للدلالة على تجدّد ذلك واستمراره، ومعنى كفرهم بالله إشراكهم معه غيره في الإلهية، فقد أبطلوا حقيقة الإلهية فكفروا به.
{ **الرَّحْمَنِ** } اختيار هذا الاسم من بين أسمائه تعالى لأنّ كفرهم بهذا الاسم أشد، لأنّهم أنكروا أن يكون الله رحمان، قال تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60]، ولأن لهذه الصفة مزيد اختصاص بتكذيبهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - وتأييده بالقرآن لأن القرآن هدى ورحمة للنّاس. وقد أرادوا تعويضه بالخوارق التي لا تكسب هديا بذاتها ولكنها دالة على صدق من جاء بها. فأشارت الآية إلى كفرين من كفرهم: جحد الوحدانية، وجحد اسم الرحمان.
{ **قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ** } لقّن النبيء ﷺ بإبطال كفرهم المحكي إبطالا جامعا بأن يقول: { **هُوَ رَبِّي** } فضمير {هُوَ} عائد إلى { الرَّحْمَان } باعتبار المسمّى بهذا الاسم، أي المسمّى هو ربي

وأنّ الرحمن اسمه.

{ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } إبطال لإشراكهم معه في الإلهية غيره. وهذا ممّا أمر الله نبيّه أن يقوله، فهو احتراس لردّ قولهم: إن محمدا ﷺ يدعوا إلى رب واحد وهو يقول: إنّ ربّه الله وإنّ ربّه الرحمان، فكان قوله إخبار من جانب الله على طريقة الاعتراض.

{ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } هي نتيجة لكونه ربّا واحدا. ولكونها كالنتيجة لذلك فصلت عن التي قبلها لما بينها من الاتصال. وتقديم المجرورين {عَلَيْهِ / إِلَيْهِ } لإفادة اختصاص التوكل والمتاب عليه، لأنّه لما توحّد بالربوبيّة كان التوكّل عليه، ولما اتصف بالرحمانية كان المتاب إليه، لأنّ رحمانيّته مظنّة لقبوله توبة عبده.

المتاب: مصدر ميمي على وزن مفعل، أي **التوبة**، يفيد المبالغة لأنّ الأصل في المصادر الميمية أنّها أسماء زمان جعلت كناية عن المصدر، ثم شاع استعمالها حتى صارت كالصريح.

وأصلها (متابي) بإضافة إلى ياء المتكلم فحذفت الياء تخفيفا وأبقيت الكسرة دليلا على المحذوف.

{ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ } [31]

{ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً }

أي لو أنّ كتابا من الكتب السالفة اشتمل على أكثر من الهداية فكانت مصادر لإيجاد العجائب لكان هذا القرآن كذلك، ولكنه ليس كذلك، إذ ليس ذلك من سنن الكتب الإلهيّة.

{ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى } وجه تخصيص هذه الأشياء الثلاثة من بين الخوارق المفروضة ما رواه الواحدي والطبري عن ابن عباس: أنّ كفّار قريش؛ أبا جهل وابن أبي أمية جلسوا خلف الكعبة ثم أرسلوا إلى النبيء ﷺ فقالوا: لو وسّعت لنا جبال مكّة فسيّرتها حتّى تتسع أرضنا فنحترثها فإنّها ضيّقة، أو قرّب إلينا الشام فإنّا نتجر إليها، أو أخرج قُصَيا نكلّمه.

فكان في ذكر هذه الأشياء إشارة إلى تهكّمهم.

{ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ } قطّعت مسافات الأسفار كقوله تعالى {لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} [الأنعام: 94].

{ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً } عطف على { وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً } بحرف الإضراب. أي ليس ذلك من شأن الكتب بل لله أمر كل محدَث فهو الذي أنزل الكتاب وهو الذي يخلق العجائب إن شاء.

{ **الْأَمْرُ** } التصرّف التكويني.

{ **أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً** } استفهام إنكاري إنكار لانتفاء يأس الذين آمنوا، أي فهم حقيقون بزوال يأسهم، وأن يعلموا أن لو يشاء الله لهدى النّاس جميعا.

{ **يَيْأَسِ** } بمعنى يوقن ويعلم، ولا يستعمل هذا الفعل إلا مع (أَن) المصدريّة، وأصله مشتقّ من اليأس الذي هو تيقّن عدم حصول المطلوب بعد البحث، فاستعمل في مطلق اليقين على طريقة المجاز المرسل، وشاع ذلك حتى صار حقيقة. وقد قيل: إن استعمال يئس بمعنى علم لغة هوازن أو لغة بني وَهْبيل.

ويجوز أن يكون متعلّق {يَيْأَسِ} محذوفا دل عليه المقام. تقديره: من إيمان هؤلاء، ويكون { **أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ** } مجرورا بلام تعليل محذوفة. والتقدير: لأنه لو يشاء الله لهدى الناس، فيكون تعليلا لإنكار عدم يأسهم.

{ **وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** }.

تهديد بالوعيد على تعنّتهم وإصرارهم على عدم الاعتراف بمعجزة القرآن، وتهكّمهم باستعجال العذاب الذي توعّدوا به، فهدّدوا بما سيحل بهم من الخوف بحلول الكتائب والسرايا بهم، تنال الذين حلّت فيهم وتخييف من حولهم حتّى يأتي وعد الله بيوم بدر أو فتح مكّة.

{ **لا يَزَالُ** } في أصلها تدلّ على الإخبار باستمرار شيء واقع، فإذا كانت هذه الآية مكّية تعيّن أن تكون نزلت عند وقوع بعض الحوادث المؤلمة بقريش من جوع أو مرض. فتكون هذه الآية تنبيها لهم بأنّ ذلك عقاب من الله تعالى ووعيد بأنّ ذلك دائم فيهم حتّى يأتي وعد الله. ولعلّها نزلت في مدة إصابتهم بالسنين السبع المشار إليها بقوله { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ } [البقرة: 155].

ومن جعلوا هذه السورة مدنية فتأويل الآية عندهم أنّ القارعة السريّة من سرايا المسلمين التي تخرج لتهديد قريش ومن حولهم. وهو لا ملجئ إليه.

القارعة: في الأصل وصف من القرع. وهو ضرب جسم بجسم آخر. يقال: قرع الباب إذا ضربه بيده بحلقة. ولما كان القرع يحدث صوتا مباغتا يكون مزعجا لأجل تلك البغتة صار القرع مجازا للمباغتة والمفاجأة، ومثله الطرق، وصاغوا من هذا الوصف صيغة تأنيث، وهو ما يؤوّل بالحادثة أو النازلة، كما قالوا: داهية وكارثة. أي نازلة موصوفة بالإزعاج. ومنه تسمية ساعة البعث بالقارعة. والمراد هنا **الحادثة المفجعة** بقرينة إسناد الإصابة إليها. وهي مثل الغارة والكارثة تحلّ فيهم فتصيبهم عذابا، أو تقع بالقرب منهم فيصيبهم الخوف من تجاوزها إليهم.

{ **بِمَا صَنَعُوا** } بسبب فعلهم وهو كفرهم وسوء معاملتهم نبيئَهم، وأتى في ذلك بالموصول لأنّه أشمل لأعمالهم.

{ **أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ** } ضمير { تَحُلُّ } عائد إلى { قَارِعَةٌ } فيكون ترديدا لحالهم بين إصابة القوارع إيّاهم وبين حلول القوارع قريبا من أرضهم فهم في رعب منها وفزع.

تحُل: (بضم الحاء) مضارع حل اللازم.

{ **حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ** } من إطلاق المصدر على المفعول، أي موعود الله، وهو ما توعّدهم به من العذاب، فأشارت الآية إلى استئصالهم، لأنّها ذكرت الغلب ودخول جهنّم، فكان المعنى أنّه غلب القتل بسيوف المسلمين، وهو البطشة الكبرى. ومن ذلك يوم بدر ويوم حنين ويوم الفتح.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** } تذييل، إيذانا بأنّ إتيان الوعد المُغيّا به محقّق، وأنّ الغاية به غاية بأمر قريب الوقوع. والتأكيد مراعاة لإنكار المشركين.

{ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } [32]

لأن تلك المثل الثلاثة التي فرضت أريد بها أمور سألها المشركون النبيء ﷺ استهزاء وتعجيزا.

وقد استهزأ قوم نوح به - عليه السلام - { وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ }، واستهزأت عاد بهود - عليه السلام - { فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [الشعراء: 187]، واستهزأت ثمود بصالح - عليه السلام - { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ } [الأعراف: 66]، واستهزأوا بشعيب - عليه السلام - { قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ } [هود: 87]، واستهزأ فرعون بموسى - عليه السلام - { أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ} [الزخرف: 43].

الاستهزاء: مبالغة في الهزء مثل الاستسْخار في السخرية.

الإملاء: الإمهال والترك مدّة. ومنه قوله تعالى { وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً }.

{ **فكيف كان عقاب** } الاستفهام للتعجيب. وأصله (عقابي) مثل ما تقدّم آنفا في قوله { وَإِلَيْهِ مَتَابِ } والكلام تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين، ووعيد للمشركين.

{ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [33]

تفريع على جملة { قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا } [30] المجاب به حكاية كفرهم المضمّن في جملة { وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ } [30]، فالتفريع في المعنى على مجموع الأمرين: كفرهم، وإيمان النبيء ﷺ بالله. وتذكيرهم بما حلّ بالمكذّبين من قبلهم مع إدماج تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، ثمّ فرّع على ذلك الاستفهام الإنكاري. والتقدير: أمّن هو قائم على كل نفس ومن جعلوهم به شركاء سواء في استحقاق العبادة.

{ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } العدول عن اسم الجلالة إلى الموصول لأنّ في الصلة دليلا على انتفاء المساواة، وتخطئة لأهل الشرك في تشريك آلهتهم لله تعالى في الإلهيّة، ونداء على غباوتهم إذ هم معترفون بأنّ الله هو الخالق.

القائم على الشيء: الرقيب، فيشمل الحفظ والإبقاء والإمداد، ولتضمّنه معنى الرقيب عدّي بحرف {عَلَى}. وأصله من القيام وهو **الملازمة** كقوله { إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً } [آل عمران: 75]. ويجيء من معنى القائم أنّه العليم بحال كل شيء، لأنّ تمام القيّوميّة يتوقّف على إحاطة العلم. فالمعنى: متولّيها ومدبّرها في جميع شؤونها في الخلق والأجل والرزق، والعالم بأحوالها وأعمالها. والمشركون لا ينازعون في انفراد الله بهذا القيام ولكنّهم لا يراعون ذلك في عبادتهم غيره، فمن أجل ذلك لزمتهم الحجّة.

{ بِمَا كَسَبَتْ } الباء للملابسة. وهي في موقع الحال. أي قياما ملابسا لما عملته كلّ نفس، أي قياما وفاقا لأعمالها من عمل خير يقتضي القيام عليها باللطف والرضى فتظهر آثار ذلك في الدنيا والآخرة لقوله { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97]، أو من عمل شرّ يقتضي قيامه على النّفس بالغضب والبلايا. ففي هذه الصلة بعمومها تبشير وتهديد لمن تأمّل من الفريقين. فهذا تعريض بالأمرين أفادته صلة الموصول.

{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ } في موضع الحال، وإظهار اسم الجلالة للتعبير عن المسمّى باسمه العلم الذي هو الأصل إذ كان قد وقع الإيفاء بحقّ العدول عنه إلى الموصول في الجملة السابقة فتهيّأ المقام للاسم العلم، وليكون تصريحا بأنّه المراد من الموصول السابق زيادة في التصريح بالحجّة.

{ قُلْ سَمُّوهُمْ } أعيد الأمر بالقول لاسترعاء الأفهام لوعي ما سيذكر. وقد تضمّنت ردا عليهم. والمعنى: إن هي إلّا أسماء سميتموها، وهذا كقوله تعالى { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } [يوسف: 40]، وقوله { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا } [النجم: 23].

{ **أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ** } دلّت { أَمْ } على أنّ ما بعدها في معنى الاستفهام، وهو إنكاري توبيخي، أي ما كان لكم أن تفتروا على الله فتضعوا له شركاء لم ينبئكم بوجودهم، لأنّ ما لا يعلمه الله لا وجود له. وفي [يونس:18] { قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ } زيادة في التعميم.

{ **أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ** } إعادة الباء للتأكيد بعد (أم) العاطفة. وليس (**الظاهر**) هنا من الظهور بمعنى الوضوح بل هو مشتق من الظهور بمعنى الزوال **كناية عن البطلان**، أي بمجرد لا ثبات له وليس بحقّ.

{ **بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ** } إضراب عن الاحتجاج عليهم بإبطال إلهية أصنامهم إلى كشف السبب، وهو أن أئمة المشركين زيّنوا للذين كفروا مكرهم بهم إذ وضعوا لهم عبادتها.

المكر: إخفاء وسائل الضرّ، وتقدّم عند قوله { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [الأنفال:30]، والمراد هنا أنّ أئمة الكفر مثل عمرو بن لحي وضعوا للعرب عبادة الأصنام وحسّنوها إليهم مظهرين لهم أنّها حقّ ونفع وما أرادوا بذلك إلّا أن يكونوا قادة لهم ليسودوهم.

وقد تضمن هذا الاحتجاج أساليب وخصوصيّات:

أحدها: توبيخهم على قياسهم أصنامهم على الله في إثبات الإلهيّة لها قياسا فاسدا لانتفاء الجهة الجامعة، فكيف يسوّى من هو قائم على كلّ نفس بمن ليسوا في شيء من ذلك.

ثانيها: تبهيلهم في جعلهم أسماء لا مسميّاتٍ لها آلهةً.

ثالثها: إبطال كون أصنامهم آلهة، بأنّ الله لا يعلمها آلهة، وهو كناية عن انتفاء إلهيتها.

رابعها: أنّ ادعاءهم آلهة مجرد كلام لا انطباق له مع الواقع، وهو قوله { أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ }.

خامسها: أنّ ذلك تمويه باطل روّجه فيهم دعاة الكفر، وهو معنى تسميته مكرا.

سادسها: أنّهم يصدّون النّاس عن سبيل الهدى.

{ **وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ** } عطف على { زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ }. قرأه الجمهور(بفتح الصاد) فهو باعتبار كون مضمون كلتا الجملتين من أحوال المشركين: فالأولى باعتبار كونهم مفعولين، والثانية باعتبار كونهم فاعلين للصدّ بعد أن انفعلوا بالكفر. وقرأه عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف { وَصُدُّوا } (بضم الصاد) فهو كجملة { زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } في كون مضمون كلتيهما جعل الذين كفروا مفعولا للتزيين والصدّ.

{ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** } تذييل لما فيه من العموم.

{ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ } [34]

استئناف بياني، لأنّ التهديد السابق { فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } يومئ إلى وعيد يسأل عنه السامع. وفيه تكملة للوعيد المتقدّم في قوله { وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ } مع زيادة الوعيد في الدار الآخرة.

{ **عَذَابٌ** } التنكير للتعظيم، وهو عذاب القتل والخزي والأسر.

{ **مِنْ وَاقٍ** } {مِنَ} لتأكيد النفي، للتنصيص على العموم.

الواقي: الحائل دون الضرّ، أي من عذابه بقرينة ما ذكر قبله.

{ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ } [35]

استئناف ابتدائي يرتبط بقوله {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ}. ذكر هنا بمناسبة ذكر ضده في قوله {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ} [34]

المثَل: هنا الصفة العجيبة، قيل: هو حقيقة من معاني المثل، كقوله تعالى {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} [النحل:60]، وقيل: هو مستعار من المثَل الذي هو الشبيه في حالة عجيبة أطلق على الحالة العجيبة غير الشبيهة لأنّها جديرة بالتشبيه بها.

{ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** } خبر عن {مَثَلُ} باعتبار أنّها من أحوال المضاف إليه.

{ **أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا** } خبر ثان، والأكل (بالضم): المأكول، وتقدّم. و**دوام الظل**، كناية عن التفاف الأشجار بحيث لا فراغ بينها تنفذ منه الشمس، كما قال تعالى { وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً } [النبأ: 16].

{ **تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا** } مستأنفة. والإشارة إلى الجنّة بصفاتها بحيث صارت كالمشاهدة. هي الجنّة التي وعد المتقون. وقد علم أنّ الذين اتقوا هم المؤمنون الصالحون كما تقدّم. وأوّل مراتب التقوى الإيمان.

{ وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ } مستأنفة للمناسبة بالمضادة. وهي كالبيان لجملة { وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ }.

{ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ } [36].

{ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ }

الواو للاستئناف. وهذا استئناف ابتدائي انتقل به إلى فضل لبعض أهل الكتاب في حسن تلقّيهم للقرآن، بعد الفراغ من ذكر أحوال المشركين.

والمناسبة هي أنّ الذين أرسل إليهم بالقرآن انقسموا في التصديق بالقرآن فرقا: ففريق آمنوا بالله وهم المؤمنون، وفريق كفروا به وهم مصداق قوله { وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ } [30]. كما تقدم أنه عائد إلى المشركين المفهومين من المقام، كما هو مصطلح القرآن.

وأهل الكتاب فريق آخر، وهو منقسم أيضا في تلقي القرآن فرقتين: فريق صدّقوا بالقرآن وفرحوا به. وكلّهم من النصارى مثل ورقة بن نوفل وكذلك غيره ممن بلغهم القرآن أيّام مقام النبيء ﷺ بمكّة قبل أن تبلغهم دعوة النبيء ﷺ، فإنّ اليهود كانوا قد سُرّوا بنزول القرآن مصدّقا للتوراة، وكانوا يحسبون دعوة النبيء ﷺ مقصورة على العرب. وفريق آخر لم يثبت لهم الفرح بالقرآن وهم معظم اليهود والنصارى البعداء عن مكّة. وما كفر الفريقان به إلّا حين علموا أنّ دعوة الإسلام عامة.

وبهذا التفسير تظهر بلاغة التعبير عنهم بـ { **يَفْرَحُونَ** } دون يؤمنون. وإنّما سلكنا هذا الوجه بناء على أنّ هذه السورة مكّية كان نزولها قبل أن يسلم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وبعض نصارى نجران وبعض نصارى اليمن. فإن كانت السورة مدنيّة أو كان هذا من المدني فلا إشكال.

{ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ** } الذين أوتوه إيتاء كاملا، وهو المجرّد عن العصبيّة لما كانوا عليه، وعن الحسد، فهو كقوله تعالى { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } [البقرة:121].

{ **وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ** } الأظهر أنّ المراد بالأحزاب أحزاب الذين أوتوا الكتاب، كما جاء في قوله تعالى { فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ } [مريم:37]، أي ومن أحزابهم من ينكر بعض القرآن. فاللام عوض عن المضاف إليه. ولعلّ هؤلاء هم خبثاؤهم ودهاتهم الذين توسّموا أنّ القرآن يبطل شرائعهم فأنكروا بعضه. وفي التعبير عنهم بالأحزاب إيماء إلى أنّ هؤلاء هم المتحزّبون المتصلّبون لقومهم ولما كانوا عليه.

{ **قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ** }

أمر النبيء ﷺ أن يعلن للفريقين بأنّه ما أُمر إلّا بتوحيد الله كما في قوله { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ } [آل عمران:64]. وهذه الآية من مجاراة الخصم واستنزال طائر نفسه كيلا ينفر من النظر.

ولمّا كان المأمور به مجموع شيئين: عبادة الله، وعدم الإشراك به في ذلك آل المعنى: أني ما أمرت إلّا بتوحيد الله. ومن بلاغة الجدل القرآني أنّه لم يأت بذلك من أوّل الكلام بل أتى به متدرّجا فيه فقال { أن أعبد الله } لأنّه لا ينازع في ذلك أحد من أهل الكتاب ولا المشركين، ثم جاء بعده { وَلا أُشْرِكَ بِهِ } لإبطال إشراك المشركين، وللتعريض بإبطال إلهية عيسى عليه السلام لأن ادعاء بنوّته من الله تعالى يؤول إلى الإشراك.

{ **إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ** } بيان لجملة { إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ }، أي أن أعبده وأن أدعو النّاس إلى ذلك. وتقديم المجرور في الموضعين للاختصاص، أي إليه لا إلى غيره أدعو، أي بهذا القرآن، وإليه لا

إلى غيره مئابي، فإن المشركين يرجعون في مهمّهم إلى الأصنام يستنصرونها ويستغيثونها. وليس في قوله هذا ما ينكره أهل الكتاب إذ هو ممّا كانوا فيه سواء مع الإسلام.

{ **وَإِلَيْهِ مَآبِ** } يعم الرجوع في الآخرة وهو البعث. وهذا من وجوه الوفاق في أصل الدين بين الإسلام واليهوديّة والنصرانيّة. وحذف ياء المتكلم من (مئابي) كحذفها في قوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } [30].

{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيّ وَلا وَاقٍ } [37]

لمّا ذكر حال تلقّي أهل الكتابين للقرآن عند نزوله عرج على حال العرب في ذلك بطريقة التعريض بسوء تلقي مشركيه له مع أنّهم أولى الناس بحسن تلقيه، إذ نزل بلسانهم مشتملا على ما فيه صلاحهم وتنوير عقولهم. وقد جعل أهم هذا الغرض التنويه بعلو شأن القرآن لفظا ومعنى.

{ **حُكْماً عَرَبِيّاً** } حالان من ضمير { أَنْزَلْنَاهُ }. و**الحكم**: هنا بمعنى **الحكمة** كما في قوله { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً} [مريم: 12]. وجعل نفس الحكم حالا منه مبالغة. والمراد أنه ذو حكمة. والحكمة تقدّمت.

{**عَرَبِيّاً** } حال ثانية وليس صفة ل {حُكْماً}. والمقصود أنّه بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأجملها وأسهلها، وفي ذلك إعجازه. فحصل لهذا الكتاب كمالان: كمال من جهة معانيه ومقاصده وهو كونه حكما، وكمال من جهة ألفاظه وهو المكنى عنه بكونه عربيا، وذلك ما لم يبلغ إليه كتاب قبله لأنّ الحكمة أشرف المعقولات فيناسب شرفها أن يكون إبلاغها بأشرف لغة وأصلحها للتعبير عن الحكمة، { وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: 192-195]. ثم في كونه عربيا امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء بأنّه بلغتهم وبأنّ في ذلك حسن سمعتهم، كما قال تعالى { لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الأنبياء:10]. قال مالك: فيه بقاء ذكركم.

{ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيّ وَلا وَاقٍ** } معترضة، واللام موطئة للقسم وضمير الجمع في قوله { أَهْوَاءَهُمْ } عائد إلى معلوم من السياق وهم المشركون.

اتباع أهوائهم، تحذيرا من أن يسأل الله إجابتهم لما طلبوه كما قال لنوح - عليه السلام - { فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ }.

{ **بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ** } ما بلغك وعلمته، فيحتمل أن يراد بالموصول القرآن تنويها به، أي لئن شايعتهم فسألتنا آية غير القرآن بعد أن نزل عليك القرآن، أو بعد أن أعلمناك أنّا غير متنازلين لإجابة مقترحاتهم.

الولي: النصير. و**الواقي**: المدافع.

والمقصود من هذا تحذير المسلمين من أن يركنوا إلى تمويهات المشركين، والتحذير من الرجوع إلى دينهم، وتأييس المشركين من الطمع في مجيء آية توافق مقترحاتهم.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ [38] **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** } [39].

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ }.

هذا عود إلى الردّ على المشركين في إنكارهم آية القرآن وتصميمهم على المطالبة بآية من مقترحاتهم تماثل ما يؤثر من آيات موسى وآيات عيسى عليهما السلام ببيان أنّ الرّسول لا يأتي بآيات إلّا بإذن الله، وأنّ ذلك لا يكون على مقترحات الأقوام.

وأدمج في هذا الردّ إزالة شبهة قد تعرض أو قد عرضت لبعض المشركين فيطعنون أو طعنوا في نبوّة محمد ﷺ بأنّه يتزوج النساء وأنّ شأن النبيء أن لا يهتم بالنّساء. وليس يلزم أن يكون هذا نازلا على سبب. وقد تزوّج رسول الله ﷺ خديجة ثم سودة رضي الله عنهما في مكّة فاحتمل أنّ المشركين قالوا قالة إنكار تعلقا بأوهن أسباب الطعن في النبوءة. وهذه شبهة تعرض للسذج أو لأصحاب التمويه، وقد يموّه بها المبشّرون من النصارى على ضعفاء الإيمان فيفضلون عيسى - عليه السلام - على محمد ﷺ بان عيسى لم يتزوج النساء. وقد كان لأكثر الرسل أزواج ولأكثرهم ذرية مثل نوح وإبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان - عليهم السلام-.

الأزواج: جمع زوج، وهو من مقابلة الجمع بالجمع، فقد يكون لبعض الرسل زوجة واحدة مثل: نوح ولوط - عليهما السلام - وقد يكون للبعض عدة زوجات مثل: إبراهيم وموسى وداود وسليمان - عليهم السلام - .

وتقدّم الكلام على الزوج عند قوله تعالى { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ } [البقرة:35].

الذرية: النسل. وتقدّم عند قوله تعالى { قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } [البقرة:124].

{ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } هي المقصود. وتركيب {مَا كَانَ} يدلّ على المبالغة في النفي. والمعنى: أنّ شأنك شأن من سبق من الرسل لا يأتون من الآيات إلّا بما آتاهم الله.

إذن الله: هو إذن التكوين للآيات وإعلام الرسول بأن ستكون آية، فاستعير الإتيان للإظهار، واستعير الإذن للخلق والتكوين.

{ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ }.

تذييل لأنّه أفاد عموم الآجال فشمل أجل الإتيان بآية من قوله { وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله }.

فإنّ لذلك آجالا أرادها الله واقتضتها حكمته وهو أعلم بخلقه وشؤونهم، ولكنّ الجهلة يقيسون تصرفات الله بمثل ما تجري به تصرّفات الخلائق.

الأجل: الوقت الموقّت به عمل معزوم أو موعود.

الكتاب: المكتوب، وهو كناية عن التحديد والضبط، لأنّ شأن الأشياء التي يراد تحقّقها أن تكتب لئلّا يخالف عليها. وفي هذا الردّ تعريض بالوعيد. والمعنى: لكلّ واقع أجل يقع عنده، أي تعيين لا يتقدّمه ولا يتأخّر عنه.

{ **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ جملة { لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ } تقتضي أنّ الوعيد كائن وليس تأخيره مزيلا له. ولما كان في ذلك تأييس للنّاس عقّب بالإعلام بأنّ التوبة مقبولة، وبإحلال الرجاء محلّ اليأس، فجاءت الجملة احتراسا.

المحو: حقيقته إزالة شيء، وكثر في إزالة الخط أو الصورة، ومرجع ذلك إلى عدم المشاهدة، قال تعالى {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً } [الإسراء:12]. ويطلق مجازا على تغيير الأحوال وتبديل المعاني كالأخبار والتكاليف والوعد والوعيد فإنّ لها نسبا ومفاهيم إذا صادفت ما في الواقع كانت مطابقتها إثباتا لها وإذا لم تطابقه كان عدم مطابقتها محوا لأنّه إزالة لمدلولاتها.

التثبيت: حقيقته جعل الشيء ثابتا قارا في مكان، قال تعالى { إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا } [الأنفال:45]. ويطلق مجازا على أضداد معاني المحو المذكورة.

فيندرج في ما تحتمله الآية عدة معان: منها أنّه يعدم ما يشاء من الموجودات ويبقي ما يشاء منها، ويعفو عمّا يشاء من الوعيد ويقرّر، وينسخ ما يشاء من التكاليف ويبقي ما يشاء. وكلّ ذلك مظاهر لتصرّف حكمته وعلمه وقدرته. وإذ قد كانت تعلّقات القدرة الإلهية جارية على وفق علم الله تعالى كان ما في علمه لا يتغيّر فإنّه إذا أوجد شيئا كان عالما أنّه سيوجده، وإذا أزال شيئا كان عالما أنّه سيزيله وعالما بوقت ذلك.

{ **مَا يَشَاءُ** } أبهم الممحو والمثبت لتتوجّه الأفهام إلى تعرّف ذلك والتدبّر فيه، لأنّ تحت هذا الموصول صورا لا تحصى، وأسبابُ المشيئة لا تحصى.

ومن مشيئة الله تعالى محو الوعيد أن يلهم المذنبين التوبة والإقلاع ويخلق في قلوبهم داعية الامتثال. ومن مشيئة التثبيت أن يصرف قلوب قوم عن النظر في تدارك أمورهم، وكذلك القول في العكس من تثبيت الخير ومحوه. وكذلك الشأن في ظهور آثار رضي الله أو غضبه على العبد، فبينما ترى أحدا مغضوبا عليه مضروبا عليه المذلّة لانغماسه في المعاصي إذا بك تراه قد أقلع وتاب فأعزّه الله ونصره.

ومن آثار ذلك أيضا تقليب القلوب بان يجعل الله البغضاء محبّة، كما قالت هند بنت عتبة للنبيء ﷺ بعد أن أسلمت: " ما كان أهل خباء أحبّ إلي أن يذلّوا من أهل خبائك واليوم أصبحت وما أهل خباء أحبّ إلي أن يعزّوا من أهل خبائك ".

{ **وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** } يجوز أن يكون مرادا به الكتاب الذي كتبت به الآجال وهو قوله { لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ }. وأن المحو في غير الآجال.

ويجوز أن يكون أم الكتاب مرادا به علم الله تعالى. أي يمحو ويثبت وهو عالم بأن الشيء سيمحى أو يثبت. وفي تفسير القرطبي عن ابن عمر قال سمعت النبيء ﷺ يقول: " يمحو الله ما يشاء ويثبت إلّا السعادة والشقاوة والموت". وروي مثله عن مجاهد. وعن عمر وابن مسعود ما يقتضي أن السعادة والشقاوة يقبلان المحو والإثبات.

والذي يلوح في معنى الآية أن ما في أم الكتاب لا يقبل محوا، فهو ثابت وهو قسيم لما يشاء الله محوه.

ويجوز أن يكون ما في أم الكتاب هو عين ما يشاء الله محوه أو إثباته سواء كان تعينا بالأشخاص أو بالذوات أو بالأنواع وسواء كانت الأنواع من الذوات أو من الأفعال، وأن جملة {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} أفادت أن ذلك لا يطلع عليه أحد.

{ **أم** } مستعملة مجازا فيما يشبه الأمّ في كونها أصلا لما تضاف إليه، فالأمّ هنا مراد به ما هو أصل للمحو والإثبات. فأم الكتاب هو علم الله تعالى بما سيريد محوه وما سيريد إثباته كما تقدّم.

{ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } [40]

عطف على { يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ } [39] باعتبار ما تفيده من إبهام مراد الله في آجال الوعيد ومواقيت إنزال الآيات، فبيّنت هذه الجملة أنّ النبيء ﷺ ليس مأمورا بالاشتغال بذلك ولا بترقّبه وإنّما هو مبلّغ عن الله لعباده والله يعلم ما يحاسب به عباده سواء شهد النبيء ﷺ ذلك أم لم يشهده.

{ **أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ** } جعل التوفّي كناية عن عدم رؤية حلول الوعيد بقرينة مقابلته بقوله { نُرِيَنَّكَ }. والمعنى: ما عليك إلّا البلاغ سواء رأيت عذابهم أو لم تره.

{ **بَعْضَ** } إيماء إلى أنّه يرى البعض. وفي هذا إنذار لهم بأنّ الوعيد نازل بهم ولو تأخر، وأنّ هذا الدين يستمر بعد وفاة رسول الله ﷺ، لأنّه إذا كان الوعيد الذي أمر بإبلاغه واقعا ولو بعد وفاته فبالأولى أن يكون شرعه. وقد أرى الله نبيه بعض ما توعّد به المشركين من الهلاك بالسيف يوم بدر ويوم الفتح ويوم حنين وغيرها من أيام الإسلام في حياة النبيء ﷺ ولم يُرِهِ بعضه مثل عذاب أهل الردّة، فإنّ معظمهم كان من المكذبين المبطنين الكفر مثل: مسيلمة الكذّاب.

{ **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** } {إِنَّمَا} للحصر، والمحصور فيه هو البلاغ لأنّه المتأخّر في الذكر من الجملة المدخولة لحرف الحصر، والتقدير: عليك البلاغ لا غيره من إنزال الآيات أو من تعجيل العذاب، ولهذا قدّم الخبر على المبتدأ لتعيين المحصور فيه.

{ **عَلَيْكَ الْبَلاغُ** } (على) مستعملة حقيقة في الإيجاب والإلزام.
{ **وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** } أي محاسبتهم على التكذيب. و(عَلَى) هنا مجاز في الوجوب لله بالتزامه به.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [41]

عطف على { وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ }،عقّبت بهذه الجملة لإنذار المكذّبين بأنّ ملامح نصر النبيء ﷺ قد لاحت وتباشير ظفره قد طلعت ليتدبّروا في أمرهم، وللاحتراس من أن يتوهّموا أنّ العقاب بطيء وغير واقع بهم. وهي أيضا بشارة للنبيء ﷺ بأنّ الله مظهر نصره في حياته وقد جاءت أشراطه، فهي أيضا احتراس من أن ييأس النبيء ﷺ من رؤية نصره، مع علمه بأنّ الله متمّ نوره بهذا الدين.
والاستفهام إنكاري، والضمير عائد إلى المكذّبين العائد إليهم ضمير { نَعِدُهُمْ }.
{ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** } الكلام تهديد لهم بإيقاظهم إلى ما دبّ إليهم من أشباح الاضمحلال بإنقاص الأرض، أي سكانها. والرؤية يجوز أن تكون بصرية. والمراد: رؤية آثار ذلك النقص، ويجوز أن تكون علميّة، أي ألم يعلموا ما حلّ بأراضي الأمم السابقة من نقص.
{ **الْأَرْضَ** } تعريف الجنس، أي نأتي أية أرض من أراضي الأمم. وأطلقت الأرض هنا على أهلها مجازا، كما في قوله تعالى { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } [يوسف: 82] بقرينة تعلّق فعل النقص بها، لأنّ النقص لا يكون في ذات الأرض ولا يُرى نقص فيها ولكنه يقع فيمن عليها.
وذهب كثير من المفسرين إلى أنّ المراد بـ { الْأَرْضَ } أرض الكافرين من قريش فيكون التعريف للعهد، وتكون الرؤية بصرية، ويكون ذلك إيقاظا لهم. وبنوا على ذلك أنّ هذه الآية نزلت بالمدينة وهو الذي حمل فريقا على القول بأنّ سورة الرعد مدنية، فإذا اعتبرت مدنية صحّ أن تفسّر الأطراف بطرفين وهما مكّة والمدينة فإنهما طرفا العرب، فمكّة طرفها من جهة اليمن، والمدينة طرف البلاد من جهة الشام، ولم يزل عدد الكفار في البلدين في انتقاص بإسلام كفارها إلى أن تمحضت المدينة ثم تمحضت مكّة له بعد يوم الفتح.
وأياما كان تفسير الآية وسبب نزولها ومكانه فهي للإنذار بأنّهم صائرون إلى زوال وأنّهم مغلوبون زائلون.
{ **وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ** } عطف على { أَوَلَمْ يَرَوْا } مؤكّدة للمقصود منها، وهو الاستدلال على أنّ تأخير الوعيد لا يدل على بطلانه، لأنّ المعنى: أنّ ما حكم الله به من العقاب لا يبطله أحد، وأنّه واقع ولو تأخر.

وإظهار اسم الجلالة بعد الإضمار لتربية المهابة، وللتذكير بما يحتوي عليه الاسم العظيم من معنى الإلهية والوحدانية المقتضية عدم المنازع، وأيضا لتكون الجملة مستقلة بنفسها لأنّها بمنزلة الحكمة والمثل.

{ **لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ** } في موضع الحال، وهي مصب الكلام إذ ليس الغرض الإعلام بأنّ الله يحكم إذ لا يكاد يخفى، وإنّما الغرض التنبيه إلى أنّه لا معقّب لحكمه. وأفاد نفي جنس المعقّب انتفاء كل ما من شأنه أن يكون معقّبا؛ من شريك أو شفيع أو داع أو راغب أو مستعصم أو مفتد.

المعقّب: الذي يعقب عملا فيبطله، مشتق من العَقِب، وهو استعارة غلبت حتى صارت حقيقة. وتقدّم عند قوله تعالى { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ } [11].

{ **وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } يجوز أن تكون عطفا على { وَاللَّهُ يَحْكُمُ } فتكون دليلا رابعا على أنّ وعده واقع وأنّ تأخّره وإن طال فما هو إلّا سريعٌ باعتبار تحقق وقوعه، ويجوز أن يكون عطفا على جملة الحال، والمعنى: بحكم تام وسريعا حسابه. ومآل التقديرين واحد.

الحساب: كناية عن الجزاء، و**السرعة**: العجلة، وهي في كل شيء بحسبه.

{ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ }[42]

لمّا كان قوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } [41] تهديدا وإنذارا. شُبّه عملهم بالمكر وشُبّه بعمل المكذّبين السابقين. وفي هذا التشبيه رمز إلى أنّ عاقبتهم كعاقبة الأمم التي عرفوها.

{ **فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً** } تفريع، والمعنى: مكر هؤلاء ومكر الذين من قبلهم وحلّ العذاب بالذين من قبلهم فمكر الله بهم وهو يمكر بهؤلاء مكرا عظيما كما مكر بمن قبلهم.

وتقديم المجرور للاختصاص، أي له لا لغيره، لأنّ مكره لا يدفعه دافع. وأكّد مدلول الاختصاص بقوله {جَمِيعاً} وهو حال من المكر.

{ **يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ** } بمنزلة العلّة لجملة { فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً } ، لأنّه لمّا كان يعلم ما تكسب كل نفس من ظاهر الكسب وباطنه كان مكره أشدّ.

{ **وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ** } أي سيعلم أن عقبى الدار للمؤمنين لا للكافرين، فالكلام تعريض بالوعيد. و{عُقْبَى الدَّارِ} تقدّم آنفا.

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}[43]

عطف على ما تضمنته جملة { وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [42] من التعريض بأنّ قولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ}[27] ضرب من المكر بإظهارهم أنّهم يتطلّبون الآيات الدالة على صدق الرّسول صلى الله عليه وسلم. وقد حكي قولهم بصيغة المضارع للدلالة على تكرّر ذلك منهم ولاستحضار حالهم العجيبة من الاستمرار على التكذيب بعد أن رأوا دلائل الصدق.

{ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } ولمّا كانت مقالتهم المحكيّة هنا صريحة لا مواربة فيها أمر الرسول ﷺ بجواب لا جدال فيه وهو تحكيم الله بينه وبينهم.

وقد أمر الرّسول ﷺ بأن يجيبهم جواب الواثق بصدقه المستشهد على ذلك بشهادة الصدق، من إشهاد الله تعالى وإشهاد العالمين بالكتب والشرائع. ولمّا كانت الشهادة للرسول ﷺ بالصدق شهادة على الذين كفروا بأنّهم كاذبون جعلت الشهادة بينه وبينهم.

وإشهاد الله في معنى الحلف على الصدق كقول هود - عليه السلام - { إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ } [هود: 54].

{ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } الموصول يجوز أن يراد به جنس من يتّصف بالصلة. والمعنى: وكلّ من عندهم علم الكتاب. وتعريف { الْكِتَابِ } تعريف للعهد، وهو التوراة. أي وشهادة علماء الكتاب. وذلك أنّ اليهود كانوا قبل هجرة النبيء ﷺ إلى المدينة يستظهرون على المشركين بمجيء النبيء المصدّق للتوراة.

ووجه شهادة علماء الكتاب برسالة محمد ﷺ، وجدانهم البشارة بنبيء خاتم للرسل، ووجدانهم ما جاء في القرآن موافقا لسنن الشرائع الإلهية ومفسّرا للرموز الواردة في التوراة والإنجيل في صفة النبيء ﷺ المصدّق الموعود به. ولهذا المعنى كان التعبير في هذه الآية بـ { مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} دون أهل الكتاب، لأنّ تطبيق ذلك لا يدركه إلّا علماؤهم. قال تعالى { أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرائِيلَ} [الشعراء:97].